

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله كما علمنا أنه محمد ، و صلى الله وسلام على ربه
وخاتم رسله سيدنا محمد "قريب"

فهذا عهد عمر بن الخطاب ، ومهيلة جهادى الاجتهادى
سرى فيه أنى هتفت كتاب الله ما وثقا منت لاستقبال فيضه الله
ولعل الكون قد عرفته هذه ايماننا بأديت واجب عرفاني
واسأل الله سبحانه أنه تكونه خواطرى هذه مفناح
خواطرى به يأتى بدي ، وكتاب الله لا تنقص عجب به
عن يريش الله الأرضه ربه عليها ، وحيثه نعلم
به الله ما الدهره له هذه .

وصينا الله ونم الوكيل ما

محمد متولى السقوى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل ..

بسم الله الرحمن الرحيم .. والحمد لله رب العالمين ..
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

خواطرى حول القرآن الكريم لا تعنى تفسيراً للقرآن .. وإنما هى هبات صفائية .. تخطر على قلب مؤمن فى آية أو بضع آيات .. ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر .. لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره .. لأنه عليه نزل وبه انفعل وله بلغ وبه علم وعمل .. وله ظهرت معجزاته .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التى تبين لهم أحكام التكليف فى القرآن الكريم وهى افعل ولا تفعل .. تلك الأحكام التى يثاب عليها الإنسان ان فعلها ، ويعاقب ان تركها .. هذه هى أسس العبادة لله سبحانه وتعالى .. التى أنزلها فى القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض .. أما الاسرار المكتنزة فى القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علم منها .. لأنها بمقياس العقل فى هذا الوقت لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلاً يفسد قضية الدين ، ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله فى العبادة الى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها الى شئ ..

والقرآن لم يأت ليعلّمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة وأسرار الوجود مكتنزة .. حتى تتقدم الحضارات ويتسع فهم العقل البشرى .. فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهماً لعطاءات القرآن

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط . . بل يطلبون من أنصارهم أن يبلغوا فيه ، ومعناها (يشوشرون عليه) . . ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكتهم وتلك هي طريقتهم الا خوفا مما يفعله القرآن في كسب النفس البشرية الى الايمان . . إن مجرد تلاوته تجذب النفس الكافرة الى منهج الله .



ولو تأخذ مثلاً قصة اسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. نجد أنه علم أن
أخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلما .. فأسرع اليهما ليبطش بهما
وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد .. فلما تدخلت زوجته فاطمة لحمايته .. ضربها حتى
سال منها الدم .. وعندما رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته فاطمة .. رقى قلبه
وحدث في قلبه انفعال بالرحمة بدلاً من انفعال الأيذاء .. فخرج العناد من قلبه
وملأه الصفاء .. فطلب من أخته صحيفة القرآن التي كانا يقرآن منها .. وقرأ من
أول سورة طه ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. ثم أسرع الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه .. ولذلك فإنه اذا خرج العناد والكفر من
القلب .. واستمع الانسان بصفاء الى القرآن دخل الايمان الى قلبه .

لقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه القرآن قبل ذلك ولم يسلم .. ولكنه
عندما رأى الدم يسيل على وجه أخته وتبدل انفعال الأيذاء في قلبه بانفعال الرحمة ..
استقبل القرآن بنفس صافية فامتلا قلبه بالايمان وأسرع الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم يعلن اسلامه .

ولذلك كان الكفار يحاولون إهاجة مشاعر الكفر في القلوب حتى لا يدخلها
القرآن .. لأنه لكي تستقبل الايمان يجب ان تخلص قلبك من الكفر أولاً .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم لأنه كلام الله .. فإن له تأثيراً خاصاً في النفس
البشرية .. حتى ان الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض ..
وكانوا يقولون إن له حلالة وإن عليه لطلاوة .. وإن أعلاه لمثمر .. وإن أسفله
لمفدق .. وأنه يعلم ولا يعلم عليه .. وكان هذا أول اعجاز لأن القرآن الكريم هو
كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند
عطاء القرآن وقت نزوله فيما استطاعت عقولهم أن تطيقه من اسرار الكون .. ومن
اسرار القرآن الكريم .. فلم نجد صحابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
معنى آيات الكون في القرآن .. أو عن عطاءات القرآن في اللغة .. فمثلاً لم يسأل
أحد عن معنى « ألم » .. أو « عسق » .. أو « حم » .. مع أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يستقبل كثيرين يؤمنون بكتاب الله .. وكثيرين يكفرون بما أنزل
الله .. وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله صلى الله عليه

(سورة الروم)



لو أن هذا القرآن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فما الذي يجعله يدخل في قضية كهذه ؟ لم يطلب أحد منه أن يدخل فيها .. وكيف يغامر رسول الله صلى الله عليه وسلم . في كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل .. بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين .. وماذا كان يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت وانتصر القرم مرة أخرى .. أو أن الحرب لم تحدث وتوصل الطرفان إلى صلح ؟ إنها كانت ستضيع قضية الدين كله .. ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل وهو الفاعل جاءت هذه الآية كمعجزة لغير العرب وقت نزول القرآن .. وحدثت المعركة فعلا وانتصر فيا الروم كما أخبر القرآن الكريم .

ولكن القرآن لم ينزل معجزة لفترة محدودة .. بل هو معجزة حتى قيام الساعة .. والقرآن هو كلام الله ، والكون هو خلق الله .. ولذلك جاء القرآن يعطى إعجازا لكل جيل فيما نبغوا فيه .. إذا أخذنا العلوم الحديثة التي اكتشفت في القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية .. نجد أن القرآن الكريم قد أشار إليها بإعجاز مذهل .. بحيث أن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن .. ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف آيات الله في الأرض .. ولا يفتر على هذا الإعجاز المذهل إلا الله سبحانه وتعالى .. اقرأ مثلا قول الحق تبارك سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَالْفَيْنَا فِيهَا رَوْسِي وَأَنْبَقْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْجٍ ۝۷ ﴾

(سورة ق)

والمد معناه البسط .. وعندما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى : « والأرض مددناها » .. لم يكن هذا يمثل مشكلة .. للعقول التي عاصرها نزول القرآن الكريم . فالناس ترى أن الأرض محدودة .. والقرآن الكريم يقول : « والأرض مددناها » .. وتقدم العلم وعرف الناس أن الأرض كروية .. وانطلق الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على هيئة كرة .. هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم والعلم .. نقول لهم أقال الله سبحانه وتعالى أي أرض تلك المبسوطة أو الممدودة ؟ .. لم يقل ولكنه قال الأرض على إطلاقها .. أي كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض امامك مبسوطة .

إذا نزلت في القطب الشمالي تراها مبسوطة .. وإذا كنت في القطب الجنوبي تراها

كلمة قرآن ساعة تسميها تفهم أنه يقرأ .. قرآن مصدر قرأ مثل غفر غفرانا ..
ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسماً بكلام موحى به من الله
سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى .. ويسميه الله تبارك
وتعالى كتاباً .. إذن هو قرآن إذا أخذنا أنه يقرأ .. وهو كتاب إذا أخذنا أنه
يكتب .. والقراءة تستلزم حافظاً والكتابة لا تستلزم حافظاً .. فالإنسان حين يقرأ
من كتاب ليس محتاجاً إلى الحفظ ، ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة .
يحفظ في الصدور ويسجل في السطور .. بحيث تستطيع في أى وقت أن تقرأ من
الكتاب

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۚ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ ﴿١٢٦﴾

ولكن أنظر الى الخواطر الايمانية يقدفها الحق سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين ليكمل منهجه . . هذه الآية لم يوجد من يحفظها الا خزيمة بن ثابت ، وعندما ثار الجدل حول تدوينها ، ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شهد له خزيمة فحسبه) (١) .

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أعطى مخزمية بن ثابت وحده نصاب شهادة رجلين .. وهذه لها قصة .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابي .. فاستتبعه النبي صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه أى ليعطيه ثمن الفرس .. فأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشى .. وأبطأ الأعرابي .. فطلق رجال (أى أخذ رجال) يعترضون الأعرابي ليساوموه فى الفرس دون أن يعرفوا

(۱) رواه البخاري وأحمد والنسائي والترمذي وقال : حسن صحيح .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أوليس ابتعته منك ؟ .. فقال الأعرابي ما يبعثكه (أى ما بيعته لك) .. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلى قد ابتعته منك .. فقال الأعرابي هلم شهيدا .. أى ائتني يشاهد .. فقال خزيمه بن ثابت أنا أشهد أنك بايعته (أى بيعته له) .

واذا أردنا أن نعرف القرآن . . فانه لابد أن يخرج عن مقاييس البشر . . فالناس حين يُعرفون الأشياء يقولون : حده كذا . . ورسمه كذا . . الى آخره . . ولكننا كي نعرف القرآن الكريم نقول ان القرآن هو ابتداء من قوله تعالى :

(فائحة الكتاب)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ④
الْخَنَّاسِ ⑤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑥ مِنَ الْخِثَّةِ وَالنَّاسِ ⑦﴾
(سورة الناس)

أى أنه من أول سورة الفاتحة .. الى آخر سورة الناس .. على أن نستعيد بالله من الشيطان الرجيم .. قبل أن نقرأ أى آية من القرآن .. كما علمنا الحق سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

(سورة النحل)

لكن العلماء ارادوا التخفيف على الناس في تعريف القرآن الكريم .. فقالوا هو كلام الله .. نزلهُ على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى والاعجاز ليعين للناس منهج الله . والقرآن يتفق مع المناهج التى سبقته ، ولكنه يضيف عليها ويصحح ما حذف منها لأنه موحى به من الله .. فالتوراة والانجيل والزبور من الله .. ولكنها تحمل المنهج فقط .. اما القرآن الكريم .. فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

التوراة كانت منهج موسى وكانت معجزته العصا .. والانجيل منهج عيسى ومعجزته ابراء الاكمه والابصر باذن الله .. اذن بالنسبة للرسل السابقين .. كانت المعجزة شيئاً والمنهج شيئاً آخر ، ولكن القرآن تميز أنه المنهج والمعجزة معا .. ذلك ان المناهج التى ارسلها الله على الرسل السابقين انزلها على نية تغييرها ..

ولكن القرآن الكريم .. نزل على نية الثبات الى يوم القيامة . ولذلك كان لابد ان يؤيد المنهج بالمعجزة حتى يستطيع اى واحد من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام ان يقول محمد رسول الله وتلك معجزته .. ولكن معجزات الرسل السابقين حدثت وانتهت .. لأنها معجزات حسية .. من رآها آمن بها .. ومن لم يرها فهو غير مقصود بها . لأنها حدثت لتثبيت المؤمنين .. الذين يتبعون الرسول .. فمعجزة عيسى عليه السلام لا يمكن ان تعود الان من جديد .. وعصا موسى التى شقت البحر لا يستطيع اتباع موسى ان يأتوا بها الان ليقولوا هذه معجزته ..

اذن فالرسل السابقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان لكل منهم منهج ومعجزة . ولكن كليهما منفصل عن الآخر .. فالمنهج عين المعجزة حالة مفقودة في الرسائل كلها .. ولكنها في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم امر موجود يمكن ان

يشار اليه في اى وقت من الاوقات ..

ونظرة واحدة فيها قال الله سبحانه وتعالى في كونيّات الحياة التى اتاحت للعقل البشرى في القرن العشرين .. نجد أن القرآن الكريم يشير اليها لأن العمر في الرسالة القرآنية الى ان تقوم الساعة .. ومادام الى ان تقوم الساعة .. يظل القرآن معجزة حتى قيام الساعة .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۚ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٤﴾

(سورة فصلت)

اى أن القرآن له عطاءان في الاعجاز .. العطاء الاول آيات في الافاق ، وهذه هى الآيات الكونية .. والعطاء الثانى « آيات في أنفسهم » وهذه هى الآيات التى تتعلق بأسرار الجسد البشرى .. وقول الحق : « حتى يتبين لهم انه الحق » اى أن القرآن هو الحق .. ولذلك يمكن ان نقول ان آيات الكون ستأتى موافقة لآيات القرآن الكريم .. اى ان الله سبحانه وتعالى وضع في القرآن الكريم من آيات الكون وأسواره وعن الجسد البشرى وتكوينه آيات يمكن أن يعطيها المؤمنين وغير المؤمنين ..

ولقد اعطى الله تبارك وتعالى من آيات الكون المؤمنين .. فبرع المسلمون الاوائل في العلوم .. مثل جابر بن حيان الذى وضع اساس علم الكيمياء .. وابن سينا الذى وضع اساس علم الطب والفلك والرياضيات .. وابن النفيس الذى اكتشف الدورة الدموية ووصفها وصفا علميا دقيقا .. وابن الهيثم الذى برع في الرياضيات والطبيعات والطب .. وكان اول من شرح تركيب العين وكيف تعمل وأبو القاسم الذى نبغ في العمليات الجراحية وغيرها ..

ثم أعطى الله سبحانه من آيات الكون غير المؤمنين مما نشهده الآن من نهضة علمية في دول الغرب .. وذلك يفسر قوله تبارك وتعالى :

« حتى يتبين لهم انه الحق » اى أن آيات الكون .. ستجعل المنكرين للقرآن

الكريم يعترفون انه الحق . . ذلك ان المؤمن يعرف ان القرآن هو الحق . . ولكن المنكر للإسلام يكشف الله له آية في امر معجز . . يبين له ان هذا الدين حق . ولقد حدث اخيرا في مؤتمرات الاعجاز العلمي للقرآن الكريم ان اعلن عدد من العلماء اعتناقهم للدين الاسلامي .

واذا أردنا ان نعرف شيئا عن معجزة القرآن فانظر ماذا قال عن الكون وكروية الارض ودورانها حول نفسها . . وما يحدث في اعماق البحار وغير ذلك مما لم يكشف الا في القرن العشرين . . واذا اردنا ان نعرف الاعجاز في القرآن في قوله «وفي انفسهم» فلننظر الى مراحل تكوين الجنين ومراكز الاعصاب في الجسد البشري وتكوين الاذن والعين وغير ذلك من اعجاز لا يمكن ان يتحدث عنه بهذه الدقة إلا خالفه . . وهذا ما شهد به علماء نبغوا في علومهم بينما هم منكرون للإسلام وللقرآن ! وهذه الحقائق العلمية التي أشار اليها القرآن الكريم لا يستطيع أحد أن ينكرها الآن لانها اصبحت ثابتة الوجود .

والقرآن حين يتحدى فإنه لا يمكن أن يأتي بمعجزة لا يعرف عنها الخلق شيئا . . فانت لا تتحدى كسيحاً في سرعة المشي . . ولا شيخاً كبيراً ضعيفاً في حمل الاثقال . . ولكنك اذا تحدت فلا بد ان تتحدى مجموعة من الناس فيما نبغوا فيه . .

ولذلك اذا قلنا ان القرآن جاء يتحدى العرب في اعجاز الاسلوب واللغة . . فهذه شهادة للعرب انهم نبغوا في دنيا الكلمة . . وهنا عندما يغلبهم القرآن ويعجزهم يكون هذا هو التحدي . . تحد فيما نبغوا وتفوقوا فيه . . ولذلك كان لابد ان يكون العرب عندهم نبوغ فطري في الكلمة . . ويكون الاداء الجيد المميز للكلمة مألوفاً لديهم شعرا ونثرا وخطابة .

وحين جاء القرآن الكريم يتحدى غير العرب . . تحداهم في آيات الكون والخلق ولذلك نجد مثلا قول الحق سبحانه وتعالى عن اصحاب النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

هذه الآية الكريمة عندما نزلت فهمت بأنه كلما احترقت الجلود تجددت ، وعندما توصل العلم الحديث الى ان مراكز الاعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة بحيث انه اذا احترق الجلد ضاع الاحساس بالألم ، كانت هذه معجزة جديدة للدنيا كلها في عصرنا . . يريد بعض الناس ان يتخذ العلم إلها من دون الله . وهكذا كان الاعجاز المتجدد الذي يجعل القرآن معجزة خالدة . . وهذا دليل جديد على ان القرآن من عند الله وانه كلام الله .

نأتي بعد ذلك الى معجزة اخرى في اختيار رسول الله عليه الصلاة والسلام واعداده للرسالة . . اننا إذا تتبعنا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد ان الله تبارك وتعالى اختاره أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك أجرى عليه معجزات كلها تنطق بصدق رسالته صلى الله عليه وسلم . . أولها انه لم يشتهر عليه الصلاة والسلام انه نبغ في شعر أو نثر مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي . . ومن هنا كان حظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاغة حظا عاديا دون نبوغ .

ومع ذلك فقد جاءت رسالته عليه الصلاة والسلام تتحدى قومه في البلاغة وفي اللغة . ولو انه صلى الله عليه وسلم كان مشهورا بالشعر أو النثر أو الخطابة لقالوا ان القرآن عبقرية ادائية لمواهب كانت موجودة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ الصغر . . ومواهب الناس عادة تظهر قبل سن العشرين أو الثلاثين اذا كانت الموهبة متأخرة ، ولكنها لا تظهر فجأة على الانسان في سن الأربعين ، ولا توجد عبقرية تتأخر أبدا حتى الأربعين . . ولكن الناس فوجئوا بان محمدا عليه الصلاة والسلام الذي ما خطب وما كتب وما قال شعرا يأتي بقرآن يعجز عنه أشهر البلغاء . . واكثرهم موهبة في فن الكلام . . من اين ان بهذا الكلام المعجز الذي تحدى به الانس والجن وهو في هذه السن ؟!

بعض الناس يدعون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عنده الاعجاز اللغوي . . وأخفاه عن الناس حتى سن الأربعين وبعد ذلك اظهره . . نقول ان هذا الكلام لا يتفق مع العقل . . لأننا نعيش في عالم أغيار يموت الناس فيه قبل سن العشرين وقبل سن الثلاثين وقبل سن الأربعين . . فمن الذي اخبر محمدا عليه الصلاة والسلام انه لن يموت قبل سن الأربعين حتى يكتتم هذه العبقرية الى هذه السن . . لقد مات أبوه وهو في بطن امه . . وماتت امه وهو طفل صغير . . هذه

ولذلك عندما جاء الكفار وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغير القرآن كما يروى لنا القرآن الكريم في قوله تعالى :

(سورة يونس)

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ ۚ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

(سورة يونس)

الله سبحانه وتعالى يعلم رسوله الكريم أن يرد على الكفار أنه عاش معهم أربعين سنة قبل الرسالة . . لم يشتهر بينهم بالخطابة والشعر أو البلاغة . . فلو أنهم فكروا بعقولهم لعرفوا أن هذا القرآن ليس من عند رسول الله ، بل من عند الله . ثم من هذا الذي ينسب إليه الكمال فيرفضه ؟ . . ويقول هذا ليس من عندي . . مع أن الناس تدعى كمالات الغير . . فكم من إنسان رأى إعجاب الناس بعمل من الأعمال . . لم يعرف صاحبه فنسبه إلى نفسه . . بل إن الناس تتصارع على نسب

الأشياء الجيدة لنفسها . . . وكم رأينا نزاعاً أمام القضاء بين أشخاص مختلفين كل منهم يدعى ملكيته لعمل جيد .

ثم تأتي لفظة أخرى : رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يقرأ ولم يكتب . . . هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة تختلف بعضها عن بعض تماماً . . . وهي أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الأحاديث القدسية وأسلوب الأحاديث النبوية . . . لا توجد عبقرية في الدنيا من يوم أن خلقت إلى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب لكل منها طابع مميز لا يشابه مع الآخر . . . كيف يمكن أن يفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي . . . بحيث يعطى كلا منها طابعاً وأسلوباً يميزه عن الآخر . . .

إن لكل شخص أسلوبه الذي يتميز به . . . وأنت إذا كنت مطلعاً في علوم اللغة والأدب . . . فبمجرد أن تقرأ الكلام تقول هذا كلام فلان ، لأن لكل شخص منا أسلوباً يميزه . . . فكيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم كلامه . . . فيقول هذا قرآن وهذا حديث قدسي وهذا حديث نبوي .

إذن فاختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية . . . أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية ليست من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . لأن الشخصية الأسلوبية لأي إنسان هي شخصية مميزة . . . ولا يمكن أن يتفعل أحد بأحداث الحياة . . . فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماماً عن الأسلوب الآخر . . . أو يكتب اليوم بأسلوب وغداً بأسلوب وبعد غد بأسلوب . . . ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول . . . أنه إذا قرأ أحدهم القرآن نقول هذا قرآن ، وإن تلا أحدهم حديثاً قدسياً نقول هذا حديث قدسي . . . وإذا قال أحدهم حديثاً نبوياً قلنا حديث نبوي . . . ولكل إنسان منا شخصية أسلوبية واحدة . . . إذا حاول أن يخرج منها فأنها تغلبه . . . والفروق الهائلة في الأساليب بين القرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية أكبر دليل على صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

واحترار الكفار ماذا يفعلون . . . ولم يجدوا ثغرة من منطق ينفذون منها . . . فإذا



قالوا ؟ .. قالوا ساحرا !! وكان الرد ببساطة ان المسحور ليست له ارادة مع الساحر .. بحيث يستطيع دفع السحر عن نفسه ، وأن الساحر يسحر من أمامه رغما عن إرادتهم .. فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحرا فلماذا لم يسحركم انتم حتى تؤمنوا به .. وبأى شيء رددتم السحر عن انفسكم ؟ .

ان ادعاءكم هذا يكذب حججتكم لأن كونكم الآن جالسين تقولون ساحر .. فمعنى ذلك انه لم يسحركم .. ولو كان ساحرا حقيقيا لأجبركم بسحره على أن تتبعوه . وقالوا مجنون .. نقول لهم ان الجنون عمل بغير رتبة . بمعنى أنك لا تستطيع أن تتنبأ بما يفعله المجنون في اللحظة القادمة . فقد يجلس يتحدث معك وبعد دقيقة واحدة يضربك .. وتجدد يبكى وبعد ثوان قليلة يضحك .. ورد الله تبارك وتعالى عليهم :

﴿ تَبَّ ۖ وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝۱ مَا أَنتَ بِمُجْنُونٌ ۝۲ وَإِنَّكَ لَأَجْرًا غَيْرَ تَمْنُونُ ۝۳ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝۴ ﴾

(سورة القلم)

والشهادة من الله بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم .. لا تتصادم مع ما يعرفه الكفار عنه قبل الرسالة .. فهو بشهادتهم كان معروفا بالصدق والأمانة والخلق الحسن وكانوا يلقبونه بالأمين .. وكانوا يأمنونه على أموالهم وكل شيء له قيمة .. ولتعرف كيف يتناقض الكفار مع انفسهم نقول لهم كيف تأمنون انسانا مجنونا على أغلى ما تملكون .. هل هذا يتمشى مع العقل .. أيذهب الانسان بأغلى ما عنده ويضعه عند رجل مجنون ؟ .. طبعا مستحيل لا يمكن ان يكون المجنون على خلق عظيم .

وقالوا شاعر وكاهن .. فرد القرآن الكريم بقوله تبارك تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝۱ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝۲ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝۳ ﴾

(سورة الحاقة)

وقولهم شاعر مردود عليه .. بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل شعرا في حياته .. والمواهب لا تأتي فجأة بل لابد ان تصقلها التجربة والخطأ .. تماما كالذى يقود السيارة .. عندما يبدأ لابد ان يكون معه انسان يعرف قيادة السيارة .. ويعلمه فيخطيء ويصيب .. ثم بعد ذلك يقود السيارة آليا ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت عنده ملكة الشعر ولا دربه أحد عليه .. أما قولهم كاهن فالانسان ينسى بمرور الوقت ، لذلك قيل اذا كنت كذوباً فكن ذكورا .

واذا أردنا ان نعرف الحقيقة فأننا نسأل الانسان على فترات .. فإن كان كاذبا فإنه يتخبط في أقواله .. ورسول الله صلى الله عليه وهو أسمى لا يقرأ ولا يكتب .. كان ينزل عليه الوحي بالآيات فيتلوها على أصحابه .. ثم يؤذن للصلاة بعد ذلك بساعات .. فيتلو رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة .. الآيات التي نزلت عليه دون ان يتغير منها حرف واحد .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

« قليلا ما تذكرن » .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان يأتي بالقرآن من عنده لنسى ولغير وبدل .. لان الذاكرة لا يمكن ان تستوعب بنفس الالفاظ ما قالته . ولو انك جئت بانسان وطلبت منه ان يتحدث في موضوع معين وسجلته له .. ثم طلبت منه ان يعيد بعد نصف ساعة ما قاله .. لا يمكن ان يأتي بنفس الكلام أو بنفس الالفاظ أو بنفس الترتيب .

والحق سبحانه وتعالى يعطى رسله منهجه بالوحي .. ويكون عطاؤه غيبا لأن الله غيب .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٌ ﴾

(سورة الشورى)

ذلك لأن التكوين البشرى لا يمكن أن يستقبل من الله مباشرة .. والوحي اعلام

بخفاء ، ولكي نقرب المعنى من الاذهان .. نقول أنك لو كنت لا تريد ان تقابل ضيفا ثقيلا فانك تتفق مع خادمتك على اشارة معينة .. فاذا جاء وأخبرك أمام الحاضرين بأن فلانا وصل .. تعطيه اشارة فلا يدخله الى المنزل .. هذه الاشارة المتفق عليها .. لا يفهمها أحد من الحاضرين ولا يعرف معناها ..

هذا هو معنى الوحي اعلام بخفاء .. لا يفهمه أحد الا الموحى ومن يوحى اليه .. والوحي مادام اعلاما بخفاء فانه يقتضى موجها .. وموحى اليه وموحى به ..

ولقد أوحى الله للرسول وأوحى الى غير الرسل .. فأوحى للملائكة وإلى أم موسى وإلى الخواريين وللنحل وللأرض .. وهناك وحى من الشيطان لأوليائه هذا هو الوحي اللغوي .. أما الوحي الشرعي فيكون وحيا من الله لرسوله . وكان وحى الله لموسى عليه السلام ان كلمه من وراء حجاب .. وكان وحى الحق جل جلاله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بأن أرسل له جبريل عليه السلام .. ويحيى الملك بالوحي فيسمع رسول الله عليه الصلاة والسلام صلصلة الجرس تنبئها .. ويتم اللقاء بين جبريل والرسول فتتغير كيماءات جسد الرسول .. حتى انه حينما جاءه الوحي لامست ركبته الشريفة ركبة صحابي كان يجلس بجواره فأحس كأنها جبل .. واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبا الناقة .. فتنام أو تبرك الناقة على الأرض ولا تستطيع السير .. وكانت لفنة اخرى من الله تبارك وتعالى .. انه لا تناقض مطلقا بين القرآن وبين العلم .. فاذا جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم .. فالقرآن على حق والنظرية باطلة .. وهناك نظريات أخفاها الله سبحانه وتعالى عنا .. ولكن اخفاه لها لا يضربنا بشيء .

فالشمس يتفجع بها كل الناس ولا يعلم حقيقتها أحد .. وكذلك بعض الظواهر الكونية الاخرى .. فكل ما أخفاه الله عنا هو جهل لا يضر ولا يقلل انتفاعنا بالكون ..

والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. ولقد حمل منهج الله للبشر ليحمي حركة الانسان الاختيارية في الكون .. ومادام الانسان يلتزم في حياته بالقرآن الكريم فانه يستمتع بالجمال في الكون .. اما اذا خالفه فيكون الانسان قد سعى الى شقائه . ولقد ظهرت الداءات والامراض في المجتمعات عندما خالف

الانسان منهج السماء ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ (٨٢)

(سورة الاسراء)

لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة .. لأن الرحمة تقى الناس من أى شر قادم .. ولكن لا بد من الشفاء أولاً .. وعندما نزل القرآن كانت الامراض والداءات تملأ المجتمعات .. الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الانسان للانسان وغير ذلك من امراض المجتمع .. فجاء الاسلام أولاً ليشفى هذه الامراض اذا اتبع منهجه .. ثم بعد ذلك تأتى الرحمة وتمنع عودة هذه الداءات . فاذا حدثت غفلة عن منهج الله .. جاءت الداءات والامراض .. فاذا عدت الى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء .



وابليس يأتي دائما من الباب الذي يرى فيه المنهج ضعيفا . . فإذا وجد انسانا متشددا في ناحية يأتي له من ناحية اخرى . فلو أن العبد المؤمن متشدد في الصلاة . . يحافظ عليها ويؤديها في أوقاتها ، جاءه ابليس من ناحية المال . يوسوس له ألا يخرج الزكاة لأنها ستؤدي به الى الفقر . ويوسوس له أن يأكل حقوق الناس . . مدخلا السرور الى نفسه بالوهم بأنه سيصبح غنيا آمنا مطمئنا على غده . . وهذا كذب .

والحقيقة هي التي رواها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (ما نقص مال من صدقة)^(١) والصدقة هي التي تكثر المال وتضع فيه البركة فيزداد وينمو .. والمال هو مال الله ينتقل من يد الى يد في الدنيا .. ثم يموت الانسان ويتركه .. ولكن ابليس يستغل غفلة الناس عن هذه الحقيقة ليدفعهم الى المال الحرام .. فاذا كان الانسان متشددا من ناحية المال .. جاءه من ناحية المرأة فيظل يزين له امرأة خليعة .. يوسوس له حتى يسقط في الزنا .. وإن كان قويا في هذه النواحي كلها .. زين له ابليس الخمر أو مجلس سوء أو النجاسة .. المهم أن ابليس يظل يدور حول نقط الضعف في الانسان ليسقطه في المعصية .

ولذلك فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، إنما تجعل الله سبحانه وتعالى يقوى نقط الضعف فيك . فلا يستطيع الشيطان أن ينفذ اليك وأنت تقرأ القرآن ليضع في رأسك هواجس تلهيك عن هذه القراءة .. ذلك أن عطاء الله في القرآن الكريم يساوي بين جميع الخلق .. فعطاء القرآن متساو ولكن كل انسان يأخذ على قدر ايمانه .. فالقرآن يقرأ والناس تسمع . ولكن هل يتقبل الجميع القرآن تقبلا متساويا ؟ نقول لا .. فقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ ﴾^(١٦)

(سورة محمد)

أي أن القرآن لم يؤثر فيهم .. ولكنه أثر في المؤمنين الذين استمعوا اليه مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَغَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ؕ لَعَجَبًا وَّعَرَبِيًّا قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٍ لِّالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴾^(١٧)

(سورة فصلت)

(١) رواه احمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة ، وثمة الحديث : « وما زاد الله عبدا بغر إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه » .

فالقرآن عطاؤه للجميع ولكن المهم من يستقبله . . وكيف يستقبله عندما يتلى عليه . . والله سبحانه وتعالى يريدنا عندما نقرأ القرآن . . أن نبعد الشيطان عن أنفسنا قبل أن يبعدنا هو عن منهج الله وعن آياته . . وبما أننا لا نرى الشيطان وهو يرانا . . ولا نعرف أين هو بينما هو يعرف أين نحن . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْقَهُنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أُتْرِجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَتَزَعُّ عَنْهُمَا لِباسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهَمَآ إِنَّهُ يُرِيْرُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فلا بد من أن نستعيد بقوة نستطيع أن تقهر الشيطان وتدمره . الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نستعيد به وأن نلجأ إليه . لأنه هو القادر على أن يحمينا . . ويصفي قلوبنا ونفوسنا من همزات الشياطين . فيحسن استقبالنا للقرآن الكريم . . لأنه إذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن . . فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك وتكون لك هدى ونورا .

والشيطان قد قضى الله سبحانه وتعالى في أمره . فطرده من رحته وجعله رجيا مبعدا . . والشيطان يعرف أن مصيره النار . ويعتقد أن آدم هو السبب . . لأن بداية المعصية كانت رفض إبليس طاعة أمر الله في السجود لآدم . . وقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت معصية إبليس في القمة . . لأنه رد الأمر على الأمر . . وقال لن اطيع ولن

أسجد لآدم لأن خير منه .. هو من طين وأنا من نار .. فكأنه لم يرض بحكم الله سبحانه وتعالى وأراد أن يعدله .. وهذه معصية في القمة .. جعلت الله تبارك وتعالى يطرد إبليس من رحمته .. ويصفه بأنه رجيم .. وذلك حتى نعرف أن مصيره النار وأن الله لن يغفر له .

وبدا إبليس بغواية آدم عليه السلام .. فآدم عاش في جنة تعطيه مقومات حياته بلا تعب وبلا عمل .. وكان في الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات وهي حلال لآدم وحواء يأكلان منها ما يشاءان .. ماعدا شجرة واحدة حرمها الله عليهما .. وكانت هذه الشجرة هي بداية الخطيئة .. بدأ إبليس يفرى آدم وحواء على المعصية .. كيف ؟ .. حاول اقناعهما بأن عدم الأكل من هذه الشجرة .. سيحرمهما من خير كبير .. واقرأ قول القرآن الكريم :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ ۝١٠﴾

(سورة الأعراف)

وفي إغواء آخر :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَهِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَآبِيَن ۝١١﴾

(سورة طه)

وهكذا نعرف أن إبليس يأتي للإنسان من أكثر من زاوية .. لذلك كانت الزاوية الأولى هي أن هذه الشجرة من يأكل منها .. يكون ملكا أو يكون خالدا .. وكان الاغواء الثاني أن هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود ملكاً لا ينتهى .

إذن فإبليس يصور للإنسان .. أن ما منعه الله عنه هو الخير .. وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ .. لقد أكل آدم وحواء من الشجرة .. فلم يخلدا ولم يأت لهما ملك لا ينتهى . بل ظهرت عورتهما وعرفا أن إبليس كان كاذبا .. وأن الله

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٤٩﴾ ﴾

إذن فالله سبحانه وتعالى . يَبَيِّنُ لنا طريق الهدى وطريق المعصية . . ثم ترك لنا ان
نختار طاعة الله ورحمته . . أو معصية الله وعذابه . . ولم يعطنا الحق تبارك وتعالى
هذا الاختيار الا في فترة محدودة هي حياتنا في الدنيا . . فعندما يحتضر الانسان تحمده
بشريته . . ويصبح لا اختيار له . كما أن الله جل جلاله لم يعطنا الاختيار في كل
أحداث الدنيا . . بل أعطاه لنا في المنهج فقط في الطاعة أو المعصية .

ولكى نتقى الشيطان فى حياتنا . شرح لنا القرآن الكريم كيف سيغوى ايليس بنى آدم . . . واقرأ القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَمَا آخِرُ بَنِي لَاقِدُنَّ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١٦)

(سورة الاعراف)

أى أن إبليس لا يجتهد في اغواء من باع نفسه للمعصية .. وانطلق بخالف كل ما أمر به الله .. فالتفكس الأماره بالسوء لها شيطانها .. وهى ليست محتاجة الى اغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء .. ولذلك فإن إبليس لا يذهب الى الخمارات وبيوت الدعارة .. ويبذل جهدا فى اغواء من يجلسون فيها .. لأن كل من ذهب الى هذه الأماكن .. هو من شياطين الانس .. ولكن إبليس يذهب الى مهابط الطاعة وأماكن العبادة .. هؤلاء يبذل معهم كل جهده وكل حيله ليصرفهم عن عبادة الله ، ولذلك لا بد أن ننتبه الى أن إبليس لم يقل لأقعدن لهم على الطريق المعوج ..

فالتطريق المعوج بطبيعته يتبع الشيطان .. فإبليس يريد أهل الطاعة .. يزين لهم المعصية ويغريهم بالمال الحرام .
القرآن الكريم يقول :

﴿ ثُمَّ لَا يَنْتَهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٧ ﴾

(سورة الأعراف)

هذه هي جهات الغواية التي يأتي منها إبليس .. من بين أيديهم أي من أمامهم وهذه هي الجهة الأولى . ومن خلفهم أي من ورائهم وهذه هي الجهة الثانية .. وعن أيمنهم أي من اليمين وهذه هي الجهة الثالثة .. وعن شمائلهم أي من الشمال وهذه هي الجهة الرابعة .. وكلنا نعلم أن الجهات ست وليست أربعا .. فما هما الجهتان اللتان لا يأتي منهما الشيطان ؟ .. هما فوق وتحت .. هرب إبليس من هاتين الجهتين بالذات .. ولم يقل سأتى لهم من فوقهم أو من تحتهم ، لأنه يعلم أن الجهة العليا تمثل الفوقية الإلهية .. وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية حينما يسجد الإنسان لله .. ولذلك ابتعد إبليس عن هاتين الجهتين تماما .

ومن العجيب أنك إذا نظرت إلى أبراق الاحاد في كل عصر .. تجدها تأتي من الجهات التي يأتي منها الشيطان .. يقولون تقدمي جهة الامام .. ورجعي جهة الخلف ويميني جهة اليمين ويساري جهة اليسار .. نقول لهم نحن لسنا في أي جهة من هذه الجهات . لا تقدميين ندعو إلى التحلل والفجور .. ولا رجعيين نقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا . ولا يساريين نشكر الدين وتناصر الكفر .. ولا يمينيين نؤمن بالرأسمالية واستغلال الإنسان .. ولكتنا أمة محمدية فوقية . كل أمورنا من الله . ومادامت أمورنا من الله سبحانه وتعالى .. فنحن لا نخضع لمساؤلنا . ولكتنا نخضع لله العلي القدير .. ومادمت نخضع لأعلى منك . فلا ذلة أبدا بل عزة ورفعة . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥٨ ﴾

(سورة المنافقون)



فماذا عصى وطرد من رحمة الله لماذا يكون هو العاصي الوحيد ؟ . . لماذا لا يكون الكل عاصيا ؟ . . وإذا كانت معصية الشيطان بسبب عدم السجود لآدم . فلماذا لا يأخذ أولاد آدم معه إلى النار ؟ انتقاما منهم ومن أبيهم . بعض الناس يقول . . إبليس عصى وآدم عصى . والله سبحانه وتعالى طرد إبليس من رحمته وغفر لآدم . . نقول إن هناك فرقا بين معصية ومعصية . معصية إبليس كانت معصية في القصة . . ترد الأمر على الأمر . تقول لا . . لن أسجد ولن أطيع لأنني من نار وهو من طين . . فكأنه رد الأمر على الأمر . . أما آدم فقال : يا رب أمرك الحق . . وقولك الحق ومنهجك الحق . . ولكنني ضعيف لم استطع أن أحمل نفسي على الطاعة . . فسامح ضعفي يا رب ، ولذلك شرع له الله سبحانه وتعالى التوبة . وعلمه كلمات ليتوب عليه .

إذن فهناك فرق بين معصيتين . معصية تقول لن أطيع لأنني خير منه . . ومعصية يعترف فيها العبد بالخطأ والضعف ويتوجه إلى الله طالبا التوبة والغفران . وبرغم أن الله سبحانه وتعالى قد أبلغنا في القرآن الكريم أن الشيطان عدو لنا . . في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ① ﴾

(سورة فاطر)

فإن الإنسان لا يحنط . . ولذلك في كل مرة نقرأ فيها القرآن . . يريد الله سبحانه وتعالى . . أن نستعيز به من الشيطان الرجيم . . حتى إذا كان الشيطان قد مسنا أو غلبنا في حدث من أحداث الحياة . . فإن الله سبحانه وتعالى يعده عنا ونحن نقرأ القرآن . . حتى تصفو قلوبنا ونكون قد أبعدنا الشيطان . . وما حاول أن يوسوسه لنا ليبعدنا عن المنهج .

عندما نستعيز بالله من الشيطان الرجيم . . فهناك مستعاذ به وهو الله تبارك وتعالى من الشيطان . . والشيطان من خلق الله وأنت من خلق الله . فمن الممكن أن ينفرد خلق الله بخلق الله ، ويكون القوى بقوته . أما إذا التحم أحدهما بخالقه فالثاني لا يقدر عليه . وأنت إذا تركت نفسك للشيطان . . انفرد بك . ولذلك تستعيز بالله الذي خلقك وخلق الشيطان . . فيعينك عليه . . ولذلك حين نجد قوما مؤمنين وقوما كافرين . . إن ظل المؤمنون موصولين بربهم . لا يهزمهم الكفار

والحق تبارك وتعالى .. يريدك حين تقرأ القرآن . أن تصفى جهاز استقبالك
تصفية تضمن حسن استقبالك للقرآن .. بأن تبعد عنك نزع الشيطان .. حيث
تستقبل القرآن بصفاء .. وتأخذ منه كل عطاء . فإذا استعدت بالله من الشيطان
الرجيم . تكون في جانب الله فلا يأتيك الشيطان أبدا .. ولذلك سيأتى الشيطان يوم
القيامة ليقول لمن أغواهم كما يروى لنا القرآن الكريم :

(سورة ابراهيم)

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمنع عنا هذه الوسوسة .. ونحن نقرأ القرآن ..
ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الشيطان .. وهو الذي أعطاه القدرة على
أن يوسوس للإنسان .. لماذا ؟ .. لأنه لو أن الطاعة وجدت بدون مقاوم ..

لا تظهر حرارة الايمان . . ولا قوة الاقبال على التكليف . . وانما عندما يوجد اغراء والحاح في الاغراء . . وانت متمسك بالطاعة . . فذلك دليل على قوة الايمان . . تماما كما أنك لا تعرف قوة امانة موظف إلا إذا اغريته برشوة . . فلو أنه لو لم يتعرض لهذا الاغراء . . فلن تختبر امانته أبدا . . ولكن إذا تعرض للاغراء . . وتمسك بأمانته ونزاهته فهذه هي الامانة . .

والله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار لأنه يريد من خلقه من يطيعه وهو قادر على معصيته . . ويؤمن به وهو قادر على عدم الايمان . . لأن هذه تثبت صفة المحبوبة لله . . الخلق المقهور لله يأتي له قهرا . . لا يقدر على المعصية . . وهذا يثبت القهر والجبروت لله . . ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد خلقا يأتيه عن حب . . وقد يكون هذا الحب من أجل عطاء الله في الآخرة ونعيمه وجنته . . فلا يرضى الله تعالى عباده بها . . وقد يكون عن حب لذات الله . . لذلك يقول بعض اهل الصفاء في معنى الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَتَمِّاءَ إِلَهُكُمْ إِنَّهُ وَاحِدٌ قَسَمَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝١١٠﴾

(سورة الكهف)

يقولون إن الجنة أحد . . لأن الحق سبحانه وتعالى قال «من كان يريد لقاء ربه» . . أي الأنس بلقاء الله . . فإن كنت تعمل للذات وليس للعطاءات . . فانك تكون في أنس الله يوم القيامة . . والذي عمل للجنة سيأخذها . . والذي عمل لما هو فوق الجنة يأخذه .

أو لم يخلق الله تعالى جنة ونارا ، أما كان اهلا لأن يعبد ؟! ولقد قالت رابعة العدوية : «اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك طمعا في جنتك فاحرمني منها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك خوفا من نارك فارسلني فيها ، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد» .

والحق سبحانه وتعالى : يريدك عندما تقرأ القرآن . . أن تصفى نفسك له سبحانه وتعالى . . وهو جل جلاله يعلم مكائد الشيطان ومداخله الى النفس البشرية . . وأنه سيوسوس لك ما يفسد عليك فطرتك الايمانية . . فيأت القرآن على فطرة

وَأَنْتَ مَادَمْتُ فِي مَعِيَةِ خَالَقَكَ لَا يَجْرُؤُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْكَ أَبَدًا .

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ﴿١٠﴾

اذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومعه أبو بكر رضى الله عنه كلاهما في معية الله . ولكن هل كونها في معية الله . رد على قول أبي بكر : لو نظر احدهم تحت قدميه لرآنا . . نقول نعم . . لأنهما في معية الله - والله لا تدركه الأبصار - فلا تدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الأبصار كذلك ماداما في معية الله .

سورة الفاتحة



سورة الفاتحة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١

القرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيها نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى - ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ البداية نفسها التي أرادها الله تبارك وتعالى - وهي أن تكون البداية بسم الله . وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت «اقرأ باسم ربك الذي خلق» . وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليبارس مهمته في الكون . . هي بسم الله . ونحن الآن حينما نقرأ القرآن نبدأ نفس البداية .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام في غار حراء حينما جاءه جبريل وكان أول لقاء بين الملك الذي يحمل الوحي بالقرآن . . وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الحق تبارك وتعالى : «اقرأ» .

واقراً تتطلب ان يكون الانسان . . إما حافظاً لشيء يحفظه ، أو أمامه شيء مكتوب ليقرأه . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حافظاً لشيء يقرؤه . . وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه . . وحتى لو كان أمامه كتاب فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب .

وعندما قال جبريل : «اقرأ» . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارىء . . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام منطقياً مع قدراته . وتردد القول ثلاث مرات . . جبريل عليه السلام بوحي من الله سبحانه وتعالى يقول للرسول : «اقرأ» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أنا بقارىء . . ولقد أخذ خصوم الاسلام هذه النقطة . . وقالوا كيف يقول الله لرسوله اقرأ ويرد الرسول ما أنا بقارىء .

نقول إن الله تبارك وتعالى . . كان يتحدث بقدراته التي نقول للشيء كن فيكون ،

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحدث ببشريته التي تقول أنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة ، ولكن قدرة الله هي التي سنأخذ هذا النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب لتجعله معلما للبشرية كلها الى يوم القيامة .. لأن كل البشر يعلمهم بشر .. ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم سيعلمه الله سبحانه وتعالى . ليكون معلما لأكبر علماء البشر .. يأخذون عنه العلم والمعرفة . لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾

(سورة العلق)

أى أن الله سبحانه وتعالى . الذى خلق من عدم . سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله .. وسيكون ماتقروه وأنت النبي الأمي اعجازا .. ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله . ولكن للدنيا كلها وليس في الوقت الذى ينزل فيه فقط ، ولكن حتى قيام الساعة ، ولذلك قال جل جلاله :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ﴾

(سورة العلق)

أى أن الذى ستقروه يا محمد .. سيظل معلما للانسانية كلها الى نهاية الدنيا على الأرض .. ولأن المعلم هو الله سبحانه وتعالى قال : « اقرأ وربك الأكرم » مستخدما صيغة المبالغة . فهناك كريم وأكرم .. فأنت حين تتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله جل جلاله .. لأنه يسر لك العلم على يد بشر مثلك .. اما اذا كان الله هو الذى سيعلّمك .. يكون « أكرم » .. لأن ربك قد رفعك درجة عالية ليعلّمك هو سبحانه وتعالى ..

والحق يريد أن يلفتنا الى أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن لأنه تعلم القراءة ، ولكنه يقرؤه باسم الله ، ومادام بسم الله .. فلا يهم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلم من بشر أو لم يتعلم . لأن الذى علمه هو الله .. وعلمه

فوق مستوى البشرية كلها .

على أننا نبدأ أيضا تلاوة القرآن بسم الله . . لأن الله تبارك وتعالى هو الذي أنزله لنا . . ويسر لنا أن نعرفه ونتلوه . . فالأمر لله علما وقدره ومعرفة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ ۚ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦﴾

(سورة يونس)

لذلك أنت تقرأ القرآن باسم الله لأنه جل جلاله هو الذي يسره لك كلاما وتنزيلا وقراءة . . ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن بسم الله ؟ . . . إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله . لأننا لا بد أن نحترم عطاء الله في كونه . فحين نزرع الأرض مثلا . . لا بد أن نبدأ بسم الله . . لأننا لم نخلق الأرض التي نحرثها . . ولا خلقنا البذرة التي نبذرها . ولا أنزلنا الماء من السماء لينمو الزرع .

إن الفلاح الذي يمسك القاس ويرمي البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء في التربة لينمو الزرع . . إن كل ما يفعله الإنسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله في المادة المخلوقة من الله . . بالطاقة التي أوجدها الله في أجسادنا ليتم الزرع .

والإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار . . ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة . ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء . . فكأنه حين يبدأ العمل باسم الله ، يبدؤه باسم الله الذي سخر له الأرض . . وسخر له الحب ، وسخر له الماء ، وكلها لا قدرة له عليها . . ولا تدخل في طاقته ولا في استطاعته . . فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له . .

والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعا وأعطانا الدليل على ذلك . فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية في هذا الكون . . ولا تعتقد أن الأسباب والقوانين في الكون لها ذاتية . بل هي تعمل بقدرة خالقها . الذي إن شاء أجراها وإن شاء أوقفها .

الجمل الضخم والفيل الهائل المستأنس قد يقودهما طفل صغير فيطيعانه . ولكن الحية صغيرة الحجم لا يقوى أى انسان على أن يستأنسها . ولو كنا نفعل ذلك بقدراتنا . . . لكان استئناس الحية أو الثعبان سهلا لصغر حجمهما . . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعلهما مثلا لنعلم أنه بقدراته هو قد أخضع لنا ما شاء ، ولم يخضع لنا ما شاء . . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَمْلُكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة يس)

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها وليس بقدرتنا .

يأتى الله سبحانه وتعالى الى أرض ينزل عليها المطر بغزارة . والعلماء يقولون إن هذا يحدث بقوانين الكون . فبلغتنا الله تبارك وتعالى الى خطأ هذا الكلام . بأن تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون . . . فإذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذى عطّلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ان شاءت جعلتها تعمل وان شاءت جعلتها لا تعمل . . . اذن فكل شيء فى الكون باسم الله . . . هو الذى سخر وأعطى . . . وهو الذى يمنح ويمنع . حتى فى الأمور التى للانسان فيها نوع من الاختيار . . . وقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَابًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ ﴿٧٨﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتَابًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَزِيزٌ قَدِيرٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الشورى)

والاصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والانثى . . . هذا هو القانون . . . ولكن القوانين لا تعمل الا بأمر الله . . . لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لأنه ليس القانون هو الذى يخلق . . . ولكنها ارادة خالق القانون . . . ان شاء جعله



يعمل . . وان شاء يبطل عمله . . والله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين ولكنه هو الذي يحكمها .

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على ان يجعل القوانين تفعل او لا تفعل . . فهو قادر على ان يخرق القوانين . . خذ مثلاً قصة زكريا عليه السلام . . كان يكفل مريم وبأنيتها بكل ما تحتاج إليه . . ودخل عليها ليجد عندها مالم يحضره لها . . وسألها وهي القديسة العابدة الملازمة لمحرابها . .

﴿ قَالَ يَحْرِيْمُ أَتَىٰ لَكَ هَٰذَا ^ط ١٧ ﴾

(سورة آل عمران)

الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات . . ولكن لنعرف أن الذي يفسد الكون . . هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التي تتناسب مع قدرات من يحصل عليها . . الأم ترى الأب ينفق ما لا يتناسب مع مرتبه . . وترى الابنة ترتدى ما هو أكبر كثيراً من مرتبتها أو مصروفها . . ولو سألت الأم الأب أو الابنة من أين لك هذا ؟ لما فسد المجتمع . . ولكن الفساد يأتي من أننا نغضض أعيننا عن المال الحرام . بماذا ردت مريم عليها السلام ؟

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِرِزْقٍ مِّنْ نَّسَاءٍ يَّغَيِّرْ حِسَابَ ^ط ٢٧ ﴾

(سورة آل عمران)

اذن فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون . . لقد لفتت مريم زكريا عليها السلام الى طلاقة القدرة . . فدعا زكريا ربه في قضية لا تنفع فيها الا طلاقة القدرة . . فهو رجل عجوز وامراته عجوز وعاقر ويريد ولدا . . هذه قضية ضد قوانين الكون . . لأن الانجاب لا يتم الا وقت الشباب ، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان . . فما بالك اذا كانت الزوجة أساساً عاقراً . . لم تنجب وهي شابة وزوجها شاب . .

فكيف تنجب وهي عجوز وزوجها عجوز . . هذه مسألة ضد القوانين التي تحكم البشر . . ولكن الله وحده القادر على أن يأتي بالقانون وضده . . ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد وكان . . ورزق زكريا بابنه يحيى .

أذن كل شيء في هذا الكون باسم الله . . يتم باسم الله وبإذن من الله . . الكون تحكمه الأسباب نعم ولكن إرادة الله فوق كل الأسباب .

أنت حين تبدأ كل شيء باسم الله . . كأنك تجعل الله في جانبك يعينك . . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا أن نبدأ كل شيء باسم الله . . لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى . . والفعل عادة يحتاج إلى صفات متعددة . . فأنت حين تبدأ عملاً تحتاج إلى قدرة الله وإلى قوته وإلى عونه وإلى رحمته . . فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات . . كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها . . كأن نقول باسم الله المقوى وباسم الله الرازق وباسم الله المجيب وباسم الله القادر وباسم الله النافع . . إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نستعين بها . . ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول : بسم الله بسم الله بسم الله بسم الله الجامع لكل هذه الصفات .

على أننا لا بد أن نقف هنا عند الذين لا يبدأون أعمالهم بسم الله وإنما يريدون الجزء المادي وحده . . إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله باسم الله . . وإنسان مؤمن يبدأ كل عمل وفي بالله الله . . كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب للجميع . . له عطاء ربوبية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة . . ولكن الدنيا ليست هي الحياة الحقيقية للإنسان . . بل الحياة الحقيقية هي الآخرة . . الذي في بالله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية . . بقدر عطاء الله في الدنيا . . والذي في بالله الله يأخذ بقدر عطاء الله في الدنيا والآخرة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ① ﴾

لأن المؤمن بحمد الله على نعمه في الدنيا .. ثم يحمله عندما ينجيه من النار والعذاب ويدخله الجنة في الآخرة .. فله الحمد في الدنيا والآخرة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم أقطع »^(١)

ومعنى أقطع أى مقطوع الذنب أو الذيل .. أى عمل ناقص فيه شيء ضائع .. لأنك حين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذى سخرت ما فى الكون لخدمتك وينفعل لك .. وحين لا تبدأ العمل باسم الله .. فليس لك عليه جزاء فى الآخرة فتكون قد أخذت عطائه فى الدنيا .. وبترت أو قطعت عطائه فى الآخرة .. فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة .. فأقبل على كل عمل باسم الله .. قبل أن تأكل قل باسم الله لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به .. عندما تدخل الامتحان قل بسم الله فيعينك على النجاح .. عندما تدخل الى بيتك قل باسم الله لأنه هو الذى يسر لك هذا البيت .. عندما تتزوج قل باسم الله لأنه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك .. فى كل عمل تفعله ابدأ باسم الله .. لأنها تمنعك من أى عمل يغضب الله سبحانه وتعالى .. فانت لا تستطيع أن تبدأ عملاً يغضب الله باسم الله .. اذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر .. أو أن تفعل عملاً يغضب الله .. وتذكرت بسم الله .. فإنك ستمتنع عنه .. ستستحي أن تبدأ عملاً باسم الله يغضب الله .. وهكذا ستكون أعمالك كلها فيها أباحه الله .

الله تبارك وتعالى حين تبدأ قراءة كلامه باسم الله .. فنحن نقرأ هذا الكلام لأنه من الله .. والله هو الاله المعبود فى كونه .. ومعنى معبود أنه يطاع فيها بأمر به .. ولا نقدم على ما نهى عنه .. فكأنك تستقبل القرآن الكريم بعطاء الله فى العبادة .. وبطاعته فى الفعل ولا تفعل .. وهذا هو المقصود أن تبدأ قراءة القرآن باسم الله الذى آمنت به رباً وإلهاً .. والذى عاهدته على أن تطيعه فيها أمر وفيها نهى .. والذى بموجب عبادتك لله سبحانه وتعالى تقرأ كتابه لتعمل بما فيه .. والذى خلق وأوجد ويحيى ويميت وله الأمر فى الدنيا والآخرة .. والذى ستقف أمامه يوم القيامة

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير ، وعزاه لعبد القادر الرهاوى فى أول كتاب (الاربعين) عن ابن هريرة باسناد حسن ورواه ابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو اجزم» .

ليحاسبك أحسنت أم أسأت .. فالبداية من الله والنهاية الى الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل كيف أبداً بسم الله .. وقد عصيت وقد خالفت .. نقول اياك أن تستنحي أن تقرأ القرآن .. وأن تبدأ بسم الله اذا كنت قد عصيت .. ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الحثيثة التي تبدأ بها قراءة القرآن فجعلنا نبدؤه باسم الله الرحمن الرحيم .. فالله سبحانه وتعالى لا يتخلل عن العاصي .. بل يفتح له باب التوبة ويحبه عليها .. ويطلب منه أن يتوب وأن يعود الى الله .. فيغفر له ذنبه ، لأن الله رحيم رحيم .. فلا تقل أنني أسنحي أن أبداً باسم الله لأنني عصيته .. فالله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاص أن يعود الى حظيرة الايمان وهو رحيم رحيم .. فاذا قلت كيف أقول باسم الله وقد وقعت في معصية أمس .. نقول لك قل باسم الله الرحمن الرحيم .. فرحة الله تسع كل ذنوب خلقه .. وهو سبحانه وتعالى الذي يغفر الذنوب جميعا .

والرحمة والرحمن والرحيم .. مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجنين في بطن أمه .. هذا المكان الذي يأتيه فيه الرزق .. بلا حول ولا قوة .. ويجد فيه كل ما يحتاج إليه ثموه ميسرا .. رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ولا مقابل .. انظر الى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه .. وتجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته اليها .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي .

« أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » (١)

الله سبحانه وتعالى يريد أن تتذكر دائما أنه يحنو علينا ويرزقنا .. ويفتح لنا أبواب التوبة بابا بعد آخر .. ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمنا من نعمه .. ولا يهلكنا بما فعلنا . ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم .. لتذكر دائما أبواب الرحمة المفتوحة لنا .. نرفع أيدينا الى السماء .. ونقول يارب رحمتك .. تجاوز عن ذنوبنا وسيئاتنا . وبذلك يظل قارئ القرآن متصلا بأبواب رحمة الله .. كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود اليه .. فها دام الله رحمانا ورحيما لا تغلق أبواب الرحمة أبدا ..

على أننا نلاحظ أن الرحمن والرحيم من صيغ المبالغة .. يقال راحم ورحمن ورحيم .. إذا قيل راحم فيه صفة الرحمة .. وإذا قيل رحمن تكون مبالغة في الصفة .. وإذا قيل رحيم تكون مبالغة في الصفة .. والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ..

صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف .. وإياكم أن تفهموا أن الله تأتيه الصفات مرة قليلة ومرة كثيرة .. بل هي صفات الكمال المطلق .. ولكن الذي يتغير هو متعلقات هذه الصفات .. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ١٩

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة .. نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى ، ثم تأتي الآية الكريمة بقول الله جل جلاله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ٢٠

(سورة فصلت)

نلاحظ هنا استخدام صيغة المبالغة .. « ظلام » .. أي شديد الظلم .. وقول الحق سبحانه وتعالى : « ليس بظلام » .. لا تنفي الظلم ولكنها تنفي المبالغة في الظلم ، تنفي أن يظلم ولو مثقال ذرة .. نقول انك لم تفهم المعنى .. ان الله لا يظلم أحدا .. الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبد .. والآية الثانية لم تقل للعبد ولكنها قالت للعبيد .. والعبيد هم كل خلق الله .. فلو اصاب كل واحد منهم أقل من ذرة من الظلم مع هذه الاعداد الهائلة .. فإن الظلم يكون كثيراً جداً ، ولو أنه قليل في كميته لأن عدد من سيصاب به هائل .. ولذلك فإن الآية الأولى نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى . والآية الثانية نفت الظلم أيضاً عن الله تبارك وتعالى .. ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة .

تأتي بعد ذلك إلى رحمن ورحيم . . رحمن في الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى برحمته . . فرحمة الله في الدنيا تشمل المؤمن والعاصي والكافر . . يعطيهم الله مقومات حياتهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم ، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير . . إذن عدد الذين يشملهم رحمة الله في الدنيا هم كل خلقه . بصرف النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم .

ولكن في الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط . . فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله . . إذن الذين يشملهم رحمة الله في الآخرة . . أقل عدداً من الذين يشملهم رحمة الله في الدنيا . . فمن أين تأتي المبالغة ؟ . . تأتي المبالغة في العطاء وفي الخلود في العطاء . . فنعم الله في الآخرة أكبر كثيراً منها في الدنيا . . المبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها . . فكان المبالغة في الدنيا بعمومية العطاء ، والمبالغة في الآخرة بخصوصية العطاء للمؤمن وكثرة النعم واخلود فيها .

ولقد اختلف عدد العلماء حول بسم الله الرحمن الرحيم . . وهي موجودة في ١١٣ سورة من القرآن الكريم هل هي من آيات السور نفسها . . بمعنى أن كل سورة تبدأ « بسم الله الرحمن الرحيم » تحسب البداية على أنها الآية الأولى من السورة ، أم أنها حسبت فقط في فاتحة الكتاب ، ثم بعد ذلك تعتبر فواصل بين السور . .

وقال العلماء أن « بسم الله الرحمن الرحيم » آية من آيات القرآن الكريم . . ولكنها ليست آية من كل سورة ماعدا فاتحة الكتاب فهي آية من الفاتحة . . وهناك سورة واحدة في القرآن الكريم لا تبدأ بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » وهي سورة التوبة وتكررت بسم الله الرحمن الرحيم في الآية ٣٠ من سورة النمل في قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾



(٢٤) : د. أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم في معرفة

في القرآن الكريم ، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه في كل مرة مختلفا عن معناه في المرة السابقة ، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك فهو يضع اللفظ في مكانه الصحيح ، وفي معناه الصحيح . .

قولنا : «بسم الله الرحمن الرحيم» هو استعانة بقدرة الله حين نبدأ فعل الأشياء . . إذن فلفظ الجلالة «الله» في بسم الله ، معناه الاستعانة بقدرات الله سبحانه وتعالى وصفاته . لتكون عوناً لنا على ما نفعل . ولكن إذا قلنا : الحمد لله . . فهي شكر لله على ما فعل لنا . ذلك أننا لانستطيع ان نقدم الشكر لله إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة . الجامع لكل صفات الله تعالى . لأننا نحمده على كل صفاته ورحمته بنا حتى لانقول باسم القهار وباسم الوهاب وباسم الكريم ، وباسم الرحمن . . نقول الحمد لله على كمال صفاته ، فيشمل الحمد كمال الصفات كلها .

وهناك فرق بين «بسم الله» الذي نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه . . لأن الله هو الذي سخر كل ما في هذا الكون ، وجعله يخدمنا ، وبين «الحمد لله» فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا . فكأن «بسم الله في البسملة» طلب العون من الله بكل كمال صفاته . . وكأن الحمد لله في الفاتحة تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته .

و«الرحمن الرحيم» في البسملة لها معنى غير «الرحمن الرحيم» في الفاتحة ، ففي البسملة هي تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لانستحي ولا نهاب الله نستعين باسم الله ان كنا قد فعلنا معصية . . فإله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائماً في كل أعمالنا . فإذا سقط واحد منا في معصية ، قال كيف استعين باسم الله ، وقد عصيته ؟ نقول له ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة . . فيغفر لك وتستعين به فيجيبك .

وانت حين تسقط في معصية تستعيز برحمة الله من عدله ، لأن عدل الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها .

واقرا قول الله تعالى :

﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُتَوَلَّنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٥٩ ﴾

(سورة الكهف)

ولولا رحمة الله التي سبقت عدله . ما بقى للناس نعمة وما عاش أحد على ظهر الأرض .. فالحل جل جلاله يقول :

﴿ وَلَوْ يَرَى الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُظْلَمُ مِمَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآئِبَةٍ وَلَكِنْ يُوْتَرِّقُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٦١ ﴾

(سورة النحل)

فالانسان خلق ضعيفا ، وخلق هلوفا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
ولا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، قالوا : حتى أنت يا رسول
الله قال : حتى أنا .

فذنوب الانسان في الدنيا كثيرة .. إذا حكم فقد يظلم . وإذا ظن فقد يسيء ..
وإذا تحدث فقد يكذب .. وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق .. وإذا تكلم فقد
يغتاب .

هذه ذنوب ترتكبها بدرجات متفاوتة . ولا يمكن لأحد منا ان ينسب الكمال لنفسه
حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون الى الكمال ، فالكمال لله
وحده . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين
التوابون»^(١) .

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أنس رضي الله عنه .

ويصف الله سبحانه وتعالى الانسان في القرآن الكريم :

﴿وَمَا تَسْأَلُكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٣﴾﴾

(سورة ابراهيم)

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن ان ندخل الى كل عمل باسم الله ... فعلمنا ان نقول : «بسم الله الرحمن الرحيم» لكي نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله . وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة في كل عمل باسم الله ... لأنه الرحمن الرحيم ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية في الاستعانة به سبحانه وتعالى .

ولكن الرحمن الرحيم في الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذي أوجدك من عدم ... وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى . انت تحمده على هذه النعم التي أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى في ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر مافيها من رحمة .

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذي استدعاهم جميعا الى الوجود . ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته ... وليس بما يستحقون ... فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ... ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ،

والمطر يتزل على من يعبدون الله . ومن يعبدون أوثانا من دون الله . والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها .

وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية لله هي في الدنيا لخلقه جميعا ، وهذه رحمة ... فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه . وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة ...

إذن ففي الفاتحة تأتي «الرحمن الرحيم» بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه ، فهو يمهّل العاصي ويفتح ابواب التوبة لكل من يلجأ اليه .

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه . وهذه رحمة تستوجب الشكر . فمعنى «الرحمن

الرحيم» في البسملة يختلف عنها في الفاتحة . فإذا انتقلنا بعد ذلك الى قوله تعالى :

«الحمد لله رب العالمين» فالله محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، الله محمود قبل ان يخلق من يحمده . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما : الحمد لله .

والعجيب أنك حين تشكر بشرا على جميل فعله تظل ساعات وساعات . . تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس . حتى تصل الى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته نعمه لا تعد ولا تحصى ، علمنا ان نشكره في كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . .

ولعلمنا نفهم ان المبالغة في الشكر للبشر مكروهة لأنها تصيب الانسان بالغرور والنفاق وتزيد العاصي في معاصيه . . فلنقلل من الشكر والثناء للبشر . . لأننا نشكر الله لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما : الحمد لله ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد . فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين . . لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الالهي . . فمهما أوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير . فهم عاجزون عن أن يصلوا الى صيغة الحمد التي تليق بجلال النعم . . فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانا صورة العجز البشري عن حمد كمال الالهية لله ، فقال : «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» .

وكلمتا الحمد لله ، ساوى الله بهما بين البشر جميعا ، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير . فهذا أسمى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يجد الكلمات التي يحمد بها الله . وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع ان يأتي بصيغة الحمد بما أوتى من علم وبلاغة . وهكذا تتفاوت درجات البشر في الحمد . . طبقا لقدرتهم في منازل الدنيا .

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوى بين عباده جميعا في صيغة الحمد له . . فيعلمنا في أول كلماته في القرآن الكريم . . أن نقول «الحمد لله» ليعطى

الفرصة المتساوية لكل عبده بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم في عطاء الحمد ومن أوتي البلاغة ومن لا يحسن الكلام .

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علمنا كيف نحمده وليظل العبد دائما حامدا . ويظل الله دائما محمودا . . . فالحمد سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم ، فخلق لنا السموات والأرض وأوجد لنا الماء والهواء . ووضع في الأرض أقاتها إلى يوم القيامة . . . وهذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنساني ، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله . بل إن الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أباه البشر جميعا سبقتهم الجنة التي عاش فيها لا يتعب ولا يشقى . فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجودا وجاهزا ومعدا قبل الخلق . . . وحينما نزل آدم وحواء إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما . فوجدوا ما يأكلونه وما يشربونه ، وما يقيم حياتهما . . . ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنساني وخلقت بعده لهلك الإنسان وهو ينتظر مجيء النعمة .

بل إن العطاء الإلهي للإنسان يعطيه النعمة بمجرد أن يخلق في رحم أمه فيجد رحما مستعدا لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل . فإذا خرج إلى الدنيا يضع الله في صدر أمه لبنا ينزل وقت أن يجوع ويمتنع وقت أن يشبع . وينتهي تماما عندما تتوقف فترة الرضاعة . ويجد أباه وأما يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع

أن يعول نفسه . . . وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسان إلى مرحلة التكليف وقبل أن يستطيع أن ينطق : « الحمد لله » .

وهكذا نرى أن النعمة تسبق المُنعم عليه دائما . . . فالإنسان حين يقول « الحمد لله » فلأن موجبات الحمد - وهي النعمة - موجودة في الكون قبل الوجود الإنساني .

والله سبحانه وتعالى خلق لنا في هذا الكون أشياء تعطي الإنسان بغير قدرة منه ودون خضوع له ، والإنسان عاجز عن أن يقدم لنفسه هذه النعم التي يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد . فالشمس تعطي الدفء والحياة للأرض بلا مقابل وبلا

فعل من البشر ، والمطر ينزل من السماء دون ان يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله . والهواء موجود حولك في كل مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة . والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبذر فيها الحب وتسقيه . فالزراع ينبت بقدرة الله . . . والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لثراح ، وأن تسعى لحياتك . . . لا أنت أتيت بضوء النهار . . . ولا أنت الذي صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة في الليل والعمل في النهار بقدرة الله دون ان تفعل شيئاً .

كل هذه الأشياء لم يخلقها الانسان ، ولكنه خلق ليحدها في الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد منه . ألا تستحق أن نقول الحمد لله على نعمة تسخير الكون لخدمة الانسان ؟ إنها تقتضي وجوب الحمد .

وآيات الله سبحانه وتعالى في كونه تستوجب الحمد . . . فالحياة التي وهبها الله لنا ، والآيات التي أودعها في كونه لتدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً . فالكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الانسان . . . ولا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه . فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعي أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم أو وضع الأرض أو وضع قوانين الكون أو أعطى الأرض غلافها الجوى . . . أو خلق نفسه أو خلق غيره .

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى . هي التي أوجدت وهي التي خلقت . . . وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا في سكونها ننساها ، بل هي متحركة لتلفتنا الى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق في الصباح فتذكرنا بأعجاز الخلق ، وتغيب في المساء لتذكرنا بعظمة الخالق . . . وتعاقب الليل والنهار يحدث أمامنا كل يوم علنا نلتفت ونفكر . والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بالوهمية من أنزله . . . والزراع يخرج من الأرض يسقى بماء واحد . ومع ذلك فإن كل نوع له لون وله شكل وله مذاق وله رائحة . . . وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتي الحصاد فيخفى الثمر والزراع . . . ويأتي موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شيء في هذا الكون متحرك ليذكرنا اذا نسينا . ويعلمنا أن هناك خالقاً عظيماً .

ونستطيع أن نمضي في ذلك بلا نهاية فنعم الله لاتعد ولا تحصى .. وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى وتعطينا الدليل الايماني على ان لهذا الكون خالقاً مبدعاً .. وانه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الكون أو خلق ما فيه .. فالقضية محسومة لله .. وهالحمدا لله لأنه وضع في نفوسنا الإيمان الفطري ثم أيده بإيمان عقلي بآياته في كونه .

بل إن كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد ، ومع ذلك فإن الانسان يمتدح الوجود وينسى الموجود !! انت حين ترى جوهرة جميلة مثلاً أو زهرة غاية في الإبداع .. أو أي خلق من خلق الله يشيع في نفسك الجمال تمتدح هذا المخلوق .. فتقول ما أجمل هذه الزهرة أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق .. ولكن المخلوق الذي امتدحته ، لم يعط صفة الجمال لنفسه .. فالزهرة لا تدخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا تدخل لها في عظمة خلقها .. وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه وإنما الذي وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا نخلط ونمدح المخلوق ونسى الخالق .. بل قل الحمد لله الذي أوجد في الكون ما يذكرنا بمعظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضي منا الحمد .. لان الله أنزل منهجه ليرينا طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر .

فمنهج الله الذي أنزله على رسله قد عرفنا ان الله تبارك وتعالى هو الذي خلق لنا هذا الكون وخلقنا .. فدقة الخلق وعظمته تدلنا على أن هناك خالقاً عظيماً .. ولكنها لا تستطيع أن تقول لنا من هو ، ولا ماذا يريد منا . ولذلك أرسل الله رسله ، ليقولوا لنا إن الذي خلق هذا الكون وخلقنا هو الله تبارك وتعالى وهذا يستوجب الحمد .

ومنهج الله بين لنا ماذا يريد الحق منا وكيف نعبد .. وهذا يستوجب الحمد . ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع لنا اسلوب حياتنا تشريعاً حقاً .. قاله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد منا .. ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى ، فكلنا خلق متساوون أمام الله جل جلاله ..

إذن فشرعية الحق وقول الحق ، وقضاء الحق ، هو من الله ، أما تشريعات



الناس فلها هوى تميز بعضها عن بعض .. وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين ،
لذلك نجد في كل منهج بشرى ظلما بشريا .

فالدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية فيها هم أصحاب النعمة والترف .
بينما الشعب كله في شقاء .. لأن هؤلاء الذين شرعوا اتبعوا هواهم . ورضعوا
مصالحهم فوق كل مصلحة ..

وكذلك في الدول الرأسمالية . أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير . ولكن
الله سبحانه وتعالى حين نزل لنا المنهج قضى بالعدل بين الناس .. وأعطى كل
ذئ ذى حق حقه . وعلمنا كيف تستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن
الهوى البشرى خاضعة لعدل الله ، وهذا يوجب الحمد .

والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا . فالبشر
في كل عصر يحاولون استغلال البشر .. لأنهم يطمعون لما في أيديهم من ثروات
وأموال ، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى ما في أيدينا ، إنه يعطينا ولا يأخذ
منا ، عنده خزائن كل شيء ، مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٢١)

(سورة الحجر)

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلق ، والمخلق يأخذون دائما من نعم الله ،
فكان العبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك وهذا يستوجب الحمد ..

والله سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الانسان ، وأن يدعوه وأن
يستعين به ، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل في الدنيا . فأنت إن طلبت شيئا من
صاحب نفوذ ، فلا بد أن يحدد لك موعدا أو وقت الحديث ومدة المقابلة وقد يضيق
بك فيقف لينهى اللقاء .. ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائما .. فأنت بين
يديه عندما تريد وترفع يديك إلى السماء وتدعرو وقتها تحب وتسال الله ما تشاء فيعطيك
ما تريده إن كان خيرا لك .. ويمنع عنك ما تريده إن كان شرا لك .

والله سبحانه وتعالى يطلب منك ان تدعوه وان تسأله فيقول :

﴿وَقَالَ رَبُّكَ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٢٠﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى يعرف ما في نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل .
واقرا الحديث القدسي :
يقول رب العزة :

(من شغله ذكرى عن مسألتي أعطته أفضل ما أعطى السائلين)^(١)

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحقق لك ...

واقرا قول الشاعر :

حسب نفسي عزا بأنني عبد
يحظى بـ بلا مـواعيد رب
هو في قدسه الأعز ولكن
أنا القى متى وأين أحب

اذن عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد .. ومنعه العطاء يستوجب الحمد .

ووجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد .. فالله يستحق الحمد لذاته ، ولولا عدل الله لبغى الناس في الارض وظلموا ، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم تجعله عبرة .. فيخاف الناس الظلم .. وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه واستبداده سيلقى الله في الآخرة ليوفيه حسابه .. وهذا يوجب الحمد .. أن يعرف المظلوم أنه سينال جزاءه فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ان هناك يوما سيرى فيه ظالمه وهو يعذب في النار .. فلا تصيبه الحسرة ، ويخف احساسه بمرارة الظلم حين يعرف ان الله قائم على كونه لن يفلت من عدله أحد .

وعندما نقول « الحمد لله » فنحن نعبر عن انفعالات متعددة .. هي في مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان .. وكثير من الانفعالات التي تملأ النفس عندما نقول « الحمد لله » كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه .. هذه الانفعالات تأتي من النفس وتستقر في القلب .. ثم تفيض من الجوارح على الكون كله ..

فالحمد ليس ألفاظا تردد باللسان ولكنها تمر أولا على العقل ليبنى معنى النعم .. ثم بعد ذلك تستقر في القلب فينبعث بها .. وتنتقل الى الجوارح فأقوم وأصلي لله شاكرا ويهتز جسدي كله وتفيض الدمعة من عيني .. وينتقل هذا الانفعال كله الى من حولي .

ونفس ذلك قليلا .. هب اني في أزمة أو كرب أو شيء سيؤدى الى فضيحة .. وجاءني من يفرج كربى فيعطيني مالا أو يفتح لي طريقا .. أول شيء اننى سأعقل هذا الجميل فأقول انه يستحق الشكر .. ثم ينزل هذا المعنى الى قلبي فيهتز القلب الى

صانع هذا الجميل .. ثم تنفعل جوارحي لأترجم هذه العاطفة إلى عمل يرضيه على جميل صنعه . ثم أحدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الالتجاء اليه .. فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس .. فيمرون بنفس ماحدث لي فتتسع دائرة الشكر والحمد ..

والحمد لله تعطينا المزيد من نعم الله مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

(سورة ابراهيم)

وهكذا نعرف ان الشكر على النعمة يعطينا مزيدا من النعمة . . فنشكر عليها فتعطينا المزيد وهكذا يظل الحمد دائما والنعمة دائمة . . اننا لو استعرضنا حياتنا كلها فكل حركة فيها تقتضى الحمد ، عندما ننام وبأخذ الله سبحانه وتعالى أرواحنا ، ثم يردنا اليها عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ أَلَنِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَنْفُسَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾﴾

(سورة الزمر)

وهكذا فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وان الله سبحانه وتعالى رد علينا أرواحنا ، وهذا الرد يستوجب الحمد ، فإذا قمنا من السرير فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا ان نقوم . . وهذا يستوجب الحمد . . فإذا تناولنا افطارنا فالله هيا لنا طعاما من فضله ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى انبته ، وهو الذى رزقنا به ، وهذا يستوجب الحمد . .

فإذا نزلنا الى الطريق يسر الله لنا ما ينقلنا الى مقر اعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا نملك سيارة او نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، واذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذى اعطى الستنا القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق . . وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا الى اعمالنا ، فالله يسر لنا عملا نرتزق منه لناكل حلالا . . وهذا يستوجب الحمد . .

واذا عدنا الى بيوتنا فالله سخر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا وهذا يستوجب الحمد .

اذن فكل حركة حياة في الدنيا من الانسان تستوجب الحمد . . ولهذا لا بد ان يكون الانسان حامدا دائما . . بل ان الانسان يجب ان يحمده الله على اى مكروه أصابه ؛ لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شرا هو عينه الخير . فالله تعالى يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَجِلْ لَكُمْ أَنْ تَرَوْا النِّسَاءَ كَرِهَلَوْلَا تَعَضُّوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْعًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝﴾

(سورة النساء)

اذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير . . سواء أحببت القضاء أو كرهته فإنه خير لك . . لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

وهكذا من موجبات الحمد ان تقول الحمد لله على كل ما يحدث لك في دنياك . فأنت بذلك ترد الامر الى الله الذى خلقك . . فهو اعلم بما هو خير لك .

فأتم الكتاب تبدأ بالحمد لله رب العالمين . . لماذا قال الله سبحانه وتعالى رب العالمين ؟ نقول إن « الحمد لله » تعنى حمد الألوهية . فكلمة الله تعنى المعبود بحق . . فالعبادة تكليف والتكليف يأتي من الله لعبيده . . فكان الحمد اولا لله . . ثم يقتضى بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله على ايجادنا من عدم وامدادنا من عدم . . لأن المتفضل بالنعم قد يكون محمودا عند كل الناس . . لكن التكليف يكون شاقا على بعض الناس . . ولو علم الناس قيمة التكليف في الحياة . . لحمدوا الله أن كلفهم بافعل ولا تفعل . . لأنه ضمن عدم تصادم حركة حياتهم . . فتمضى حركة الحياة متساندة منسجمة . اذن فالنعمة الاولى هي أن المعبود ابلغنا منهج عبادته ، والنعمة الثانية أنه رب العالمين .

في الحياة الدنيا هناك المطيع والعاصي ، والمؤمن وغير المؤمن . . والذين يدخلون في عطاء الألوهية هم المؤمنون . . أما عطاء الربوبية فيشمل الجميع . . ونحن نحمد الله على عطاء ألوهيته ، ونحمد الله على عطاء ربوبيته ، لأنه الذى خلق ، ولأنه رب العالمين . . الكون كله لا يخرج عن حكمه . . فليطمئن الناس في الدنيا ان

النعم مستمرة لهم بعتاء ربوبية .. فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول لن
أشرق ، ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض في الكون ، ولا الأرض
تستطيع أن تمنع إنبات الزرع .. ولا الغلاف الجوي يستطيع أن يعتمد عن الأرض
فيختنق الناس جميعا ..

اذن فالله سبحانه وتعالى يريد ان يطمئن عباده انه رب لكل مافى الكون فلا
تستطيع اى قوى تخدم الانسان ان تمتنع عن خدمته .. لأن الله سبحانه وتعالى
مسيطر على كونه وعلى كل ماخلق .. انه رب العالمين وهذه توجب الحمد .. ان
يسمى الله سبحانه وتعالى للانسان مايجد منه ، بل جعله سيدا فى كونه .. ولذلك فإن
الانسان المؤمن لا يخاف الغد .. وكيف يخافه والله رب العالمين . اذا لم يكن عنده
طعام فهو واثق ان الله سيرزقه لأنه رب العالمين .. واذا صادفته ازمة فقلبه مطمئن

الى ان الله سيفرج الازمة وينزل الكرب لأنه رب العالمين .. واذا اصابته نعمة ذكر
الله فشكره عليها لأنه رب العالمين الذى انعم عليه .

فالحق سبحانه وتعالى يحمد على انه رب العالمين .. لا شىء فى كونه يخرج عن
مراده الفعلى .. اما عطاء الالهية فجزاؤه فى الآخرة .. فالدنيا دار اختبار للايمان ،
والآخرة دار الجزاء .. ومن الناس من لايعبد الله .. هؤلاء متساوون فى عطاء
الربوبية مع المؤمنين فى الدنيا .. ولكن فى الآخرة يكون عطاء الالهية للمؤمنين
وحدهم .. فنعم الله لأصحاب الجنة ، وعطاءات الله لمن آمن .. واقرأ قوله تبارك
وتعالى .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٤)

(سورة الأعراف)

على ان الحمد لله ليس فى الدنيا فقط .. بل هو فى الدنيا والآخرة .. الله محمود
دائما .. فى الدنيا بعتاء ربوبية لكل خلقه .. وعطاء الوهية لمن آمن به وفى الآخرة
بعطائه للمؤمنين من عباده .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧١)

(سورة الزمر)

وقوله تعالى :

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

(سورة يونس)

فاذا انتقلنا الى قوله تعالى : «الرحمن الرحيم» فمن موجبات الحمد أن الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم . . يعطى نعمه في الدنيا لكل عباده عطاء ربوبيه ، وعطاء الربوبيه للمؤمن والكافر . . وعطاء الربوبية لا ينقطع الا عندما يموت الانسان . .

والله لا يحجب نعمه عن عبده في الدنيا . . ونعم الله لا تعد ولا تحصى . ومع كل التقدم في الآلات الحاسبة والعقول الالكترونية وغير ذلك فإننا لم نجد أحدا يتقدم ويقول انا سأحصى نعم الله . . لأن موجبات الاحصاء ان تكون قادرا عليه . . فانت لا تقبل على عد شيء الا اذا كان في قدرتك ان تحصيه . . ولكن مادام ذلك خارج قدرتك وطاقاتك فانك لا تقبل عليه . . ولذلك لن يقبل احد حتى يوم القيامة على احصاء نعم الله تبارك وتعالى لان احدا لا يمكن ان يحصوها .

ولا بد ان نلتفت الى ان الكون كله يضيق بالانسان ، وان العالم المقهور الذي نخدمنا بحكم القهر والتسخير يضيق حين يرى العاصين . . لان المقهور مستقيم على منهج الله قهرا . . فحين يرى كل مقهور الانسان الذي هو في خدمته عاصيا يضيق .

واقرا الحديث القدسي لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده . . يقول الله عز وجل : ما من يوم تطلع شمسك إلا وتنادى السماء تقول يارب إئذن لي أن أسقط كسفا على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك وتقول البحار يارب إئذن لي أن أغرق ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول الجبال يارب إئذن لي أن أطبق على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فيقول الله تعالى : دعوهم دعوهم لو خلقتموهم

لرحمتهم انهم عبادى فإن تابوا إلى فانا حبيهم ، وإن لم يتوبوا فانا طيبهم « رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده » .

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم .. وكيف ضمنت لنا بقاء كل ما نخدمنا فى هذا الكون مع معصية الانسان .. انها كلها نخدمنا بعطاء الربوبية وتبقى فى خدمتنا بتسخير الله لها لانه رحمن رحيم ..

بعض الناس قد يتساءل هل تتكلم الارض والسماء وغيرها من المخلوقات فى عالم الجهاد والنبات والحيوان ؟ نقول نعم ان لها لغة لا نعرفها نحن وانما يعرفها خالقها ... بدليل انه منذ الخلق الاول ابلاغنا الحق تبارك وتعالى ان هناك لغة لكل هذه المخلوقات .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ ثُمَّ أَسْرَوْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٥ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فالأرض والسماء فهمت كلتاهما عن الله .. وقالت له سبحانه وتعالى « آتينا طائعين » ألم يعلم الله سليمان منطق الطير ولغة النمل ؟ ألم تسبح الجبال مع داود ؟ إذن كل خلق الله له إدراكات مناسبة .. بل له عواطف .. فعندما تكلم الله سبحانه وتعالى عن قوم فرعون .. قال :

﴿ كَرَّ تَرَكُوا مِنْ جَحْشٍ وَعُيُونٍ ٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٢٦ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ ٢٧ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ٢٨ قَالَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ٢٩ ﴾

(سورة الدخان)

إذن فالسماوات والارض لهما انفعال .. انفعال يصل الى مرحلة البكاء .. فهما لم تبكيا على فرعون وقومه .. ولكنها تبكيان حزنا عندما يفارقهما الانسان المؤمن المصلح المطبق لمنهج الله .. ولقد قال على بن ابي طالب رضى الله عنه : (اذا مات المؤمن

بكى عليه موضعان موضع في الارض وموضع في السماء . . اما الموضع في الارض فهو مكان مصلاه الذي اسعده وهو يصل فيه . واما الموضع في السماء فهو مصعد عمله الطيب .



﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

إذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد . . فإن «مالك يوم الدين» تستحق الحمد الكبير . . لأنه لو لم يوجد يوم للحساب ، لنجا الذي ملأ الدنيا شروراً . دون أن يجازى على ما فعل . . ولكان الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من منع دنيوية كثيرة أرضاء لله قد شفى في الحياة الدنيا . . ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو «مالك يوم الدين» . . أعطى الاتزان للوجود كله . . هذه الملكية ليوم الدين هي التي حث الضعيف والمظلوم وأبقت الحق في كون الله . . إن الذي منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوى بالضعيف والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسب خلقه .

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره ؛ لأنه يخشى الله ويعطي كل ذي حق حقه ويعفو ويسامح . . إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والعدل

أما الإنسان العاصي فيشقى به المجتمع لأنه لا أحد يسلم من شره ولا أحد إلا يصيبه ظلمه . . ولذلك فإن «مالك يوم الدين» هي الميزان . . تعرف أنت أن الذي يفسد في الأرض تنتظره الآخرة . . لن يفلت منها كانت قوته ونفوذه ، فتطمئن اطمئناناً كاملاً إلى أن عدل الله سينال كل ظالم .

على أن «مالك يوم الدين» لها قراءتان . . «مالك يوم الدين» . . وملك يوم الدين . والقراءتان صحيحتان . . والله تبارك وتعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه : «مالك يوم الدين» . . ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده . . ليس هناك دخل لأي فرد آخر . . أنا أملك عيائتي . . وأملك متاعى ، وأملك منزلي ، وأنا المتصرف في هذا كله أحكم فيه بما أراه . .

فمالك يوم الدين . . معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد في ذلك اليوم بدون أسباب . . وأن كل شيء سيأتى من الله مباشرة . . دون أن يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهراً . .

ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس . . ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر . . فالامر مباشر من الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يقول الله فى وصف يوم الدين :

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ۝١ ﴾

(سورة الانفطار)

فكان الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى الدنيا لتمضى به الحياة . . ولكن فى الآخرة لا توجد أسباب . الملك فى ظاهر الدنيا من الله يهبه لمن يشاء . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَسِيطَرُ عَلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢١ ﴾

(سورة آل عمران)

ولعل قوله تعالى : «تنزع» تلفتنا إلى أن أحدا فى الدنيا لا يريد أن يترك الملك . . ولكن الملك يجب أن ينتزع منه انتزاعا بالرحم عن إرادته . . والله هو الذى ينتزع الملك ممن يشاء . .

وهنا نتساءل هل الملك فى الدنيا والآخرة ليس لله ؟ . . نقول الأمر فى كل وقت لله . . ولكن الله تبارك وتعالى استخلف بعض خلقه أو مكنهم من الملك فى الأرض . . ولذلك نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَرْسُلْ إِلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي رَيْبِهِ أَنْ إِتَاكَ اللَّهُ الْمُلْكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُجِىءُ وَبُعِثْتُ قَالَ أَنَا أَخِي وَأُبِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١١١ ﴾

(سورة البقرة)

والذى حاج ابراهيم في ربه كافر منكر للالوهية .. ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملك بذاته .. بل الله جل جلاله هو الذى اتاه الملك .. اذن الله تبارك وتعالى هو الذى استخلف بعض خلقه ومكنهم من ملك في الارض ظاهريا .. ومعنى ذلك انه ملك ظاهر للناس فقط .. أن بشرا أصبح ملكا .. ولكن الملك ليس نابعا من ذات من يملك .. ولكنه تابع من أمر الله .. ولو كان نابعا من ذاتية من يملك لبقى له ولم ينزع منه .. والملك الظاهر يمتحن فيه العباد ، فيحاسبهم الله يوم القيامة .. كيف تصرفوا؟ وماذا فعلوا؟ .. ويمتحن فيه الناس هل سكتوا على الحاكم الظالم؟ .. وهل استحبوا المعصية؟ أو أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم؟ .. والله سبحانه وتعالى لا يمتحن الناس ليعلم المصلح من المفسد .. ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم .. حتى لا يأتى واحد منهم يوم القيامة ويقول : يا رب لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعت طريق الحق وطبقت منهجك .

وهنا يأتى سؤال .. اذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء فلماذا الامتحان؟ .. نقول اننا اذا أردنا ان نضرب مثلا يقرب ذلك الى الأذهان .. ولله المثل الاعلى .. نجد ان الجامعات في كل انحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها .. فهل اساتذة الجامعة الذين علموا هؤلاء الطلاب يجهلون ما يعرفه الطالب ويريدون ان يحصلوا منه على العلم؟ .. طبعا لا .. ولكن ذلك يحدث حتى اذا رتب الطالب في الامتحان .. وجاء يجادل واجهوه بإجابته فيسكت .. ولو لم يعقد الامتحان لادعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف .

اذا قال الحق تبارك وتعالى : «مالك يوم الدين» .. أى الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء .. واذا قيل : «مالك يوم الدين» .. فتصرفه أعلى من المالك لأن المالك لا يتصرف إلا في ملكه .. ولكن الملك يتصرف في ملكه وملك غيره .. فيستطيع أن يصدر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره .

الذين قالوا : «مالك يوم الدين» اثبتوا لله سبحانه وتعالى انه مالك هذا اليوم يتصرف فيه كما يشاء دون تدخل من احد ولو ظاهرا : والذين يقرأون ملك .. يقولون ان الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم يقضى في امر خلقه حتى الذين ملكهم في الدنيا ظاهرا .. ونحن نقول عندما يأتى يوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله .

الله تبارك وتعالى يريد ان يطمئن عباده . . انهم اذا كانوا قد ابتلوا بمالك او ملك
يطغى عليهم فيوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله جل جلاله . . عندما تقول مالك
او ملك يوم الدين . . هناك يوم وهناك الدين . . اليوم عندنا من شروق الشمس الى
شروق الشمس . . هذا مانسميه فلكيا يوما . . واليوم في معناه ظرف زمان تقع فيه
الاحداث . . والمفسرون يقولون : «مالك يوم الدين» اى مالك امور الدين لأن
ظرف الزمان لا يملك . . نقول ان هذا بمقاييس ملكية البشر ، فنحن لانملك
الزمن . . الماضي لانستطيع ان نعيده ، والمستقبل لانستطيع ان نأتى به . . ولكن الله
تبارك وتعالى هو خالق الزمان . . والله جل جلاله لا يحدد زمان ولا مكان . . كذلك
قوله تعالى : «مالك يوم الدين» لا يحدد زمان ولا مكان . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝١٧﴾

(سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿تَخْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝١٨﴾

(سورة المعارج)

واذا تأملنا هاتين الايتين نعرف معنى اليوم عند الله تبارك وتعالى . . ذلك ان الله
جل جلاله هو خالق الزمن . . ولذلك فانه يستطيع ان يخلق يوما مقداره ساعة . .
ويوما كايام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة . . ويوما مقداره ألف سنة . . ويوما
مقداره خمسون ألف سنة ويوما مقداره مليون سنة . . فذلك خاضع لمشيئة الله .

ويوم الدين موجود في علم الله سبحانه وتعالى . بأحداثه كلها بجنته وناره . . وكل
الخلق الذين سيحاسبون فيه . . وعندما يريد ان يكون ذلك اليوم ويخرج من علمه
جل جلاله الى علم خلقه . . سواء كانوا من الملائكة او من البشر أو الجان يقول :
كن . . فالله وحده هو خالق هذا اليوم . . وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده . . واليوم
نحن نحدده ظاهرا بانه أربع وعشرون ساعة . . ونحدده بأنه الليل والنهار . . ولكن
الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائما على الارض . . فعندما تتحرك الارض ، كل

حركة هي نهاية نهار في منطقة وبداية نهار في منطقة اخرى . . وبداية ليل في منطقة ونهاية ليل في منطقة اخرى . . ولذلك في كل لحظة ينتهي يوم ويبدأ يوم . . وهكذا فإن الكرة الارضية لو اخذتها بنظرة شاملة لا ينتهي عليها نهار أبدا . . ولا ينتهي عنها ليل أبدا . . إذن فاليوم نسبي بالنسبة لكل بقعة في الارض . . ولكنه في الحقيقة دائم الوجود على كل الكرة الارضية .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن عباده . . أنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا . . فإن هناك يوما لا ظلم فيه . . وهذا اليوم الامر فيه لله وحده بدون أسباب . . فكل انسان لو لم يدركه العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره . . والذي أتبع منهج الله وقيد حركته في الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما سيأخذ فيه أجره . . وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة . . نعيم لا يفوتك ولا تفوته .

ولقد دخل أحد الاشخاص على رجل من الصالحين . . وقال له : أريد أن أعرف . . أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ . . فقال له الرجل الصالح . . ان الله أرحم بعباده ، فلم يجعل موازينهم في أيدي أمثالهم . . فميزان كل انسان في يد نفسه . . لماذا ؟ . . لأنك تستطيع أن تغش الناس ولكنك لا تغش نفسك . . ميزانك في يديك . . تستطيع أن تعرف أنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة .

قال الرجل كيف ذلك ؟ . فرد العبد الصالح : اذا دخل عليك من يعطيك مالا . . ودخل عليك من يأخذ منك صدقه . . فبأيها تفرح ؟ . . فسكت الرجل . . فقال العبد الصالح : اذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا فأنت من أهل الدنيا . . واذا كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة فأنت من أهل الآخرة . . فإن الانسان يفرح بمن يقدم له ما يحب . . فالذي يعطيني مالا يعطيني الدنيا . . والذي يأخذ مني صدقة يعطيني الآخرة . . فإن كنت من أهل الآخرة . . فافرح بمن يأخذ منك صدقة . . أكثر من فرحك بمن يعطيك مالا .

ولذلك كان بعض الصالحين اذا دخل عليه من يريد صدقة يقول مرحبا بمن جاء يحمل حسناتي الى الآخرة بغير أجر . . ويستقبله بالفرحة والترحاب .



قول الحق سبحانه وتعالى : « مالك يوم الدين » .. هي قضية ضخمة من قضايا العقائد .. لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية الى الله جل جلاله .. وبما أننا جميعا سنلقى الله ، فلا بد أن نعمل لهذا اليوم .. ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئا في حياته الا وفي بآله الله .. وأنه سيحاسبه يوم القيامة .. ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس في بآله الله .. وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْعًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ قَوْفَهُمْ فَهُمْ أَحْسَابُهُ ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥٥ ﴾

(سورة النور)

وهكذا من يفعل شيئا وليس في بآله الله .. فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذي لم يكن في بآله موجود وأنه جل جلاله هو الذي سيحاسبه .

وقوله تعالى : « مالك يوم الدين » هي أساس الدين .. لأن الذي لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء .. فإدام يعتقد أنه ليس هناك آخرة وليس هناك حساب .. فعم يخاف ؟ .. ومن أجل من يقيد حركته في الحياة ..

ان الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حسابا في الآخرة .. وأن هناك يوما نقف فيه جميعا أمام الله سبحانه وتعالى .. ليحاسب المخطيء ويشيب الطائع .. هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الايمانية .. فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه .. فلماذا نصل ؟ .. ولماذا نصوم ؟ .. ولماذا نتصدق ؟ ..



ان كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على اساس ذلك اليوم الذي لن
يقلت منه أحد . . . والذي يجب علينا جميعا أن نستعد له . . ان الله سبحانه وتعالى
سمى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم . . والذي يجعلنا نتحمل كل
ما نكره ونجاهد في سبيل الله لنشهد . . وننفق اموالنا لنعين الفقراء والمساكين . .
كل هذا أساسه أن هناك يوما سنقف فيه بين يدي الله . . والله تبارك وتعالى سماه يوم
الدين . . لأنه اليوم الذي سيحاسب فيه كل انسان على دينه عمل به أم ضيعه . .
فمن آمن واتبع الدين سيكون كافيا بالخلود في الجنة . . ومن أنكر الدين وأنكر منهج الله
سيجازى بالخلود في النار . .

ومن عدل الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما للحساب . . لأن بعض الناس الذين
ظلموا وبغوا في الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا . . هل هؤلاء الذين أفلتوا في
الدنيا من العقاب هل يفلتون من عدل الله ؟ أبدا لن يفلتوا . بل إنهم انتقلوا من
عقاب محدود الى عقاب خالد . . وافتلوا من العقاب بقدرة البشر في الدنيا . . الى
عقاب بقدرة الله تبارك وتعالى في الآخرة . . ولذلك لا بد من وجود يوم يعيد
الميزان . . فيعاقب فيه كل من أفسد في الأرض وأفلت من العقاب . . بل إن الله
سبحانه وتعالى يجعل انسانا يفلت من عقاب الدنيا . . فلا تعتقد أن هذا خير له بل
انه شر له . . لأنه أفلت من عقاب محدود الى عقاب أبدي .

والحمد الكبير لله بأنه « مالك يوم الدين » . . وهو وحده الذي سيقضي بين
خلقه . فالله سبحانه وتعالى يعامل خلقه جميعا معاملة متساوية . . وأساس التقوى
هو يوم الدين .

وقبل ان نتكلم عن قول الحق تبارك وتعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » . .
لا بد أن نتحدث عن قضية مهمة . . فهناك نوعان من الرؤية . . الرؤية العينية أي
بالعين . . والرؤية الايمانية أي بالقلب . . وكلاهما مختلف عن الآخر . . رؤية العين
هي أن يكون الشيء أمامك تراه بعينيك ، وهذه ليس فيها قضية إيمان . . فلا تقول
أنى أؤمن أنى أراك أمامى لأنك ترائى فعلا . . مادمت ترائى فهذا يقين . . ولكن
الرؤية الايمانية هي أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك . . وتكون هذه الرؤية
أكثر يقينا من رؤية العين . . لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة . . وهذه قضية مهمة
جدا . .

وقد روى عمر بن الخطاب قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . لا يرى عليه أثر السفر . ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم . فأسند ركبته الى ركبته . ووضع كفيه على فخذيه قال : يا محمد أخبرني عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله . وأن محمدا رسول الله . وتقيم الصلاة . وتؤتي الزكاة . وتصوم رمضان . وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال : صدقت . فمعجبنا له يسأله ويصدق .

قال : فأخبرني عن الايمان

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وتؤمن بالقدر خيره وشره

قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الاحسان ، قال :

أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك

قال : فأخبرني عن الساعة

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل

قال : فأخبرني عن أماراتها

قال : أن تلد الأمة رببتها . وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

قال : ثم انطلق فلبث مليا . . ثم قال لي النبي صلى الله عليه وسلم :

يا عمر أتدري من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم

قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (١)

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . . هو بيان للرؤية الايمانية في النفس المؤمنة . . فالانسان حينما يؤمن ، لا بد أن يأخذ كل قضاياها برؤية ايمانية . . حتى اذا قرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمون . . واذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه . . وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون .

ذات يوم شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته وكان اسمه الحارث .. فقال له :
كيف أصبحت يا حارث ؟
فقال : أصبحت مؤمناً حقاً

قال الرسول : فانظر ما تقول . فإن لكل قول حقيقة . فما حقيقة إيمانك ؟
قال الحارث : عرفت نفسي عن الدنيا . فأسهرت ليل . وأظلمت نهارى . وكان
أنظر إلى عرش ربي بارزاً . وكان أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها . وكان أنظر إلى
أهل النار يتضاغون فيها . (يتصايحون فيها) .
قال النبي « يا حارث عرفت فالزم » (١)

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ..
يقول :

﴿الرَّكَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾

(سورة الفيل)

يأخذ بعض المستشرقين هذه الآية في محاولة للطعن في القرآن الكريم .. فقول
تعالى : « ألم تر » .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم ولد في عام الفيل .. أنه لم ير
لأنه كان طفلاً عمره أيام أو شهور ، لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم لقلنا
علم من غيره .. فالعلم تحصل عليه أنت أو يعطيه لك من علمه .. أى يعلمك

(١) رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، ورواه بنحوه : البيهقي وأبو هلال العسكري في
الأمثال ، وابن النجار في التاريخ . وللحديث شواهد ترقى به إلى درجة الحسن ، وقد رواه البيهقي في
الزهد عن الحارث بن مالك قال : أتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ رداءه فلبى فوضعه تحت
رأسه فسلمت عليه فقال لي : كيف أنت يا حارث ؟ فقلت : رجل من المؤمنين ، فقال : انظر ماذا تقول ؟
قال : قلت نعم رجل من المؤمنين حقاً .

فاستوى صلى الله عليه وسلم جالساً ثم قال : لكل شيء حقيقة .. فما حقيقة ذلك ؟ قال : قلت :
عرفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليل ، وانحصت نهارى وكان أنظر إلى عرش ربي كأن أريت أهل الجنة
يتزاورون فيها ، وكان أسمع عواء أهل النار فيها .. فقال : عرفت فالزم ، عبداً نور الله قلبه بالإيمان .



غيرك من البشر .. ولكن الله سبحانه وتعالى قال : « ألم تر » ..

نقول ان هذه قضية من قضايا الايمان .. فما يقوله الله سبحانه وتعالى هو رؤية صادقة بالنسبة للانسان المؤمن .. فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى قيام الساعة .. وقول الله : « ألم تر » .. معناها ان الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله يقرأ هذه الآية .. فما دام الله تبارك وتعالى قال : « ألم تر » .. فأنت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه .. هذه هي الرؤية الايمانية ، وهي أصدق من رؤية العين .. لأن العين قد تخدع صاحبها ولكن القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدا ..

على أن هناك ما يسمونه ضمير الغائب .. اذا قلت زيد حضر .. فهو موجود أمامك .. ولكن إذا قلت قابلت زيدا .. فكأن زيدا غائب عنك ساعة قلت هذه الجملة .. قابلته ولكنه ليس موجوداً معك ساعة الحديث ..

اذن فهناك حاضر وغائب ومتكلم .. الغائب هو من ليس موجوداً أو لا نراه وقت الحديث .. والحاضر هو الموجود وقت الحديث .. والمتكلم هو الذى يتحدث . وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة ، ولكن الايمان بما هو غيب عنا يعطينا الرؤية الايمانية التى هي كما قلنا أقوى من رؤية البصر .

فالله سبحانه وتعالى حين يقول « الحمد لله رب العالمين » .. « الله » غيب « ورب العالمين » غيب .. « والرحمن الرحيم » .. « غيب » .. « ومالك يوم الدين » غيب .. وكان السياق اللغوى يقتضى أن يقال إياه نعبد . ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق ونقله من الغائب الى الحاضر .. وقال : « إياك نعبد » فانتقل الغيب الى حضور المخاطب .. فلم يقل إياه نعبد .. ولكنه قال : « إياك نعبد » .. فأصبحت رؤية يقين ايمانى .

فأنت فى حضرة الله سبحانه وتعالى الذى غمرتك بالنعم ، وهذه تراها وتحيط بك لأنه « رب العالمين » .. وجعلك تطمئن الى فضائه لأنه « الرحمن الرحيم » أى أن ربوبيته جل جلاله ليست ربوبية جبروت بل هي ربوبية « الرحمن الرحيم » فإذا لم

تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التي تحسها وتعيش فيها . فاحذر من مخالفة منهجه لأنه «مالك يوم الدين» .

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات . . التي فيها فضائل الألوهية ، ونعم الربوبية . . والرحمة التي تمحو الذنوب والزهبة من لثامه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب الى محضر الشهود . . استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته . . ونعمه التي لا تحصى وقبوميته يوم القيامة . .

عندما تقرأ قوله تعالى : «اياك نعبد» فالعبرة هنا تفيد الخصوصية . . بمعنى أنني اذا قلت لانسان اننى سأقابلك ، قد أقابله وحده ، وقد أقابله مع جمع من الناس . ولكن اذا قلت اياك سأقابل . . فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة . .

الحق سبحانه وتعالى حين قال : «اياك نعبد» قصر العبادة على ذاته الكريمة . . لأنه لو قال نعبدك وحدك فهي لا تؤدي المعنى نفسه ؛ لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا . ولكن اذا قلت «اياك نعبد» وقدمت اياك . . تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده . فلا يجوز العطف عليها . . فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه افعل ولا تفعل . . ولذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله . لأنك تأق بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم . فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله . . ويتم هذا امام الناس جميعا في الصلاة . لإعلان خضوعك لله امام البشر جميعا .

ويستوى في العبودية الغنى والفقر والكبير والصغير . . حتى يطرد كل منا الكبير والاستعلاء من قلبه امام الناس جميعا فيساوى الحق جل جلاله بين عباده في الخضوع له وفي اعلان هذا الخضوع .

وقول الحق سبحانه وتعالى : «اياك نعبد» تنفى العبودية لغير الله . . أى لانعبد غير الله ولا يعطف عليها أبدا . . اذن «اياك نعبد» أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه . . وعلينا أن نلتفت الى قوله تبارك وتعالى :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وهكذا فإننا عندما نقول «الحمد لله» فإننا نستحضر موجبات الحمد وهي نعم الله ظاهرة وباطنة . . . وحين نقول «رب العالمين» نستحضر نعم الربوبية في خلقه وإخضاع كونه . . . وحين نستحضر «الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الاساءة بالاحسان وفتح باب التوبة . . . وحين نستحضر : «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك . . . فإذا استحضرنا هذا كله نقول : «إياك نعبد» أي أننا نعبد الله وحده . . . اذن عرفنا المطلوب منا وهو العبادة .

وهنا نتوقف قليلا لتحدث عما يطلقون عليه في اللغة «العلة والمعلول» إذا أراد ابنك ان ينجح في الامتحان فإنه لابد أن يذاكر . . . وعلة المذاكرة هي النجاح . . . فكأن النجاح ولد في ذهني أولا . بكل ما يحققه لي من ميزات ومستقبل مضمون وغير ذلك مما أريده وأسعى اليه .

إذن فالدافع قبل الواقع . . . أي أنك استحضرت النجاح في ذهنك . . . ثم بعد ذلك ذاكرت لتجعل النجاح حقيقة واقعة . وأنت إذا أردت مثلا أن تسافر الى مكان ما . فالسيارة سبب يحقق لك ما تريد وقطع الطريق سبب آخر . ولكن الدافع الذي جعلني أنزل من بيتي واركب السيارة وأقطع الطريق هو انني أريد أن أسافر الى الاسكندرية مثلا . . . الدافع هنا وهو الوصول الى الاسكندرية . . . هو الذي وجد في ذهني أولا ثم بعد ذلك فعلت كل ما فعلته لتحقيقه .

والله سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده . . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١)

(سورة الذاريات)

إذن فعلة الخلق هي العبادة . . . ولقد تم الخلق لتحقيق العبادة وتصبح واقعا . . . ولكن «العلة والمعلول» لا تنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى . . . نقول ليس هناك علة تعود على الله جل جلاله بالفائدة . لأن الله تبارك وتعالى غني عن العالمين . . . ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة ؛ فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئا في ملكه . . . وإنما عبادتنا تعود علينا

نحن بالخير في الدنيا والآخرة ..

أن أفعال الله لا تعلل ، والمأمور بالعبادة هو الذي سيتفجع بها .

ولكن هل العبادة هي الجلوس في المساجد والتسبيح أو أنها منهج يشمل الحياة كلها .. في بيتك وفي عملك وفي السعي في الأرض ؟ .. ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الانس والجن .. والله تبارك وتعالى له صفة القهر .. من هنا فإنه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ﴿ إِن نَّشَاءُ نُنْزِلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٥)

(سورة الشعراء)

فلو أراد الله أن يخضعنا لمنهجه قهراً .. لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته .. وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه .. فالجسد مقهور لله في أشياء كثيرة . القلب ينبض ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا .. والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئاً .. والدورة الدموية في أجسادنا لا إرادة لنا فيها .. وأشياء كثيرة في الجسد البشري كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى .. وليس لإرادتنا دخل في عملها .. وما يقع على في الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه .. لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث .. فلا أستطيع أن أمنع سيارة أن تصدمني .. ولا طائفة أن تحترق بي .. ولا كل ما يقع على من أقدار الله في الدنيا ..

اذن فمنطقة الاختيار في حياتي محددة .. لا أستطيع أن أتحكم في يوم مولدى .. ولا فيمن هو أب ومن هي أمى .. ولا في شكلى هل أنا طويل أو قصير؟ جميل أو قبيح أو غير ذلك . اذن فمنطقة الاختيار في الحياة هي المنهج أن أفعل أو لا أفعل . الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر .. ولكنه يريد من الانس والجن عبادة المحبوبة .. ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أن نأتيه أو لا نأتيه .. في أن نطيعه أو نعصيه . في أن نؤمن به أو لا نؤمن .

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتبه عن اختيار . تتنازل عما يخفضه جبا فيه ، وتفعل ما يطلبه جبا فيه وليس قهرا . . فإذا تخلّيت عن اختيارك إلى مرادات الله في منهجه . . تكون قد حققت عبادة المحبوبة لله تبارك وتعالى . . وتكون قد أصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله . . فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يقهرون عليه . ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله في التكليف . . ولذلك فإن الحق جل جلاله . . يفرق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد . . يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١٨٦)

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ إِحْسَانًا وَفِقَةً وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۚ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ ﴾

(سورة الفرقان)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادا . . ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول عبيد . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (١٨٦)

(سورة آل عمران)

ولكن قد يقول قائل : ان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ فَيقُولُ هَٰئِنَّمَا أُصَلِّتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُم ضَلُّوا ۚ ﴾

الْبَيْلِ (١٧٧)

(سورة الفرقان)

الحديث هنا عن العاصين والضالين . ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم عباد .
نقول إن هذا في الآخرة . . وفي الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد
المعبود تبارك وتعالى . . لأن الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار . . ونصبح
جميعا عباداً لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا في شيء .

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره في الحياة الدنيا في العبودية فلم
يقهره في شيء ولا يلزم غير المؤمن به بأى تكليف . . بل إن المؤمن هو الذى يلزم نفسه
بالتكليف ويمتثل لله فيدخل في عقد إيمان مع الله تبارك وتعالى . . ولذلك نجد أن
الله جل جلاله لا يخاطب الناس جميعاً في التكليف . . وإنما يخاطب الذين آمنوا
فقط فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٨٣)

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٨٤)

(سورة البقرة)

أى أن الله جل جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذى يدخل في عقد إيمان مع الله .
وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما نضعه في معيار العبادية يكون
القمة . فهو صلى الله عليه وسلم الذى حقق العبادية المرادة لله من خلق الله كما
يحبها الله . .

اذن فالذى يقول غاية الخلق كله محمد عليه الصلاة والسلام نقول ان هذا
صحيح ، لأنه صلى الله عليه وسلم حقق العبادية المثلى المطلوبة من الله تبارك
وتعالى . . والى هي علة الخلق . . وهكذا نعرف المقامات العالية لرسول الله صلى
الله عليه وسلم عند خالقه .

والله تبارك وتعالى قرن العبادة له وحده بالاستعانة به سبحانه .. فقال جل جلاله : «إياك نعبد وإياك نستعين» أى لانعبد سواك ولا نستعين إلا بك . والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك عن ذل الدنيا فانت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذ وقوته فكلها فى حدود بشريته ..

ولأننا نعيش فى عالم أغيار فإن القوى يمكن أن يصبح ضعيفا .. وصاحب النفوذ يمكن أن يصبح فى لحظة واحدة طريداً شريداً لا نفوذ له .. ولو لم يحدث هذا .. فقد يموت ذلك الذى تستعين به فلا تجد احداً يعينك .

ويريد الله تبارك وتعالى أن يحرر المؤمن من ذل الدنيا .. فيطلب منه أن يستعين بالحقى الذى لا يموت .. وبالقوى الذى لا يضعف ، وبالقاهر الذى لا يخرج عن أمره أحد .. وإذا استعنت بالله سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك . وهو وحده الذى يستطيع أن يحول ضعفك الى قوة وذلك الى عز .. والمؤمن دائماً يواجه قوى أكبر منه ذلك أن الذين يحاربون منهج الله يكونون من الأقوياء ذوى النفوذ الذين يحبون أن يستعبدوا غيرهم .. فالمؤمن سيدخل معهم فى صراع .. ولذلك فإن الحق يحض عباده المؤمنين بأنه معهم فى الصراع بين الحق والباطل .. وقوله تعالى : «إياك نستعين» مثل : «إياك نعبد» .. أى نستعين بك وحدك وهى دستور الحركة فى الحياة .. لأن استعان معناها طلب المعونة ، أى أن الانسان استنفذ أسبابه ولكنها خذلت .. حيث لا بد أن يتذكر أن له رباً لا يعبد سواه . لن يتخل عنه بل يستعين به .. وحين تتخل الأسباب فهناك رب الأسباب وهو موجود دائماً .. لا يغفل عن شيء ولا تفوته همسة فى الكون .. ولذلك فإن المؤمن يتجه دائماً الى السماء .. والله سبحانه وتعالى يكون معه .



﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^٦ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمُضْطَرِّبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^٧

بعد أن أمنت بالله سبحانه وتعالى إلها وربا .. واستحضرت عطاء الألوهية ونعم الربوبية وفيوضات رحمة الله على خلقه . وأعلنت أنه لا إله إلا الله . وقولك : «إياك نعبد» أي أن العبادة لله تبارك وتعالى لا نشرك به شيئا ولا نعبد إلا إياه . . وأعلنت أنك ستستعين بالله وحده بقولك : «إياك نستعين» . فانك قد أصبحت من عباد الله . ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذي يتمناه كل مؤمن . . ومادمت من عباد الله ، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك . . مصداقا لقوله سبحانه :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١٨٦)

(سورة البقرة)

والمؤمن لا يطلب الدنيا أبدا . . لماذا ؟ . . لأن الحياة الحقيقية للانسان في الآخرة . فيها الحياة الأبدية والنعيم الذي لا يفارقه ولا يفارقه . فالمؤمن لا يطلب مثلا أن يرزقه الله مالا كثيرا ولا أن يمتلك عمارة مثلا . . لأنه يعلم أن كل هذا وفقى وزائل . . ولكنه يطلب ما ينجيه من النار ويوصله الى الجنة . . ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب . . وهذا يستوجب الحمد لله . . وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم : «إهدنا الصراط المستقيم» والهداية نوعان : هداية دلالة وهداية معونة . هداية الدلالة هي للناس جميعا . . وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله . والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أي دلهم على طريق الخير وبينه لهم . . فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه . . ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد . .

هذه الهداية العامة هي أساس البلاغ عن الله . فقد بين لنا الله تبارك وتعالى في منهجه بأفعل ولا تفعل ما يرضيه وما يغضبه . . . وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه لنهتدى . والطريق الذي لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه . . . ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟ . . نقول لا . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهْدِيَّتُهُمْ فَاتَّخَبُوا أَلْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخْلَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُورِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة فصلت)

اذن هناك من لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذي أعطاه الله له . . فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعا مهديين . . ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته . ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورغبة بدلا من أن يقهرنا على الطاعة . . ما الذي يحدث للذين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعى في كونه ؟

الذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحببهم في الايمان والتقوى ويحببهم في طاعته . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة محمد)

أى أن كل من يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه . . ويزيده تقوى وحباً في الدين . . أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه . . فإن الله تبارك وتعالى يتخل عنهم ويتركهم في ضلالهم . واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢١﴾﴾

(سورة الزخرف)

والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الايمان وهم ثلاثة
كما بينهم لنا في القرآن الكريم:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَإَيَّهِدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ ذَٰلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَاسْمِعُوا ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعَثُ قَالُوا أَنَا أَنَحِيءُ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَلِمَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ قَالَتْ بِهِمَا مِنَ الْمَغْرِبِ فُبِتَ الَّذِي كَفَرَ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

اذن فالطروحين من هداية الله في المعونة على الايمان هم الكافرون والفاسقون والظالمون . . الحق سبحانه وتعالى يقول : «اهدنا الصراط المستقيم» ما هو الصراط ؟ . . إنه الطريق الموصلة الى الغاية . ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم . لان الله سبحانه وتعالى وضع لنا في منهجه الطريق المستقيم . . وهو أقصر الطرق الى تحقيق الغاية . . فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم . ولذلك إذا كنت تقصد مكانا فأقصر طريق تسلكه . هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولكنه مستقيم تماما . .

ولا تحسب ان البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير . بل باعوجاج صغير جدا ولكنه ينتهي الى بعد كبير . .

ويكفى أن تراقب قضبان السكة الحديد . . . عندما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذي كان يسلكه فهو لا ينحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات . . . أي أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا . بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذي مشيت فيه . . . يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات . . . إذن فأى انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا . . . ولذلك فإن الدعاء : «اهدنا الصراط المستقيم» أى الطريق الذى ليس فيه اعوجاج ولو بضعة ملليمترات . . . الطريق الذى ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الانسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه الى اقصر الطرق للوصول الى الغاية . . . وماهى الغاية ؟ انها الجنة والنعيم فى الآخرة . . . ولذلك نقول يارب اهدنا وأعنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا الى الجنة دون أن يكون فيه أى اعوجاج يبعدنا عنها .
ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى . انه اذا قال العبد : «اهدنا الصراط المستقيم» يقول جل جلاله : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .
يقول الحق تبارك وتعالى : «صراط الذين انعمت عليهم» ما معنى «الذين انعمت عليهم» ؟ . . . اقرأ الآية الكريمة :

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ٥١﴾

(سورة النساء)

وانت حين تقرأ الآية الكريمة فانت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . . أى أنك تطلب من الله جل جلاله أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون معهم فى الآخرة . . . فكأنك تطلب الدرجة العالية فى الجنة . . . لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال فى جنة النعيم . . . وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الذى لا اعوجاج فيه . والذى يوصلك فى أسرع وقت الى الدرجة العالية فى الآخرة .

وعندما نعرف ان الله سبحانه وتعالى قال : (هذا لعبدى ولعبدى ما سأل) ..
نعرف ان الاستجابة تعطيك الحياة العالية في الآخرة وتمتلك بنعيم الله . ليس
بقدرات البشر كما يحدث في الدنيا .. ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى .. واذا كانت
نعم الدنيا لا تعد ولا تحصى .. فكيف بنعم الآخرة ؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى
عنها :

﴿ لَمْ يَأْسَأْ مِنْ فَيْءٍ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

(سورة ق)

اى أنه ليس كل ما نطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك - ولكن
مهما طلبت من النعم ومهما تمنيت فالله جل جلاله عنده مزيد .. ولذلك فانه يعطيك
كل ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم .. وهذا تشبيه فقط ليقرب
الله تبارك وتعالى صورة النعيم الى أذهاننا ، ولكن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبما أن المعاني لا بد أن توجد أولا في العقل ثم يأتي اللفظ المعبر عنها .. فكل شيء
لا نعرفه لا توجد في لغتنا ألفاظ تعبر عنه . فنحن لم نعرف اسم التليفزيون مثلا
إلا بعد أن اخترع وصار له مفهوم محدد . تماما كما لم نعرف اسم الطائرة قبل أن يتم
اختراعها .. فالشيء يوجد أولا ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه . ولذلك فإن
مجامع اللغات في العالم تجتمع بين فترة وأخرى . لتضع أسماء لأشياء جديدة اخترعت
وعرفت مهمتها ..

ومادام ذلك هو القاعدة اللغوية ، فإنه لا توجد الفاظ في لغة البشر تعبر عن النعيم
الذى سيعيشه اهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب ..
ولذلك فإن كل مانقرؤه في القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط . ولكنه لا يعطينا
حقيقة ما هو موجود . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الجنة في

القرآن الكريم يقول :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُوعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ نَعِيمٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كُنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ۖ﴾ (١٥)

(سورة محمد)

أى أن هذا ليس حقيقة الجنة ولكنها مثل فقط يقرب ذلك الى الازهان . . لأنه لا توجد الفاظ في لغات البشر يمكن أن تعطينا حقيقة ما في الجنة .

وقوله تعالى : «غير المغضوب عليهم» . . أى غير الذين غضبت عليهم يارب من الذين عصوا . ومنعت عنهم هداية الاعانة . . الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه .

ومعنى غير «المغضوب عليهم» أى يارب لا تيسر لنا الطريق الذى نستحق به غضبك . كما استحقه أولئك الذين غيروا وبدلوا في منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية في الحياة الدنيا وليأكلوا اموال الناس بالباطل . .

وقد وردت كلمة «المغضوب عليهم» في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۖ﴾ (٢٠)

(سورة المائدة)

وهذه الآيات نزلت في بني اسرائيل .

وقول الله تعالى : «ولا الضالين» هناك الضال والمضل . . الضال هو الذي ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله . . ومشى في الضلالة بعيدا عن الهدى وعن دين الله . . ويقال ضل الطريق أى مشى فيه وهو لا يعرف السبيل الى ما يريد أن يصل اليه . . أى أنه تاه في الدنيا فأصبح وليا للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم . . هذا هو الضال . . ولكن المضل هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار في الحياة على غير هدى . . بل يحاول أن يأخذ غيره الى الضلالة . . يغرى الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج والبعد عن طريق الله . . وكل واحد من العاصين يأى يوم القيامة يحمل ذنوبه . . الا المضل فإنه يحمل ذنوبه وذنوب من أضلهم . مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٢٥)

(سورة النحل)

أى أنك وأنت تقرأ الفاتحة تستعبد بالله أن تكون من الذين ضلوا . . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين . نقول انك لكى تكون مضلا لا بد أن تكون ضالا أولا . . فالاستعاذة من الضلال هنا تشمل الاثنين . لأنك مادمت قد استعذت من أن تكون ضالا فلن تكون مضلا أبدا .

بقى أن نتكلم عن ختم فاتحة الكتاب . بقولنا آمين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين ، فهى من كلام جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست كلمة من القرآن .

وكلمة آمين معناها استجب يارب فيما دعوناك به من قولنا : «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم» أى أن الدعاء هنا له شيء مطلوب تحقيقه . وآمين دعاء لتحقيق المطلوب . . وكلمة آمين اختلف العلماء فيها . . أهى عربية أم غير عربية .

وهنا ينشور سؤال . . كيف تدخل كلمة غير عربية فى قرآن حكم الله بأنه عربى . . ؟ نقول أن ورود كلمة ليست من أصل عربى فى القرآن الكريم لا ينفى

أن القرآن كله عربي . بمعنى أنه إذا خوطب به العرب فهموه . . . وهناك الفاظ دخلت في لغة العرب قبل أن ينزل القرآن . . . ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية وألفتها الأذان العربية . . .

فليس المراد بالعربي هو أصل اللغة العربية وحدها . . . وإنما المراد أن القرآن نزل باللغة التي لها شيوخ على ألسنة العرب . . . ومادام اللفظ قد شاع على اللسان فولا وفي الأذان سمعا . فإن الأجيال التي تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات التي هي من أصل عربي . . . فاللفظ الجديد أصبح عربيا بالاستعمال وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوخ الكلمة العربية .

واللغة الفاظ يصطلح على معانيها . بحيث إذا أطلق اللفظ فهم المعنى . واللغة التي تتكلمها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف . . . الاسم كلمة والفعل كلمة والحرف كلمة . . . والكلمة لها معنى في ذاتها ولكن هل هذا المعنى مستقل في الفهم أو غير مستقل . . . إذا قلت محمد مثلا فهمت الشخص الذي سمي بهذا الاسم فصار له معنى مستقل . . . وإذا قلت كتب فهمت أنه قد جمع الحروف لتقرأ على هيئة كتابة . . . ولكن إذا قلت ماذا وهي حرف فليس هناك معنى مستقل . . . وإذا قلت « في » دلت على الظرفية ولكنها لم تدلنا على معنى مستقل . بل لا بد أن تقول الماء في الكوب . . . أو فلان على الفرس . . . غير المستقل في الفهم نسميه حرفا لا يظهر معناه إلا بضم شيء له . . . والفعل يحتاج إلى زمن ، ولكن الاسم لا يحتاج إلى زمن . . .

أذن الاسم هو مادل على معنى مستقل بالفهم وليس الزمن جزءا منه . . . والفعل مادل على فعل مستقل بالفهم والزمن جزء منه . . . والحرف دل على معنى غير مستقل . . . ما هي علامة الفعل هي أنك تستطيع أن تسند إليه تاء الفاعل . . . أي تقول كتبت والفاعل هو المتكلم . . . ولكن الاسم لا يضاف إليه تاء الفاعل فلا تقول محمدت . . . إذا رأيت شيئا يدل على الفعل أي يحتاج إلى زمن . . . ولكنه لا يقبل تاء الفاعل فإنه يكون اسم على فعل .

أمين من هذا النوع ليست فعلا فهي اسم مدلوله مدلول الفعل . . . معناه استجب . . . فأنت حين تسمع كلمة « أه » أنها اسم لفعل بمعنى اتوجه . . . وساعة

تقول وأفء اسم فعل بمعنى اتضجر .. وأمين اسم فعل بمعنى استجب .. ولكنك تقولها مرة وأنت القارئ ، وتقولها مرة وأنت السامع . فساعة تقرأ الفاتحة تقول آمين .. أى أنا دعوت يارب فاستجب دعائى .. لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فانك لا تكفى بقول اهدنا ولكن تطلب من الله الاستجابة . وإذا كنت تصل في جماعة فأنت تسمع الامام وهو يقرأ الفاتحة .. ثم تقول آمين . لأن المأموم أحد الداعين .. الذى دعا هو الامام ، وعندما قلت آمين فأنت شريك في الدعاء .. ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على اموال قوم فرعون ويهلكهم قال الله لموسى :

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكَ فَاستَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)

(سورة يونس)

أى أن الخطاب من الله سبحانه وتعالى موجة الى موسى وهارون . ولكن موسى عليه السلام هو الذى دعا .. وهارون أمن على دعوة موسى فأصبح مشاركا في الدعاء .



سورة البقرة



سورة البقرة

نأتي بعد فاتحة الكتاب إلى سورة البقرة .. وهي التي تلي الفاتحة في ترتيب المصحف الشريف .. وإذا نظرنا إلى اسم السورة وجدنا أنه لا بد أن يشير انتباهنا .. لأن القرآن الكريم نزل في بيئة عربية . ولم تكن البقرة وقت نزول القرآن الكريم حيوانا معروفا أو من الانعام التي يعرفها العرب في ذلك الوقت .

نقول إن اسم السورة قد أخذ من قضية أساسية في الدين وهي الإيمان بالبعث .. والإيمان بالبعث هو أساس الدين .. فمن لا يؤمن بالآخرة والبعث والحساب يفعل ما يشاء في الدنيا دون أي وازع . لأنه مادام ليس هناك بعث تصبح الدنيا غابة .. ويصبح الدين بلا مفهوم .. لأن أساس العبادة هو أن الحياة الحقيقية في الآخرة .. وأن الدنيا هي دار إختبار ودار أغيار .. أما الآخرة فهي دار نعيم مقيم . ففي الدنيا إما أن تفارق النعمة وإما تفارقك .. تفارقها بالموت .. أو تفارقك بأن تزول عنك . أما الحياة التي لا تفارقك فيها النعمة ولا تفارقها فهي الآخرة .. لذلك فإن كل عمل المؤمن في الدنيا مقصود به الجزاء في الآخرة .

ومنهج الله في الأرض بقودك إلى الجنة إن طبقت ، وإلى النار والعياذ بالله إن خالفت .. إذن فقضية الإيمان كلها مبنية على الإيمان بالبعث . وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بني إسرائيل .. ورأوا البعث وهم مازالوا في الدنيا ، حين بعث الله سبحانه وتعالى قتيلا لينطق باسم قاتله .. ثم مات بعد ذلك .

والقصة أن رجلا من بني إسرائيل .. كان ثريا يملك المال الكثير ولم يكن له ولد يرثه .. فتأمر عليه ابن أخيه فقتله ليلا ثم أخذ الجثة وألقاها في مكان قريب من إحدى القرى المجاورة لبيتهم أهل هذه القرية بقتله .. وصحبا أهل القرية ليجدوا جثة القتيل على باب قريتهم .. واتهموا فيه وقالوا لم نقتله . وقال أقارب القتيل بل أنتم الذين قتلتموه . واحتدم الخلاف وذهبوا إلى موسى عليه السلام . وقالوا إن الخلاف قد احتدم .. فاسأل لنا ربك أن يكشف لنا عن القاتل .. وجاءت القصة

في سورة البقرة في قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكَرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهُ عَلِينَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَ فِيهَا قَالُوا أَلَن نَحْمِلَ جُنَاحَ ظِلِّهَا فَإِنْ ذَبُحْنَاهَا مَا كَادُوا بِفَعْلٍ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكَ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمر بني إسرائيل أن يذبحوا البقرة ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة وأخذوا بعضها منها ليضربوا به القنيل . لعادت الحياة اليه ونطق باسم قاتله . . ولكنهم بدلا من أن يستقبلوا أوامر الله سبحانه وتعالى بالتنفيذ . . استقبلوها أولا بعدم التصديق . . و : «قالوا اتخذنا هزوا» وظلوا يشددون على انفسهم بطلب أوصاف البقرة حتى جاء الايضاح من الحق تبارك وتعالى بعمر البقرة ولونها وكل ما يخصها .

وكان لهذا حكمة عند الله سبحانه وتعالى لخدمة قضية ايمانية اخرى . . وقد كان هناك رجل صالح من بني إسرائيل . . يتحرى الدقة في كسبه ولا يرضى إلا بالحلال . وكان رجلا يتقنى وجه الله في كل ما يفعل . . وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هي بقرة صغيرة وكان ابنه طفلا . . واحتار الرجل من يوصى على هذه البقرة التي هي كل ثروته التي تركها لابنه وزوجته . . واتجه الى الله سبحانه وتعالى وقال اللهم اني استودعتك هذه البقرة فاحفظها لابني حتى يكبر . لأنه لم يجد أمينا على

ابنه إلا يد الله سبحانه وتعالى . ثم قال لزوجته إنى لم أجد بدا آمن من يد ربي
استودعته البقرة الصغيرة . . وسأله زوجته أين البقرة ؟ قال أطلقتها فى المراعى . .
ثم أسلم الروح . .

وكبر الابن فحكى له أمه ما حدث . فقال الابن وأين أجد البقرة لاستردها ؟
قالت الأم لقد استودع أبوك البقرة عند خالق الكون . فقل ربى أتوكل على الله
وابحث عنها . . فقال الابن اللهم رب ابراهيم ويعقوب رد على ما استودعك أبى .
ثم انطلق الى الحقل فوجد البقرة . . وكانت هذه هى البقرة التى ذكرت أوصافها لبني
اسرائيل . . فذهبوا ليشتروها فقال الابن لن أبيعها إلا بجلء جلد لها ذهباً فدفعوا
له . .

وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل الله حفيظاً على اولاده يرعاهم ويسر لهم
أمورهم . وقد أوضح الله تعالى هذه الحقيقة فى سورة الكهف . . عندما جاء العبد
الصالح وبني الجدار ليحفظ كنز يتيمين كان أبوهما صالحا . . واقرا قول الحق
سبحانه :

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

(سورة الكهف)

وهكذا كانت الحكمة الإلهية أن الرجل الصالح الذى استودع كل ما كان يملك
عند الله . . بارك الله له فيه ووجد ابنه عندما يبلغ سن الشباب ثروة كبيرة .

وعندما ذبحوا البقرة . ضربوا ببعضها الفتيل كما أمرهم الله سبحانه وتعالى فإذا
به يبعث وينطق اسم قاتله ثم يموت مرة أخرى . . وهكذا سميت السورة باسم
سورة البقرة إثباتاً لقضية أساسية فى الدين وهى قضية الايمان بالبعث .

وأما بداية القرآن بسورة مدنية بدلا من سورة مكية . . فنقول إنه يجب أن نفهم
أولا ما هو مكى وما هو مدنى . فمكة والمدينة مكانان مقدسان . . الأول شهد بداية

النبوة وبداية نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم . . والثاني كان مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعندما نقول مكى ومدن في القرآن الكريم ، لابد أن نلاحظ عدة أشياء . . أولا الحدث الذي نزلت من أجله الآية . . وثانيا مكان الحدث وثالثا الزمان الذي نزلت فيه ، فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه . وفاعل . ومن يقع عليه الفعل . . وسبب للحدث وقدرة على الفعل . .

وبالنسبة لنزول القرآن الكريم . . الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . والذي نزل عليه القرآن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمكان هو إما مكة وإما المدينة . . فنزول القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول ، والقرآن هو هداية البشر الى منهج الله . . والله سبحانه وتعالى وضع في القرآن الكريم دستورا سماويا لكل رسالات الله للبشر . . فنزول القرآن الكريم اكتملت الرسالات السماوية . وجاء الدين الخاتم الذي يظل دستورا للدنيا حتى يوم القيامة . . فجاء القرآن الكريم بقصة خلق السموات والأرض وقصة خلق الانسان . . وجاء بقصص الرسل والأنبياء الذين سبقوا نزول القرآن الكريم وصحح ما زيف منها وعدل ما حُرف منها لتأتي صادقة فيما أبلغ به الرسل عن الله . وتأتي ناسخة لكل ما عبثت به أيدي البشر في الرسالات السابقة على نزول القرآن . . وتأتي مصححة لكل كلام بشري أضيف الى منهج الله ونسب اليه زورا وبهتانا . . وتأتي بما كتبه أهل الديانات القديمة وأخبار اليهود ورجال النصارى عن الناس . .

إنه يفضح كل تحريف أو كتم أو إخفاء أو تزيف أو إضافة بشرية لدين الله في الرسالات السابقة . ويزيد عليه من منهج الله ليصحح القرآن الكريم المنهج الكامل المتكامل لعبادة الله في الأرض . . ويتضمن منهج السماء منذ عهد آدم الى قيام الساعة .

ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهل هي مكية أو مدنية .

فالذين أخذوا بعنصر الزمان مقياسا قالوا إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة تعتبر مدنية . . حتى ولو نزلت في مكة . . والذين اتخذوا مقياس المكان قالوا إن كل سورة نزلت في مكة فهي مكية ، وكل سورة نزلت في المدينة فهي مدنية ، وذلك بصرف النظر عن أنها نزلت قبل الهجرة أو بعدها . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه سور في مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول إنه لأخلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره . بل أن كل فريق أخذ الموضوع من زاوية معينة . . بعضهم نظر الى زاوية المكان ، وبعضهم نظر الى زاوية الزمان . ولم يختلف العلماء في سور القرآن الكريم ذاته أو آياته .

عندما ننظر الى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التي نزلت بالمدينة . . ففيها الطابع المدني والطابع المكي . . الطابع المكي في سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة . . ذلك أن الآيات والسور المكية نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه الوثنيين عبدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين وعدداً من أهل الكتاب الذين ضعفتم صلتهم بالسماء لأنهم نسوا ما قاله رسلهم فحرفوه . . وكان لابد للقرآن أن يواجه هؤلاء جميعاً ويبين لهم أنهم على باطل وأنهم يعبدون الهة لا تنفع ولا تضر . . بل آلهة مصنوعة من أدنى أجناس الأرض وهي الحجارة . . بينما الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان وجعله خليفة في هذا الكون .

وكان لابد للقرآن ان يخبرهم أن هناك بعثاً بعد الموت . . وأن هناك جنة وناراً وأن الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة . . وكان لابد أن يحذرهم من عذاب الله . ومن يوم سيلقونه فيه ولا يستطيع أحد منهم هرباً من ذلك اليوم العظيم . . وكان لابد أن يلفتهم الى آيات الله في الكون الدالة على أنه الموجد والمخالق . . وأن يواجه ما باتى به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستفهام ، وحقيقتها محاولة الطعن في الاسلام .

وكانوا يظنون أنه ربما يأتي محمد عليه الصلاة والسلام بشيء من عنده فيخطيء . . فجاء القرآن ليساوى بين البشرية كلها . . فلا فضل لغنى لماله ولا قلة لفقر في الأجر . . بل الناس امام الله سواسية كأسنان المشط .

كان هذا هو اساس الدعوة في مكة . . ايمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتثبيت للمؤمنين في الفترة التي كانوا فيها قلة وكانوا فيها ضعفاء وكانوا أذلة .

وتثبيت الايمان كان يقتضى تذكيرهم دائماً بأن الله معهم . . وإن ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب . وإن ماتوا على دين الاسلام دخلوا الجنة . ومن يبقى منهم على كفره عذب في النار ، وأن كل مشقة في سبيل الله لها أجر في الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون .

وإذا انتقلنا بعد ذلك الى مجتمع المدينة . . فهناك صورة أخرى ووجه فيها الاسلام بالكفار وعبداء الاوثان ومزورى التوراة من اليهود وعدو جديد هم المنافقون . . وقد كانت هناك عداوة جاهلة في مكة ، أما في المدينة فقد ووجه الاسلام بعداوة عامة . . وهم المنافقون . . فلم يكن هناك نفاق في مكة ، فالضعيف والمضطهد لا يُنَاق . . فمناذا الذى كان يدعى في مكة أنه مؤمن وهو كافر . . ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد . ولكن في المدينة عندما قوى الاسلام وكانت له دولة ظهر في المجتمع النفاق . واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة عداوة من لون جديد . . ليخوض صراعا مع المنافقين واليهود . . وبجانب التوحيد والرد على المنافقين واليهود كان هناك المجتمع الاسلامى . . وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكى ينهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة وكانت هناك غزوات ، وكان هناك أحكام بافعل ولا تفعل .

كل هذا لم يكن موجودا في مكة ، فقد اقتضى نزول القرآن الكريم في مكة أن تكون آياته في معظمها عن العقيدة وعن الجنة والنار ، وعن الأجر الذى ينتظر المؤمنين في الآخرة ، وعن العذاب الذى ينتظر الكفار .

وكانت الآيات في المدينة عن الأحكام والمجتمع الاسلامى والمعاملات وكيفية انقاء المنافقين . وان كانت الآيات في المدينة لم تهمل العقيدة بل أكدتها . . وعندما جاء جبريل عليه السلام ليرتب المصحف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الترتيب الذى نعرفه الآن . . كان الاسلام قد انتشر واعتنقه كثيرون . لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم . . وما يجب أن يفعلوه ولا يفعلوه .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلم المسلمين الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . يريد أن يعلمهم أحكام دينهم . فالعقيدة موجودة وبقي أن نعمل ونطبق المنهج فى إفعل ولا تفعل .

ولقد جاءت سورة البقرة متضمنة التعريف بقوة الاسلام .. وبحكمة القرآن
وبعلم الله سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، واشتملت على قصة
خلق الانسان الأول آدم عليه السلام . وقصة ابراهيم في بحثه عن الايمان وقصة بناء
الكعبة الشريفة .. وركزت على اليهود باعتبارهم أشد الناس عداوة للاسلام ..
واقراً قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (٨٢)

(سورة المائدة)

جاءت سورة البقرة ببعض التكاليف الایمانية .. فتحدثت عن الصوم والحج
والخمر والربا وأكل اموال الناس والزواج والطلاق والرضاع .. كما حددت صور
التعامل بالمال في المجتمع الاسلامي .. وما كان الاسلام ليتعرض لهذه الأحكام في
مكة .. لأنه لم يكن هناك المجتمع الاسلامي الذي يتطلبها .



﴿ آله ﴾

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى : «الم» .. وهذه الحروف حروف مقطعة .. ومعنى مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده . لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات .. فالناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه .. فعندما تقول كتب تنطق بمسميات الحروف . فإذا أردت أن تنطق بأسمائها . تقول كاف وتاء وباء .. ولا يمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس ، أما ذلك الذي لم يتعلم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لا ينطق بأسمائها ، ولعل هذه أول ما يلفتنا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولذلك لم يكن يعرف شيئاً عن أسماء الحروف . فإذا جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إعجازاً من الله سبحانه وتعالى .. بأن هذا القرآن موحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم درس وتعلم لكان شيئاً عادياً أن ينطق بأسماء الحروف . ولكن تعال إلى أي أمي لم يتعلم .. انه يستطيع أن ينطق بمسميات الحروف .. يقول الكتاب وكوب وغير ذلك .. فإذا طلبت منه أن ينطق بأسماء الحروف فانه لا يستطيع أن يقول لك . ان كلمة كتاب مكونة من الكاف والتاء والألف والباء .. وتكون هذه الحروف دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن ربه . وأن هذا القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى .

ونجد في فواتح السور التي تبدأ بأسماء الحروف . تنطق الحروف بأسمائها وتجد الكلمة نفسها في آية أخرى تنطق بمسمياتها . فآلم في أول سورة البقرة نطقها بأسماء الحروف الف لام ميم . بينما تنطقها بمسميات الحروف في شرح السورة في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ①

وفي سورة الفيل في قوله تعالى :

﴿الرَّكَيفَ فَقَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾

(سورة الفيل)

ما الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ينطق «الم» في سورة البقرة بأسماء الحروف . . وينطقها في سورتي الشرح والفيل بمسميات الحروف . لا بد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من الله كما نقلها جبريل عليه السلام اليه هكذا . اذن فالقرآن أصله السماع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه . لتعرف أن هذه تُقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ الم . . مع أن الكتابة واحدة في الاثنين . . ولذلك لا بد أن تستمع الى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تتلوه . . والذى يتعب الناس أنهم لم يجلسوا الى فقيه ولا استمعوا الى قارىء . . ثم بعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأى كتاب . نقول لا . . القرآن له تميز خاص . . انه ليس كأى كتاب تقرأه . . لأنه مرة يأتي باسم الحرف . ومرة يأتي بمسميات الحرف . وانت لا يمكن ان تعرف هذا إلا إذا استمعت لقارىء يقرأ القرآن .

والقرآن مبنى على الوصل دائماً وليس على الوقف ، فاذا قرأت في آخر سورة يونس مثلاً : «وهو خير الحاكمين» لاتجد النون عليها سكون بل تجد عليها فتحة ، موصولة بقول الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم . ولو كانت غير موصولة لوجدت عليها سكونا .

اذن فكل آيات القرآن الكريم مبنية على الوصل . . ما عدا فواتح السور المكونة من حروف فهي مبنية على الوقف . . فلا تقرأ في أول سورة البقرة : «الم» والميم عليها ضمة . بل تقرأ ألفا عليها سكون ولما عليها سكون وميمها عليها سكون . اذن كل حرف منفرد بوقف . مع أن الوقف لا يوجد في ختام السور ولا في القرآن الكريم كله .

وهناك سور في القرآن الكريم بدأت بحرف واحد مثل قوله تعالى :

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾

(سورة ص)

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ①

(سورة القلم)

ونلاحظ أن الحرف ليس آية مستقلة . بينما «الم» في سورة البقرة آية مستقلة . و : «حم» . و : «عسق» آية مستقلة مع أنها كلها حروف مقطعة . وهناك سور تبدأ بآية من خمسة حروف مثل «كهيعص» في سورة مريم . . . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف . مثل «المص» في سورة «الأعراف» . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف وهي ليست آية مستقلة مثل «المرا» في سورة «الرعد» متصلة بما بعدها . . . بينما نجد سورة تبدأ بحرفين هما آية مستقلة مثل : «يس» في سورة يس . و«حم» في سورة غافر وفصلت . . . و : «طس» في سورة النمل . وكلها ليست موصولة بالآية التي بعدها . . . وهذا يدلنا على أن الحروف في فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة .

«الم» مكونة من ثلاثة حروف تجدها في ست سور مستقلة . . . فهي آية في البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم والسجدة ولقيان . و«الر» ثلاثة حروف ولكنها ليست آية مستقلة . . . بل جزء من الآية في أربع سور هي : يونس ويوسف وهود وإبراهيم . . . و : «المص» من أربعة حروف وهي آية مستقلة في سورة «الأعراف» و«المرا» أربعة حروف ، ولكنها ليست آية مستقلة في سورة الرعد إذن فالمسألة ليست قانوناً عاماً ، ولكنها خصوصية في كل حزب من الحروف

وإذا سألت ما هو معنى هذه الحروف ؟ . . . نقول أن السؤال في أصله خطأ . . . لأن الحرف لا يسأل عن معناه في اللغة إلا إن كان حرف معنى . . . والحروف نوعان : حرف مبنى وحرف معنى . حرف المبنى لا معنى له إلا للدلالة على الصوت فقط . . . أما حروف المعاني فهي مثل في . ومن . . . وعلى . . . (في) تدل على الظرفية . . . (من) تدل على الابتداء (إلى) تدل على الانتهاء . . . (على) تدل على الاستعلاء . . . هذه كلها حروف معنى .

وإذا كانت الحروف في أوائل السور في القرآن الكريم قد خرجت عن قاعدة الوصل لأنها مبنية على السكون لا بد أن يكون لذلك حكمة . . . أولا لنعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة

بَعَثَرُ امْثَالُهَا ، لا اقولُ اَلَمْ حرفٌ ولكن اَلْفَ حرفٌ وَاَلَمْ حرفٌ وميمٌ حرفٌ (١) .

ولذلك ذكرت في القرآن كحروف استقلالية لنعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن الكريم أننا نأخذ حسنة على كل حرف . فإذا قرأنا بِسْمِ الله الرحمن الرحيم . يكون لنا بالباء حسنة وبالسین حسنة وبالميم حسنة فيكون لنا ثلاث حسنات بكلمة واحدة من القرآن الكريم . والحسنة بعشر أمثالها . وحينما نقرأ وألمء ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه سواء فهمناه أم لم نفهمه . . وقد يضع الله سبحانه وتعالى من أسرارِهِ في هذه الحروف التي لا نفهمها ثواباً وأجراً لا نعرفه .

ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر . .

والقرآن الكريم ليس اعجازاً في البلاغة فقط . ولكنه يحوى اعجازاً في كل ما يمكن للعقل البشرى أن يحوم حوله . فكل مفكر متدبر في كلام الله يجد اعجازاً في القرآن الكريم . فالذى درس البلاغة رأى الاعجاز البلاغى ، والذى تعلم الطب وجد إعجازاً طبياً في القرآن الكريم . وعالم النباتات رأى اعجازاً في آيات القرآن الكريم ، وكذلك عالم الفلك . .

وإذا أراد انسان منا أن يعرف معنى هذه الحروف فلا نأخذها على قدر بشريتنا . . ولكن نأخذها على قدر مراد الله فيها . . وقدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة . فكل منا يملك مفتاحاً من مفاتيح الفهم كل على قدر علمه . . هذا مفتاح بسيط يفتح مرة واحدة وآخر يدور مرتين . . وآخر يدور ثلاث مرات وهكذا . . ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح ، أو يملك المفتاح الذى يفتح كل الأبواب . .

ونحن لا يصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف . فحياة البشر تقتضى منا في بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا . . وإن كانت تمثل أشياء ضرورية بالنسبة لنا . تماماً ككلمة السر التي تستخدمها الجيوش لا معنى لها إذا سمعتها . ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت . . فخذ كلمات الله التي تفهمها بمعانيها . . وخذ الحروف التي لا تفهمها بمرادات الله فيها . فإله سبحانه وتعالى شاء أن يبقى معناها في الغيب عنده .

والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى نتنبه ونحن نتلوه أو نكتبه . لذلك
تجد مثلاً بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين . ومرة تجدها
مكتوبة بالألف في قوله تعالى :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

(سورة العلق)

وكلمة تبارك مرة تكتب بالألف ومرة بغير الألف . . . ولو أن المسألة رتابة في كتابة
القرآن لجاءت كلها على نظام واحد . ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن
معجزة وألفاظه معجزة .

ونحن نقول للذين يتساءلون عن الحكمة في بداية بعض السور بحروف . . نقول
إن لذلك حكمة عند الله فهمناها أو لم نفهمها . . والقرآن نزل على أمة عربية فيها
المؤمن والكافر . . ومع ذلك لم نسمع أحداً يطمع في الأحرف التي بدأت بها السور .
وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية . . ولو أنهم لم يفهموها لطمعوا فيها .

وأنا انصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد . . ألا يشغل نفسه بالتفكير في المعنى .
أما الذي يقرأ القرآن ليستنبط منه فليقف عند اللفظ والمعنى . . فإذا قرأت القرآن
للتعبد فاقرأه بسر الله فيه . . ولو جلست تبحث عن المعنى . . تكون قد حددت
معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت . وتكون قد أخذت المعنى ناقصاً نقص فكر
البشر . . ولكن اقرأ القرآن بسر الله فيه .

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ في القرآن الكريم فقد أخرجنا الأمل وكل من لم يدرس
اللغة العربية دراسة متعمقة من قراءة القرآن . ولكنك تجد أمياً لم يقرأ كلمة واحدة
ومع ذلك يحفظ القرآن كله . فإذا قلت كيف ؟ نقول لك بسر الله فيه .

والكلام وسيلة افهام وفهم بين المتكلم والسامع . المتكلم هو الذي بيده
البداية ، والسامع يفاجأ بالكلام لأنه لا يعلم مقدماً ماذا سيقول المتكلم . . وقد
يكون ذهن السامع مشغولاً بشيء آخر . . فلا يستوعب أول الكلمات . . ولذلك قد
تنبه بحروف أو بأصوات لا مهمة لها إلا التنبيه للكلام الذي سيأتي بعدها .

وإذا كنا لانفهم هذه الحروف . فوسائل الفهم والاعجاز في القرآن الكريم
لا تنتهى ، لأن القرآن كلام الله . والكلام صفة من صفات المتكلم . . . ولذلك
لا يستطيع فهم بشرى أن يصل الى منتهى معانى القرآن الكريم ، إنما يتقرب منها .
لأن كلام الله صفة من صفاته . . . وصفة فيها كمال بلا نهاية .

فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى للقرآن الكريم . . فإنك تكون قد حددت
معنى كلام الله بعلمك . . . ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازاً لك . حتى تعرف
إنك لا تستطيع أن تحدد معانى القرآن بعلمك . .

ان عدم فهم الانسان لاشياء لا يمنع انتفاعه بها . . فالريفي مثلاً ينتفع بالكهرباء
والتليفزيون وما يذاع بالقمر الصناعى وهو لا يعرف عن أى منها شيئاً . فلماذا لا يكون
الله تبارك وتعالى قد أعطانا هذه الحروف نأخذ فائدتها ونستفيد من اسرارها وتنزل
الله بها علينا بما أودع فيها من فضل سواء أفهم العبد المؤمن معنى هذه الحروف أو لم
يفهمها .

وعطاء الله سبحانه وتعالى وحكمته فوق قدرة فهم البشر . . ولو أراد الانسان أن
يحوم بفكره وخواطره حول معانى هذه الحروف لوجد فيها كل يوم شيئاً جديداً . لقد
خاض العلماء فى البحث كثيراً . . وكل عالم أخذ منها على قدر صفاته ، ولا يدعى
أحد العلماء أن ذلك هو الحق المراد من هذه الحروف . . بل كل منهم يقول والله
أعلم بمراده . ولذلك نجد عالماً يقول (ألر) و(حم) و(ن) وهى حروف من فواتح
الصور تكون اسم الرحمن . . نقول إن هذا لا يمكن أن يمثل فيها عاماً لحروف بداية
بعض سور القرآن . . ولكن ما الذى يتعجبكم أو يرهقكم فى محاولة إيجاد معانى هذه
الحروف ؟ . . !

لو أن الله سبحانه وتعالى الذى أنزل القرآن يريد أن يفهمنا معانيها . . لأوردها
بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى . فمثلاً أحد العلماء يقول إن معنى (الم) هو أنا الله
اسمع وأرى . . نقول لهذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل
مباشر لنفهمه جميعاً . . لا بد أن يكون هناك سر فى هذه الحروف . . وهذا السر هو
من أسرار الله التى يريدنا أن نتفحص بقراءتها دون أن نفهمها . .

ولا بد أن نعرف أنه كما أن للبصر حدوداً . وللأذن حدوداً وللمس والشم والتذوق
حدوداً ، فكذلك عقل الانسان له حدود يتسع لها فى المعرفة . . وحدود فوق قدرات

العقل لا يصل إليها .

والإنسان حينما يقرأ القرآن والحروف الموجودة في أوائل بعض السور يقول إن هذا أمر خارج عن قدرة عقل . . وليس ذلك حجباً أو سداً لباب اجتهاد . . لأننا إن لم ندرك فإن علينا أن نعتزف بحدود قدراتنا أمام قدرات خالقنا سبحانه وتعالى التي هي بلا حدود .

وفي الإيمان هناك ما يمكن فهمه وما لا يمكن فهمه . . فتحریم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لا نتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه . ولكننا لمتنع منه بإيمان أنه ما دام الله قد حرمه فقد أصبح حراماً .
ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عرفتم من محكمه فاعملوا به ، وما لم تدركوا فآمنوا به » (١) .
والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَرَّالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

اذن فعلم فهمنا للمتشابه لا يمنع أن نستفيد من سر وضعه الله في كتابه . . ونحن نستفيد من أسرار الله في كتابه فهمناها أم لم نفهمها .

(١) (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه ، وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام . . كل هذه رسالات كان لها وقت محدود ، تمارس مهمتها في الحياة ، حتى يأتي الكتاب وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك بُشر في الكتب السماوية التي نزلت قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بأن هناك رسولا سيأتي ، وأنه يحمل الرسالة الخاتمة للعالم ، وعلى كل الذين يصدقون بمنهج السماء أن يتبعوه . . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

والقرآن هو الكتاب ، لأنه لن يصل إليه أى تحريف أو تبديل ، فرسالات السماء السابقة ائتمن الله البشر عليها ، فنسوا بعضها ، وما لم ينسوه حرفوه ، وأضافوا إليه

من كلام البشر ، مانسبوه الى الله سبحانه وتعالى ظلما وبهتاناً ، ولكن القرآن الكريم محفوظ من الخالق الاعلى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ١٥ ﴾

(سورة الحجر)

ومعنى ذلك ألا يرتاب انسان فى هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله الى قيام الساعة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق جل جلاله : ولا ريب فيه هدى للمتقين .

والإعجاز الموجود فى القرآن الكريم هو فى الأسلوب وفى حقائق القرآن وفى الآيات وفيما روى لنا من قصص الأنبياء السابقين ، وفيما صحح من التوراة والانجيل ، وفيما أتى به من علم لم تكن تعلمه البشرية ولا زالت حتى الآن لا تعلمه ، كل ذلك يجعل القرآن لا ريب فيه ، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن ، ولذلك كلما تأملنا فى القرآن وفى أسلوبه ، وجدنا أنه بحق لا ريب فيه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يأتى بآية ، فما بالك بقرآن .

فهذا الكتاب ارفع فوق كل الكتب ، وفوق مدارك البشر ، يوضح آيات الكون ، وآيات المنهج ، وله فى كل عصر معجزات . إن كلمة الكتاب التى وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تميزا له عن كل الكتب السابقة ، تلفتنا الى معان كثيرة ، تحدد لنا بعض أساسيات المنهج التى جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها . وأول هذه الأساسيات ، أن نزول هذا الكتاب ، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى . واقرأ فى سورة الكهف :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ١٦ قَيِّمًا لِّبُذْرِ
بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ١٧ ﴾

(سورة الكهف)

ويلفت الله سبحانه وتعالى عبادة الى أن إنزاله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم يستوجب الحمد من البشر جميعاً ، لأن فيه منهج السماء ، وفيه الرحمة من الله لعباده ، وفيه البشارة بالجنة والطريق اليها ، وفيه التحذير من النار وما يقود اليها ، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمة من الله تعالى لخلقه . لأنه لو لم ينذرهم لفعّلوا ما يستوجب العذاب ، ويجعلهم يخلدون في عذاب اليم . ولكن الكتاب الذي جاء ليلفتهم الى ما يفضب الله ، حتى يتجنبوه ، إنما جاء برحمة تستوجب الحمد ، لأنها أرّتنا جميعاً ، الطريق الى النجاة من النار ، ولو لم ينزل الله سبحانه وتعالى الكتاب ، ما عرف الناس المنهج الذي يقودهم الى الجنة ، وما استحق احد منهم رضا الله ونعيمه في الآخرة .

وفي سورة الكهف ، نجد تأكيداً آخر . . ان كتاب الله ، وهو القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة ، واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَأَنزَلْنَا مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ رَبِّكَ لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَتِهِمْ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ٢٧﴾

(سورة الكهف)

وبين الله سبحانه وتعالى لنا ان هذا الكتاب ، جاء لنفع الناس ، ولنفع العباد ، وأن الله ليس محتاجاً لخلقه ، فهو قادر على أن يقهر من يشاء على الطاعة ، ولا يمكن لخلق من خلق الله أن يخرج في كون الله عن مرادات الله ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿طَسَمَ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا ٣ مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥﴾

(سورة الشعراء)

وباقى الله سبحانه وتعالى بالقسم الذي يلفتنا الى أن كل كلمة في القرآن هي من

عند الله ، كما ابلفها جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قوله
سبحانه :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِجِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعِلُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝
فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى ذلك الكتاب الذى هو منهج للانسان على
الارض ، فبعد ان بين لنا جل جلاله ، بما لا يدع مجالاً للشك ان الكتاب منزل من
عنده ، وانه يصحح الكتب السابقة كالنوراة ، والانجيل والى ائتمن الله عليها
البشر ، فحرفوها وبدلوها ، وهذا التحريف ابطال مهمة المنهج الإلهى بالنسبة لهذه
الكتب ، فجاء الكتاب الذى لم يصل اليه تحريف ولا تبديل ، ليقبى منهجاً لله ، الى
ان تقوم الساعة . اول ما جاء به هذا الكتاب هو إيمان القمة ، بأنه لا إله إلا الله
الواحد الأحد . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اَلَمْ يَأْتِ الْفُلُوقَ الْفُلُوقُ ۝ اَلَمْ يَأْتِ الْفُلُوقَ الْفُلُوقُ ۝ تَزَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۝ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف ان الكتاب نزل ليؤكد لنا ، ان الله واحد أحد ، لا شريك له ، وأن
القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من نوراة وانجيل ، وغيرها من
الكتب .

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذى جاءت به الكتب السابقة ، وبين الباطل الذى
أضافه أولئك الذين ائتمنوا عليها .

ثم يحدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا في أن هذا الكتاب مطلوب أن نبلغه للناس جميعاً ، واقرأ قوله سبحانه :

﴿ الْقَمَص ① كِتَبُ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ
وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ ② ﴾

(سورة الأعراف)

فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ، يتضمن خطاباً لأمة جميعاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كلف بأن يبلغ الكتاب للناس ، ونحن مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبلغ ما جاء في القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلاً ، وأنهم قد بلغوا منهج الله ، ثم كفروا به أو تركوه ، اذن فإبلاغ الكتاب من المهمات الأساسية التي حددها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن .

والكتاب فيه رد على حجج الكفار وأباطيلهم . واقرأ قول الله تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أُنزِلْنَا بِكِتَابٍ الْحَكِيمِ ① أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَن أَوْحَيْنَا
إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَن أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ
رَبِّهِمْ ② قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ③ ﴾

(سورة يونس)

وفي هذه الآيات الكريمة : يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين . . الحقيقة الأولى هي أن الكفار يتخذون من بشرية الرسول حجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله . وكان الرد هو : أن كل الرسل السابقين كانوا بشرأ ، فما هو العجب في أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولأ بشرأ . واللفتة الثانية هي ان هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التي خلقها الله لنا لنكتب بها ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً لهذه الحروف التي يعرفها الناس جميعاً ، معجزاً في ألا يستطيع

الانس والجن ، مجتمعين أن يأتوا بسورة واحدة منه . ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى
لفتة أخرى الى أن هذا الكتاب محكم الآيات ، ثم بينه الله لعباده ، وأقرأ قوله جل
جلاله في سورة هود :

﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ قِيلَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝﴾

(سورة هود)

هذه هي بعض الآيات في القرآن الكريم ، التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا فيها الى معنى الكتاب ، فأياته من عند الله الحكيم الخبير ، وكل آية فيها اعجاز مُتحدٍى به الإنس والجن ، وهذا الكتاب لا بد أن يبلغ للناس جميعاً ، فالكتاب ينذرهم ألا يعبدوا إلا الله ، ليكون الحساب عدلاً في الآخرة ، فمن أنذر وأطاع كان له الجنة ، ومن عصى كانت له النار والعياذ بالله .

ثم يلفتنا الله الى ان هذا الكتاب فيه قصص الانبياء السابقين منذ آدم عليه السلام ، يقول جل جلاله :

﴿السرّ تلك آيات الكتاب المبين﴾ ١ ﴿إنا أنزلناه قرءاً عربياً لعلكم تعقلون﴾
 ﴿٢﴾ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرءان وإن كنت
 من قبله لمن الغافلين ﴿٣﴾

(سورة يوسف)

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة
للأنبياء السابقين ، والأحداث التي وقعت في الماضي ، ولم يأت القرآن بهذه القصص
للتسلية أو للترفيه ، وإنما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة إيمانية ، ذلك أن القصص
القرآني يتكرر في كل زمان ومكان . ففرعون هو كل حاكم طغى في الأرض ، ونصب
نفسه إلها ، وقارون هو كل من أنعم الله عليه فنسب النعمة الى نفسه ، ونكبر وعصى

الله ، وقصة يوسف هي قصة كل اخوة حقدوا على أخ لهم ، وتأمروا عليه ، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم ، فنشر الله لهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، ماعدا قصة واحدة هي قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، فهي معجزة لن تتكرر ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى إبطالها ، فقال عيسى بن مريم وقال مريم ابنة عمران . والكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه لفنة الى آيات الله في كونه . واقرا قوله تعالى :

﴿ الْمَرْ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢١ ۝ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ١٢٢ ۝ ﴾

(سورة الرعد)

وهكذا بين لنا الله في الكتاب آياته في الكون ولفتنا اليها ، فالسمااء مرفوعة بغير عمد نراها ، والشمس والقمر مسخران لخدمة الانسان ، وهذه كلها آيات لا يستطيع أحد من خلق الله أن يدعيها لنفسه أو لغيره ، فلا يوجد حتى يوم القيامة من يستطيع ان يدعي انه رفع السمااء بغير عمد ، أو أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة الانسان . ولو تدبر الناس في آيات الكون لآمنوا ولكنهم في غفلة عن هذه الآيات . ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى مهمة هذا الكتاب وكيف أنه رحمة للناس جميعاً ، فيقول جل جلاله :

﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ١٢٣ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ١٢٤ ۝ ﴾

(سورة ابراهيم)

أى أن مهمة هذا الكتاب هي أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك الى نور الايمان ، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يبصرها ، ويعرف أن هناك حساباً وآخرة ولكنه ينكرهما ، ولا يرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة في كل شيء ، في العمر والرزق والمتعة ، ولو تطلع الى نور الايمان ، لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدي ولعمل من أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لا يرى . . . والطريق لأن يرى هو هذا الكتاب ، القرآن الكريم لأنه يخرج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر الى نور الحقيقة واليقين . وبين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلتفتون الى الدنيا وحدها ، هم كالأنعام التي تأكل وتشرب ، بل ان الأنعام افضل منهم ، لأن الأنعام تقوم بمهمتها في الحياة ، بينما هم لا يقومون بمهمة العبادة ، فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿الرُّتُلُكُ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ۝ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوِ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾

(سورة الحجر)

هكذا نخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمنى ، ولكن لابد أن يعمل بها ، وأن الذين كفروا في تمتعهم بالحياة الدنيا لا يرتفعون فوق مرتبة الأنعام ، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب في أن النعيم في الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون .

وهكذا بعد أن تعرضنا بإيجاز لبعض الآيات التي ورد فيها ذكر الكتاب انه كتاب يبصرنا بقضية القمة في العقيدة وهي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهو بهذا يخرج الناس من الظلمات الى النور .

وأن يلفتهم الى آيات الكون . . . وأن يعرفوا أن هناك آخرة ونعماً أبدياً وشقاء أبدياً ، وأن يقيم الدليل والحجة على الكافرين ، وأن قوله تعالى : «ذلك الكتاب» يحمل معنى التفوق الكامل الشامل على كل ما سبقه من كتب . وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة ولذلك وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه «كتاب» ليكون دليلاً على الكمال .

ولا بد أن نعرف أن ذلك ليست كلمة واحدة . . وإنما هي ثلاث كلمات . . «ذا» اسم إشارة . . «واللام» تدل على الابتعاد ورفعة شأن القرآن الكريم ، وذلك لمخاطبة الناس جميعاً بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة إلى يوم القيامة .

ونحن عندما نقرأ سورة البقرة نستطيع أن نقرأ آيتها الثانية بطريقتين . . الطريقة الأولى أن نقول «ألم ذلك الكتاب لأريب فيه» ثم نصمت قليلاً ونضيف : «هدى للمتقين» والطريقة الثانية أن نقول : «ألم ذلك الكتاب لأريب» ثم نصمت قليلاً ونضيف : فيه هدى للمتقين» وكلتا الطريقتين توضح لنا معنى لأريب أى لاشك . . أو نفى للشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم منزل من الخالق الأعلى . وحتى نفهم المنطلق الذي تأخذ منه قضايا الدين ، والتي سيكون دستورنا في الحياة ، فلا بد أن نعرف ما هو الهدى ومن هم المتقون ؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك إلى ما تطلبه . فالإشارات التي تدل المسافر على الطريق هي هدى له لأنها تبين له الطريق الذي يوصله إلى المكان الذي يقصده . . والهدى يتطلب هادياً ومهدياً وغاية تريد أن تحققه . فإذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لا تريد أن تصل إلى شيء . . وبالتالي لا تريد من أحد أن يدلك على طريق .

إذن لا بد أن نوجد الغاية أولاً ثم نبحث عن يوصلنا إليها .

وهنا تتساءل من الذي يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول إليه ؟ إذا أخذنا بواقع حياة الناس فإن الذي يحدد لك الهدف لا بد أن تكون واثقاً من حكمته . . والذي يحدد لك الطريق لا بد أن يكون له من العلم ما يستطيع به أن يدلك على أقصر الطرق لتصل إلى ما تريد .

فإذا نظرنا إلى الناس في الدنيا نجد أنهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذي يحقق هذه المطلوبات . . فالذي يريد أن يبني بيتاً مثلاً يأق بمهندس يضع له الرسم ، ولكن الرسم قد يكون قاصراً على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يغير ويبدل فيه . ثم يأق مهندس على مستوى أعلى فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها . . وهكذا يكون الهدف متغيراً وليس ثابتاً .

وعند التنفيذ قد لا توجد المواد المطلوبة فتغير وتبدل لأن بغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتي قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه . إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف

حياتهم وقدراتهم : . والغايات التي يطلبونها لا تتحقق لقصور علم البشر وامكانياته .
اذن فكلنا محتاجون الى كامل العلم والحكمة لبرسم لنا طرق حياتنا . . وأن يكون
قادرا على كل شيء ، ومالكا لكل شيء ، والكون خاضعا لارادته حتى نعرف يقينا أن
ما نريده سينحقق ، وأن الطريق الذي سنسلكه سيوصلنا الى ما نريده . وينبها الله
سبحانه وتعالى الى هذه القضية فيقول :

﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فُلًا هَدَىٰهُ هُوَ الْهَدَىٰ ۚ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ان الله يريد أن يلفت خلقه الى اهم إذا أرادوا أن يصلوا الى الهدف الثابت الذي
لا يتغير فليأخذوه عن الله . وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق المذى لا توجد فيه أى
عقبات أو متغيرات . . فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى . . إنك اذا أردت
باقيا . . فخذ من الباقي ، واذا أردت ثابتا . . فخذ من الثابت . ولذلك كانت
قوانين البشر فى تحديد أهدافهم فى الحياة وطريقة الوصول اليها قاصرة . . علمت
أشياء وغابت عنها أشياء . . ومن هنا فهي تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان .

ذلك أن من وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يحققه ، ولكن الله جل
جلاله لا هوى له . . فإذا أردت أن تحقق سعادة فى حياتك ، وأن تعيش آمنا
مطمئنا . . فخذ الهدف عن الله ، وخذ الطريق عن الله . فإن ذلك ينجيك من قلق
متغيرات الحياة التي تتغير وتتبدل . والله قد حدد لخلقهم ولكل ما فى كونه أقصر طريق
لبلوغ الكون سعاده . والذين لا يأخذون هذا الطريق يتعبون أنفسهم ويتعبون
مجنهم ولا يحققون شيئا .

اذن فالهدف يحققه الله لك ، والطريق يبينه الله لك . . وما عليك إلا أن تجعل
مراداتك فى الحياة خاضعة لما يريده الله .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « هدى للمتقين » . . مامعنى المتقين ؟ متقين جمع
متق . والانتقاء من الوقاية . . والوقاية هي الاحتراس والبعد عن الشر . . لذلك

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِبُوا نَارًا وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَالْجِبَارَةُ ﴾

(من الآية ٦ سورة النحریم)

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية . احترسوا من أن تقعوا فيها . ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجمد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم - والقرآن كله كلام الله - «اتقوا الله» ويقول : «اتقوا النار» . كيف تأخذ سلوكا واحدا تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟!

الله تعالى يقول : «اتقوا النار» . أى لاتفعلوا ماينضب الله حتى لا تعذبوا فى النار . فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى وفعلت الخير .

وقوله تعالى : «اتقوا الله» كيف نتقيه بينما نحن نطلب من الله كل النعم وكل الخير دائما. كيف يمكن أن يتم هذا ؟ وكيف نتقى من نحب ؟ .

نقول ان لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال . . صفات الجلال تجدها فى القهار والجبار والمذل . . والمتقيم . . والضرار . كل هذا من متعلقات صفات الجلال . . بل إن النار من متعلقات صفات الجلال .

أما صفات الجمال فهى الغفار والرحيم وكل الصفات التى تنزل بها رحمت الله وعطاءاته على خلقه . فاذا كنت تقى نفسك من النار - وهى من متعلقات صفات الجلال - لابد أن تقى نفسك من صفات الجلال كلها . لأنه قد يكون من متعلقاتها ما هو أشد عذابا وإيلاما من النار . . فكان الحق سبحانه وتعالى حين يقول : «اتقوا النار» . و : «اتقوا الله» يعنى أن نتقى غضب الله الذى يؤدى بنا الى أن نتقى كل صفات جلاله . . ونجعل بيننا وبينها وقاية . فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجل الجبار بالمغفرة)^(١)

وكان المنطق يقتضى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجل الرحمن بالمغفرة) ولكن ما دامت هناك ذنوب ، فال مقام لصفة الجبار الذى يعذب خلقه بذنوبهم . فكان صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار . . . وصفة الجبار مقامها للمعاصين ، فتأتى صفة الغفار لتشفع عندها ، فيغفر الله للمعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجل الجبار بجبروته بالمغفرة فساعة تأتى كلمة جبار . . . يشعر الانسان بالفزع والخوف والرعب . لكن عندما تسمع (تجل الجبار بالمغفرة) فإن السعادة تدخل الى قلبك . لأنك تعرف أن صاحب العقوبة وهو قادر عليها قد غفر لك . والنار ليست آمرة ولا فاعلة بذاتها ولكنها مأمورة . اذن فاستعذ منها بالأمر أو بصفات الجمال فى الأمر .

يقول الحق سبحانه وتعالى «هدى للمتقين» ولقد قلنا ان الهدى هدى الله . . . لأنه هو الذى حدد الغاية من الخلق ودلنا على الطريق الموصل اليها . فكون الله هو الذى حدد المطلوب ودلنا على الطريق اليه فهذه قمة النعمة . . . لأنه لم يترك لنا أن نحدد غايتنا ولا الطريق اليها . فرحمنا بذلك مما ستعرض له من شقاء فى أن نخطئ ونصيب بسبب علمنا القاصر ، فنشقى وندخل فى تجارب ، ونغشى فى طرق ثم نكتشف أننا قد ضللنا الطريق فنتجه الى طريق آخر فيكون اضل وأشقى .

وهكذا نتخبط دون أن نصل الى شيء . . . وأراد سبحانه أن يجنبنا هذا كله فأنزل القرآن الكريم . . . كتابا فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكى نتقى عذاب الله وغضبه .

والله سبحانه وتعالى قال : «هدى للمتقين» أى أن هذا القرآن هدى للجميع . . . فالذى يريد أن يتقى عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذى يحدد له هذه الغاية . . . فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعا . ثم خص من آمن به بهدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة .

(١) كنز العمال ، وفى حديث آخر : (. . . إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا . فقال رجل من القوم : أى ليلة القدر ؟ فقال : لا . . . ألم تر إلى العمال يحملون فإذا فرغوا من أعمالهم وقفوا أجورهم) رواه البيهقى .

اذن فهناك هدى من الله لكل خلقه وهو أن يدهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم . هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدل الله خلقه جميعا على الطريق الى طاعته ورجته . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

اذن الحق سبحانه وتعالى دهم على طريق الهداية . . ولكنهم أحبوا طريق الغواية والمعصية واتبعوه . . هذه هداية الدلالة . . أما هداية المعونة ففي قوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

وهذه هي دلالة المعونة . . وهي لا تحقق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها . . والله سبحانه وتعالى لا يعين من يرفض هداية الدلالة ، بل يتركه يضل ويشقى . . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله تبارك وتعالى : يقول لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهكذا نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون هاديا لمن أحب . . ولكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يأتي هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله .

نقول : عندما تسمع هذه الايات اعلم أن الجهة منفكة . . . يعنى ما نفى غير ما أثبت . . . ففى غزوة بدر مثلاً أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى قذفها فى وجه جيش قريش . يأتى القرآن الكريم الى هذه الواقعة فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

نفى للحدث وإثباته فى الآية نفسها . كيف رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . مع أن الله تبارك وتعالى قال : « وما رميت » ؟! نقول إنه فى هذه الآية الجهة منفكة . الذى رمى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذى أوصل الحصى الى كل جيش قريش لتصيب كل مقاتل فيهم هى قدرة الله سبحانه وتعالى . فما كان لرمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى يمكن أن تصل الى كل جيش الكفار ، ولكن قدرة الله هى التى جعلت هذا الحصى يصيب كل جندي فى الجيش .

أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وإنك لتهدى الى صراط مستقيم » .

فهى هداية دلالة . أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه للقرآن وبيانه لمنهج الله قد دل الناس كل الناس على الطريق المستقيم وبينه لهم . وقوله تبارك وتعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » . . . أى إنك لا توصل الهداية الى القلوب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يهدى القلوب ويزيدها هدى وإيماناً . ولذلك أطلقها الله تبارك وتعالى قضية إيمانية عامة فى قوله : « قل إن الهدى هدى الله » فالقرآن الكريم يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .



﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَتِيمُونَ الصَّالُونَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب - وهو القرآن الكريم - « هدى للمتقين » .. أى أن فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية .. أراد أن يعرفنا صفات هؤلاء المتقين ومن هم .. وأول صفة هى قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » ..

ما هو الغيب الذى جعله الله أول مرتبة فى الهدى .. وفى الوقاية من النار ومن غضب الله ؟ ..

الغيب هو كل ما غاب عن مدركات الحس . فالأشياء المحسوسة التى نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد .. ولذلك يقال ليس مع العين أين .. لأن ما تراه لا تريد عليه دليلاً .. ولكن الغيب لا تدركه الحواس .. إنما يدرك بغيرها ..

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا أن هناك خمس حواس ظاهرة هى : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .. ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس ..

نفرض أن أمامنا حقيبتين .. الشكل نفسه والحجم نفسه . هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيهما أثقل من الأخرى ؟ .. هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أى الحقيبتين أثقل ؟ .. لا .. لابد أن تحمل واحدة منها ثم تحمل الأخرى لتعرف أيهما أثقل ..

بأى شيء أدركت هذا الثقل ؟ .. بحاسة العضل .. لأن عضلاتك أجهدت عندما حملت إحدى الحقيبتين ، ولم تجهد عندما حملت الثانية .. فعرفت بالدقة أيهما أثقل ، لا تقبل باللمس ؛ لأنك لو لمست أحدهما ثم لمست الأخرى لاتعرف أيهما

أثقل .. إذن فهناك حاسة العضل التي تقيس بها ثقل الأشياء ..

ولنفرض أنك دخلت محلا لبيع القماش ، وأمامك نوعان من قماش واحد .. ولكن أحدهما أرق من الآخر .. بمجرد أن تضع القماشين بين أناملك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكا .. بأي حاسة أدركت هذا ؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البيئة وحكمها لا يخطيء ..

وعندما تشعر بالجوع .. بأي حاسة أدركت أنك جوعان ؟ .. ليس بالحواس الظاهرة .. وكذلك عندما تظما .. ما هي الحاسة التي أدركت بها أنك محتاج الى الماء .. وعندما تكون نائما .. أي حاسة تلك التي توقظك من النوم .. لا أحد يعرف ..

إذن هناك ملكات في النفس وهي الحواس الظاهرة .. وهناك ادراكات في النفس .. وهي حواس لا يعلمها إلا خالقها .. لذلك عندما يأتي العلماء ليضعوا تعريفا للنفس البشرية نقول لهم : ماذا تعرفون عن هذه النفس ؟ ! .. انكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .. ولكن هناك أشياء داخل النفس لا تعرفونها .. هناك ادراكات لا يعلم عنها الانسان شيئا ، وهي ادراكات كثيرة ومتعددة .. لذلك يخطيء من يقول إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب .. لأن هناك ملكات وادراكات متعددة تعمل بغير علم منا .

لو أعطى لطالب تمرين هندسي فحله وأتى بالجواب .. هل نقول أنه عليم غيبا ؟ .. لأن حل التمرين كان غيبا عنه ثم وصل اليه .. لا .. لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته الى هذا الحل .. والغيب بلا مقدمات ولا قوانين تؤدي اليه ، وهل عندما تعلن الأرصاد الجوية أن غدا يوم مطير شديد الرياح .. أتكون قد علمت غيبا ؟ .. لا .. لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها الى نتائج وهذا ليس غيباً ..

وإذا جاء أحد من الدجالين وقال لك ان ما سرق منك عند فلان .. أيقون قد علم الغيب ؟ .. لا .. لأنه يشترط في الغيب ألا يكون معلوما مثلك .. وما سرق منك معلوم مثلك .. فالسارق والذي بيعت له المسروقات يعرفان من الذي سرق ، وما الذي حدث .. والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصمات والبحث أن تصل الى السارق ومن اشترى المسروقات .. وإذا جاءك دجال من الذين يسخرون الجن ..

والمعروف أن الجن مستور عنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها . . والله سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئا . . أو انتقل من مكان إلى آخر . . فيعرف شيئا لا تعرفه أنت . . هذا لا يكون غيباً لأنك جهلته ، ولكن غيرك يعلمه بقوانينه التي خلقها الله له . . والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون . . أيقال إنهم أطلعوا على الغيب ؟ . . لا . . لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا الى هذه النتائج فهو ليس غيباً .

ولكن ما هو الغيب ؟ . .

هو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل اليه علم خلق من خلق الله حتى الملائكة . . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما علم آدم الأسماء كلها وعرضهم على الملائكة قال جل جلاله :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣١ ﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَتْلُو آدَمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣ ﴾

(سورة البقرة)

والجن أيضا لا يعلم الغيب . . ولذلك عندما مات سليمان عليه السلام . . وكان الله سبحانه وتعالى قد سخر له الجن لم تعلم الجن بموته إلا عندما أكلت دابة الأرض

عصاه .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قَلْبًا قَظِيفًا عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاهُ قَلْبًا
نَجَّرَ تَيْبَتِ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ١١ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .. واقرأ قول الحق جل
جلاله :

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ١٥ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَتْلُوكُ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ١٦ ﴾

(سورة الجن)

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم بما
يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم ولن اتبعوهم .

وقمة الغيب هي الايمان بالله سبحانه وتعالى .. والايمان بملائكته وكتبه ورسله
والايمان باليوم الآخر .. كل هذه أمور غيبية ، وحينما يخبرنا الله تبارك وتعالى عن
ملائكته ونحن لا نراهم .. نقول مادام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم ..
وإذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر .. فمادام الله قد أخبرنا فنحن نؤمن
باليوم الآخر .. لأن الذي أخبرنا به هو الله جل جلاله .. آمنت به أنه اله ..
واستخدمت في هذا الايمان الدليل العقل الذي جعلني أؤمن بأن هذا الكون إلهاً
وخالقاً .. وما يأتي عن الله حيثية الايمان به أن الله سبحانه وتعالى هو القائل .

ولابد أن نعرف أن وجود الشيء مختلف تماماً عن ادراك هذا الشيء .. فأنت لك
روح في جسدك تهيك الحياة .. أرايتها؟ .. أسمعتها؟ .. أذقتها؟ ..
أشمعتها؟ .. ألمستها؟ .. الجواب طبعاً لا .. فبأي وسيلة من وسائل الادراك
تدرك أن لك روحاً في جسدك؟ بأثرها في إحياء الجسد ..

إذن فقد عرفت الروح بآثارها ، والروح مخلوق لله . . فكيف تريد وأنت عاجز أن تدرك مخلوقا في جسدك وذاتك وهو الروح بآثارها . . إن تدرك الله سبحانه وتعالى بحواسك .

ونحن إذا آمننا بالقمة الغيبية وهو الله جل جلاله . . فلا بد أن نؤمن بكل ما يخبرنا عنه وإن لم نره . . ولقد أراد الله تبارك وتعالى رحمة بعقولنا أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشيء ، وإدراك هذا الوجود شيان منفصلان تماما . .

فالجراثيم مثلا موجودة في الكون تؤدي مهمتها منذ بداية الخلق . . وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض في أجسادهم من ارتفاع في الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب . . فلما ارتقى العلم وأذن الله لخلقه أن يروا هذا الوجود للجراثيم . . جعل الله العقول قادرة على أن تكتشف المجهر . . الذى يعطينا الصورة مكبرة . . لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة . . فلما اكتشف العلم المجهر . . استطعنا أن نرى هذا الجراثيم . . ونعرف أن لها دورة حياة وتكاثر إلى غير ما يكشفه الله لنا من علم كلما تقدم الزمن . .

إن عدم قدرتنا على رؤية أى شيء لا يعنى أنه غير موجود . . ولكن آلة الإدراك - وهى البصر - عاجزة عن أن تراه ، لأنه غاية فى الصغر . . فإذا جئت بالمجهر كبر لك هذا الميكروب ليدتغل فى نطاق وسيلة رؤيتك وهى العين . . ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلا على أنها خلقت ساعة رأيناها . . بل هى موجودة تؤدي مهمتها . . سواء رأيناها أو لم نرها .

فلو حدثنا أحد عن الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين . . هل كنا نصدق ؟ . . والله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك فى زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقى الانسان ويدرك بعد ذلك . . وكان المفروض أنه يزداد إيمانا . . عندما يدرك وليعرف الخلق بالدليل المادى أن ما هو غيب عنهم موجود وإن كنا لا نراه . .

والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته فى الكون ما يجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقا . . فالشمس والقمر والنجوم والأرض والانسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحد أن يدعى أنه خلقهم . . ولا أحد يمكن أن يدعى أنه خلق نفسه أو غيره . .

ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجد مصادفة ؛ لأن المصادفات أحداث غير مرتبة أو غير منظمة . . ولو وجد هذا الكون مصادفة لتصادمت الشمس والقمر والنجوم والأرض ولاختل الليل والنهار . .

ولكن كل ما في الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هي التي خلقت ونظمت وأبدعت . . فإذا جاءنا رسول يبلغنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون فلا بد أن نصدقه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « ويقيمون الصلاة » . . والصلاة هي إقامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى وهي لا تسقط عن الإنسان أبدا . . فالإنسان يصلي وهو واقف ، فإن لم يستطع يصلي وهو جالس . فإن لم يستطع ، فيصلي وهو راقد . . ولا تسقط الصلاة عن الإنسان من ساعة التكليف إلى ساعة الوفاة كل يوم خمس مرات . .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وما رزقناهم ينفقون » . . وحين نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال . . نقول له لا . . الرزق هو ما ينتفع به . فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق . . وكل ما فيه حركة للحياة رزق . . فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال . . وتتصدق بها على العاجز المريض . . وإن كان عندك حلم . . فإنك تنفقه بأن تقى الأحق من تصرفات قد تؤذى المجتمع وتؤذيك . . وإن كان عندك علم انفقه لتعلم الجاهل . . وهكذا نرى : « وما رزقناهم ينفقون » تستوعب جميع حركة الحياة .



﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يعطينا صفات أخرى من صفات المؤمنين .. فبعد أن ابلغنا أن من صفات المؤمنين الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والانفاق بما رزقهم الله .. يأتي بعد ذلك إلى صفات أخرى ..

فهؤلاء المؤمنون هم : (الذين يؤمنون بما أنزل إليك) أي بالقرآن الكريم الذي أنزله الله سبحانه وتعالى .. « بما أنزل من قبلك » وهذه لم تأت في وصف المؤمنين إلا في القرآن الكريم .. ذلك أن الإسلام عندما جاء كان عليه أن يواجه صنفين من الناس .. الصنف الأول هم الكفار وهم لا يؤمنون بالله ولا برسول مبلّغ عن الله .. وكان هناك صنف آخر من الناس .. هم أهل الكتاب يؤمنون بالله ويؤمنون برسول الله وكتب عن الله ..

والإسلام واجه الصنفين .. لأن أهل الكتاب ربما ظنوا أنهم على صلة بالله .. يؤمنون به ويتلقون منه كتباً ويتبعون رسلاً وهذا في نظرهم كاف .. نقول لا .. فالإسلام جاء ليؤمن به الكافر ، ويؤمن به أهل الكتاب ، ويكون الدين كله لله ..

والله سبحانه وتعالى في كتبه التي أنزلها أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اسمه وأوصافه .. وطلب من أهل الكتاب الذين سيدركون رسالته صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به ..

ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب حتى إنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. بل كانت معرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزمنه وأوصافه معرفة يقينية .. وكان يهود المدينة يقولون للكفار .. « أظن زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم » .. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أول من حاربه وأنكر نبوته .. فأوصاف رسول الله عليه الصلاة

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفِخُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

أى أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها . . كانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم . . ولكنهم رفضوا الإيمان وانكروا الرسالة عندما جاء زمنها . .

فالمؤمن يتبع منهج الله في الدنيا ليستحق نعيم الله في الآخرة . . فلو أن الآخرة لم تكن موجودة ، لكان الكافر أكثر حظا من المؤمن في الحياة . . لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهي ولم يقيد نفسه بمنهج ، بل أطلق لشهواته العنان . . بينما المؤمن قيّد حركته في الحياة طبقا لمنهج الله وتعب في سبيل ذلك . ثم يموت الاثنان وليس بعد ذلك شيء . . فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها . والمؤمن لا يأخذ شيئا . والأمر هنا لا يستقيم بالنسبة لقضية الايمان . . ولذلك كان الايمان بالله قمة الايمان بداية والايمان بالآخرة قمة الايمان نهاية .

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قوله تعالى : (أولئك) اشارة الى الذين تنطبق عليهم كل الصفات التي بينها الله سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين .. فأولئك الذين تنطبق عليهم هذه الصفات وصلوا الى الهدى أى الى الطريق الموصل للإيمان .. ووصلوا الى الفلاح ، وهو الهدف من الإيمان ..

وقوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تشمل الجميع ..

ولكن لماذا استخدم الله تبارك وتعالى « أولئك » مرتين ؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم ، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض ؟ حتى نعرف أنه ليس في الاسلام إيمانان بل إيمان واحد يترتب عليه جزاء واحد .. وسيلته الهدى ، وغايته الفلاح .. ولو نظر الى التكاليفات التي هي الهدى الموصلة الى الغاية نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع المهتدى على الهدى .. لنعرف أن الهدى لم يأت ليقيد حركتك في الحياة ويستذلك ، وإنما جاء ليرفعك ..

إن السطحيين يعتقدون أن الهدى يقيد حركة الانسان في الحياة ويمنعه من تحقيق شهواته العاجلة .. ولكن الهدى في الحقيقة يرفع الانسان ويحفظه من الضرر ، ومن غضب الله ، ومن افساد المجتمع الذي سيكون هو أول من يعاني منه .. لذلك قال تبارك وتعالى : « على هدى » ..

و (على) تفيد الاستعلاء .. فإذا قلت أنت على الجواد فإنك تعلوه .. كأن المهتدى حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل .. ولكنه يرتفع الى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير الى خير .. وذلك بعكس الضلالة التي تأخذ الانسان الى أسفل ..

ولذلك حين تقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا أَوتَيْنَاكَ لَعَلًّا هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

تري ما يفيد الارتفاع والعلو في الهداية ، وما يفيد الانخفاض والتزول في الضلالة ؛ وإنما كان العلو في الهدى .. لأن المنهج قيّد حركة حياتك اعزازا لك لعلوك وسمو مقامك في أنك لا تأخذ من بشر تشريعا .. ولا تأخذ من ذاتك حركة .. وإنما يرتفع بك لتتلقى عن الله سبحانه وتعالى .. وهذا علو كبير .. ولكن عند الضلال قال : « في ضلال » .. و (في) تدل على الظرفية المحيطة .. وهو كما وصفه الله سبحانه وتعالى في آية أخرى بقوله جل جلاله :

﴿ يٰٓأَيُّهَا مَنِ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨١ ﴾

(سورة البقرة)

أحاطت به الخطيئة .. أى لا يستطيع أن يفلت منها لأنه مظلوف في الضلال .. ومادامت الخطيئة محيطة به فلا يجد منفذا لأنها تحكمه .. وما دامت تحكمه فلا يمكن أن يصل إلى هدى مطلقا .. فالحق سبحانه وتعالى حينها قال : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .. اختار لفظا عليه دلالة دنيوية تقرب المعنى الى السامع ..

ما هو الفلاح ؟ .. المعنى العام هو الفوز والمفليح هو الفائز . ومعنى الآية الكريمة أولئك هم الفاترون وقال : « هم المفلحون » .. لأن الفلاح مأخوذ من شق الأرض للبذر .. ومنه سُمي الفلاح الذي صفته شق الأرض ورمى البذور فيها ..

والحق سبحانه وتعالى جاء بهذا اللفظ بالنسبة للأخرة لأنه يريد أن يأتى لنا مع الشيء بدليله .. وهناك فرق بين أمر غيبى عنا لا نعرفه .. وأمر غيبى يستدل عليه بمشهود ..

فالدِّين يقيّد حريتك في الحياة في أن تفعل ولا تفعل . . . ومنهج الله جاء ليقول لك إفعل كذا ولا تفعل كذا . وكثير من الناس يظن أن ذلك تقييد لحركة حياة المؤمن واثقال عليه . . . لأنه أخذ منه حرية حركته فقيدها . . .

إن الله تبارك وتعالى حين يقول لك لا تفعل . . . معناها عند السطحين أنه ضيق عليك ما تريد أن تفعل . . . وحين يقول لك افعل . . . معناها يكون قد ضيق عليك في شيء لا تريد أن تفعله . فمثلاً : حين يطلب منك الزكاة . . . فالزكاة في ظاهرها نقص المال ، وإن كانت في حقيقتها بركة وغناء . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه) (١) .

فالحق سبحانه وتعالى إذا قيد حركتك في الحياة . . . لا تظن أن هذا تضيق عليك . . . بل إن هذا لفائدتك . . . لأنه لم يأمرك وحدك ، ولكن الأمر للناس جميعاً حين يقول جل جلاله : لا تسرق . . . فقد قالها للناس جميعاً ولذلك تكون أنت الرابع . . . لأنه قيدك وأنت فرد من أن تسرق من غيرك . . . ولكنه قيد ملايين الناس من أن يسرقوا منك . . . إذن فالله لم يضيق عليك ، ولكنه حمى مالك من الناس كل الناس . . . قيدك وأنت فرد من أن تسرق من مال غيرك ، وقيد ملايين أن يسرقوا من مالك . . . فمن الفائز ؟ . . . أنت طبعاً . . .

وقوله تعالى : « أولئك هم المفلحون » (المفلحون) من مادة فلع . . . فإذا كانت الأرض صماء فحينما نشقيها ونبذرنا تعطي محصولاً عظيماً ، العملية أخذناها أبا عن جد . . . فالأرض حين تشق وتبذر تعطي محصولاً وافراً . . . وإذا كانت هذه العملية أخذت أبا عن جد . . . يأتي السؤال من الذي علم آدم البذر والزرع ؟ . . . نقول علمه الله سبحانه وتعالى كما علمه الأسماء . . . وكما علمه ما يمكنه به أن يباشر مهمته في الأرض . . .

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم في حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن استمرار حياته وحياة أولاده . . . يعلمه على الأقل بدايات . . . ثم بعد ذلك تتطور هذه البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه . . . وبعد ذلك جاءت القرون المتقدمة

فاستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والبذر . .
ولكن الحقيقة الثابتة التي لم تتغير منذ بداية الكون ولن تتغير حتى نهايته . . هي أن
مهمة الانسان أن يحرث ويضع البذرة في الأرض ويسقيها . . أما نمو الزرع نفسه
فلا تدخل للانسان فيه . . وكذلك الثمر الذي ينتجه لا عمل للانسان فيه . .
ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى الى هذه الحقيقة حتى لا نغتر بحركتنا في الحياة ونقول
إننا نحن الذين نزرع . . واقرأ قول الحق جل جلاله في سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٤﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٥﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
حُطًا فَظَلْتُمْ تَفْكَهُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا ظلت مهمة الفلاحة في الأرض مقصورة على الحرث والسقي والبذر ،
وحينما تلقى الحبة في الأرض يخلق الله في داخلها الغذاء الذي يكفيها حتى تستطيع أن
تأخذ غذاءها من الأرض . . وإذا جثت بحبة وبللتها تجد أنها قد نبت لها ساق
وجذور . . من أين جاء هذا النمو ؟ من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد
قدر في كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تتغذى من الأرض . . وعلى
قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة . . وحين نضعها في الأرض فإنها تبدأ
أولا بأن تغذى نفسها . . بحيث ينبت لها ساق وجذور وورقتان تنفس منها . . كل
هذا لا يدخل لك فيه ولا عمل لك فيه . . وتبدأ الحبة تأخذ غذاءها من الأرض
والهواء . . لتنمو حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة نفسه .

ومن هنا جاءت كلمة (المفلحون) . . ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية
المشهود ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب . . فيشبه التكليف وجزاءه في
الآخرة بالبذرة والفلاحة . . أولا لأنك حين ترمي بذرة في الأرض تعطيك بذورا
كثيرة . .

واقرا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة البقرة)

واذا كانت الأرض وهى المخلوقة من الله تهبك أضعاف أضعاف ما أعطيتها . .
فكيف بالخالق ؟ . . وكم يضاعف لك من الثواب فى الطاعة ؟ . . هذا هو السبب فى
أن الحق تبارك وتعالى يقول : « وأولئك هم المفلحون » . . حتى يلفتنا بمادة
الفلاحة . . وهى شىء موجود نراه ونشاهده كل يوم .
وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك . . كذلك الأرض أخذت منك
حبة ولم تعطك مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة . . وهكذا نستطيع
أن نصل بشىء مشهود يُفَصِّلُ لنا شيئا غيبيا .



﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٦ ﴿

وبعد ان تحدث الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين وصفاتهم .. وجزائهم في الآخرة وما ينتظرهم من خير كبير .. اراد ان يعطينا تبارك وتعالى الصورة المقابلة وهم الكافرون .. وبين لنا ان الايمان جاء ليهيمن على الجميع يحقق لهم الخير في الدنيا والآخرة .. فلا بد ان يكون هناك شر يحاربه الايمان .. ولولا وجود هذا الشر .. أكان هناك ضرورة للايمان .. إن الانسان المؤمن يقى نفسه ومجتمعه وعالمه من شرور يأتي بها الكفر ..

والكافرون قسمان .. قسم كفر بالله اولا ثم استمع الى كلام الله .. واستقبله بفطرته السليمة فاستجاب وآمن .. وصنف آخر مستفيد من الكفر ومن الطغيان ومن الظلم ومن اكل حقوق الناس وغير ذلك .. وهذا الصنف يعرف ان الايمان اذا جاء فانه سيسلبه جاها دنيويا ومكاسب يحققها ظلما وعدوانا ..

اذن الذين يقفون امام الايمان هم المستفيدون من الكفر .. ولكن ماذا عن الذين كانوا كفارا واستقبلوا دين الله استقبالا صحيحا ..

هؤلاء قد تفتح قلوبهم فيؤمنون . والكفر معناه الستر .. ومعنى كَفَرَ (أى) سَتَرَ .. وكفر بالله اى ستر وجود الله جل جلاله .. والذي يستر لايد ان يستر موجودا ، لأن الستر طارئ على الوجود .. والاصل فى الكون هو الايمان بالله .. وجاء الكفار يحاولون ستر وجود الله . فكان الاصل هو الايمان ثم طرأت الغفلة على الناس فستروا وجود الله سبحانه وتعالى .. ليقبوا على سلطانهم او سيظرتهم او استغلاهم او استعلائهم على غيرهم من البشر ..

ولفظ الكفر فى ذاته يدل على ان الايمان سبق ثم بعد ذلك جاء الكفر .. كيف ؟

لأن الخلق الاول وهو آدم الذى خلقه الله بيديه .. ونفخ فيه من روحه وأسجد
له الملائكة .. وعلمه الاسماء كلها ..

سجود الملائكة وتعليم الاسماء أمر مشهدى بالنسبة لآدم .. والكفر ساعتها لم يكن
موجودا .. وكان المفروض ان آدم بعد ان نزل الى الارض واستقر فيها .. يلقن
ابناءه منهج عبادة الله لأنه نزل ومعه المنهج فى (افعل ولا تفعل) وكان على ابناء آدم
ان يلقنوا ابناءهم المنهج وهكذا ..

ولكن بمرور الزمن جاءت الغفلة فى أن الايمان يقيد حركة الناس فى الكون ..
فبدأ كل من يريد ان يخضع حياته لشهوة بلا قيود يتخذ طريق الكفر .. والعاقل حين
يسمع كلمة كفر .. يجب عليه ان يتنبه الى ان معناها ستر لموجود واجب الوجود ..
فكيف يكفر الانسان ويشارك فى ستر ما هو موجود .. لذلك تهمد ان الحق سبحانه
وتعالى يقول :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّزُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ ﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْرَوْنِي إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩ ﴿

(سورة البقرة)

وهكذا يأتى هذا السؤال .. ولا يستطيع الكافر له جوابا !! لأن الله هو الذى
خلقه وأوجده .. ولا يستطيع احد منا ان يدعى انه خلق نفسه او خلق غيره ..
فالوجود بالذات دليل على قضية الايمان .. ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف
تكفرون بالله وتسترّون وجود من خلقكم ؟ ..

والخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لا يستطيع احد ان يدعيها .. فلا يمكن
ان يدعى أحد أنه خلق نفسه .. قضية انك موجود توجب الايمان بالله سبحانه
وتعالى الذى اوجدك .. انه عين الاستدلال على الله .. واذا نظر الانسان حوله

فوجد كل مافي الكون مسخرا لخدمته والاشياء تستجيب له فظن بمرور الزمن ان له سيطرة على هذا الكون . . . ولذلك عاش وفي ذهنه قوة الاسباب . . يأخذ الاسباب وهو فاعلها فيجدها قد اعطته واستجابت له . . ولم يلتفت الى خالق الاسباب الذي خلق لها قوانينها فجعلها تستجيب للانسان . . وقد اشار الحق تبارك وتعالى الى ذلك في قوله جل جلاله :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَبَطِغٌ ۝١ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝٢ ﴾

(سورة العلق)

ذلك ان الانسان يحترث الارض فتعطيه الثمر . . فيعتقد انه هو الذي اخضع الارض ووضع لها قوانينها لتعطيه ما يريد . . يضغط على زر الكهرباء فينير المكان فيعتقد انه هو الذي اوجد هذه الكهرباء ! يركب الطائرة . . وتسير به في الجو فيعتقد انه هو الذي جعلها تطير . . وينسى الخصائص التي وضعها الله سبحانه وتعالى في الغلاف الجوي ليستطيع ان يحمل هذه الطائرة . . يفتح التليفزيون ويرى امامه احداث العالم فيعتقد ان ذلك قد حدث بقدرته هو . . وينسى ان الله تبارك وتعالى وضع في الغلاف الجوي خصائص جعلته ينقل الصوت والصورة من اقصى الدنيا الى اقصاها في ثوان معدودة . . وهكذا كل ماحولنا يظن الانسان انه اخضعه بذاته . . بينما كل هذا مسخر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الانسان . . وهو الذي خلق ووضع القوانين . . نقول له انك لو فهمت معنى ذاتية الاشياء ماحدثتك نفسك بذلك . . الشيء الذاتي هو ما كان بذاتك لا يتغير ولا يتخلف ابدا . . اغما الامر الذي ليس بذاتك هو الذي يتغير . .

واذا نظرت الى ذاتيتك تلك التي اغرتك واطغتك . . ستفهم ان كلمة ذاتية هي الا تكون محتاجا الى غيرك بل كل شيء من نفسك . . وانت في حياتك كلها ليس لك ذاتية ؛ لان كل شيء حولك متغير بدون ارادتك . . وانت طفل محتاج الى أبيك في بدء حياتك . . فاذا كبرت وأصبح لك قوة واستجابت الاحداث لك فإنك لا تستطيع ان تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى . . فالزمن يملك ولكن لفترة محدودة . . فاذا وصلت الى مرحلة الشيخوخة فستحتاج الى من يأخذ بيدك ويعينك . . ربما علي ادق حاجاتك وهي الطعام والشراب . .

إذن فأنت تبدأ بالطفولة محتاجا إلى غيرك . . وتنتهى بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك . . وحتى عندما تكون فى شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة . . فإذا كانت لك ذات حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقل لن امراض . . انك لا تستطيع . .

الله سبحانه وتعالى اوجد هذه المتغيرات حتى ينتهى الغرور من الانسان نفسه . . ويعرف انه قوى قادر بما اخضع الله له من قوانين الكون . . لنعلم اننا جميعا محتاجون الى القادر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وان الله غنى بذاته عن كل خلقه . . غير ولا يتغير . . يميت وهو دائم الوجود . . يجعل من بعد قوة ضعفا وهو القوى دائما . . ما عند الناس ينقد وما عنده تبارك وتعالى لا ينقد أبدا . . هو الله فى السموات والارض .

اذن فليست لك ذاتية حتى تدعى انك اخضعت الكون بقدراتك . . لانه ليس لك قدرة ان تبقى على حال واحد وتجعله لا يتبدل ولا يتغير . . فكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده . . كل ما فى الكون وما فى نفسك شاهد ودليل على وجود الحق سبحانه وتعالى . .

قلنا ان الكافرين صنفان . . صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكم عقله وعرف الحق فأمن . . والصنف الآخر مستفيد من الكفر . . ولذلك فهو متشبث به مهما جاءه من الايمان والادلة الايمانية فإنه يعاند ويكفر . . لانه يريد ان يحتفظ بسلطاته الدنيوية ونفوذه القائم على الظلم والطغيان . . ولا يقبل ان يجرد منها ولو بالحق . . هذا الصنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »

إنهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم . . ولم يكفروا لأنهم فى حاجة الى ان يلفتهم رسول او نبي الى منهج الله . . هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة ومنهج حياة . . فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل . . ولأنهم لو جاء الايمان الذى يسارى بين الناس جميعا ويرفض الظلم ، لأصبحوا اشخاصا عاديين غير مميزين فى أى شىء . .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ
غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧)

وكما اعطانا الحق سبحانه وتعالى اوصاف المؤمنين يعطينا صفات الكافرين . . وقد يتساءل بعض الناس اذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين ؟ فلماذا يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم !؟ ومعنى الختم على القلب هو حكم بالآ يخرج من القلب ما فيه من الكفر . . ولا يدخل اليه الايمان . .

نقول ان الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . فان استغنى بعض خلقه عن الايمان واختاروا الكفر . . فان الله يساعده على الاستغناء ولا يعينه على العودة الى الايمان . . ولذلك فان الحق سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسى :

« انا عند ظن عبدي بي وانا معه حين يذكرني . . فان ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأ ذكرتني في ملأ خير منه ، وان اقترب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا وان اتاني يمشى اتيته هرولة ، (١)

وقد وضع الحديث القدسى ان الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الايمان ، وان الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الايمان . . فانه لا يمه ان يأتي العبد الى الايمان او لا يأتي . . ولذلك نجد القرآن دقيقا ومحكما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم . واختيارهم للكفر كان اولا قبل ان يختم الله على قلوبهم . . والخالق جل جلاله اغنى الشركاء عن الشرك . . ومن اشرك به فإنه في غنى عنه .
ان الذين كفروا . . اى ستروا الايمان بالله ورسوله . . هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الادراك كلها . . القلب والسمع والبصر . والقلب أداة ادراك غير ظاهرة . . وقد قدم الله القلب على السمع والبصر في تلك الآية لانه يريد ان يعلمنا

(١) رواه الامام مسلم في صحيحه في كتاب الذكر والدعاء

منافذ الادراك .. وفي القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَتَعْرِجُكُمْ مِنْ بُطُونٍ أَمْ أَتَشْكُرُ لَا تَعْلَمُونَ شَيْعًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا يعلمنا الله ان منافذ العلم في الانسان هي السمع والابصار والافئدة .. ولكن في الاية الكريمة التي نحن بصددھا قدم الله القلوب على السمع والابصار .. ان الله يعلم انهم اختاروا الكفر .. وكان هذا الاختيار قبل ان يختم الله على قلوبهم .. والختم على القلوب .. معناه انه لا يدخلها ادراك جديد ولا يخرج منها ادراك قديم .. ومهما رأت العين أو سمعت الاذن .. فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب مختومة بخاتم الله بعد ان اختار اصحابها الكفر واصرروا عليه .. وفي ذلك يصفهم الحق جل جلاله :

﴿ صُمُّوا بَكَرٌ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن لماذا فقدوا كل ادوات الادراك هذه ؟ .. لأن الغشاوة التفت حول القلوب الكافرة ، فجعلت العيون عاجزة عن تأمل آيات الله .. والسمع غير قادر على التلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

اذن فهؤلاء الذين اختاروا الكفر واصرروا عليه وكفروا بالله برغم رسالاته ورساله يقرآنه .. ماذا يفعل الله بهم ؟ انه يتخلى عنهم . ولأنه سبحانه وتعالى غنى عن العالمين فإنه يسر لهم الطريق الذي مشوا فيه ويعينهم عليه .. وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ٣٨ ﴾

(سورة الزخرف)

ويقول جل جلاله :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ الشَّيَاطِينَ ﴿٣١﴾ نَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعلم المؤمن ويعلم الكافر . . دون أن يكون جل جلاله تدخل في اختيارهم . . فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام . . ودعا نوح إلى منهج الله تسعمائة وخمسين عاما . وقبل أن يأتي الطوفان علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلا . . فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبني السفينة لينجو المؤمنون من الطوفان . . وأقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنِعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة هود)

وهكذا نرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى . . أنه يعلم من سبضر على الكفر وأنه سيموت كافرا . . وإذا كانت هذه هي الحقيقة فلماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم بالمنهج وبالقرآن ؟ . . ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة . . فلا يأتي هؤلاء الناس يوم المشهد العظيم ويجادلون بالباطل . . أنه لو بلغهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمنوا . . ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم ؟ . . لأن القلب هو مكان العقائد . . ولذلك فإن القضية تناقش في العقل فاذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الانسان تماما فانها تستقر في القلب ولا تعود الى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة وإيمانا . . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الحج)

واذا عمى القلب عن قضية الايمان .. فلا عين ترى آيات الايمان .. ولا أذن
تسمع كلام الله .. وهؤلاء الذين اختاروا الكفر على الايمان لهم في الآخرة عذاب
عظيم .. ولقد وصف الله سبحانه وتعالى العذاب بأنه أليم .. وبأنه مهين .. وبأنه
عظيم .. العذاب الأليم هو الذي يسبب ألما شديدا .. والعذاب المهين هو الذي
يأتى لأولئك الذين رفعهم الله في الدنيا .. وأحيانا تكون الاهانة أشد إيلاما للنفس
من ألم العذاب نفسه .. أولئك الذين كانوا أئمة الكفر في الدنيا .. يأتى بهم الله
تبارك وتعالى يوم القيامة أمام من اتبعوهم فيهمينهم .. أما العذاب العظيم فإنه
منسوب الى قدرة الله سبحانه وتعالى .. لأنه بقدرات البشر تكون القوة محدودة ..
أما بقدرات الله جل جلاله تكون القوة بلا حدود .. لأن كل فعل يتناسب مع
فاعله .. وقدرة الله سبحانه وتعالى عظيمة في كل فعل .. وبما أن العذاب من الله
جل جلاله فإنه يكون عذابا عظيما .



﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ٨

الناس في الحياة الدنيا على ثلاثة احوال : إما مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .
والله سبحانه وتعالى في بداية القرآن الكريم في سورة البقرة . . اراد ان يعطينا وصف
البشر جميعا بالنسبة للمنهج وانهم ثلاث فئات : الفئة الاولى هم المؤمنون ، عرفنا الله
سبحانه وتعالى صفاتهم في ثلاث آيات ، في قوله تعالى :
« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُقْبِلُونَ »
والفئة الثانية هم الكفار ، وعرفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم في آيتين في قوله
تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

وجاء للمنافقين فعرف صفاتهم في ثلاث عشرة آية متتابعة ، لماذا . . ؟ لخطورتهم
على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ، اما الكافر فنحن نتقيه ونحذره ، لأنه
يعلم كفره .

إن المنافق ، يتظاهر امامك بالايمان ، ولكنه يطن الشر والكفر ، وقد نحسبه
مؤمنا ، فتطلعه على اسرارك ، فيتخذها سلاحا لطعن الدين . . وقد خلق الله في
الانسان ملكات متعددة ، ولكي يعيش الانسان في سلام مع نفسه ، لا بد ان تكون
ملكاته منسجمة وغير متناقضة .

فالمؤمن ملكاته منسجمة ، لأنه اعتقد بقلبه في الايمان ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا
تناقض بين ملكاته ابدا . .

والكافر قد يقال انه يعيش في سلام مع نفسه ، فقد رفض الايمان وانكره بقلبه
ولسانه ينطق بذلك ، ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، انه فقد السلام
مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد قلبه ، يظهر غير
ما يبطن ، ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى ان يكشفه الناس ، فيعيش في خوف
عميق ، وهو يعتقد ان ذلك شيء مؤقت سينتهى .

ولكن هذا التناقض يبقى معه الى آخر يوم له في الدنيا ، ثم ينتقل معه الى
الآخرة ، فينقض عليه ، ليقوده الى النار ، واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَبِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(٢٠) وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾

(سورة فصلت)

إذن كل ملكاتهم انقضت عليهم في الآخرة ، فالسلام الذى كانوا يتمنونونه لم
يحققوه لا في حياتهم ولا في آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه ، ويداه تشهدان عليه ،
ورجلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقى له ؟
بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ،
وبينه وبين آخرته تناقض . وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس في
قلبه ، بماذا وصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين ؟ قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾

(سورة البقرة)

هذه اول صفات المنافقين في القرآن الكريم ، يعلنون الايمان وفي قلوبهم الكفر ،
ولذلك فإن ايمانهم كله تظاهر ، اذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم ، لانهم يتظاهرون
بها ، ولا يؤدونها عن ايمان ، واذا ادوا الزكاة ، فإنها تكون عليهم حسرة ، لانهم
ينفقونها وهم لها كارهون ، لأنها في زعمهم نقص من مالهم . لا يأخذون عليها ثوابا

في الآخرة ، وإذا قتل واحد منهم في غزوة ، انتابهم الحزن ، والأسى ، لأنهم اهدروا حياتهم ولم يقدموها في سبيل الله .

وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم .

أما المؤمن فحين يصل أو يؤدي الزكاة أو يستشهد في سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا ، وهم لا يرجون شيئاً . . فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة ، فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل في سبيل الله ، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله .



يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ
إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين ، وهى صفة تدل على غفلتهم وحق
تفكيرهم ، فإنهم يحسبون انهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى ، وهى يستطيع
بشر ان يخدع رب العالمين ؟

ان الله عليم بكل شيء ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر وما هو اخفى من
السر ، وهل يوجد ما هو اخفى من السر ؟ نقول نعم ، السر هو ما اسررت به
لفريك ، فكأنه يعلمه اثنان ، انت ومن اسررت اليه . ولكن ما هو اخفى من السر ،
ما تبقيه فى نفسك ولا تخبر به احدا ، انه يظل فى قلبك لا تسر به لانسان ، والله
سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى ﴾ ﴿٥﴾

(سورة طه)

فلا يوجد مخلوق ، يستطيع ان يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم ، يحسبون انهم
يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفى تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين
الله . بل يكون هناك مقت وغضب .

وهم فى خداعهم يحسبون ايضا انهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون امامهم
غير ما يبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم ، لأنهم يعيشون فى خوف مستمر ،
وهم دائما فى قلق او خوف من ان يكشفهم المؤمنون ، او يستمعوا اليهم فى مجالسهم
الخاصة ، وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الايمان ، ولذلك اذا تحدثوا لابد ان
يتأكدوا أولا من ان احدا من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانيا من ان احدا من

المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدثون ، والخوف يملأ قلوبهم ايضا ، وهم مع المؤمنين ، فكل واحد منهم يخشى ان تفلت منه كلمة ، تفضح نفاقه وكفره . وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين . . والحقيقة انهم لا ينجذعون الا انفسهم . فالحمد لله سبحانه وتعالى ، يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق ، فإن لم يعلموه ، فإن الله يخبرهم به ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِسِيمَاهُمْ^١ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ^٢ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ^٣ ﴾

(سورة محمد)

الم يأت المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهدوا انه رسول الله ففضحهم الله امام رسوله وانزل قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ^١ ﴾

(سورة المنافقون)

جاء المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بصدق رسالته ، والله سبحانه وتعالى يعلم ان هذه الشهادة حق وصدق ، لانه جل جلاله ، يعلم ان رسوله صلى الله عليه وسلم ، صادق الرسالة ، ولكنه في الوقت نفسه يشهد بان المنافقون كاذبون . كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونون كاذبين ؟

نقول : لان المنافقين قالوا بالاستهم ما ليس في قلوبهم ، فهم شهدوا بالاستهم فقط ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ولكن قلوبهم منكرة لذلك ، مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم انه حقيقة الا انهم يكذبون ، ويقولون بالاستهم ما ليس في قلوبهم ، لان الصدق هو ان يوافق الكلام حقيقة ما في القلب ،

وهؤلاء كذبوا ، لأنهم في شهادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعبرون عن واقع في قلوبهم ، بل قلوبهم تُكذِّب ما يقولون ..

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يفضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين وينبئ رسوله صلى الله عليه وسلم بما يضمرونه في قلوبهم ، اذن فخداعهم للمؤمنين ، رغم انه خداع بشر لبشر ، الا انه أحيانا تفلت الستهم ، فتعرف حقيقتهم ، واذا لم يفلت اللسان ، جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليوضحهم ، وتكون حصيلة هذا كله ، انهم لا يخدعون احدا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفلت السنة المنافقين فيكشفون انفسهم .

اذن فسلوك المنافق ، لا يخدع به الا نفسه ، وهو الخاسر في الدنيا والاخرة ، عندما يؤدي عملا ايمانيا ، فالله يعلم انه نفاق ، وعندما يحاول ان يخدع المؤمنين ، ينكشف ، والنتيجة انهم يعتقدون بانهم حققوا لانفسهم نفعا ، بينما هم لم يحققوا لانفسهم الا الخسران المبين .



﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ١٠

فالله سبحانه وتعالى، شبه مافي قلوب المنافقين بأنه مرض، والمرض اولا يورث السقم، فكان قلوبهم لا تملك الصحة الايمانية التي تحمي القلب فتجعله قويا شابا، ولكنها قلوب مريضة، لماذا كانت مريضة؟ لقد اتعبها النفاق واتعبها التنافر مع كل ماحولها، واحست انها تعيش حياة ملؤها الكذب، فاضطراب القلب، جعله مريضا، ولا يمكن ان يشفى الا باذن الله، وعلاجه هو الايمان الحقيقي الصادق، ذلك الذي يعطيه الشفاء، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ٨٧

(سورة الاسراء)

اذن فالايان والقرآن هما شفاء القلوب، كلاهما يعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين، فكان المرض يزداد في قلوبهم مع الزمن، والله سبحانه وتعالى - بنفاقهم وكفرهم - يزيدهم مرضا. وهذه هي الصفة الثالثة للمنافقين... انهم اصحاب قلوب مريضة سقيمة، لا يدخلها نور الايمان، ولذلك فهي قلوب ضعيفة، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق. وهي قلوب خائفة من كل ماحولها، مرتعبة في كل خطواتها، مضطربة بين ما في القلب وما على اللسان، والمريض لا يقوى على شيء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق، ولا تقوى على الصدق، ولا ترى ماحولها، تلك الرؤية التي تتناسب وتتفق مع فطرة الايمان، التي وضعها الله تعالى في القلوب، ولذلك اذا دخل المنافقون في معركة في صفوف جيش المسلمين... فأول ما يبحثون عنه هو الهرب من المعركة، يبحثون عن مخبأ يختفون فيه، او مكان لا يراهم فيه

احد ، والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله :

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(سورة التوبة)

لماذا ؟ لأنهم اصحاب قلوب مريضة ، لا تقوى على شيء ، ومرضها يجعلها تهرب من كل شيء ، وتحتفى . وليت الامر يقتصر عند هذا الحد ، ولكن ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم ، غير العذاب الذي عانوه من قلوبهم المريضة في الدنيا ، فيها كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ، ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم اشد من عذاب الكافرين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴿١٢٥﴾﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا

نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

الفساد في الارض هو ان تعتمد الى الصالح فتفسده ، وقل ما يطلب منك في الدنيا ، ان تدع الصالح لصلاحه ، ولا تتدخل فيه لتفسده ، فإن شئت ان ترتقي ايمانيا ، تأت للصالح ، وتزد من صلاحه ، فإن جئت للصالح وافسدته فقد افسدت فسادين ، لأن الله سبحانه وتعالى ، اصلى لك مقومات حياتك في الكون ، فلم تتركها على الصلاح الذي خلقت به ، وكان تركها في حد ذاته ، بعدا عن الفساد ، بل جئت اليها ، وهي صالحة بخلق الله لها فأفسدتها ، فأنت لم تستقبل النعمة الممنوحة لك من الله ، بأن تتركها تؤدي مهمتها في الحياة ، ولم تزد في مهمتها صلاحا ، ولكنك جئت الى هذه المهمة فأفسدتها . . فلو ان هناك بشرا يشرب منها الناس ، فهذه نعمة لضرورة حياتهم ، تستطيع انت بأسباب الله في كون الله ان تأق وتصلحها ، بأن تبطن جدرانها بالحجارة ، حتى تمنع انهيار الرمال داخلها ، او ان تأق بحبل واناء حتى تعين الناس على الوصول الى مياهها ، ولكنك اذا جئت وردمتها تكون قد افسدت الصالح في الحياة .

وهكذا المنافقون . . انزل الله تعالى منهجا للحياة الطيبة للانسان على الارض ، وهؤلاء المنافقون بذلوا كل مافي جهدهم لإفساد هذا المنهج ، بأن تأمروا ضده وادعوا أنهم مؤمنون به ليطلعنوا الاسلام من داخله .

ولقد تنبه أعداء الاسلام ، الى ان هذا الدين القوى الحق ، لا يمكن ان يتأثر بطعنات الكفر ، بل يواجهها ويتغلب عليها . فما قامت معركة بين حق وباطل الا انتصر الحق ، ولقد حاول اعداء الاسلام ان يواجهوه سنوات طويلة ، ولكنهم عجزوا ، ثم تنبهوا الى ان هذا الدين لا يمكن ان يهزم الا من داخله ، وان استخدام المنافقين في الافساد ، هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين ، فانطلقوا الى المسلمين اسما ليتخذوا منهم الحربة التي يوجهونها ضد الاسلام ، وظهرت مذاهب

واختلافات ، وما اسموه العلمانية واليسارية وغير ذلك ، كل هذا قام به المنافقون في الاسلام وغلفوه بغلاف اسلامي ، ليفسدوا في الارض ويحاربوا منهج الله .
واذا لفت المؤمنون نظرهم الى انهم يفسدون في الارض ، وطلبوا منهم ان يمتنعوا عن الفساد ، ادعوا انهم لا يفسدون ولكنهم يصلحون ، واي صلاح في عدم اتباع منهج الله والخروج عليه بأي حجة من الحجج ؟



﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٢ ﴿﴾

وهكذا يعطينا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بأنهم كما أنهم يخذعون أنفسهم ولا يشعرون ويحسبون أنهم يخذعون الله سبحانه وتعالى والمؤمنين . كذلك فإنهم يفسدون في الأرض ويدعون أنهم مصلحون، ولكنهم في الحقيقة مفسدون، لماذا؟ .. لأن في قلوبهم كفراً وعداء لمنهج الله، فلو قاموا بأي عمل يكون ظاهره الإصلاح، فحقيقته هي الإفساد، تماماً كما ينطقون بالسنتهم بما ليس في قلوبهم.

والكون لا يصلح إلا بمنهج الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق، وهو الذي أوجد، وهو أدرى بصنعه وبما يفسدها وبما يصلحها، لأنه هو الصانع، ولا يوجد من يعلم سر ما يصلح صنعه أكثر من صانعها.

ونحن في المنهج الدنيوي إذا أردنا إصلاح شيء اتجهنا لصانعه ؛ فهو الذي يستطيع أن يدلنا على الإصلاح الحقيقي لهذا الشيء ، فإذا لم يكن صانعه موجوداً في البلدة نفسها اتجهنا إلى من دربه الصانع على الإصلاح ، أو إلى مايسمونه «الكتالوج»

الذي يبين لنا طريق الإصلاح، وبدون هذا لا نصلح، بل نفسد، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة في حياتنا الدنيوية، ثم نأتي إلى الإنسان والكون، فبدلاً من أن نتجه إلى صانعه ونخالقه لنأخذ عنه منهج الإصلاح، وهو أدرى بصنعه، نتجه إلى خلق الله يضعون لنا المناهج التي تفسد، وظاهرها الإصلاح لكنها تزيد الأمور سوءاً

والغريب أننا نسمى هذا فلاحاً، ونسميه تقدماً. ولكن لماذا لا نتجه إلى الصانع أو الخالق، الذي أوجد وخلق؟ هو سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وبما يصلحهم وبما يفسدهم .

ومادام الحق سبحانه وتعالى، قد حكم على المنافقين، بأنهم هم المفسدون فذلك حكم يقينى ، وكل من يحاول أن يغير من منهج الله، أو يعطل تطبيقه بحجة الإصلاح، فهو مفسد وإن كان لا يشعر بذلك، لأنه لو أراد إصلاحا لأمجبه الى ما يصلح الكون، وهو المنهج السماوى الذى أنزله خالق هذا الكون وصانعه، وهذا المنهج موجود ومُبلَّغ ولا يخفى على احد.



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ
السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

والسفهاء في قصد المنافقين هم الفقراء، ولكن ما معنى السفه في اللغة: السفه معناه الطيش والحمق والخفة في تناول الأمور، فهل تنطبق صفة السفه على المؤمنين، نذین آمنوا بالله، أو أنها تنطبق على أولئك الذين لم يؤمنوا بالله؟ إذا كنتم تعتقدون أن الذين آمنوا هم السفهاء فلماذا تدعون الايمان كذبا، لتكونوا سفهاء؟ لاشك ان هناك تناقضا موجودا في كل تصرفات المنافقين.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإيمان، والمسلمون يدعونهم للإيمان، ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء أى فقراء لا يملكون شيئا، لأن سادة قريش لم يؤمنوا... وهم يدعون أن الذين آمنوا، تصرفوا تصرفا أحق، طائشا، ولكن الغفلة هي المرض الذي يملأ قلوبهم لايجعلهم ينتبهون إلى حقيقة مهمة، وهي أنهم يتظاهرون بالايمان، ويدعون الايمان ثم يصفون المؤمنين بالسفهاء، اذا كان هؤلاء سفهاء كما تدعون. فهل تتظاهرون بالايمان لتصبحوا سفهاء مثلهم؟!؟

إن المنطق لا يستقيم ويدل على سفاهة عقول المنافقين، أن هذه العقول لم تنبه إلى أنها حينها وصفت المسلمين بالسفهاء، قد أدانت نفسها، لأن المنافقين يدعون أنهم مؤمنون، إذن فكل تصرفات المنافقين فيها تناقض. تناقض مع العقل والمنطق، هذا التناقض يأتي من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض... فاللسان يكذب القلب. والعمل يكذب العقيدة. والتظاهر بالايمان يحملهم مشقة الايمان ولا يعطيهم شيئا من ثوابه. ولو كان لهم عقول، لنتبهوا الى هذا كاذبا، ولكنهم لايشعرون وهم يمشون في هذا الطريق، طريق النفاق، إنهم يجسدون السفاهة بعينها، بكل ما تحمله من حق واستخفاف، وعدم التنبيه إلى الحقيقة، والرعونة التي يتصرفون بها، والله سبحانه وتعالى حين وصفهم بالسفهاء، كان وصفا دقيقا، لحالتهم وطريقة حياتهم.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ ١٤ ﴿

وهكذا يرينا الحق سبحانه، أن كل منافق له أكثر من حياة يحرص عليها، والحياة لكي تستقيم يجب أن تكون حياة واحدة منسجمة بعضها مع بعض، ولكن انظر الى هؤلاء... مع المؤمنين يقولون آمنا، ويتخذون حياة الايمان ظاهرا، اى انهم يمثلون حياة الايمان، كما يقوم الممثل على المسرح بتمثيل دور شخصية غير شخصيته تماما... حياتهم كلها افتعال وتناقض، فإذا بعدوا عن الذين آمنوا، يقول الحق تبارك وتعالى: «واذا خلوا الى شياطينهم».

وانظر الى دقة الأداء القرآني، الشيطان هو الدس الخفى، الحق ظاهر وواضح، اما منهج الشيطان وتآمره فيحدث في الخفاء لأنه باطل والنفس لا تخجل من حق أبدا، ولكنها تخشى وتخاف وتحاول أن تخفى الباطل.

ولنضرب لذلك مثلا بسيطا، رجل يجلس مع زوجته في منزله، وطرق الباب طارق، ماذا يحدث؟ يقوم الرجل بكل اطمئنان، ويفتح الباب ليرى من الطارق، فإن وجده صديقا أو قريبا أكرمه ورحب به وأصر على أن يدخل ليضيفه. وتقوم الزوجة بإعداد الطعام أو الشراب الذى سيقدم للضيف، نأخذ هذه الحالة نفسها إذا كان الانسان مع زوجة غيره في شقته وطرق الباب طارق، يحدث ارتباك عنيف، ويبحث الرجل عن مكان يخفى فيه المرأة التى معه، أو يبحث عن باب خفى ليخرجها منه، أو يحاول أن يطفىء الأنوار ويمنع الاصوات لعل الطارق يحس أنه لا يوجد أحد في المكان فينصرف، وقبل أن يخرج تلك المرأة المحرمة عليه، فإنه يفتح الباب بحرص، وينظر يمينا ويسارا ليتأكد هل يراه احد، وعندما لا يجد احدا يسرع بدفع المرأة الى الخارج، لأنها إثم يريد أن يتخلص منه، وإذا نزل ليوصلها يمشى بعيدا عنها، ويظل يرقب الطريق، ليتأكد من أن احدا لم يره، وعندما يركبان السيارة ينطلقان بأقصى سرعة.

هذا هو الفرق بين منهج الايمان، ومنهج الشيطان، الحادثة واحدة، ولكن الذي يختلف هو الحلال والحرام. انظر كيف يتصرف الناس في الحلال . . في النور . . في الامان، وكيف يتصرفون في الحرام ومنهج الشيطان في الظلام وفي الخفية وبحرصون على الا يراهم أحد، ومن هنا تأتي دقة التعبير القرآني . . «واذا خلوا إلى شياطينهم» .

إن منهج الشيطان يحتاج إلى خلوة، إلى مكان لا يراك فيه أحد، ولا يسمعك فيه أحد، لأن العلن في منهج الشيطان يكون فضيحة، ولذلك تجد غير المستقيم يحاول جاهدا أن يستر حركته في عدم الاستقامة، ومحاولته أن يستر هي شهادة منه بأن ما يفعله جريمة وقبح، ولا يصح أن يعلمه أحد عنه، ومادام لا يصح أن يراه أحد في مكان ما، فاعلم أنه يحس أن ما يفعله في هذا المكان هو من عمل الشيطان الذي لا يقره الله، ولا يرضى عنه .

ولابد أن نعلم أن القيم، هي القيم، حتى عند المنحرف، وقوله تعالى: «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا» معناها أنهم عندما يتظاهرون بالايمان يأخذون جانب العلن، بل ربما افتعلوه، وكان المفروض أن يكون المقابل عندما يخلون إلى شياطينهم أن يقولوا: لم نؤمن.

وهناك في اللغة جملة اسمية وجملة فعلية، الجملة الفعلية، تدل على التجدد، والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فالمنافقون مع المؤمنين يقولون آمنا، ايمانهم غير ثابت، متذبذب، وعندما يلقون الكافرين، لو قالوا لم نؤمن، لأخذت صفة الثبات، ولكنهم في الفترة بين لقائهم بالمؤمنين، ولقائهم بالكافرين، الكفر متجدد، لذلك قالوا: «إنا معكم إنما نحن مستهزئون» .



﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥ ﴾

ان هؤلاء المنافقين قوم لا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، وهو القادر القوي حينما يستهزئ بهم يكون الاستهزاء أليماً ، وإذا كان المنافق ، قد أظهر بلسانه ما ليس في قلبه ، فإن الله سبحانه وتعالى يعامله بمثل فعله ، فإذا كان له ظاهر وباطن ، يعامله في ظاهر الدنيا ، معاملة المسلمين ، وفي الآخرة يوم تبلى السرائر يجعله في الدرك الأسفل من النار ، لا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشد .

«الله يستهزئ بهم» والاستهزاء هو السخرية ، فهم يأتون يوم القيامة محاولين أن يتمسكوا بالظاهر ، فيظهر الله سبحانه وتعالى لهم باطنهم . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَيَلْلِكُ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّغْزَةٌ ١ ﴾

(سورة الحمزة)

والهمزة هو الذي يسخر من الناس ولو بالإشارة . .

يرى انسانا مصابا بعاهة في قدمه ، يمشي وهو يعرج فيحاول ان يقلده بطريقة تشير السخرية ، اما بالإشارة وإما بالكلام ، وهناك همز وهمزة . . الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس ، علامة عدم الايمان ، لاننا كلنا مخلوقون من إله واحد ، فهذه الصفة التي سخرت فيها من انسان اعرج مثلاً ، لا عمل له فيها ، ولا حول له ولا قوة . . والانسان لم يصنع نفسه ، والحقيقة أنك تسخر من صنع الله ، والذي يسخر من خلق الله انسان غبي لانه سخر من خلق الله في عيب ، ولم يقدر ما تفضل الله به عليه ، كما انه سخر من عيب ولم يفتن الى ان الحق سبحانه وتعالى قد اعطى ذلك

الانسان خصالا ومميزات ربما لم يعطها له ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ان مجموع كل انسان ، يساوى مجموع كل انسان آخر ، وذلك هو عدل الله ، فإذا كنت احسن من انسان فى شىء فابحث عن النقص فيك . فإن استهزأت بمؤمن فى شىء ، فالاستهزاء غير مفصول عن صنعة الله ، إذن فمن المنطق عندما قالوا : « انما نحن مستهزئون » أن يرد الله عليهم « والله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » أى يزيدهم فى هذا الطغيان ، لان المد هو أن تزيد الشىء ، ولكن مرة تزيد فى الشىء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره ، قد تأتى بخبط وتفردة إلى آخره ، وقد تصله بخبط اخر ، فتكون مددته من غيره ، فالله يزيدهم فى طغيانهم .

وقوله تعالى « يعمهون » العمه يختلف عن العمى ، والخلاف فى الحرف الاخير ، العمى عمى البصر ، والعمه عمى البصيرة ، و يعمهون أى يتخبطون ، لان العمه ينشأ عنه التخبط سواء التخبط الحسى ، من عمى البصر ، او التخبط فى القيم والمنهج الحياة من عمى البصيرة . والله تعالى يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فكأنما العمى المادى ، قد لا يكون ، ولكن يكون هناك عمى البصيرة ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ اَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا ۚ قَالَ كَذٰلِكَ اَنتَكَ ءَايٰتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ۝۱۱۱ ﴾

(سورة طه)

فكان عمى البصيرة فى الدنيا ، يعنى بصر الانسان ، عن رؤية آيات الله فى كونه ، ويعميه عن الايمان والمنهج . .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِتَجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ١٦

يعطينا الحق سبحانه وتعالى صفة أخرى من صفات المنافقين، فيصفهم بأنهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى. وما دام هناك شراء، فهناك صفقة، والصفقة، تتطلب مشتريا وبائعا، وقد كانت السلعة في الماضي تشتري بسلعة أخرى، أما الآن فإن كل شيء يشتري بالمال، ماذا اشتروا؟

ان هؤلاء المنافقين اشتروا الضلالة، واشتروها بأي ثمن؟! .. اشتروها بالهدى! الباء في اللغة تدخل على المتروك، عندما تشتري شيئا تترك ثمنه، إذن كأن هؤلاء قد تركوا الهدى واشتروا الضلالة، ولكن هل كان معهم هدى ساعة الصفقة؟. ان الحال يقتضي ان يكون معهم هدى، كأن يتهدى انسان ثم يجد أن الهدى لا يحقق له النفع الدنيوي الذي يطلبه فيتركه ليشتري به الضلال ليحقق به ما يريد، والهدى الذي كان معهم، قد يكون هدى الفطرة، فكأن هؤلاء كان يمكنهم ان يختاروا الهدى فاختاروا الضلالة.

والله سبحانه وتعالى يهدي كل الناس، هدى دلالة، فمن اختار الهدى يزده .
واقرا قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا تُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

وقول الحق «فما ربحت تجارتهم» التجارة بيع وشراء، الشاري مستهلك، والبائع قد يكون منتجا، او وسيطا بين المنتج والمستهلك. ما حظ البائع من البيع والشراء؟ ان يكسب فاذا ما كسب قيل ربحت تجارته. واذا لم يكسب ولم يخسر، أو اذا خسر ولم يكسب، ففي الحالين لا يحقق ربحا، ونقول ما ربحت تجارته.

فقوله تعالى «فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» يدل على انهم خسروا كل شيء لانهم لم يربحوا، فكأنهم لم يحققوا شيئاً له فائدة، وخسروا الهدى، أى خسروا الربح ورأس المال. ما ربحت تجارتهم ربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا، ولكن هم قدموا الهدى ثمناً للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى، أى رأس مالهم..

ونفسه المنافق اذا اردت ان تحددها، فهو انسان بلا كرامة، بلا رجولة لا يستطيع المواجهة، بلا قوة، يحاول ان يمكر في الخفاء، ولذلك تكون صورته حقيرة امام نفسه، حتى لو استطاع ان يخفى عيوبه عن الناس، فيكفى انه كاذب امام نفسه لتكون صورته حقيرة امام نفسه، وفي ذلك يقول الشاعر:

اذا أنا لم أت الدنيا خشية

من الناس كان الناس اكرم من نفسى

كفى المرء عارا ان يرى عيب نفسه

وان كان فى كُنْ عن الجن والانس

فالهم رأيك فى نفسك.. والتمزق الذى عند المنافق انه يريد ان يخفى عيوبه عن الناس.



﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ١٧ ﴿

يريد الحق سبحانه وتعالى ان يقرب صفات التمزق في المنافقين الى فهمنا، ولذلك فهو يضرب لنا الامثال، والامثال جمع مثل وهو الشبيه الذي يقرب لنا المعنى ويعطينا الحكمة، والامثال باب من الابواب العريضة في الادب العربي.

فالمثل ان تأتى بالشئ الذى حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبرة، رأى الناس ان يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة.

ولنضرب مثلاً لذلك، ملك من الملوك، اراد ان يخاطب فتاة من فتيات العرب، فأرسل خاتبة اسمها عصام ليرى هذه العروس وتسال عنها وتخبره، فلما عادت قال لها ما وراءك يا عصام ؟ اى بماذا جئت من اخبار، قالت: له ابدى المخض عن الزبد. المخض هو ان تأتى باللبن الحليب وتخضه فى القربة حتى يتفصل الزبد عن اللبن، فصار الاثنان - السؤال والجواب - يضربان مثلاً. تأتى لمن يجيئك تنتظر منه اخباراً فتقول له: ما وراءك يا عصام.

ولا يكون اسمه «عصام» . . ولم ترسله لاستطلاع اخبار، بينما تريد ان تسمع ما عنده من اخبار.

وحينما تريد مثلاً . . ان تصور تنافر القلوب . . وكيف أنها اذا تنافرت لا تلتصم أبداً . . ويريد الشاعر أن يقرب هذا المعنى فيقول :

ان القلوب اذا تنافر ودها

مثل الزجاجه كسرهما لا يشعب (أى لا يجبر)

وساعة تنكسر الزجاج لا تستطيع اصلاحها .. ولكن يسهل هذا المعنى عليك وتفهمه في يسر وسهولة .. فإنك لا تستطيع أن تصور أو تشاهد معركة بين قلبين .. لأن هذه مسألة غيبية .. فتأتى بشيء مشاهد وتضرب به المثل .. وبذلك يكون المعنى قد قرب .. لأنك شبهته بشيء محسوس .. تستطيع أن تفهمه وتشاهده ..

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن الكريم في أكثر من موضع .. ليقرب من أذهاننا معنى الغيبيات التي لا نعرفها ولا نشاهدها .. ولذلك ضرب لنا الأمثال في قصة الإيمان .. وحدانية الله سبحانه وتعالى .. وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله .. الذي لا نشهده وهو غيب عنا .. وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار والمنافقين .. لنعرف فساد عقيدتهم ونتنبه لها .. وضرب لنا الأمثال فيما يمكن أن يفعله الكفر بالنعمة .. والطغيان في الحق .. وغير ذلك من الأمثال .. قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾

(سورة الاسراء)

وقد ضرب الله جل جلاله لنا الأمثال في الدنيا وفي الآخرة ، وفي دقة الخلق .. وقصة الإيمان .. ومع ذلك فإن الناس منصرفون عن حكمة هذه الأمثال .. كافرون بها .. مع أن الحق تبارك وتعالى .. ضربها لنا لتقرب لنا المعنى .. تشبيها بماديات نراها في حياتنا الدنيا .. وكان المفروض أن تزيد هذه الأمثال الناس إيماناً .. لأنها تقرب لهم معاني غائبة عنهم .. ولكنهم بدلاً من ذلك ازدادوا كفراً !!

ولا بد قبل أن نتعرض للآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .. أن نتحدث عن بعض الأمثال التي ضربت في القرآن الكريم .. لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن قضايا غيبية بمحسبات دنيوية :

ضرب الله تبارك وتعالى لنا مثلاً بالقصة الإيمانية .. وهي أنه لا إله إلا الله .. وكيف أن هذه رحمة من الله سبحانه وتعالى .. يجب أن نسجد له شكراً عليها .. لأن فيها وقاية لنا من شقاء .. ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يريد بعباده الرحمة ،

ولكن بعض الناس يريد أن يشقى نفسه فيشرك بالله جل جلاله .. وبدلاً من أن يأخذ طريق الإيمان المبسر .. يأخذ طريق الكفر والنفاق والشرك بالله الذي يملك كل شيء في الدنيا والآخرة .. يقول الحق جل جلاله :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا مَسْلُومًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ ﴾

(سورة الزمر)

بهذه الصورة المحسة التي نراها .. ولا يختلف فيها اثنان .. يريد الله تبارك وتعالى أن يقرب إلى أذهاننا صورة العابد لله وحده ، وصورة المشرك بالله .. ويعطينا المثل في عبد مملوك لشركاء .. رجل مملوك لعشرة مثلاً .. وليس هؤلاء الشركاء العشرة متفقين .. بل هم متشاكسون أي أنهم مختلفون .. ورجل آخر مملوك لسيد واحد .. أيهما يكون مستريحاً يعيش في رحمة ؟ .. طبعاً المملوك لسيد واحد في نعمة ورحمة .. لأنه يتبع أمراً واحداً ونهياً واحداً .. ويطيع رباً واحداً .. ويطلب رضا سيد واحد .. أما ذلك الذي يملكه شركاء حتى لو كانوا متفقين .. فسيكون لكل واحد منهم أمر ونهى .. ولكل واحد منهم طلب .. فما بالك إذا كانوا مختلفين ؟ أحد الشركاء يقول له تعالى .. والآخر يقول له لا تأت ، وأحد الشركاء يأمره بأمر ، والآخر يأمره بأمر مناقض .. ويختار أيهما يرضى وأيها يغضب ؟ .. وهكذا تكون حياته شقاء وتناقضاً ..

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقرب لنا الصورة .. في قضية هي قمة اليقين .. وهي الإيمان بالواحد الأحد .. يريدنا أن نلمس هذه الصورة .. بمثل نراه ونشاهده .. وأن نرى فيض الله بروحمته على عباده .. ونحس الحق سبحانه ليلفتنا إلى أن نفكر قليلاً في مثل يضربه لنا في القرآن الكريم :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
يُوجَّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٧٦ ﴾

(سورة النحل)

فالحق تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة .. يطلب منا أن نفكر في مثل مادي محسوس .. أيها خير؟ .. أذلك الصنم الذي يعبد الكفار وهو لا يأتي لهم بخير أبدا .. لأنه لا يستطيع أن ينفع نفسه فكيف يأتي بالخير لغيره .. بل هو عبء على من يتخذونه إلهًا .. فإنهم يجب أن يضعوه وأن يحملوه من مكان إلى آخر إذا أرادوا تغيير المعبود أو الرحيل .. وإذا سقط فتهشمت أجزأ منه .. فإنه يجب أن يصلحوها ..

اذن فزيادة على انه لا يأتي لهم بخير .. فإنه عبء عليهم يكلفهم مشقة .. ويحتاج منهم الى عناية ورعاية ..

أعبادة مثل هذا الصنم خير؟ أم عبادة الله سبحانه الذي منه كل الخير وكل النعم .. والذي يأمر بالعدل .. فلا يفضل أحدا من عباده على أحد .. والذي يعطي لعباده الصراط المستقيم .. الذي لا اعوجاج فيه .. والموصل الى الجنة في الآخرة .. ان الله سبحانه وتعالى يشرح بهذا المثل غباء فكر المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله تبارك وتعالى .

وهكذا يعطينا هذان المثالان توضيحا لقضية الوجدانية والالوهية .. ثم يأتي الله سبحانه وتعالى بمثل آخر .. يضرب لنا مثلا لنوره .. هذا النور الإلهي الذي يضيء الدنيا والآخرة .. فيضيء القلوب المؤمنة .. إنه يريد أن يضرب لنا مثلا لهذا النور بشيء مادي محسوس .. فيقول جل جلاله :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي الْمِصْبَاحِ الَّتِي فِي رُجَاةٍ ۚ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ
يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾

كان الله سبحانه وتعالى .. يريدنا أن نعرف بتشبيه محس .. أن مثل نوره
كمشكاة .. والمشكاة هي (الطاقة) .. وهي فجوة في الحائط بالبيت الريفي ..
ونحن نضع المصباح في هذه الطاقة .. اذن المصباح ليس في الحجرة كلها .. ولكن
نوره مركز في هذه الطاقة فيكون قويا في هذا الحيز الضيق .. ولكن المصباح في
زجاجة .. لحفظه من الهواء من كل جانب .. فيكون الضوء أقوى .. صافيا
لا دخان فيه .. كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه .. والزجاجة غير عادية
ولكنها : « كوكب دري » .. أي هي مضيئة بذاتها وكأنها كوكب .. ووقودها من
شجرة مباركة يملؤها النور لا شرقية ولا غربية .. أي يملؤها النور من الوسط ويخرج
صافيا .. والزيت مضيء بذاته دون أن تمس النار .. فهي نور على نور .. أيكون
جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلما ؟ .. أم تكون كلها مليئة بالنور
القوى ؟

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط للتقريب
إلى الأذهان .. فكأن نور الله يضيء كل ركن وكل بقعة : .. ولا يترك مكانا مظلما ..
فهو نور على نور ..

ولقد أراد أحد الشعراء^(١) أن يمدح الخليفة^(٢) وكانت العادة أن يشبه الخليفة ..
بالأشخاص البارزين ذوي الصفات الحسنة .. فقال :

إقدام عمرو في ساحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء إياس

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات ..
فعمر و كان مشهورا بالإقدام والشجاعة .. وحاتم كان مشهورا بالسباحة .. وأحنف
يضرب به المثل في الحلم .. وإياس شعلة في الذكاء .. وهنا قام أحد الحاضرين^(٣)
وقال : الأمير أكبر في كل شيء عن شبهته بهم .. فقال أبو تمام على الفور :
لَا تُنْكِرُوا ضَرْبَ لَهْ مَنْ دُونَهُ
مَثَلًا شُرُودًا فِي النُّدَى وَالْبَاسِ

(١) هو أبو تمام

(٢) هو أحمد بن المعتصم

(٣) هو يعقوب بن اسحاق الكندي

فَالَهُ نَدُّ ضَرْبِ الْأَقْلُ لِصُورِهِ

مثلا من المشكاة والنبراس^(١)

فأعجب أحمد بن المعتصم والحاضرون من ذكائه وأمر بأن تضاعف جائزته .
والله سبحانه وتعالى . . يضرب لنا المثل بما سيشهد به المؤمنون في الجنة . . فيقول
جل جلاله :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ
طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ نَعِيمٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَنَّى ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

هذه ليست الجنة . . ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة
بأشياء موجودة في حياتنا . . لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب أكثر من هذا . .
والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ومن هنا فإنه
لا توجد أسماء في الحياة تعبر عما في الجنة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧)

(سورة السجدة)

فإذا كانت النفس لا تعلم . . فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد في الجنة . . والمثل
متى شاع استعماله بين الناس سمي مثلا . . فأنت إذا رأيت شخصا مغترا بقوة . .
وتريد أن تفهمه أنك أقوى منه تقول له . . إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا . .
ولا توجد ريح ولا إعصار فيما يحدث بينكما . . وإنما المراد المعنى دون التقيد بمدلول
الألفاظ .

فالخلق سبحانه وتعالى . . يريد أن يعطينا صورة . . عما في داخل قلوب
المنافقين . . من اضطراب وذبذبة وتردد في استقبال منهج الله . . وفي الوقت نفسه

(١) من ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي .

ما يجري في القلوب غيب عنا .. وأراد الله أن يقرب هذا المعنى إلينا .. فقال :
« مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » .. أي حاول أن يوقد نارا .. والذي يحاول أن
يوقد نارا .. لا بد أن له هدفا .. والهدف قد يكون الدفء وقد يكون الطهي ..
وقد يكون الضوء وقد يكون غير ذلك .. المهم أن يكون هناك هدف لا يقاد النار ..

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في
ظلمات لا يبصرون » .. ذلك انهم في الحيرة التي تملأ قلوبهم .. كانوا قد سمعوا من
اليهود أن زمن نبي جديد قد أتى .. فقرروا أن يؤمنوا به .. ولكن ايمانهم لم يكن عن
رغبة في الايمان .. ولكنه كان عن محاولة للحصول على أمان دنيوي .. لأن اليهود
كانوا يتوعدونهم ويقولون أتى زمن نبي سنؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وادم .. فأراد
هؤلاء المنافقون أن يتقوا هذا القتل الذي يتوعدهم به اليهود .. فتصوروا أنهم اذا
أعلنوا أنهم آمنوا بهذا النبي نفاقا أن يحصلوا على الأمن ..

إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة .. انهم أوقدوا هذه النار ..
لتعطيتهم نورا يريهم طريق الايمان .. وعندما جاء هذا النور بدلا من أن يأخذوا نور
الايمان انصرفوا عنه .. وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم .. فلم يبق في قلوبهم
شيء من نور الايمان .. فهم الذين طلبوا نور الايمان أولا .. فلما استجاب الله لهم
انصرفوا عنه .. فكان الفساد في ذاتهم .. وكانهم هم الذين بدأوا بالفساد ..
وساعة فعلوا ذلك ذهب الله بنور الايمان من قلوبهم ..

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآني .. في قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » ولم يقل
ذهب الله بضوئهم .. مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء .. فما هو الفرق
بين الضوء والنور ؟ .. اذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

نجد أن الضوء أقوى من النور .. والضوء لا يأتي إلا من اشعاع ذاتي ..
فالشمس ذاتية الإضاءة .. ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور .. وقبل أن

تشرق الشمس تجدد في الكون نورا .. ولكن الضوء يأتي بعد شروق الشمس .. فلو أن الحق تبارك وتعالى قال ذهب الله بضوئهم .. لكان المعنى انه سبحانه ذهب بما يعكس النور .. ولكنه أبقي لهم النور .. ولكن قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » .. معناها أنه لم يبق لهم ضوء ولا نورا .. فكان قلوبهم يملؤها الظلام .. ولذلك قال الله بعدها : « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .. لنعلم انه لا يوجد في قلوبهم أى نور ولا ضوء ايمان .. كل هذا حدث بظلمهم هم وانصرفهم عن نور الله ..

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى .. لم يقل وتركهم في ظلام .. بل قال : « في ظلمات » .. أى انها ظلمات متراكمة .. ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا ..

من أين جاءت هذه الظلمات ؟ .. جاءت لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة .. وعندما جاءهم نور الايمان انصرفوا عنه فصرف الله قلوبهم ..

مثلا اذا أخذنا قصة زعيم المنافقين عبدالله بن أبي ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واهلها يستعدون لتويع عبدالله بن أبي ملكا عليها .. وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الناس عن عبدالله بن أبي الى استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام .. فوصول الرسول عليه الصلاة والسلام ضيع على عبدالله بن أبي الملك .. ولقد كان من الممكن أن يؤمن .. وأن يلتمس النور من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولو آمن حينئذ ربما أعطى في الآخرة ملكا دائما .. يفوق الملك الذى كان سيحصل عليه في الدنيا .. ولكن لأن في قلبه الدنيا وليس الدين .. ولأنه يريد رفعة في الدنيا .. ولا يريد جنة في الآخرة ، فقد ملأ الحقد قلبه فكان ظلمة .. وملأ الحسد قلبه فكان ظلمة .. وملأت الحسرة قلبه فكانت ظلمة .. وملأت الكراهية والبغضاء قلبه فكانت ظلمة .. اذن هي ظلمات متعددة ..

وهكذا في قلب كل منافق ظلمات متعددة .. ظلمة الحقد على المؤمنين وظلمة الكراهية لهم .. وظلمة تمنى هزيمة الايمان .. وظلمة تمنى أن يصيبهم سوء وشر .. وظلمة التمزق والألم من الجهد الذى يبذله للتظاهر بالايمان وفي قلوبهم الكفر .. كل

هذه ظلمات .. ولكن لا تحاول ان تأخذها بمقاييس عقلك .. والمفروض أن المثل هنا لتقريب المعنى .. لأنك اذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَلِمْ يَدَكَ وَخِصْرَكَ وَإِنَّمَا تَذَكَّرُكَ بِهِ وَذِكْرُ رَبِّكَ عَظِيمٌ ١٧٣ ﴾

(سورة الاسراء)

كيف يكون الحجاب مستورا ؟ .. مع أن الحجاب هو الساتر الذي يستر شيئا عن شيء .. ولكن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم .. انه برغم أن الحجاب يستر شيئا عن شيء ، فإن الحجاب نفسه مستور لا نراه .. وبعض العلماء يقولون : إن مستورا اسم مفعول .. وهو في معنى اسم الفاعل ساتر .. نقول لا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ١٧٤ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُهُ مَأْتِيًا ١٧٥ ﴾

(سورة مريم)

مأتيا اسم مفعول واسم الفاعل أتى .. ويقول البعض وضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل .. نقول انك لم تفهم .. هل وعد الله يلح في طلب العبد .. أم أن العبد يلح في طلبه بعمله فكانه ذاهب إليه .. والموعود هو المستفيد وليس الوعد ..

اذن من دقة القرآن الكريم .. انه يريد أن ينبهنا إلى ان الموعود هو الذي يسعى للقاء الوعد .. وليس الوعد هو الذي يطلب لقاء الموعود فيستخدم اسم الفاعل . فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .. نفى النور عنهم .. والنور لا علاقة له بالسمع ولا بالشم ولا باللمس .. ولكنه قانون البصر ..

وانظر الى دقة التعبير القرآني .. اذا امتنع النور امتنع البصر .. أي ان العين لا تبصر بذاتها .. ولكنها تبصر بانعكاس النور على الاشياء ثم انعكاسه على العين ..

واقرا قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۖ فَحَوْنًا آيَةً ۖ وَاللَّيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةً ۖ النَّهَارَ مَبْصُرَةً ۖ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الاسراء)

فكان الذى يجعل العين تبصر هو الضوء او النور . . فاذا ضاع النور ضاع الابصار . . ولذلك فانت لا تبصر الاشياء فى الظلام . . وهذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن .



﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ١٨

فالحق سبحانه وتعالى .. بعد أن أخبرنا أنه يظلم هؤلاء المنافقين لأنفسهم .. ذهب بنور الايمان من قلوبهم فهم لا يبصرون آيات الله .. أراد أن يلفتنا الى أنه ليس البصر وحده هو الذى ذهب .. ولكن كل حواسهم تعطلت .. فالسمع تعطل فهم صم .. والنطق تعطل فهم بكم .. والبصر تعطل فهم عمى .. وهذه هي آلات الادراك فى الانسان .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْعًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ١٩

(سورة النحل)

إذن كونهم فى ظلمات لا يبصرون معناها أنها قد تعطلت وسائل الإدراك الأخرى ؛ فإذا بهم صُمَّتْ فهي لا تسمع منهج الحق ، وألستهم تعطلت عن نقل ما فى قلوبهم وأبصارهم لا ترى آيات الله فى الكون إذن قالات إدراكهم هدى الله معطلة عندهم ..

وقوله تعالى : « فهم لا يرجعون » .. أى لن تعود اليهم هذه الوسائل ليبدركوا نور الله فى كونه .. الادراك غير موجود عندهم .. ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا الى منهج الايمان أبدا .. لقد فسدت فى قلوبهم العقيدة .. فلم يفرقوا بين ضرر عاجل وما هو نفع آجل .. نور الهداية كان سيجعلهم يبصرون الطريق الى الله .. حتى يسيروا على بينة ولا يتعثروا .. ولكنهم حينما جاءهم النور رفضوه وانصرفوا عنه .. فكأنهم انصرفوا عن كل ما يهديهم الى طريق الله !!

قاله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة .. أعطانا وصفا آخر من صفات المنافقين هو أن ادوات الادراك التي خلقها الله جل جلاله معطلة عندهم .. ولذلك فان الاصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يأتي بنتيجة .. لان الله تبارك وتعالى بنفاقهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التي كان من الممكن أن يعودوا بها الى طريق الحق .



بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

والله سبحانه وتعالى حين خلق الارض .. وضع في الخلق حكمة المطر في أن تكون مساحة الماء واسعة لتتم عملية البحر بسهولة .. وجعل أشعة الشمس هي التي تقوم بعملية البحر من سطح الماء .. وتم ذلك بحساب دقيق .. حتى لا تغرق الامطار الأرض أو يحدث فيها جفاف .. ثم سخر الريح لتدفع السحاب الى حيث يريد الله أن ينزل المطر .. وقمم الجبال الباردة ليصطدم بها السحاب فينزل

المطر .. كل هذا بحساب دقيق في الخلق وفي كل مراحل المطر ..
ومادام الماء هو الذي به الحياة على الأرض .. فقد ضرب الله لنا به المثل كما
ضرب لنا المثل بالنار وضوئها .. فكلها أمثلة مادية لتقرب الى عقولنا ما هو غيب
عنا .. فللماء يعطينا الحياة ..

لكن هؤلاء المنافقين . لم يلتفتوا الى هذا الخير . الذي ينزل عليهم من السماء من
غير تعب او جهد منهم . بل التفتوا الى أشياء ثانوية ، كان من المفروض ان يرحبوا
بها لانها مقدمات خير لهم . فالمطر قبل أن ينزل من السماء لابد أن يكون هناك شيء
من الظلمة في السحاب الذي يأتي بالمطر . فيحجب أشعة الشمس ان كنا نهارا .
ونخفض نور القمر والنجوم ان كنا ليلا . هذه الظلمة مقدمات الخير والماء ..
إنهم لم يلتفتوا الى الخير الذي ملأ الله به سبحانه وتعالى الأرض . بل التفتوا الى
الظلمة فنفروا من الخير .. كذلك صوت الرعد ونور البرق . الرعد يستقبله الانسان
بالأذن وهي آلة السمع . والبرق تستقبله العين .. وصوت الرعد قوى ، أقوى من
طاقة الأذن . ولذلك عندما يسمعه الانسان يفرع ، ويحاول ان يمنع استقبال الأذن
له ، بأن يضع أنامله في أذنيه .

وهؤلاء المنافقون لم يضعوا الأنامل . ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى : « يجعلون
أصابعهم في آذانهم » ولم يقل أناملهم . وذلك مبالغة في تصوير تأثير الرعد عليهم .
فكانهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل أصبعه في أذنه .
ليحميه من هذا الصوت المخيف . فكانهم يبالبغون في خوفهم من الرعد .

ونلاحظ هنا أن الحديث ليس عن فرد واحد ، ولكن عن كثيرين .. لأنه سبحانه
وتعالى يقول « أصابعهم » نقول ان الأمر للجماعة يعني أمرا لكل فرد فيها ، فإذا قال
المدرس للتلاميذ أخرجوا أقلامكم ، فمعنى ذلك ان كل تلميذ يخرج قلمه .. وإذا
قال رئيس الجماعة اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك ان كل واحد يركب سيارته ..
لذلك فان معنى « يجعلون أصابعهم في آذانهم » ان كل واحد منهم يضع أصبعه في
أذنيه ..

لماذا يفعلون ذلك ؟! انهم يفعلونه خوفا من الموت . لان الرعد والبرق يصاحبهما
الصواعق أحيانا ، ولذلك فإنهم من مبالغتهم في الخوف يحس كل واحد منهم ان

صاعقة ستقتله . . فكأنهم يستقبلون نعمة الله سبحانه وتعالى بغير حقيقتها . . هم لا يرون النعمة الحقيقية في ان هذا المطر يأتي لهم بعوامل استمرار الحياة . ولكنهم يأخذون الظاهر في البرق والرعد . وكذلك المنافقون . . لا يستطيع الواحد منهم ان يصبر على شهوات نفسه ونزواتها . . انه يريد ذلك العاجل ولا ينظر الى الخير الحقيقي الذي وعد الله به عباده المؤمنين في الآخرة . . وهو ينظر الى التكاليف كأنها شدة ومسألة تحمل النفس بعض المشاق . ويغفل عن حقيقة جزاء التكاليف في الآخرة . وكيف انها ستوفر لهم النعيم الدائم . . تماما كما ينظر الانسان الى المطر على أنه ظلمة ورعد وبرق ، وينسى انه بدون هذا المطر من المستحيل ان تستمر حياته . .

هم يأخذون هذه الظواهر على أنها كل شيء . بينما هي في الحقيقة تاتي لوقت قصير وتختفي ، فهي قصيرة كالحياة الدنيا ، وقتية . ولكن نظرتهم اليها وقتية ومادية لانهم لا يؤمنون الا بالدنيا وغفلوا عن الآخرة . . غفلوا عن ذلك الماء التي يبقى فترة طويلة ، وتنبهوا الى تلك الظواهر الوقتية التي تاتي مع المطر فخافوا منها وكان خوفهم منها يجعلهم لا يحسون بما في المطر من خير . والمنافقون يريدون ان يأخذوا خير الاسلام دون ان يقوموا بواجبات هذا الدين !!

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى قضية هامة . وهي ان خوفهم من زوال متع الدنيا ونفوذها لن يفعل لهم شيئا . لان الله محيط بالكافرين . . والاحاطة معناها السيطرة التامة على الشيء بحيث لا يكون امامه وسيلة للافلات ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة بالكافرين وغير الكافرين . .

اذن عدم التفاتهم للنفع الحقيقي ، وهو منهج الله ، لا يعطيهم قدرة الافلات من قدرة الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة .



﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ
وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَارَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠)

ان الله سبحانه وتعالى يريد ان يلفتنا الى ان البرق الذي هو وقتى وزمنه قليل .
هو الذى يسترعى انتباههم . ولو آمنوا لأضاء نور الايمان والاسلام طريقهم . ولكن
قلوبهم مملوءة بظلمات الكفر فلا يرون طريق النور . . والبرق يخطف ابصارهم ، أى
ياخذها دون ارادتهم . فالخطف يعنى ان الذى يخطف لا ينتظر الاذن ، والذى يتم
الخطف منه لا يملك القدرة على منع الخاطف . والخطف غير الغصب . فالغصب ان
تأخذ الشئ برغم صاحبه .

ولكن . . ما الفرق بين الأخذ والخطف والغصب ؟ . الأخذ ان تطلب الشئ من
صاحبه فيعطيه لك . او تستأذنه . اى تأخذ الشئ بإذن صاحبه . والخطف أن
تأخذه دون ارادة صاحبه ودون ان يستطيع منعك

والغصب أن تأخذ الشئ رغم ارادة صاحبه باستخدام القوة أو غير ذلك بحيث
يصبح عاجزا عن منعك من أخذ هذا الشئ .

ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الاعلى . اذا دخل طفل على محل للمحلوى وخطف
قطعة منها ، يكون صاحب المحل لا قدرة له على الخاطف لأن الحدث فوق قدرات
المخطوف منه ، فهو بعيد وغير متوقع للشئ ، فلا يستطيع منع الخطف . . أما
الغصب فهو ان يكون صاحب المحل متنبها ولكنه لا يملك القدرة على منع ما يحدث ،
. إذا حاول أن يقاوم فإن الذى سياتخذ الشئ بالرغم عنه لا بد أن يكون أقوى منه .
اى أن قوة المقتصب ، تكون أقوى من المقتصب منه .

وقوله تعالى : « يكاد البرق يخطف ابصارهم » .

لا بد ان ننتبه الى قوله تعالى « يكاد » اى يكاد او يقترب البرق من ان يخطف

أبصارهم . وليس للانسان القدرة أن يمنع هذا البرق من أن يأخذ انتباه البصر .

وقوله تعالى « كلما اضاء لهم مشوا فيه » .

أى أنهم يمشون على قدر النور الدنيوى . الذى يعطيه لهم البرق . فلا نور في قلوبهم . ولذلك اذا أظلم عليهم توقفوا ، لانه لا نور لهم .

وقوله تعالى « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » .

يدعى بعض المستشرقين ان ذلك يتعارض مع الآية الكريمة التى تقول « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » كيف يكونون صما بكمما عميا . . أى أن منافذ الادراك عندهم لا تعمل ، ونحن هنا نتحدث عن العمى الالمانى ، ثم يقول تبارك وتعالى « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » مع أنهم صم وبكم وعمى ؟ . .

نقول ان قول الحق سبحانه وتعالى : « صم بكم عمى » أى لا يرون آيات الله ويقين الايمان ، ولا يسمعون آيات القرآن ويعقلونها . . اذن فوسائل ادراكهم للمعنويات تتعطل . ولكن وسائل ادراكهم بالنسبة للمحسّات تبقى كما هى . فالمنافق الذى لا يؤمن بيوم القيامة ، لا يرى ذلك العذاب الذى ينتظره في الآخرة .

ولو شاء الله سبحانه وتعالى ان يذهب بسمعهم وأبصارهم . بالنسبة للأشياء المحسّسة . لاستطاع لانه قادر على كل شيء ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك . حتى لا يأتوا مجادلين في الآخرة ، من أنهم لو كان لهم بصر لرأوا آيات الله . ولو كان لهم سمع لتدبروا القرآن . فأبقى الله لهم أبصارهم وسمعهم . لتكون حجة عليهم ، بأن لهم بصرا ولكنهم انصرفوا عن آيات الله الى الأشياء التى تأتيهم بفائدة عاجلة في الدنيا مهما جاءت بغضب الله . وأن لهم سمعا يسمعون به كل شيء من خبط المؤامرات على الاسلام . وضرب الايمان وغير ذلك . فاذا تليت عليهم آيات الله فانهم لا يسمعونها . وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ

﴿ إِنفَا ٣٤

أى أنهم يسمعون ولا يعقلون ولا يدخل النور الى قلوبهم ، فكانهم صم عن آيات الله لا يسمعونها.

والحق سبحانه وتعالى يريد ان يعطينا مثل المنافقين بأنهم لا يلتفتون الى القيم الحقيقية فى الحياة . ولكنهم يأخذون ظاهرها فقط . يريدون النفع العاجل ، وظلمات قلوبهم . لا تجعلهم يرون نور الايمان . وانما يبهتهم بريق الدنيا مع أنه زائل ووقتى . فيخطف أبصارهم . ولأنه لا نور فى قلوبهم ، فاذا ذهب عنهم الدنيا ، تحيط بهم الظلمات من كل مكان لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . مع أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لذهب بسمعهم وأبصارهم ، لأنهم لا يستخدمونها الاستخدام الايمانى المطلوب . والمفروض ان وسائل الادراك هذه . تزيدنا ايمانا . . ولكن هؤلاء لا يرون الا متاع الدنيا . ولا يسمعون الا وسوسة الشيطان ، فالحكمة الايمانية لوسائل الادراك توقفت ، وكان هذه الوسائل غير موجودة .



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ٢١ ﴿

بعد أن حدثنا الله سبحانه وتعالى عن صفات المنافقين في ثلاث عشرة آية وأعطانا أوصافهم الظاهرة . وأعطانا أمثلة لما يحدث في قلوبهم كي يعرفهم المؤمنون ظاهرا وباطنا . ويحذروهم ولا يأمنوا لهم . بين لنا كيف أن المنافقين لم يكفروا بالله كإله فقط . ويستروا وجوده ، ولكن كفروا به كرب . والرب عطاؤه مكفول لكل من خلق مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذي استدعاهم للوجود وخلقهم . ولذلك فانه سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم .

والله سبحانه وتعالى لا يحرم خلقا من خلقه من عطاء ربوبيته في الدنيا . فالشمس تشرق على المؤمن والكافر . والمطر ينزل على من قال لا إله إلا الله ومن ستر وجوده تعالى : والهواء يتنفس به ذلك الذي يقيم الصلاة والذي لم يركع ركعة في حياته . . والطعام يأكله الذي يحب الله والذي يكفر بنعم الله . . ذلك أن هذه عطاءات ربوبية يعطيها الله تعالى لكل خلقه في الدنيا . .

اما عطاءات الألوهية ، فهي للمؤمنين في الدنيا والآخرة .

فالله سبحانه وتعالى يلفت انتباه خلقه الى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفي ليؤمنوا بالله ويعبدوه .

والحق سبحانه وتعالى حينها يخاطب الناس في القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا بد أن يكون الخطاب للناس في كل زمان ومكان . منذ نزول القرآن الكريم الى يوم القيامة .

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاص بقضية الإيمان في القمة ، وهي الخضوع لإله واحد لا شريك له .

وقوله تعالى : « الذي خلقكم والذين من قبلكم » معناه أن من مقتضيات العبادة أن الله هو خالق الناس جميعا . وليس في قضية الخلق كما قلنا شبهة ؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه ، أو خلق هذا الكون ، بل إن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم السببية المباشرة في وجودنا ؛ فالأب والأم هنا سبب في وجود الإنسان . فنجد الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا نَهْرُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٣٣ ﴾

(سورة الاسراء)

وهكذا نرى أن الحق قد احترم السببية في الموجد ، مع أنه سبحانه وتعالى الموجد الذي خلق كل شيء . ولكن الله يحترم عمل الإنسان . مع أنه سبب فقط ، فالمال هو مال الله ، يعطيه لمن يشاء . لكننا نجد الحق سبحانه وتعالى وهو يحث على الصدقة يقول :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

فكانه سبحانه احترم عمل الانسان في الحصول على المال ، رغم أن المال مال الله . فقال وهو الخالق الأعظم : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا » وهكذا تتجلى رحمة الحق بالخلق .

الله يقول : « ولعلكم تتقون » نتقى ماذا ؟ نتقى صفات الجلال في الله . فالله سبحانه وتعالى له صفات جلال وصفات جمال ، صفات الجلال هي « الجبار والقهار

والمتكبر والقوى والقادر والمقتدر والضار وغيرها من صفات الجلال .

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية حتى لا نغضب الله ، فيعاملنا بمتعلقات صفات جلاله ، وأن نتمسك بصفات جمال الله : الرحيم الودود ، الغفار ، التواب ، فإذا نجحنا في ذلك كان لنا نجاة من النار التي هي أحد جنود الله ، ومتعلقات جلاله .

على أننا لا بد أن ننتبه الى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول «يا أيها الناس» إنما يخاطب كل الناس ، فإذا أراد الحق سبحانه وتعالى مخاطبة المؤمنين قال : «يا أيها الذين آمنوا» أي يا أيها الذين آمنتم بالله إلهًا ، ودخلتم معه في عقد إيمان .



﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا
تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٢٤ ﴿

فبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن عطاء ربوبيته الذي يعطيه لخلقه جميعاً ،
المؤمن والكافر ، كان يكفي لكي يؤمن الناس ، كل الناس . . أخذ يبين لنا آيات
من عطاء الربوبية . وبلغنا اليها لعل من لم يؤمن عندما يقرأ هذه الآيات يدخل
الايمان في قلبه . فبلغنا الله سبحانه وتعالى الى خلق الأرض في قوله تعالى :
«الذي جعل لكم الأرض فراشا»

والأرض هي المكان الذي يعيش فيه الناس ولايستطيع احد ان يدعى أنه خلق
الأرض أو أوجدها . اذن فهي آية ربوبية لا تحتاج لكي ننتبه اليها الى جهد عقلي .
لأنها بديهيات محسومة لله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : «فراشا» توحى بأنه أعد
الأرض إعداداً مريحاً للبشر . كما نفرش على الأرض شيئاً ، نجلس عليه أو تنام
عليه ، فيكون فراشا يريحك .

ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل . وهي تصلح لحياتنا جميعاً .

ومنذ أن خلقت الأرض الى يوم القيامة . ستظل فراشا للانسان .

قد يقول بعض الناس أنك إذا نمت على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك فيها
حصى أو غير ذلك مما يضايئك . نقول ان الانسان الأول كان ينام عليها مستريحاً . .
إذن فضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمت الحضارة وزادت الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رغم ماوجد عليها
من أشياء لينة . فكأن الله تعالى . قد أعدّها لنا اعداداً يتناسب مع كل جيل . فكل

جيل رفته في العيش بسبب تقدم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يطوع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ ان الله سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة الزخرف)

والمهد هو فراش الطفل ، ولا بد ان يكون مريحاً لان الطفل إذا وجد في الفراش أى شيء يتعبه . فإنه لا يملك الامكانيات التي تجعله يريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً . ولكن الذي يمهد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى . يجعلها فراشاً لعباده . وإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى الى السماء فيقول : «والسما بناء» والبناء يفيد المتانة والتماسك . أى أن السماء - وهى فوقك - لا ترى شيئاً يجعلها حتى لا تسقط عليك . إنها سقف متماسك متين . . ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى :

﴿ وَبِمِثْقَلِ الْأَسَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الحج)

وفي آية أخرى يقول :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الانبياء)

والهدف من هذه الآيات كلها . أن نطمئن ونحن نعيش على الأرض أن السماء لن تتساقط علينا لأن الله يحفظها .

إذن من آيات الحق سبحانه وتعالى في الأرض أنه جعلها فراشاً أي مهيأة ومرجحة لحياة الإنسان . وحفظ السماء بقدرته جل جلاله ، فهي ثابتة في مكانها ، لا تهدد سكان الأرض وتفرعهم ، بأنها قد تسقط عليهم ، ثم جاء بآية أخرى :

«وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ»

فكان الحق سبحانه وتعالى وضع في الأرض وسائل استبقاء الحياة . فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يوفر له وسائل استمرار حياته . فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هي كل ما علاك فأظلك . فنبت به الزرع والشجر ، وهذا رزق لنا ، والناس يختلف في مسألة الرزق . والرزق هو ما ينتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه . فقد تربح مالاً وافرأ ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك ، وانت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله الى صاحبه . والرزق في نظر معظم الناس هو المال ، قال عليه الصلاة والسلام :

« يقول ابن آدم مالي مالي .. وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، ولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت »^(١)

هذا هو رزق المال . وهو جزء من الرزق . ولكن هناك رزق الصحة . ورزق الولد . ورزق في الطعام . ورزق في البركة . وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هي رزق وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية الكريمة الى أن نفكر قليلاً ، فيمن خلق هذا الكون . لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقاءه . ولكن هذا الاعداد لم يتوقف عند الحياة المادية . بل ان الله كما أعد لنا مقومات حياتنا المادية

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ورواه أحمد وهذه رواية مسلم بسنده عن مطير عن أبيه .

أعد لنا مقومات حياتنا الروحية ، أو القيم في الوجود . وإذا قرأت في سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

لوجدت القرآن يعطينا قيم الحياة ، التي بدونها تصبح الدنيا كلها لا قيمة لها . لأن الدنيا امتحان أو اختبار لحياة قادمة في الآخرة . فإذا لم تأخذها بمهمتها في أنها الطريق الذي يوصلك الى الجنة . أهدرت قيمتها تماماً .

ولم تعد الدنيا تعطيك شيئاً إلا العذاب في الآخرة .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق في هذه الآية بالسماء فقال سبحانه :

«فأخرج به من الشمرات رزقا لكم»

ليلفتنا الى أن الرزق ، لا يأتي إلا من أعلى ، وضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء لأنه رزق مباشر محسوس منا ، والماء ينزل من السماء في أنقى صورته مقطراً . كل ما يأتينا من السماء . فيه علو . ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاءً ، عملية لو أراد البشر أن يقوموا بها ما استطاعوا لأنها كانت ستكون ملأين الجنبيات ، لتعطينا ماء لا يكفي أسرة واحدة . ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماء في أنقى صورته لينبت به الشمرات ، التي تضمن استمرار الحياة في هذا الكون .

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها . والاعجاز الذي فيها ونستوعبها يقول الحق تبارك وتعالى : «فلا تحملوا الله اندادا وأنتم تعلمون»

«أندادا» جمع ند ، والند هو النظير أو الشبيه . وأي عقل فيه ذرة من فكر يتعد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ولا يُشَبِّهُ بالله تعالى أحداً . قاله واحد في قدرته ، واحد في قوته ، واحد في خلقه . واحد في ذاته ، وواحد في صفاته .

ولا توجد مقارنة بين صفات الحق سبحانه وتعالى وصفات الخلق . والله خلق لكل منا عقلاً يفكر به ، لو عرضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

«وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»

أى تعرفون هذا جيداً بعقولكم لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً .

فمنذا الذى يستطيع أن يدعى أنه خلقكم والذين من قبلكم ؟ ومنذا الذى يستطيع أن يدعى ولو كذباً ، أنه هو الذى جعل الأرض فراشاً ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع ؟ لا أحد . إذن فأنتم تعلمون أن العقل كله لله وحده ، ومادام لا يوجد معارض ولا يمكن أن يوجد . فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة البقرة)

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى أنداداً ؟ لأنهم يريدون ديناً بلا منهج . يريدون أن يرضوا فطرة الإيمان التى خلقها الله فيهم . وفى الوقت نفسه يتبعون شهواتهم . عندما فكروا فى هذا وجدوا أن أحسن طريقة هى أن يختاروا إلهاً بلا منهج ، لا يطلب منهم شيئاً ، ولذلك كل دعوة منحرفة تجد أنها تبيع ما حرم الله ، وتحل الانسان من كل التكاليف الالمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا . فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الانسان : فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا . ولا من منهج الإيمان شيئاً ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله . ومن نعم الله ومن جنته فى الآخرة .

ولأن الذين آمنوا يعرفون هذا فإنهم يحبون الله حبا شديداً ، والذين كفروا رغم

كل ما يدعون فإنهم ساعة العسرة يلجأون الى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده الملجأ والملاذ . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَزْوَاجُهُ أُوقِعُوا أَوْفَاقِيًّا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا لم يستدع الأنداد ؟ لأن الانسان لا يفش نفسه أبداً في ساعة الخطر ، ولأن هؤلاء يعرفون بعقولهم أنه لا يمكن أن يوجد لله أنداد . ولكنه يتخذهم لأغراض دنيوية . فإذا جاء الخطر . يلجأ الى الله سبحانه وتعالى . لأنه يعلم يقيناً أنه وحده الذي يكشف الضر ، فحلاق الصحة الذي يعالج الناس دجلاً . إذا مرض ابنه أسرع به الى الطبيب لأنه يفش الناس . ولكنه لا يمكن أن يفش نفسه .

ولقد كان الأصمى واقفاً عند الكعبة ، فسمع اعرابياً يدعو ويقول :

«يا رب أنت تعلم أني عاصيك وكان من حقك على ألا أدعوك وأنا عاص . ولكني أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمن أذهب . فقال الأصمى : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك» .



﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا أن هؤلاء الذين يتخذون من دون الله انداداً لا يعتمدون على منطق ولا عقل . ولكنهم يعتمدون على شهوات دنيوية عاجلة . أراد أن يأتي بالتحدي بالنسبة للقرآن الكريم - المعجزة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - حتى يثبت لهم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد جعل خلق الكون إعجازاً محسناً . فإن القرآن منهج معجز إعجازاً قيباً . قال الله جل جلاله :

« وإن كنتم في ريب » الخطاب هنا لكل كافر ومنافق غير مؤمن ، لأن الذين آمنوا بالله ورسوله ليس في قلوبهم ريب ، بل هم يؤمنون بأن القرآن موحى به من الله ، مبلغ إلى محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي المنزل من السماء .

والريب : هو الشك . وقوله تعالى : « إن كنتم في ريب » أي إن كنتم في شك . من أين يأتي هذا الشك . والمعجزة تحيط بالقرآن ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ ما هي مبررات الشك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب ولم يعرف بالبلاغة والشعر بين قومه حتى يستطيع أن يأتي من عنده بهذا الكلام المعجز الذي لم يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمرسوا في البلاغة واللغة أن يأتوا بآية من مثله . هذه واحدة . والثانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكذب أبداً ولم يعرف عنه كذب قبل تكليفه بالرسالة بل كانوا يلقبونه صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين . والذين كانوا يلقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين اتهموه بأن هذا القرآن ليس من عند الله . اصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام مع الناس . ويكذب على الله ؟ . هذا مستحيل .

الكلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن لم يكن احد يستطيع أن يأتي به من فطاحل علماء البلاغة العرب . والعلم الذي نزل في القرآن

الكريم . لم يكن يعرفه بشر في ذلك الوقت . فكيف جاء النبي الأمي بهذا الكلام المعجز . وبهذا العلم الذي لا يعلمه البشر !؟ لو جلس الى معلم او قرأ كتب الحضارات القديمة . لقالوا ربما استنبط منها ، ولكنه لم يفعل ذلك .

فمن أين دخل الريب الى قلوبهم ؟ لاشك أنه دخل من باب الباطل . والباطل لا حجة له . وبلاشك لقد فضحوا انفسهم بأنهم لا يرتابون في القرآن ولكنهم كانوا يريدونه أن يتزل على سيد من سادة قريش . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا تَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٤١ ﴾

(سورة الزخرف)

وهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ إذا كان ساحرا فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ وقالوا مجنون . والمجنون يتصرف بلا منطق . . يضحك بلا سبب . ويبكى بلا سبب . ويضرب الناس بلا سبب . ولذلك رد الحق سبحانه عليهم بقوله تعالى :

﴿ تَٰٓتَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤ ﴾

(سورة القلم)

فهل يكون المجنون على خلق عظيم ؟ إذن فأسباب الريب كلها أو الأسباب التي تثير الشك غير موجودة . وغير متوافرة . ولا يوجد سبب حقيقي واحد يجعلهم يشكون في أن القرآن ليس من عند الله . ولكنهم هم القائلون كما يروى لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالُوا آللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَرَّةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٥ ﴾

(سورة الانفال)

«مما نزلنا على عبدنا»

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۚ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١٨٦)

هذا ليس لكل خلق الله ، ولكنه للعباد . الذين إذا قال الله تعالى لهم افعلوا فعلوا وإذا قال الله لا تفعلوا لم يفعلوا . أى أنهم لا يخالفون - بقدرتهم على الاختيار - منهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك في الجهاد لا يقول الحق سبحانه وتعالى عن المجاهدين أنهم عبيد . بل يقول جل جلاله :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يَحْسِبُوا خُلَّةَ الَّذِينَ الْبَارِئِينَ
وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾

(سورة الاسراء)

وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم يقولون ان كلمة عباد قد جاءت في وصف غير المؤمن في قوله تعالى :

﴿ أَنْتُمْ أَضَلُّلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (من الآية ١٧ سورة الفرقان)

نقول : انكم لم تفهموا ان هذا ساعة الحساب في الآخرة ، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقيرون فلا اختيار لأحد في الآخرة وإنما الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار ، ثم يصبح الانسان بعد ذلك مقهوراً .

فنحن جميعاً في الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو في الحياة الدنيا فقط . والعبودية هي ارقى مراتب القرب من الله تعالى . لأنك تأتي الى الله طائعاً . منفذاً للمنهج باختيارك . ولقد عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً رسولاً ، أو عبداً رسولاً . فاختار أن يكون عبداً رسولاً . وإذا أردنا أن نعرف معنى العبودية نقرأ في سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾

(من الآية ١ سورة الاسراء)

لنرى أنه في أعلى درجات الانعام من الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في المعجزة الكبرى التي لم تحدث لبشر قبله صلى الله عليه وسلم سواء كان رسولاً أو غير رسول ، ولن تحدث لبشر بعده . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد إلى السموات السبع بالروح وبالجسد ثم عاد إلى الأرض . وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة جبريل فتجاوز سدرة المنتهى وهي المكان الذي ينتهى إليه علم خلق الله من البشر والملائكة المقربين .

وبشرية الرسول اخذت جدلاً كبيراً منذ بدأت الرسائل السماوية . وحتى عصرنا هذا . واقرأ قوله تعالى :

﴿ قَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وقوله تعالى :

﴿ قَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَنبِيُهُمْ إِنَّا إِذَا لَنِي ضَلَّلِي وَسُعُرِ ﴾

(سورة القمر)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(سورة الاسراء)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخٰطِئُونَ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فبشرية الرسول اتخذت حجة للذين لا يريدون أن يؤمنوا والرسول مبلغ عن الله . ولا بد أن يكون من جنس القوم الذين أرسل إليهم . ولا بد أن يكون قد عاش

بينهم فترة قبل الرسالة واشتهر بالأمانة والصدق حتى لا يكذبوه . وفي الوقت نفسه هو قلدوة . ولذلك لابد أن يكون من جنس قومه . لأنه سيطبق المنهج عملياً أمامهم . ولو كان من جنس آخر لقالوا لا نطبق ما كلفتنا به يارب . لأن هذا رسول الله مخلوق من غير مادتنا . ومقهور على الطاعة .

إذن فبشرية الرسول حتمية . وكل من يحاول أن يعطى الرسول صفة غير البشرية . إنما يحاول أن ينقص من كمالات رسالات الله ، والله سبحانه وتعالى ليس عاجزاً ، عن أن يحول البشر الى ملائكة وأقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن فبشرية الرسول هي من تمام الرسالة .

ثم يأتي التحدى من الله سبحانه وتعالى «فأتوا بسورة من مثله» والمطلوب أن يأتي العرب بسورة من مثل ما جاء به القرآن الكريم .

الشهود الذين يطلب الله دعوتهم هم شهود ضعفاء . شهود من البشر وليست شهادة من الله بالغيب .

والله سبحانه وتعالى وضع في هذه الآية معظم الشكوك لفحصها ، ولنصل فيها بعد ذلك الى جوهر الاعجاز القرآنى .

والحق سبحانه وتعالى تدرج في التحدى مع الكافرين . فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، ثم طلب عشر سور من مثله . ثم تدرج في التحدى فطلب سورة واحدة . والتزول في التحدى من القرآن كله الى عشر سور . الى سورة واحدة . دليل ضد من تحداهم . فلا يستطيعون ان يأتوا بمثل القرآن ، فيقول : إذن فأتوا بعشر سور . فلا يستطيعون ويصبح موقفهم مدعاة للسخرية . فيقول : فأتوا بسورة . وهذا منتهى الاستهانة بالذين تحداهم الله سبحانه وتعالى وإثباتاً لأنهم لا يقدرُونَ على شيء .

وكلمة بمثل . معناها أن الحق سبحانه وتعالى يطلب المثل ولا يطلب نص القرآن وهذا إمعان وزيادة في إظهار عجز القوم الذين لا يؤمنون بالله ويشككون في القرآن . وقوله تعالى : «وادعوا شهداءكم» .

معناه أن الله سبحانه وتعالى زيادة في التحدى بطالبيهم بأن يأتوا هم بالشهداء ويعرضوا عليهم الآية ليحكم هؤلاء الشهود إذا كان ما جاءوا به مثل القرآن أم لا . ليس هذا إظهار منتهى القوة لله سبحانه وتعالى لأنه لم يشترط شهداء من الملائكة ولا شهداء من الذين اشتهر عنهم الصديق . وانهم يشهدون بالحق . بل ترك الحق سبحانه لهم أن يأتوا بالشهداء وهؤلاء الشهداء لن يستطيعوا أن يشهدوا أن كلام هؤلاء المشككين يماثل سورة من القرآن .

الله سبحانه وتعالى طلب منهم أن يأتوا بأى شهداء متحيزين لهم . وأطلقها سبحانه وتعالى على كل أجناس الأرض فقال : «من دون الله إن كنتم صادقين» ولكن إياكم أن تقولوا يشهد الله بأن ما جئنا به مثل القرآن . لأنكم تكونون قد كذبتهم على الله وادعيتهم شيئاً لم يقله سبحانه وتعالى .

ولكن ما معنى قوله تعالى : «ان كنتم صادقين» صادقين في ماذا ؟ وما هو الصديق ؟ الصديق يقابل الكذب ، والصدق والكذب ، كل منهما نسبي . كلنا يعلم أن هناك كلاماً غير مفيد ، فإذا قلت محمد وسكت فمن يسمعك سيسألك ، ماذا تقصد بقولك محمد ؟ وسؤاله دليل على أنه لم يستفد شيئاً ، ولكنه لو سألك من عندك ؟ وأجبت محمد فكانك تخبره بأن عندك محمداً وهذه كلمة واحدة لكنك فهمتها بالمعنى الذي اخذته من كلام السائل . إذن فلا تقل كلمة واحدة ولكن قل كلاماً مفيداً . إذن فالكلام المفيد هو الذى يسكت السامع عليه .

وكل متكلم قبل أن ينطق بالكلام يكون عنده نسبة ذهنية لما سيقول ، يعبر عنها بنسبة كلامية . ولكن هناك نسبة خارجية لما يقول تمثل الواقع .

أى أنك لو قلت محمد مجتهد فلا بد أن يكون هناك شخص اسمه محمد . ولا بد أن يكون مجتهداً فعلاً . لتتطابق النسبة الكلامية . مع النسبة الواقعية . فإذا لم يكن هناك شخص اسمه محمد . أو كان هناك شخص اسمه محمد ولكنه ليس مجتهداً ،

فإن النسبة الكلامية تخالف النسبة الواقعية .

والصدق أن تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية . «والكذب» ألا تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية .. هذا المفهوم ضرورة لعرض معنى الآية الكريمة .

إذن فقولہ تعالیٰ «صادقین» أى أن تتطابق النسب الكلامية التي ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أن تدلوا عليها . فإن لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون .
فأله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم .



﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ٢٤

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن الأدلة التي يستند اليها المشككون في القرآن الكريم . وهي أدلة لا تستند الى عقل ولا الى منطق . تحذاهم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، وأن يستعينوا بمن يريدون من دون الله ، لأن القرآن كلام الله ، والله سبحانه هو القائل . وبما أنهم يحاولون التشكيك في أن القرآن كلام الله . وأنه ينزل من عند الله ، فليستعينوا بمن يريدون ليأتوا بآية من مثله ، لأن التحدى هنا لا يمكن أن يتم إلا إذا استعانوا بجميع القوى ما عدا الله سبحانه وتعالى .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بالنتيجة قبل أن يتم التحدى . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا .

إن قوله سبحانه : «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أنه حكم عليهم بالفشل وقت نزول القرآن وبعد نزول القرآن الى يوم القيامة . لأن الله لا يخفى عن علمه شيء . فهو بكل شيء عليم . وكلمة «لم تفعلوا» عندما تأتي قد تشير الشك . فنحن نعرف ان مجيء ان الشرطية يشير الشك . . لأن الأمر لكى يتحقق يتعلق بشرط . وانت إن قلت إن ذاكرت تنجح ، ففي المسألة شك . . أما إذا قلت كقول الحق «إذا جاء نصر الله والفتح» فمعنى ذلك أن نصر الله آت لا محالة .

و«إن» حرف و«إذا» ظرف ، وكل حدث يحتاج إلى مكان وزمن . فإذا جئت بأداة الشرط فمعنى ذلك أنك تقر بها من عنصر تكوين الفعل والحدث . فإذا أردت ان تعبر عن شيء سيتحقق تقول إذا ، وإذا أردت أن تشكك فيه تقول «إن» والله سبحانه وتعالى قال «فإن لم تفعلوا» ولأن الفعل ممكن الحدوث أراد أن يرجع الجانب المانع فقال «ولن تفعلوا» هذا أمر اختياري . فإذا تكلمت عن أمر اختياري ثم حكمت أنه

لن يحدث . فكان قدرتك هي التي منعتك من الفعل . فلا يقال أنك قهرته على
الافعل . لا . علمت أنه لن يفعل . فاستعداداته لا يمكن ان تمكنه من الفعل .

وهذه أمور ضمن اخبارات القرآن الكريم في القضايا الغيبية التي أخبر عنها ،
فعندما يقول الله سبحانه وتعالى «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» معناه أنهم
مصدقون ولكن الستهم لا تعترف بذلك . وقوله تعالى «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا»
معناه أن الشك مفتعل في نفوسهم ؛ هم لا يريدون أن يؤمنوا ولذلك يأتون بسبب
مفتعل لعدم الايمان . لقد استقر فكرهم على أنهم لا يؤمنون ، ومادام هذا هو
ماقررتوه . فإنكم ستظلون تبحثون عن أسباب ملفقة لعدم الايمان .

وقوله تعالى : «فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة» .

الحق سبحانه وتعالى يريد هنا ان يلفتنا الى صورة اخرى عن عجز هؤلاء الكفار .
فهم بحثوا عن أعذار ، ليبرروا بها عدم ايمانهم وتظاهروا بأنهم يشكون في القرآن
الكريم . يقول لهم : لو كانت لكم قدرة وذاتية فعلا فامنعوا انفسكم من دخول النار
يوم القيامة . كما منعت انفسكم من الايمان في الدنيا .

وهذا وعيد من الله . لقد أعطاهم ذاتية الاختيار في الدنيا ولم يختاروا قهراً بل
اختاروا عدم الايمان بمشيئة الاختيار التي أعطاهها الله لهم . ولكن هناك وقت ليس
فيه اختيار وهو الآخرة فحاولوا ان تتقوا في الآخرة عذاب النار يوم القيامة . ولكن لن
يكون لأحد اختيار . قاله سبحانه وتعالى يقول في ذلك اليوم :

﴿لَيْسَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويقول جل جلاله :

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

(سورة الانفال)

فلماذا تنكرون ما تمنعونكم من الايمان . . لن تفيكم يومئذ من عذاب النار .
واقرا قوله تعالى :

﴿ اِنْكُرْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ اَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة الانبياء)

لماذا هم وما يعبدون ؟ لأن العابد يرنحى نفع المعبود . فكأنها عندما يرى كل منها
الآخر في العذاب . تكون الحسرة أشد . ولذلك فإن الحجارة والأصنام التي يعبدونها
مشكون معهم في النار يوم القيامة . وليس هذا عقاباً للأحجار والأصنام . لأنها خلق
مقهور لله مسبح له ، ولكن هذه الأصنام والأحجار تكون راضية وهي تحرق الذين
كفروا بالله . وتقول : «عبدونا ونحن أعبد لله من المستغفرين بالأسحار» .

وقوله تعالى : «أعدت للكافرين» الله سبحانه وتعالى يخبرهم وهم في الدنيا ، ان
النار أعدت للكافرين . وقوله تعالى النار أعدت للكافرين تطمين غاية الاطمئنان
للمؤمن . وإرهاب غاية الإرهاب للكافر . . وقوله تعالى «أعدت» معناها أنها
موجودة فعلاً وإن لم تكن نراها . وأنها مخلوقة وإن كانت محجوبة عنا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« عرضت على الجنة ولو شئت أن آتيكم منها بقطاف لفعلت » .

وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً .

والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودة فعلاً وأن الايمان سيقوده اليها فإنه يحس
بالسعادة ويشتاق للجنة . فإذا سمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠٩﴾ الَّذِيْنَ يَرِثُوْنَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ساعة تقرأ هذه الآية الكريمة تعرف أن الله سبحانه وتعالى سيجعلك في الجنة

تأخذ ما كان لغيرك . لأن الميراث يأتيك من غيرك . وقد سبق علم الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعاً . وقبل أن يخلق أعد لكل خلقه مقعداً في النار ومقعداً في الجنة . الذين سيدخلون النار خالدون فيها ، مقاعدهم في الجنة ستكون خالية ، فيأتي الله سبحانه وتعالى يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم في الجنة . والحق سبحانه عندما يقول : « أعدت » فهي موجودة فعلاً .



﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ
رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٢٥

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا مصير الكافرين الذين يشككون في القرآن
لينخذوا من ذلك عذراً لعدم الايمان . قال : إذا كنتم قد اخترتم عدم الايمان ، بما
أعطيتكم من اختيار في الدنيا ، فإنكم في الآخرة لن تستطيعوا ان تنفوا النار . ولن
تكون لكم إرادة .

ثم يأتي الحق تبارك وتعالى بالصورة المقابلة . والقرآن الكريم إذا ذكرت الجنة يأتي
الله بعدها بالصورة المقابلة وهي العذاب بالنار . وإذا ذكرت النار بعذابها ولهيها ذكرت
بعدها الجنة . وهذه الصورة المتقابلة لها تأثير على دفع الايمان في النفوس . فإذا قرأ
الانسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين . فالذى
يزحزح عن النار ولا يدخلها يكون ذلك فوزاً ونعمة ، فإذا دخل الجنة تكون نعمة
أخرى . ولذلك فإن الله تعالى يقول :

﴿مَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ولم يقل سبحانه ومن أدخل الجنة فقد فاز . لأن مجرد أن تزحزح عن النار فوز
عظيم . . . وفي الآخرة . وبعد الحساب بضرب الصراط فوق جهنم ، ويعبر من فوقه
المؤمنون والكافرون . فالمؤمنون يجتازون الصراط المستقيم كل حسب عمله منهم من
يمر بسرعة البرق . ومنهم من يمر أكثر ببطأ وهكذا ، والكافرون يسقطون في النار .

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ٧١ ثُمَّ نَحْنُ الَّذِينَ أَنْتَقَوْا وَنَدْرُ
الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا ٧٢ ﴾

(سورة مريم)

لان مجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى ، فحين يرون العذاب الرهيب الذي
أنجاهم الايمان منه يحس كل منهم بنعمة الله عليه . أنه أنجاه من هذا العذاب .
وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً . فأهل الجنة حينها يرون أهل النار يحسون
بعضهم نعمة الله عليهم . إذ أنجاهم منها ، وأهل النار حين يرون أهل الجنة يحسون
بعضهم غضب الله عليهم ان حرّمهم من نعيمه ، فكان هذه الرؤية نعيم لأهل الجنة
وزيادة في العذاب لأهل النار . . والله سبحانه وتعالى يقول :
«وبشر» والبشارة هي الاخبار بشيء سار قادم لم يأت وقته بعد . فأنت إذا بشرت
إنساناً بشيء أعلته شيء سار قادم . والبشارة هنا جاءت بعد الوعيد للكافرين .
والإنذار هو اخبار بأمر مخيف . لم يأت وقته بعد .

ولكن البشارة تأتي أحيانا في القرآن الكريم ويقصد بها الكفار . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧٣ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُثْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرُّ مُنْكَرًا كَانُ
لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧٤ ﴾

(سورة الجاثية)

البشارة هنا تهكمية من الله سبحانه وتعالى . فالحق تبارك وتعالى يريد أن يزيد
عذاب الكفار ، فعندما يسمعون كلمة «فبشرهم» يعتقدون أنهم سيسمعون خيراً
ساراً ، فيأتي بعدها العذاب الاليم ليزيدهم غماً على غم .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات» .

البشرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والايمان هو الرصيد القلبي للسلوك .
لأن من يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، التلميذ يذاكر لأنه مؤمن أنه سينجح ، وكل
عمل سلوكي لا بد أن يوجد من ينبوع عقيدى . والايمان أن تنسجم حركة الحياة مع
ما فى القلب وفق مراد الله سبحانه وتعالى : ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان ..
فكان العمل الصالح ينبوعه الايمان . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

وفى آية اخرى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٤ ﴾

(سورة فصلت)

ولكن هل يكفى الاعلان عن كون من المسلمين ؟ لا بل لابد ان يقترن هذا الاعلان
بالعمل بمبرادات الله سبحانه وتعالى

الحق سبحانه وتعالى يُريدُ ان يلفتنا .. الى أن قولنا « لا اله الا الله محمد رسول
الله » .. لابد أن يصاحبه عمل بمنهج الاسلام .. ذلك أن نطقنا بالشهادة لا يزيد في
ملك الله شيئاً .. فالله تبارك وتعالى شهد بوحداية ألوهيته لنفسه ، وهذه شهادة
الذات للذات .. ثم شهد الملائكة شهادة مشهد لأنهم يرونه سبحانه وتعالى .. ثم
شهد أولو العلم شهادة دليل بما فتح عليهم الله جل جلاله من علم .. وفى ذلك
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يعملوا بالمنهج . . لماذا ؟ . . حتى لا تتعاند حركة الحياة بل تتساند . . وما دامت حركة الحياة مستقيمة . . فإنها تصبح حياة متساندة وقوية . . وعندما انتشر الاسلام في بقاع الأرض لم يكن الهدف أن يؤمن الناس فقط لمجرد الايمان . . ولكن لابد أن تتسجم حركة الحياة مع منهج الاسلام . . فإذا ابتعدت حركة الحياة عن المنهج . . حينئذ لا يخدم قضية الدين أن يؤمن الناس أو لا يؤمنوا . . ولذلك لابد أن ينص على الإيمان والعمل الصالح . . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . والصالحات هي جمع صالحة . . والصالحة هي الأمر المستقيم مع المنهج ، وضدها الفساد . . وحين يستقبل الإنسان الوجود . . فإن أقل الصالحات هو أن يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحاً .

الحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار . . والجنات جمع جنة ، وهي جمع لأنها كثيرة ومتنوعة . . وهناك درجات في كل جنة أكثر من الدنيا . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَئِنَّ آخِرَةَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ١١ ﴾

(سورة الاسراء)

الجنات نفسها متنوعة . . فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم . . وهناك دار الخلد ، ودار السلام ، وجنة المأوى . . وهناك عليون الذي هو أعلى وأفضل الجنات . . وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى . . وهو نعيم يعلو كثيراً عن أي نعيم في الطعام والشراب في الدنيا . .

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ . . وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع . . والله جل جلاله في هذه الآية يعدُّ بأمر غيبي . . ولذلك فإنه لكي يقرب المعنى الى ذهن البشر . . لابد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة . . أي عن واقع نشهده . . واقرأ ، قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٧ ﴾

(سورة السجدة)

إذن ما هو موجود في الجنة لا تعلمه نفس في الدنيا . . ولا يوجد لفظ في اللغة يعبر عنه . . ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رآته . . ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التي تناسب مع عقولنا وإدراكنا . . فقال تعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » . .

على أن هناك آيات أخرى تقول : « تجري تحتها الأنهار » ما الفرق بين الاثنين . . تجري تحتها الأنهار . . أى أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها . . أما قوله تعالى : « من تحتها الأنهار » فكان الأنهار تنبع تحتها . . حتى لا يخاف انسان من أن الماء الذى يأتى من بعيد يقطع عنه أو يجف . . وهذه زيادة لأطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد . .

وما دام هناك ماء فهناك نخصرة ومنظر جميل ولا بُدَّ أن يكون هناك ثمر . . وفي قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » . . حديث عن ثمر الجنة . . وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا . . إنك في الدنيا لا بد أن تذهب الى الشجرة وتأتى بها أو يأتيك غيرك بها . . ولكن في الجنة الثمر هو الذى يأتى اليك . . بمجرد أن تشتهيته تجده في يدك . . وتعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة . . ولكن الثمر في الجنة ليس كثمر الدنيا لا في طعمه ولا في رائحته . . وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون يقولون ربما تكون هذه الثمرة هي ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه في الدنيا . . ولكنها في الحقيقة تختلف تماما . . قد يكون الشكل متشابها ولكن الطعم وكل شيء مختلف . .

في الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الانسان . . ولكن في الآخرة لا يوجد لطعام فضلات بل ان الانسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة في التكوين . .

إذن ففي الجنة الأنهار مختلفة والثمار مختلفة . . والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذى يقول « للشيء كن فيكون » . . ولا أحد يقوم بعمل .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «وهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون»

الزوجة هي متعة الإنسان في الدنيا إن كانت صالحة . . والمنغصة عليه إن كانت غير صالحة . . وهناك منغصات تستطيع أن تضعها المرأة في حياة زوجها تجعله شقيا في حياته . . كأن تكون سليطة اللسان أو دائمة الشجار . . أو لا تعطى اهتماما لزوجها أو تحاول إثارة بآن تجعله يشك فيها . . أما في الآخرة فتزول كل هذه المنغصات وتزول بأمر الله . فالزوجة في الآخرة مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها ، وما لم يحبه في الدنيا يخفى . فالمؤمنون في الآخرة مطهرون من كل نقائص الدنيا ومتاعبها وأولها الغل والحقد . . وقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (١٧)

(سورة الحجر)

فمقاييس الدنيا ستختفى وكل شيء تكرهه في الدنيا لن تجده في الآخرة . . فإذا كان أى شيء قد نفص حياتك في الدنيا فإنه سيختفى في الآخرة . . والحق تبارك وتعالى ضرب المثل بالزوجات لأن الزوجة هي متعة زوجها في الدنيا . . وهي التي تستطيع أن تحيل حياته الى نعيم أو جحيم . .

وقوله تعالى : «وهم فيها خالدون» . . أى لا موت في الآخرة ولن يكون في الآخرة وجود للموت أبدا ، وإنما فيها الخلود الدائم إما في الجنة وإما في النار .



﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا
وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

بعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن الجنة . . وأعطانا مثلاً يقرب لنا صور النعيم
المائلة التي سينعم بها الإنسان في الجنة . . أراد أن يوضح لنا المنهج الايماني الذي
يجب أن يسلكه كل مؤمن . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف كافراً بعبادته . .
ولكن الانسان الذي ارتضى دخول الايمان بالله جل جلاله قد دخل في عقد إيمان مع
الله تبارك وتعالى . . وما دام قد دخل العقد الايماني فإنه يتلقى عن الله منهجه في
افعل ولا تفعل . . وهذا المنهج عليه أن يطبقه دون أن يتساءل عن الحكمة في كل
شيء . . ذلك أن الايمان هو إيمان بالغيب . . فإذا كان الشيء نفسه غائباً عنا فكيف
نريد ان نعرف حكمته . .

إن حكمة أى تكليف ايماني هي : انه صادر من الله سبحانه وتعالى ، ومادام
صادراً من الله فهو لم يصدر من مُساوٍ لك كى تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبت
عليك له الطاعة لأنه إله وأنت له عابد . . فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قال افعل
حتى تفعل . . ويكفى أنه قال لا تفعل حتى لا تفعل . .

الحكمة غائبة عنك . . ولكن صدور الأمر من الله هو الحكمة ، وهو الموجب
للطاعة . . فإنا أصلي لأن الله فرض الصلاة ، ولا أصلي كنوع من الرياضة . . وأنا
أتوضأ لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بالوضوء قبل الصلاة . . ولكنى لا أتوضأ كنوع من
النظافة . . وأنا أصوم لأن الله أمرنى بالصوم . . ولا أصوم حتى أشعر بجوع
الفقر . . لأنه لو كانت الصلاة رياضة لا استبدلناها بالرياضة في الملاعب . . ولو أن
الوضوء كان نظافة لقمنا بالاستحمام قبل كل صلاة . . ولو أن الصوم كان لشعر
بالجوع ما وجب على الفقير أن يصوم لأنه يعرف معنى الجوع . .

اذن فكل تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأى شيء آخر ..
وكل ما يأتينا من الله من قرآن نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأى صيغة
أخرى .. ذلك هو الايمان الذى يريد الله منا أن نتمسك به ، وأن يكون هو سلوك
حياتنا .

تلك مقدمة كان لابد منها اذا أردنا أن نعرف معنى الآية الكريمة : « إن الله لا
يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة ..
استقبله الكفار بالمعنى الدنيوى دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقى .. قالوا كيف يضرب
الله مثلا بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف .. الذى يكفى أن تضربه بأى شيء أو
بكفك فيموت ؟ . لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلا بالفيل الذى هو ضخيم الجثة
شديدة القوة .. أو بالأسد الذى هو أقوى من الإنسان وضرب لنا مثلا بالبعوضة
فقالوا : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » .. ولم يفطنوا الى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم
خلقها معجزة .. لأن هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة
اللازمة لها فى حياتها .. فلها عينان ولها خرطوم دقيق جدا ولكنه يستطيع أن يخرق
جلد الانسان .. ويخرق الأوعية الدموية التى تحت الجلد ليمتص دم الانسان ..

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ولها دورة تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها .. كل
هذا فى هذا الحجم الدقيق .. كلما دق الشيء احتاج الى دقة خلق أكبر ..

ونحن نشاهد فى حياتنا البشرية أنه مثلا عندما اخترع الانسان الساعة .. كان
حجمها ضخما جدا لدرجة أنها تحتاج الى مكان كبير .. وكلما تقدمت الحضارة
وارتقى الانسان فى صناعته وحضارته وتقدمه ، أصبح الحجم دقيقا وصغيرا ، وهكذا
أخذت صناعة الساعات تدق .. حتى أصبح من الممكن صنع ساعة فى حجم الخاتم
أو أقل .. وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيرا .. والآن أصبح فى
غاية الدقة لدرجة أنك تستطيع أن تضعه فى جييبك أو أقل من ذلك .. وفى كل
الصناعات عندما ترتقى .. يصغر حجمها لأن ذلك محتاج الى صناعة ماهر والى
تقدم علمى ..

وهكذا حين ضرب الله مثلا بالبعوضة وما فوقها .. أى بما هو أقل منها حجما ..
فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا الى دقة الخلق .. فكلما لطف الشيء وصغر حجمه

احتاج الى دقة الخلق . . ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو وإنما أخذوه بالمعنى الدنيوى البسيط الذى لا يمثل الحقيقة .

فالله سبحانه وتعالى حينما ضرب هذا المثل . . استقبله المؤمنون بأنه كلام الله . . واستقبلوه بمنطق الايمان بالله فصدقوا به سواء فهموه أم لم يفهموه . . لأن المؤمن يصدق كل ما يجيء من عند الله سواء عرف الحكمة أو لم يعلمها . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نُسِئُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله أو الحكمة في آياته . . ولذلك قال الكافرون : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » ويأتى رد الحق تبارك وتعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » . . ومن هم الفاسقون ؟ . . هم الذين

ينقضون عهد الله . . أول شيء فى الفسق أن ينقض الفاسق عهده . . ويقال فسقت الرطوبة أى بعدت القشرة عن الثمر . . فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها . . فإذا أصبحت الثمرة

أو البلحة رطبا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة . . هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله . . ينسلخ عنه بسهولة ويسر ، لأنه غير ملتصق به . . وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه . .

فلا تؤدي الصلاة مثلا وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسقت عن دينه .. والذي أوجد
 الفسق هو أن الإنسان خلق مختارا .. قادرا على أن يفعل أولا يفعل .. وبهذا
 الاختيار أفسد الإنسان نظام الكون .. فكل شيء ليس للإنسان اختيار فيه تراه يؤدي
 مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض .. كلها تتبع نظاما دقيقا
 لا يخلل لأنها مقهورة .. ولو أن الإنسان لم يخلق مختارا .. لكان من المستحيل أن
 يفسق .. وإن يبتعد عن منهج الله ويفسد في الأرض .. ولكن هذا الاختيار هو
 أساس الفساد كله .



﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٢٧

بعد أن شرح الله لنا مفهوم الايمان . في أننا نتلقى عن الله وننفذ الحكم ولو لم نعرف الحكمة . فكل ما يأتي من الله نأخذه بمنطق الايمان ، وهو أن الله الذي قال . وليس بمنطق الكفر والتشكك . فكل شيء عن الله حكمته أنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى .

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الفاسقين هم المبتعدون عن منهج الله . وأراد الحق أن يبين لنا صفات الفاسقين . فحددها في ثلاث صفات .. أولا : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه . . ثانيا الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل . ثالثا : الذين يفسدون في الأرض . ثم حدد لنا الحق تبارك وتعالى حكمهم فقال : أولئك هم الخاسرون . والخسران الذي وصلوا اليه هو من عملهم . لأنهم تركوا المنهج وبدأوا يشرعون لأنفسهم بهوى النفس . ولذلك يقول الحق جل جلاله عنهم :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ قَلِيلًا يَجْتَرُّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ٢٨

(سورة البقرة)

إذن هم الذين اختاروا ، وهم الذين اشتروا الضلالة ودفعوا ثمنها من هدى الله . فكأنهم عقدوا صفقة خاسرة . لأن هدى الله هو الذي يقودنا الى الحياة الخالدة والنعيم الذي لا يزول .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا الصورة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ إِنَّ مِنَّ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١١١ ﴾

(سورة التوبة)

إذن فالمؤمنون باعوا لله سبحانه وتعالى أموالهم وأنفسهم ، وكانوا صادقين في عهدهم . أما الكفار والمنافقون ، فقد باعوا هدى الله ، واشتروا به ضلال الدنيا . فالحق سبحانه وتعالى ذكر لنا أول صفات الفاسقين أنهم لا عهد لهم . ليس بينهم وبين الناس فقط . ولكن لا عهد لهم مع الله أيضا . وكلما عاهدوا الله عهدا نقضوه . والله يحب الوفاء بالعهد . ولذلك يقول جل جلاله :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ١١٢ ﴾

(سورة الاسراء)

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ١١٣ ﴾

(سورة الاعراف)

ما هو العهد الموثق الذي أخذه الله على عباده فنقضوه ؟ انه الايمان الأول . الايمان

الفطرى الموجود فى كل منا . فانه سبحانه وتعالى اخذ من البشر جميعا عهدا ، فوفى به بعضهم ونقضه بعضهم .

والله سبحانه وتعالى ذكر لنا فى القرآن الكريم . ان هناك عهدا موثقا بينه وبين ذرية آدم . فقال جل جلاله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (١٧٦)

(سورة الأعراف)

وهكذا أخذ الله عهدا على ذرية آدم بأن يؤمنوا به وأشهدهم أنه ربهم . وجاءت الغفلة إلى القلوب بمرور الوقت . فنقضوا العهد واتخذوا آلهة من دون الله . اذن أول صفات الفاسقين أنهم نقضوا عهد الله . والذي ينقض عهدا مع بشر ، فسلوكه هذا لا يقبله الحق سبحانه وتعالى حتى مع الكفار وغير المؤمنين . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨١)

(سورة التوبة)

وهكذا نرى أن الحق تبارك وتعالى حين أعلن براءته وبراءة رسوله صلى الله عليه وسلم وبراءة المؤمنين من كل كافر مشرك فى قضية ايمانية كبرى . حرم الله فيها على الكفار والمنافقين أن يقتربوا من بيته الحرام فى مكة ، احترام جل جلاله العهد . حتى مع المشركين . وطلب من المؤمنين أن يوفوا به . فاذا كان هذا هو المسلك الايمانى مع كل كافر ومشرك إن كنت قد عاهدته عهدا فأوف به الى مدته . فكيف بالمشركين وقد عاهدوا الخالق الأعظم . ثم ينقضون عهده الموثق . انهم قد خانوا منهج الله وعهده . واذا لم يكن لهم عهد مع الله سبحانه وتعالى فهل يكون لهم عهد مع خلق الله ؟!

اذن فالفاسقون أول صفاتهم انه لا عهد لهم مع خالقهم ولا عهد لهم مع الناس .
ولذلك لا نأمن لهم أبدا .

ثم تأتي بعد ذلك الصفة الثانية للفاسقين في قوله تعالى :
« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » وما أمر الله به أن يوصل هو صلة الرحم . فقد
أمرنا الله تعالى بأن نصل أرحامنا . فنحن كلنا أولاد آدم . والرسول صلى الله عليه
وسلم يقول في حجة الوداع « كلكم لأدم وآدم من تراب » .

وهكذا نرى أن هناك روابط انسانية يلفتنا الله سبحانه وتعالى اليها . وهذه الروابط ..
تبدأ بالأسرة ثم تتسع لتشمل القرية أو الحى . ثم تتسع لتشمل الدولة والمجتمع ، ثم
تتسع لتشمل المؤمنين جميعا ، ثم تتسع لتشمل العالم كله . هذه هي الأخوة الانسانية
التي يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا اليها .

ولكن اللفتة هنا لا تقتصر على الناحية الانسانية ، بل تسجل أن ما فعلوه
معصية . ومخالفة لأمر الله تعالى . فالله أمر بأن نصل الرحم . وجاء هؤلاء وخالفوا
وعصوا ما أمر الله به . وقطعوا هذه الصلة . اذن فالمسألة فيها مخالفة لمنهج ، وعصيان
لأمر من أوامر الله سبحانه وتعالى . فصلة الرحم توجد نوعا من التكافل الاجتماعى بين
البشر . فإذا حدث لشخص مصيبة .. أسرع أقاربه يقفون معه في محنته . ويحاول كل
منهم أن يخفف عنه . هذا التلاحم بين الأسرة يجعلها قوية في مواجهة الأحداث .
ولا يحس واحد منها بالضيق في هذا الكون ، لأنه متماسك مع أسرته ، متماسك مع حيه
أو قريته . وهكذا يخفف الحقد من المجتمع . ويختفى التفكك الاسرى ..

ولعلنا اذا نظرنا الى المجتمعات الغربية التي يعترها تفكك الأسرة . نجد أن كل
واحد منهم قد ضل طريقه وانحرف لأنه أحس بالضيق . فانهرف الى المخدرات أو الى
الخمر أو الى الزنا وغير ذلك من الرذائل التي تراها . جيل ضائع . من الذى أضاعه ؟
عدم صلة الرحم .

وإذا تحدثنا عن الانحرافات التي تراها بين الشباب اليوم فلا نلوم الشباب ، ولكن
نلوم الآباء والأمهات الذين تركوا أولادهم وبناتهم وأهدروا صلة الرحم . فشب جيل
يعانى من عقد نفسية لا حدود لها ، ان الابن الذى يفقد جو الأسرة . يفقد ميزان

حياته . والله سبحانه وتعالى يريد المؤمنين متضامين متحابين خالين من كل العقد التي تحطم الحياة . اذن فعدم صلة الرحم تضعج اجيالاً بأكملها .

ونأتى بعد ذلك الى الصفة الثالثة من صفات الفاسقين بقوله تعالى : « ويفسدون في الأرض » . نقول : كل ما في الكون مخلوق على نظام : « قَدَّرَ فَهَدَى » أى كل شيء له هدى لا بد أن يتبعه . ولكن الانسان جاء في مجال الاختيار وأفسد قضية الصلاح في الكون .

ومن رحمة الله أنه جعل في كونه خلقاً يعمل مقهوراً . ليضبط حركة الكون الأعلى . فالشمس والنجوم والأرض وكل الكون ماعدا الانس والجنان . يسير وفق نظام دقيق . لماذا ؟ لأنه يسير بلا اختيار له . والحق جل جلاله أخبرنا بأنه لكى يعتدل ميزان حياتنا . فلنحكم أنفسنا بمنهج الله . كما أن الكون المقهور محكوم بمنهج الله . فليس معنى الاختيار الانسانى أن نبتعد عن منهج الله . لأن الله له صفة القهر . فهو يستطيع أن يخلقنا مقهورين ، ولكنه أعطانا الاختيار حتى نأثبه عن حب . وليس عن قهر . فانت تحب الشهوات ولكنك تحب الله أكثر . فتقيد نفسك بمنهج الله . اذن فالاختيار لم يُعط لنا لِنُفْسِدَ في الأرض . ولكنه أُعطى لنا . لنأتى الله سبحانه وتعالى طائعين ولسنا مقهورين .

ولذلك فكل منا مختار في أن يؤمن أولاً يؤمن . وهذا الاختيار يثبت محبوبة الله سبحانه وتعالى في قلوبنا . ولكن الانسان بدلاً من أن يأخذ الاختيار ليأتى الله عن حب . فينال الجزء الأعظم . أخذه ليفسد في الأرض . .

والفساد أن تنقل مجال افعل ولا تفعل . فتضع هذه مكان هذه . فيقلب الميزان . أى أنك فيما قال الله فيه افعل . لا تفعل ، وفيما قال لا تفعل . تفعل . .

فتكون قد جعلت ميزان حياتك معكوساً . لماذا ؟ لأننا غير محكومين بقاعدة كلية تنظم حياة الناس . فكل واحد سيضع قاعدة له . وكل واحد لن يفعل ما عليه . فيحدث تصادم في الحياة . وكل فساد يشكّل قبحاً في الوجود . فهب أنك تسير في الطريق . وترى عمارة مبنية حديناً . قد تسربت المياه من مواسيرها . عندما ترى ذلك تتأذى . لأن هناك قبحاً في الوجود . في عدم امانة انسان في عمله . اذن فحين يفسد

عامل واحد . بعدم الاخلاص في عمله . يفقد الكون نعمة يحبها الله . في أن ترى الشيء الجميل . فتقول : الله ..

فكل انسان غير أمين في عمله . يفسد في الكون . وكل انسان غير أمين في خلقه يفسد في الكون . ويعتدى على حرمان الآخرين وأموالهم . وهذا يجعل الكون قبيحا ، فلا يوجد انسان يأمن على عرضه وماله ...

لقد أراد المعتدى أن يحقق ما ينفع به نفسه عاجلا . ولكنه أحدث فسادا في الكون . كذلك عندما يغش التاجر الناس . وعندما يكتسب الانسان المال بالتهب والسرقة . فيفتح الله عليه أسوأ مصارف المال في الوجود . فهو أخذ الحسرة بالفساد في الأرض .

والفساد في الأرض أن تخرج الشيء عن حد اعتداله . فتسرف في شهواتك وتسرف في أطماعك . وتسرف في عقابك للناس . وتسرف باعتدائك على حقوق الغير . والفساد في الأرض . أن يوجد منهج مطبق غير منهج الله .

إن غياب منهج الله معناه أن يصبح كل منا عبد أهوائه . وإذا صارت الأمور حسب أهواء الناس . جاءت لهم حركة الحياة بالشقاء والشر بدلا من السعادة والأمن . إن ما نراه اليوم من شكوى الناس علامة على الفساد .

لأن معناها أن الناس تعاني ولا أحد يتحرك . ليرفع أسباب هذه الشكوى . ولن يستقيم أمر هذا الوجود ، ويتخلص من الفساد الا اذا حكمنا منهج لا هوى له . والذي لا هوى له هو خالق البشر . واضع ميزان الكون .

وأول مظاهر الفساد . أن يوكل الأمر الى غير أهله . لأنه اذا أعطى الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة . كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » (١)

لماذا ؟ لأن المجتمع - حيثئذ - يكون مبنيًا على النفاق واختلال الأمور ، لا على الاتقان والاخلاص . فالذي يجيد النفاق هو الذي يصل إلى الدرجات العلا ، والذي يتقن عمله لا يصل إلى شيء . وتكون النتيجة أن مجموعة من المنافقين الجهلة هم الذين يسرون الأمور بدون علم . والفساد في الأرض هو أن يضيع الحق . ويضيع القيم . ويصبح المجتمع غابة . كل إنسان يريد أن يحقق هواه بصرف النظر عن حقوق الآخرين . ويحس من يعمل ولا يصل إلى حقه .. أنه لا فائدة من العمل ، فيتحول المجتمع كله إلى مجموعة من غير المتجيين .

والفساد في الأرض هو أن نجعل عقولنا هي الحاكمة . فلا نتأمل في ميزان الكون الذي خلقه الله ، وإنما نغضب بعقولنا نخطط .. فنقطع الأشجار ونرمي مخلفات المصانع في الأنهار فنفسدها . ونأثى بالكيماويات السامة نرش بها الزرع أو نجاري المياه والأنهار كما يحدث الآن فنملؤه سُماً ثم نأكله ثم نجد التلوث قد ملأ الكون . وطبقة الأوزون قد أصابها ضرر واضح يعرض حياة البشر على الأرض لأخطار كبيرة . وتفسد مياه الأنهار . ولا تصبح صالحة للشرب ولا للرى . ويضيع الخير من الدنيا بالتدريج . والفساد في الأرض . هو أن ينتشر الظلم . وتصبح الحياة سلسلة لا تنتهي من الشقاء . والفساد في الأرض هو أن تضيع الأمانة . فتفسد المعاملات بين الناس . وتضيع الحقوق .

هذه هي بعض أوجه الفساد في الأرض . والله سبحانه وتعالى قد وضع قانوناً كلياً ، هو منهجه ليتعامل به الناس . ولكن الناس تركوه . ومشوا يتخبطون في ظلام الجهل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من استعمل رجلاً من عصابة ، وفيهم من هو أرضى الله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » (١)

وهكذا يكون مدى حرص الإسلام على استقامة أمور الناس .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك هم الخاسرون »
خسروا ماذا ؟ خسروا دنياهم وآخرتهم وخسروا أنفسهم . لأن الإنسان له حياتان .. حياة قصيرة في الدنيا مليئة بالمتاعب . وحياة طويلة خالدة في الآخرة .

والذى يبيع الحياة الأبدية ونعيمها وخلودها بحياة الدنيا التى لا يضمن فيها شيئا ، يكون من الخاسرين . . فعمر الانسان قد يكون يوما أو شهرا أو عاما . والحياة الدنيا مهما طالّت فهى قصيرة . ومهما أعطت فهو قليل . فالذى يبيع آخرته بهذه الدنيا ، أياكون رابحا أم خاسرا ؟ طبعا يكون خاسرا . لأنه اشترى مالا يساوى بنعيم الله كله . .

وإذا كان الانسان قد نسي الله سبحانه وتعالى وهو لاقية حتما . ثم يبعث يوم القيامة ليجده أمامه . فيوفيه حسابه . أياكون قد كسب أم خسر ؟ . . طبعا يكون خاسرا . لأنه أوجب على نفسه عذاب الله . وأوجب على نفسه عقاب الله .

ان قوله تعالى : « الخاسرون » تدل على أن الصفقة انتهت وضاع كل شيء لأن نتيجتها كانت الخسران ، وليس الخسران موقوتا ، ولا هو خسران يمكن أن يعوض في الصفقة القادمة . بل هو خسران أبدي ، والندم عليها سيكون شديدا . واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكَ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَنْصِبَنِي كُنْتُ تَرَابًا ۝ ﴾

(سورة النبا)

لماذا يتمنى الكافر أن يكون ترابا ؟ ل هول العذاب الذى يراه أمامه . وهول الخسران الذى تعرض له . وهذا دليل على شدة الندم . يوم لا ينفع الندم . على أنه سبحانه وتعالى تحدث في هذه الآية عن الخاسرين . ولكنه جل جلاله . تحدث في آية أخرى عن الأخسرين . فقال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَايَهُمْ لَخِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فهناك خاسر . وهناك من هو أخسر منه . والأخسر هو الذي كفر بالله جل جلاله . ويوم القيامة . واعتقد أن حياته في الدنيا فقط . ولم يكن الله في باله وهو يعمل أى عمل ، بل كانت الدنيا هى التى تشغله . ثم فوجيء بالحق سبحانه وتعالى يوم القيامة . ولم يحاسب له أية حسنة ، لأنه كان يقصد بحسناته الحياة الدنيا . فلا يوجد له رصيد في الآخرة .

والعجيب أنك ترى الناس . يعدون للحياة الدنيا اعدادا قويا . فيرسلون أولادهم الى مدارس لغات . ويتحملون في ذلك مالا يطيقون . ثم يدفعونهم الى الجامعات . او الى الدراسة في الخارج . هم في ذلك يعدونهم لمستقبل مظنون . وليس يقينا . لأن الانسان يمكن أن يموت وهو شاب . فيضيع كل ما أنفقوه من أجله . ويمكن أن ينحرف في آخر مراحل دراسته . فلا يحصل على شيء . ويمكن أن يتم هذا الاعداد كله ، ثم بعد ذلك يرتكب جريمة يقضى فيها بقية عمره في السجن . فيضيع عمره .

ولكن اليقين الذى لا شك فيه هو اننا جميعا سنلقى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . وسيحاسبنا على أعمالنا . ومع أن هذا يقين ، فإن كثيرا من الناس لا يلتفتون اليه . يسعون للمستقبل المظنون . ولا يحس واحد منهم بيقين الآخرة . فتجد قليلا من الآباء هم الذين يبذلون جهدا لحمل أبنائهم على الصلاة وعبادة الله والأمانة وكل ما يقربهم الى الله . . انهم ينسون النعيم الحقيقى . ويجرون وراء الزائل فتكون النتيجة عليهم وبالا في الآخرة .



﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨)

كيف في اللغة للسؤال عن الحال . والحق سبحانه وتعالى أوردها في هذه الآية الكريمة ليس بغرض الاستفهام ، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث . وبعد كل ما رواه الحق سبحانه وتعالى في آيات سابقة من أدلة دامغة عن خلق السموات والأرض وخلق الناس .. أدلة لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخطئها .. فكيف بعد هذه الأدلة الواضحة تكفرون بالله ؟ .. كفركم لاحجة لكم فيه ولا منطق .. والسؤال يكون مرة للتوبيخ .. كأن تقول لرجل كيف تسب أباك ؟ أو للتعجب من شيء قد فعله وما كان يجب أن يفعله .. وكلاهما متلاقيان . سواء كان القصد التوبيخ أو التعجب فالقصد واحد .. فهذا ما كان يجب أن يصح منك . ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بأدلة أخرى لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يكذب بها .. فيقول جل جلاله : « وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ » .

وهكذا ينتقل الكلام الى اصل الحياة والموت . فبعد ان بين الحق سبحانه وتعالى .. ماذا يفعل الكافرون والفاسقون والمنافقون من افساد في الأرض .. وقطع لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل .. صعد الجدل الى حديث عن الحياة والموت . وقوله تعالى « كنتم أمواتا فأحياكم » قضية لا تحتل الجدل .. ربما استطاعوا المجادلة في مسألة عدم اتباع المنهج ، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل ..

ولكن قضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها . فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم .. ولم يدع أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه .. وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للناس ان الذي خلقكم هو الله .. لم يستطع أحد أن يكذبه ولن يستطيع .. ذلك أننا كنا فعلا غير موجودين في الدنيا .. والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجدنا واعطانا الحياة ..

وقوله تعالى : « ثم يميتكم » . فان أحدا لا يشك في أنه سيموت .. الموت مقدر على الناس جميعا .. والخلق من العدم واقع بالدليل .. والموت واقع بالحس والمشاهدة ..

إن قضية الموت هي سبيلنا لمواجهة أى ملحد .. فإن قالوا إن العقل كاف لإدارة الحياة .. وأنه لا يوجد شيء اسمه غيب .. قلنا : الذى تحكم فى الخلق ايجادا ، هو الذى يتحكم فيه موتا .. والحياة الدنيا هي مرحلة بين قوسين .. القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويوجدنا .. وتمضى رحلة الحياة الى القوس الثانى .. الذى نحمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت . أى أننا فى رحلة الحياة من الله واليه ..

اذن فحركة الحياة الدنيا هي بداية من الله بالخلق ونهاية بالموت ..

إنهم عندما تحدثوا عن اطفال الانابيب .. وهى عملية لعلاج العقم أكثر من أى شيء آخر .. ولكنهم صوروها تصويرا جاهليا .. وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التى يكون المهنل عندها مسدودا أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعى .. يأخذون هذه البويضة من رحم الأم .. ويخصبونها بالحيوانات المنوية للزوج .. ثم يزرعونها فى رحم الأم .

إنهم أخذوا من خلق الله وهى بويضة الأم والحيوان المنوى من الرجل .. وكل ما يفعلونه هو عملية التلقيح ومع ذلك يسمونه اطفال الانابيب .. كأن الانبوبة يمكن أن تخلق طفلا !! والحقيقة غير ذلك .. فبويضة الأم ، والحيوان المنوى للرجل هما من خلق الله .. وهم لم يخلقوا شيئا .. أننا نقول لهم : اذا كنتم تملكون الموت والحياة فاصنعوا انسانا واحدا أن يموت .. بدلا من انفاق ألوف الجنيهات فى معالجة عقم قد ينجح أو لا ينجح .. ابقوا واحدا على قيد الحياة .. ولن يستطيعوا ..

إن الموت أمر حسي مشاهد .. ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه وتعالى قربها لنا بشيء مشاهد .. كيف ؟ .. عندما ينظر الانسان الى نفسه وهو حى .. لا يعرف كيف أحياء الله وكيف خلقه .. الله سبحانه وتعالى ذكر لنا غيب الخلق فى القرآن الكريم فقال جل جلاله أنه خلق الانسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه ..

واقرا قول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٦ ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة الصافات)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّن حَمَلٍ مُّسْنُونٍ ۝١٥ ﴾

(سورة الحجر)

وقوله تعالى :

﴿ إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٧٦ ﴾

(سورة ص)

فالحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة في الخلق لم نشهدها .. ولكن الموت شيء مشهود لنا جميعا .. ومادام مشهودا لنا ، يأتي الحق سبحانه وتعالى به كدليل على مراحل الخلق التي لم نشهدها .. فالموت نقض للحياة .. والحياة أخبرنا الله تبارك وتعالى بأطوارها .. ولكنها غيب لم نشهده ..

ولكن الذى خلق قال أنا خلقتك من تراب .. من طين. من حمأ مسنون. من صلصال كالفخار .. فالماء وضع على تراب فأصبح طينا .. والطين تركناه فتغير لونه وأصبح صلصالا .. الصلصال .. جف فأصبح حمأ مسنونا ، ثم نحته في صورة إنسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشرا .. ثم يأتي الموت وهو نقض للحياة .. ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه ..

بناء العمارة يبدأ من أسفل الى أعلى .. وهدمها يبدأ من أعلى الى أسفل .. ولذلك فإن آخر مرحلة من رحلة ما .. هي أول خطوة في طريق العودة .. فإذا كنت مسافرا الى الاسكندرية .. فأول مكان في طريق العودة هو آخر مكان وصلت اليه .

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه .. ثم بعد ذلك يتصلب الجسد ويصبح كالحمأ المسنون .. ثم يتعفن فيصبح كالصلصال .. ثم يتبخر الماء الذى فيه فيعود ترابا .. وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة .. متفقا مع المراحل التي بينها لنا الحق سبحانه وتعالى ..

وقوله تعالى : « ثم اليه ترجعون » .. أى أن الله تبارك وتعالى يبعثكم ليحاسبكم .. لقد حاول الكفار والملحدون واصحاب الفلسفة المادية ان ينكروا قضية البعث .. وهم في هذا لم يأتوا بجديد .. بل جاءوا بالكلام نفسه الذى قاله اصحاب الجاهلية الأولى .. وقرأ قوله تعالى عما يقوله اصحاب الجاهلية الأولى :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّمَرُ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الجاثية)

وامنية الكافر والمسرف على نفسه .. الا يكون هناك بعث أو حساب .. والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم : ان الله سبحانه وتعالى الذى أوجدكم من عدم

يستطيع أن يعيدكم وقد كنتم موجودين .. يقول جل جلاله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٢٧ ﴾

(سورة الروم)

فإيجاد ما كان موجودا أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود .. والله سبحانه وتعالى يرد على الكفار فيقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ بِئْسَ الْبَعْثُ الَّذِي وَعَدْتُمْ وَهِيَ رَمِيمٌ ٢٢٨ ﴾ قُلْ بِحُجَّتِي
أَلَيْسَ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٢٢٩ ﴾

(سورة يس)

وهكذا فإن البعث أهون على الله من بداية الخلق .. وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى في كتاب مبين .. وما أخذته الأرض من جسد الإنسان ترده يوم القيامة .. ليعود من جديد ..

وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان .. واقرا قوله وتعالى :

﴿ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٢٩ ﴾

(سورة غافر)

وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٣٠ ﴾ هو اطمئنان لمن آمن .. ومادعنا إليه نرجع ومنه بدأنا .. فالحياة بدايتها من الله ونهايتها إلى الله .. فلنجعلها هي نفسها لله .. ولا بد أن نلتفت إلى أن الله تبارك وتعالى أخفى عنا الموت زمانا ومكانا وسببا وعمرا .. لم يخفه ليحجبه ، وإنما أخفاه حتى نتوقعه في كل لحظة .. وهذا اعلام واسع بالموت حتى يسرع الناس إلى العمل الصالح .. وإلى المثوبة . لأنه

لا يوجد عمر متيقن في الدنيا .. فلا الصغير آمن على عمره .. ولا الشاب آمن على عمره .. ولا الكهل آمن على عمره .. ولذلك يجب أن يسارع كل منا في الخيرات .. حتى لا يفاجئه الموت .. فيموت وهو عاص ..

ونلاحظ أن قصة الحياة جاء الله بها في آية واحدة . والرجوع الى الله - وهو يقين بالنسبة للمؤمنين - يلزمهم بالمنهج ، فيعيشون من حلال . والتزامهم هذا هو الذي يقودهم الى طريق الجنة . ويطمئنهم على اولادهم بعد أن يرحل الآباء من الدنيا .

فعمل الرجل الصالح ينعكس على اولاده من بعده . وقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ① ﴾

(سورة النساء)

اذن فصاحب الالتزام بالمنهج ، يطمئن الى لقاء ربه ويطمئن الى جزائه ، والذي لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيها لا ينفع . ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً الا الحساب والنار .. وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَبِئْسَ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابُهُمْ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ② ﴾

(سورة النور)

أى أن الكافر سيفاجأ في الآخرة بالله الذي لم يكن في باله أنه سيحاسبه على ما فعل .. وقوله تعالى « واليه ترجعون » تقرأ قراءتان . بضمة على التاء . ومرة بفتحة على التاء . الاولى معناها . أننا نَجِيرُ على الرجوع . فلا يكون الرجوع الى الله تعالى بإرادتنا ، وهذا ينطبق على الكفار الذين يتمنون عدم الرجوع الى الله . أما الثانية « ترجعون » فهذه فيها ارادة . وهى تنطبق على المؤمنين لأنهم يتمنون الرجوع الى الله .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ
إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢١)

يذكرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه هو الذي خلق ما في الأرض جميعا .
وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : « فأحياكم ثم يميّتكم ثم يجيئكُم ثم إليه
ترجعون » لتلفتنا الى أن ما في الأرض كله ملك لله جل جلاله ، وأننا لا نملك شيئا
الا ملكية مؤقتة . وأن ما لنا في الدنيا سيصير لغيرنا . وهكذا .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الحياة وقال « كنتم أمواتا فأحياكم » كأن الحياة
تحتاج الى امداد من الخالق للمخلوق حتى يمكن أن تستمر . فلا بد لكي تستمر الحياة
أن يستمر الامداد بالنعم . ولكن النعم تظل طوال فترة الحياة ، وعند الموت تنتهي
علاقة الانسان بنعم الدنيا . ولذلك لا بد أن يتنبه الانسان الى أن الأشياء مسخرة له
في الدنيا لتخدمه . وأن هذا التسخير ليس بقدرات أحد . ولكن بقدرة الله سبحانه
وتعالى . والانسان لا يدري كيف تم الخلق . ولا ماهي مراحلها الا أن يخبرنا الله
سبحانه وتعالى بها . فهو جل جلاله يقول :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُخِذَ الْمُضِلِّينَ
عَصْدًا ﴾ (٢١)

(سورة الكهف)

وماداموا لم يشهدوا خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . فلا بد أن نأخذ
ذلك عن الله ما ينبتنا به الله عن خلق السموات والأرض وعن خلقنا هو الحقيقة .
وما يأتيها عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزيف . ونحن الآن نجد بحوثا

كثيرة عن كيفية السموات والأرض وخلق الانسان . وكلها لن تصل الى حقيقة . بل ستظل نظريات بلا دليل . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » أى أن هناك من سيأتى ويضل . ويقول هكذا تم خلق السموات والأرض ، وهكذا خلق الانسان . هؤلاء المضلون الذين جاءوا بأشياء هي من علم الله وحده . جاءوا تشبينا لمنهج الايمان . فلم يأت هؤلاء المضلون ، ولو لم يقولوا خلقت الأرض بطريقة كذا والسماء بطريقة كذا . لقلنا ان الله تعالى قد اخبرنا في كتابه العزيز أن هناك من سيأتى ويضل في خلق الكون وخلق الانسان ولكن كونهم أتوا . فهذا دليل على صدق القرآن الذى أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا بقرون .

والاستفادة من الشيء لا تقتضى معرفة أسرارهِ . . فنحن مثلا نستخدم الكهرباء مع أننا لا نعرف ما هي ؟ وكذلك نعيش على الأرض ونستفيد بكل ظواهرها وكل ما سخره الله لنا . وعدم علمنا بسر الخلق والايجاد لا يحرمنا هذه الفائدة . فهو علم لا ينفع وجهل لا يضر . والكون مسخر لخدمة الانسان . والتسخير معناه التذليل ولا تتمرد ظواهر الكون على الانسان . واذا كانت هناك ظواهر في الكون تتمرد بقدر الله . مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية . نقول ان ذلك يحدث ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى أن كل ما في الكون لا يخدمنا بذاتنا . ولا يسيطرنا عليه ، وإنما يخدمنا بأمر الله له ، والا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك . فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك . وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله . حتى الاسباب والمسببات خاضعة أيضا لطلاقة القدرة الالهية . فالاسباب والمسببات في الكون لا تخرج عن ارادة الله .

لذلك اذا تمرد الماء بالطوفان . وتمردت الرياح بالعاصفة . وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين . فما ذلك الا ليعرف الانسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذى يعيش فيه . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَنَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

والانسان عاجز عن أن يخضع حيوانا الا بتدليل الله له . . . ومن العجيب انك ترى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الانسان في الكون . فهي تحس بالزلازل قبل أن يقع . وتخرج من مكان الزلازل هاربة . بينما الانسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث .

والحق سبحانه وتعالى في قوله : « خلق لكم ما في الأرض جميعا » يستوعب كل أجناس الأرض . ولذلك فإن الانسان لا يستطيع أن يوجد شيئا الا من موجود . أي أن الانسان لم يستحدث شيئا في الكون . فانت اذا أخذت حبة القمح . من أين جثنا بها ؟ من محصول العام الماضي . . . و محصول العام الماضي . من أين جاء ؟ . . . من محصول العام الذي قبله . وهكذا يظل تسلسل الأشياء حتى تصل الى حبة القمح الاولى . من أين جاءت ؟ جاءت بالخلق المباشر من الله . وكذلك كل ثمار الأرض اذا أعدتها للثمرة الاولى فهي بالخلق المباشر من الله سبحانه وتعالى . فاذا حاولت أن تصل الى أصل وجود الانسان . ستجد بالمنطق والعقل . . . أن بداية الخلق هي من ذكر وأنثى . خلقا بالخلق المباشر من الله . لانك انت من ابيك وأبوك من جدك . وجدك من ابيه . وهكذا تمضي حتى تصل الى خلق الانسان الاول . فنجد انه لا بد أن يكون خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى . وما ينطبق على الانسان ينطبق على الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد . فكل شيء اذا رددته لأصله نجد أنه لا بد أن يبدأ بخلق مباشر من الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل عن الرقى والحضارة وهذه الاختراعات الجديدة . أليس للانسان فيها خلق ؟ . . . نقول فيها خلق من موجود . والله سبحانه وتعالى كشف من علمه للبشر ما يستطيعون باستخدام المواد التي خلقها الله في الأرض أن يرتقوا ويصنعوا أشياء جديدة . ولكننا لم نجد ولم نسمع عن انسان خلق مادة من عدم .

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق كل ما في هذا الكون من عدم . ثم بعد ذلك تكاثرت المخلوقات بقوانين سخرها الله سبحانه وتعالى لها . ولكن كل هذا التطور راجع الى أن الله خلق المخلوقات وأعطاهما خاصية التناسل والتزاوج لتستمر الحياة جيلا بعد جيل . وكل خلق الله الذي تراه في الكون الآن قد وضعه الله سبحانه وتعالى فيه من قوانين الأسباب ما يعطيه استمرارية الحياة من جيل الى جيل حتى ينتهي الكون . فاذا قال لك انسان : أنا أزرع بذكائي وعلمي . فقل له : انت تاتي

بالبذرة التي خلقها الله . وتضعها في الأرض المخلوقة لله . وينزل الله سبحانه وتعالى الماء عليها من السماء . وتثبت بقوة الله الذي وضع فيها غذاءها وطريقة انباتها . اذن فكل ما يحدث أنك تحرث الأرض . وترمى البذرة . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

صحيح أن الانسان يقوم بحرث الأرض ورمى البذرة . وربما تعهد الزرع بالعناية والرى . ولكن ليس في كل ما يفعله مهمة خلق . بل ان الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء . ولو كنت تزرع بقدرتك فأت ببذرة من غير خلق الله . وأرض لم يخلقها الله . وماء لم ينزله الله من السماء . وطبعاً لن تستطيع . . ولكن ما هو مصدر الأشياء التي استحدثت ؟

نقول إن هناك فرقاً بين وجود الشيء بالقوة . وجوده بالفعل . . فالنخلة مثلاً حبة كانت موجودة بالقوة . كانت نواة . ثم زرعت فأصبحت موجودة بالفعل . وأنت لا عمل لك في الحالتين فلا أنت بقوتك خلقت النواة - التي هي البذرة - ولا أنت بفعلك جعلت النواة تكبر . لتصير نخلة بالفعل . على أن هناك أشياء مطمورة في الكون . خلقها الله سبحانه وتعالى مع بداية الخلق . ثم تركها مطمورة في الكون . حتى كشفها الله لمن يبحث عن أسرارهِ في كونه .

وكل كشف له ميلاد . اذا أخذنا مثلاً ما تحت الثرى . أو الكنوز الموجودة تحت سطح الأرض . لقد ظلت مطمورة حتى هدى الله الانسان اليها . وعلمه كيف يستخرجها . فالانسان لم يخترع مثلاً أو يوجد البترول أو المعادن . ولكنها كلها كانت مطمورة في الكون حتى جاء الوقت الذي يجب أن تؤدي فيه دورها في الحياة . فدلنا الحق عليها ، فليس معنى أن الشيء كان غائباً عنا أنه لم يكن موجوداً . أو أنه وجد لحظة اكتشافنا له . فالشيء الحادث الآن ، والشيء الذي سيحدث بعد سنوات . . خلق الله سبحانه وتعالى كل عناصره . وأودعها في الأرض لحظة الخلق . والانسان بما يكشف الله له من علم يستطيع تركيب هذه العناصر . ولكنه لا يستطيع خلقها أو إيجادها . والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم استوى إلى السماء » .

حينما يقول الله جل جلاله . استوى . . يجب ان نفهم كل شيء متعلق بذات الله على أنه سبحانه ليس كمثله شيء . فالله استوى والملوك تستوى على عروشها . وانت تستوى على كرسيك . ولكن لاننا محكومون بقضية « ليس كمثله شيء » لا بد أن نعرف أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . والله حي . وانت حي . هل حياتك كحياته ؟ والله سبحانه وتعالى يعلم وانت تعلم . هل علمك كعلمه ؟ والله سبحانه وتعالى يقدر . وانت تقدر . هل قدرتك كقدرته . طبعاً لا . فعندما تأتي الى « استوى » فلا تحاول أن تفهمها ابداً بالمفهوم البشرى . . فالله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرض وما في السماء . وهو سبحانه يعلم المكان بكل ذراته . والموجودين في هذا المكان او المكين . بكل ذراته . وانت تعرف ظاهر الأمر . . والله سبحانه وتعالى يعلم غيب السموات والأرض حتى يوم القيامة . وبعد يوم القيامة اذن فهو جل جلاله . ليس كمثله شيء . ولا يمكن أن تحيط أنت بعقلك بفعل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى . فعقلك قاصر عن أن يدرك ذلك . لذلك قل سبحانه الله . ليس كمثله شيء في كل فعل يتصل بذات الله . . « استوى الى السماء » هذا الكلام هو كلام الله . فالتحدث هو الله عز وجل .

بعض الناس يقولون تلقينا القرآن وحفظناه . نقول لهم ان الذي حفظ القرآن هو الله سبحانه وتعالى . ومادام قد حفظ كلامه فهو جل جلاله يعلم أن الوجود كله لن يتعارض مع القرآن الكريم . . والله سبحانه وتعالى حفظ القرآن ليكون حجة له على الناس . ومادام الله جل جلاله هو الخالق . وهو القائل . فلا توجد حقيقة في الكون كله تتصادم مع القرآن الكريم . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

(سورة الحجر)

وهذا من عظمة الله أن حفظ كلامه ليكون حجة على الناس . والله سبحانه وتعالى وجدت صفاته قبل أن توجد متعلقات هذه الصفات . فهو جل جلاله . خلق لأنه خالق . كأن صفة الخلق وجدت أولاً . والا كيف خلق أول خلقه . ان لم يكن سبحانه وتعالى خالقاً ؟

والله سبحانه وتعالى رزاق . قبل أن يوجد من يرزقه . والا فبأي قدرة رزق الله

أول خلقه ؟ والله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته . وشهد أنه لا اله الا هو قبل أن يشهد أي من خلق الله أنه لا اله الا الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى شهد أنه لا اله الا هو قبل أن يوجد أحد من خلقه يشهد بوحدةانية الوهيته . شهد أنه لا اله الا هو قبل أن يخلق الملائكة . ليشهدوا شهادة مشهدة بأنه لا اله الا الله . وأولوا العلم شهادة علم . فكان شهادة الذات للذات . في قوله تعالى « شهد الله أنه لا اله الا هو » هي التي يعند بها ، وهي أقوى الشهادات ؛ فالله ليس محتاجا من خلقه إلى امتداد الشهادة .

الله سبحانه وتعالى : بعد أن خلق الأرض وخلق السماء واستتب له الأمر . قال « وهو بكل شيء عليم » أي لا تغيب ذرة من ملكه عن علمه . فهو عليم بكل ذرات الأرض وكل ذرات الناس . وكل ذرات الكون . والكون كله لا يفعل الا بأذنه ومراده . واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَبْنِيْ اِيَّاهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ نَّرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰٓاَيُّهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة لقمان)



﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)

بعد أن أخبرنا الحق سبحانه وتعالى . أنه خلق جميع ما في الكون . أراد أن نخبرنا
عن خلقه لعمارة هذا الكون . فكان القصة التي بدأ الله سبحانه وتعالى بها قصص
القرآن كانت هي قصة آدم أول الخلق . ولقد وردت هذه القصة في القرآن
الكريم كثيرا لتدلنا لماذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بهذه القصة ؟ وجاءت لتدلنا أيضا
على صدق البلاغ عن الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

كلمة الحق التي جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصا . ولكن بغير حق . والله
سبحانه وتعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التي يتداولها الناس أو
قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع وتأتي بغير حق . وهناك قصص تروى في
الدنيا ولا واقع لها ، بل هي من قبيل الخيال .

وكلمة قصة . مأخوذة من قص الاثر . بمعنى أن ينبع قصاص الاثر في الصحراء
الآثار التي يشاهدها على الرمال حتى يصل الى مراده . عندما يصل الى نهاية الاثر . .
ومادمننا قد عرفنا ان الله يقص الحق . نعرف أن قصص القرآن الكريم كلها
أحداث وقعت فعلا . ولكل قصة في القرآن عبرة . أو شيء مهم يريد الحق سبحانه
وتعالى أن يلفتنا اليه . فمرة تكون القصة لشيء النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت

المؤمنين : واقرا قوله تعالى :

﴿ وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكل قصة تثبت فؤاد الرسول والمؤمنين في المواقف التي تزلزلهم فيها الأحداث . وقصص القرآن ليست لقتل الوقت . ولكن الهدف الأسمى للقصة هو تثبيت ونفع حركة الحياة الايمانية . ولو نظرنا إلى قصص القرآن الكريم نجد أنها تتحدث عن أشياء مضت وأصبحت تاريخا . والتاريخ يربط الأحداث بأزمانها . وقد يكون التاريخ لشخص لا لحدث . ولكن الشخص حدث من أحداث الدنيا . ولو قرأت تاريخ كل حدث لوجدت أنه يعبر عن وجهة نظر راويه . فكل قصص التاريخ كتبت من وجهات نظر من رووها . ولذلك . فالقصة الواحدة تختلف باختلاف الراوى .

ولكن قصص القرآن الكريم . هو القصص الحق . . . والعبرة في قصص القرآن الكريم أنها تنقل لنا أحداثا في التاريخ . تتكرر على مر الزمن . ففرعون مثلا هو كل حاكم يريد أن يُعبد في الأرض . وأهل الكهف مثلا هي قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر وانعزلت لتعبد الله . وقصة يوسف عليه السلام هي قصة كل اخوة نزع الشيطان بينهم فجعلهم يحقدون على بعضهم . وقصة ذى القرنين هي قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله سبحانه الأسباب في الدنيا ومكنه في الأرض . فعمل بمنهج الله وبما يرضى الله . وقصة صالح هي قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله . فحققها لهم فكفروا بها . وقصة شعيب عليه السلام . هي قصة كل قوم سرقوا في الميزان والمكيال .

وهكذا كل قصص القرآن . قصص تتكرر في كل زمان . حتى في الوقت الذي نعيش فيه تجد فيه أكثر من فرعون . وأكثر من أهل كهف يقرون بدينهم . وأكثر من قارون يعبد المال والذهب . . . وبحسب أنه استغنى عن الله . ولذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مجهلة الا قصة واحدة هي قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران . لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر . ولذلك عرفها الله لنا فقال « مريم ابنة عمران » وقال « عيسى بن مريم » حتى لا يلتبس الأمر . وتدعى أى امرأة انها حملت

بدون رجل . مثل مريم . نقول : لا . معجزة مريم لن تتكرر . ولذلك حددنا الله تعالى بالاسم . فقال : عيسى بن مريم . ومريم ابنة عمران . . . اما باقى قصص القرآن الكريم فقد جاءت مجهولة . فلم يقل لنا الله تعالى من هو فرعون موسى . ولا من هم أهل الكهف . ولا من هو ذو القرنين . ولا من هو صاحب الجنتين . الى آخر ما جاء فى القرآن الكريم . لانه ليس المقصود بهذه القصص شخصا بعينه . لا تتكرر القصة مع غيره ، وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو فرعون موسى ؟ ومن هو ذو القرنين . . . الخ نقول لهم لن تصلوا الى شىء لأن الله سبحانه وتعالى قد روى لنا القصة دون توضيح للأشخاص . لنعرف أنه ليس المقصود شخصا بعينه . ولكن المقصود هو الحكمة من القصة .

والقصص فى القرآن لا ترد مكررة . وقد يأتى بعض منها فى آيات . وبعض منها فى آيات أخرى . ولكن اللفظة مختلفة . تعطينا فى كل آية معلومة جديدة . بحيث انك اذا جمعت كل الآيات التى ذكرت فى القرآن الكريم . تجد أمامك قصة كاملة متكاملة . كل آية تضيف شيئا جديدا .

وأكبر القصص فى القرآن الكريم . قصة موسى عليه السلام . وذكرونا القرآن الكريم بها دائما لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر فى التاريخ . وفى كل مناسبة يذكرنا الله بلفظة من حياة هؤلاء . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالِقَبِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٥ ﴾

(الآية ٧ سورة القصص)

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ٣٨ أَنْ اقْنِصِي فِي الثَّاوِيَاتِ فَأَقْنَصِي فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ ٣٩ ﴾

(الأيتان ٣٨ ، ٣٩ سورة طه)

والفهم السطحي يظن أن هذا تكرار ونقول لا . فقله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » .

هذه اللفظة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يعد أم موسى اعدادا إيمانيا للحدث . ولكن عند وقوع الحدث تتغير القصة على نمط سريع « أن ألقاه في التابوت » فألقاه في اليم فليلقه اليم بالساحل » . كلام يناسب لحظة وقوع الحدث . . فالآية الأولى . . بينت لنا أن أم موسى أرضعته قبل أن تضعه في التابوت . وأنها ستلقيه في اليم عندما يحدث خطر وتخاف عليه من القتل . وفيه تطمين لها . الا تخاف ولا تحزن . لأن الله منجيه . وفيها بشارتان : أن الله سيرده لأمه . وأن الله قد اختاره رسولا .

نأتي الى الآية الثانية التي تكمل لنا هذه اللفظة فتقول « القاه في التابوت » هنا نعرف ان أم موسى ستلقيه في تابوت ، وهو ما لم يذكر في الآية السابقة . ثم بعد ذلك نعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره الى الماء أن يلقى التابوت الى الساحل . وهذا ما لم يرد في الآية السابقة . ونعرف ايضا ان الذي سيأخذه وهو فرعون . ستكون بينهما عداوة متبادلة . . وهكذا نرى أن آيتي القصة . يكمل بعضهما بعضا . وليس هناك تكرار . والله سبحانه وتعالى في الآية الثانية يريد أن يثبت أنه ستكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون . . كما أثبتت عداوة فرعون لله جل جلاله ولموسى ، فقال : « عدو لي وعدو له » ولكن العداوة لا تستقر الا اذا كانت متبادلة . فتأتي آية ثالثة لتكمل الصورة . . في قوله تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهكذا بينت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى تستقر حتى يقضى على فرعون . لأنه اذا كان انسان عدوا لك . وانت تقابل العداوة بالاحسان . تخمد العداوة بعد قليل . اذن هذه الآيات ليست تكرارا ولكنها آيات تكمل القصة . . وتعطينا الصورة الكاملة المتكاملة .

ولكن لماذا لم تأت قصة موسى متكاملة كقصة يوسف ؟ لأن الله سبحانه وتعالى

(١) رواه البزار عن حذيفة بإسناد حسن .

الخطاب هنا للجمع . لأدم وذريته . فكأنه سبحانه وتعالى يشير الى أن الأصل الأول للخلق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته الى أن تقوم الساعة وراثته . أى أنه ساعة خلق آدم . كان فيه الذرات التى سيأخذ منها الخلق كله . هذا عن هذا .. حتى قيام الساعة .

ولقد قلتُ إن كل واحد منا فيه ذرة أو جزء من آدم ، فأولاد آدم أخذوا منه والجبل الذى بعدهم أخذ من الميكروب الحى الذى أودعه آدم فى اولاده . والذين بعدهم أخذوا أيضاً من الجزء الحى الذى خلق فى الأصل مع آدم . وكذلك الذين بعدهم . والذين بعدهم . والحياة لا بد أن تكون حلقة متصلة . كل منا يأخذ من الذى قبله ويعطى الذى بعده . ولو كان هناك حلقة مفقودة . لتوقفت الحياة . كأن يموت الرجل قبل أن يتزوج . فلا تكون له ذرية من بعده . تتوقف حلقة الحياة . فكون حلقة الحياة مستمرة . دليل أنها حياة متصلة . لم تتوقف . ومادامت الحياة من عهد آدم الى يومنا هذا متصلة . فلا بد أن يكون فى كل منا ذرة من آدم الذى هو بداية الحياة وأصلها . وانتقلت بعده الحياة فى حلقات متصلة الى يومنا هذا وستظل الى يوم القيامة .

فأنا الآن حى . لأننى نشأت من ميكروب حى من أبى . وأبى أخذ حياته من ميكروب حى من أبيه . وهكذا حتى تصل الى آدم ، اذن فأنت مخلوق من جزء حى فى الحياة لم تتوقف منذ آدم الى يومنا هذا . ولو توقفت لما كان لك وجود . اذن فحياة الذين يعيشون الآن موصولة بأدم . لم يطرأ عليها موت . والذين سيعيشون وقت قيام الساعة حياتهم أيضاً موصولة بأدم أول الخلق . والحق سبحانه وتعالى . حين أمر الملائكة بالسجود لأدم . فإنهم سجدوا لأدم ولذريته الى أن تقوم الساعة . وذرية آدم كانت مطمورة فى ظهره . وشهدت الخلق الأول . اذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لقد خلقناكم ثم صورناكم » فيه جزئية جديدة لقصة الخلق .

وقوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة » أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول انه عند خلق آدم . خلقه خليفة فى الارض . والكلام هنا لا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحداً فى الخلق . بدليل

انه قال « انى جاعل » اذن فهو أمر مفروغ منه . ولكنه اعلام للملائكة . . والله سبحانه وتعالى . عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلان لهم مع آدم مهمة . فهناك المدبرات أمرا . والحفظة الكرام . وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد . فكان الاعلام . لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة .

قد يقول بعض الناس . ان حياة الانسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول ما يدريك أن وراء كل ناموس ملكا ؟

ولكن هذا الخليفة سيخلف من ؟ قد يخلف بعضه بعضا . في هذه الحالة يكون هنا اعلام من الله بأن كل انسان نسي موت ويخلفه غيره . فلو كانوا جميعا سيعيشون ما خلف بعضهم بعضا . وقد يكون الانسان خليفة لجنس آخر . ولكن الله سبحانه وتعالى . . نفى أن يخلف الانسان جنسا آخر . واقرا قوله جل جلاله :

﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢٠ ﴾

(سورة ابراهيم)

والخلق الجديد هو من نوع الخلق نفسه الذى أهلكه الله . والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن البشر سيخلقون بعضهم الى يوم القيامة . . فيقول جل جلاله :

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ٢٩ ﴾

(سورة مريم)

ولكن هذا يطلق عليه خَلْفٌ . ولا يطلق عليه خليفة . والشاعر يقول :

ذهب الذين بعاش في اكناهم

وبقيت في خلف كجلد الاجرب

ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق وجعل الكون مسخرا له

فكانه خليفة الله في أرضه . أمده بعطاء الأسباب . فخضع الكون له بإرادة الله .
وليس بإرادة الانسان . والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي : « يا بن آدم
تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك . . . وإلا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسد
فقرك » (١)

اذن كلمة خليفة . تأخذ عدة معان . .
ماذا قالت الملائكة : « قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن
نسبح بحمدك ونقدس لك » .

كيف عرف الملائكة ذلك ؟ لابد أن هناك حالة قبلها قاسوا عليها . أو أنهم ظنوا
أن آدم سيظفي في الأرض . ولكن كلمة سفك وكلمة دم . كيف عرفتها الملائكة
وهي لم تحدث بعد ؟ لابد أنهم عرفوها من حياة سابقة . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالْجَنَّ أَنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴾ (٢٧)

(سورة الحجر)

فكان الجن قد خلق قبل الانسان . وقوله تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » .
معنى ذلك أن علمك أيها المخلوق مناسب لمخلوقيتك . أما علم الله سبحانه
وتعالى .. فهو أزلي لا نهائي . ولكن هل قال الملائكة حين أخبرهم الله بخلق آدم
ذلك علنا أم أسروه في أنفسهم ؟ سواء قالوه أم أسروه . فقد علمه الله . لأنه يعلم
ما يسرون وما يعلنون . وانه يعلم السر وأخفى . فما هو السر . وما هو الأخفى من
السر ؟ السر هو ما أسرته الى غيرك . فما أسره الى غيري . فهو السر . وما أخفيه
في صدري ولا يطلع عليه أحد . هو أخفى من السر . فلا يقال أسررت الا اذا
بحث به لغيري . أما ما أخفيه في صدري . فلا يعلمه أحد الا الله . فهذا هو
ما أخفى من السر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » أراد أن يعطي
الفضية بعدها الحقيقي . وقد حكى القرآن الكريم قول الملائكة : « ونحن نسبح

(١) (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة) .

بحمدك ونقدس لك .

والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه . والتقديس هو التطهير . . . مأخوذ من القدس وهو الدلو الذي كانوا يتطهرون به . ولذلك نحن نقول تسبح قدوس . تسبح أى منزه عن كل ما لا يليق بجلاله . وقدوس . أى مطهر . . . التسبيح يحتاج الى مسبح . والى مانسبحه . والملائكة قالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

وهذا تسبح وتنزيه لله سبحانه وتعالى . . . والتسبيح والتنزيه لا يكونان إلا للكمال المطلق الذى لا تشوبه أية شائبة . . . والكمال المطلق هو لله سبحانه وتعالى وحده . لذلك صرف الله السنة خلقه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لغير الله تعالى . فلا تسمع فى حياتك أن إنسانا قال لبشر سبحانك . وهكذا صرفت السنة الخلق عن أن تسبح لغير الله سبحانه وتعالى . وقول الملائكة : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كان نقول سبحان الله وبحمده . ومعناها تنزيه لله سبحانه وتعالى فى ذاته . . . فلا تشبه بذات . وفى صفاته . فلا تشبه بصفات وفى أفعاله . فلا تشبه بأفعال . . . ولكن ما معنى كلمة وبحمده ؟ معناها أننا نزهك ونحمدك . أى يارب تنزيها لك نعمة . ولذلك فاقى أحمدك على أنك أعطيتنى القدرة لأنزهك . . . والتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى من كل الأغيار . ولأنك يارب قدوس طاهر . لا يليق أن يرفع اليك الا طاهر . ولا يليق أن يصدر عن خلقه بيديك الا طاهر . .

إنه عزفنا معنى تسبح بحمدك ونقدس لك . ثم أراد الله بحكمته أن يرد على الملائكة فقال : « انى أعلم ما لا تعلمون » ولم يطلقها هكذا . ولكنه سبحانه أتى بالقضية التى تؤكد صدق الواقع . .



﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢١)

فالحق سبحانه وتعالى . رد على الملائكة بهذه الآية الكريمة . لأنه علم آدم الاسماء كلها . . وكلمة كلها تفيد الاحاطة . ومعنى الاحاطة معرفة كل شيء عن هذه الاسماء .

هنا يتبادر سؤال : هل عَلَّمَ الله سبحانه وتعالى آدم الاسماء منذ ساعة الخلق الى قيام الساعة مادام الحق سبحانه وتعالى يقول كلها . فما هو حكم تلك الاسماء التي هي لمخترعات ستأت بعد خلق آدم بقرون طويلة ؟

نقول إن الله سبحانه وتعالى . حين علم آدم الاسماء وميزه على الملائكة يكون قد أعطى ذلك الأدنى عنصراً مميّزاً عن المخلوق من عنصر أعلى . فآدم مخلوق من طين . والملائكة مخلوقون من نور . وقدرات البشر لا تستطيع أن تعطى الأدنى شيئاً أكثر من الأعلى . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعطى ذلك لئذكرينا أن ما نأخذه ليس بقدراتنا ولكن بقدرته هو سبحانه . ولذلك تجد سليمان وهو ملك ونبي .. أعطاه الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده . وميزه عن خلقه . يأتي الهدهد ليقول لسليمان : « احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين » .

كيف يحيط الهدهد وهو طائر ضعيف محدود بما لم يحيط به سليمان وهو الملك النبي الذي حكم الانس والجن ؟ لأن الله سبحانه وتعالى .. يكره الغرور من خلقه . ولذلك يأتي بآية تميز الأدنى عن الأعلى ليعلموا جميعاً أن كل قدراتهم ليست بذاتهم . وانما هي من الله . فيأتي موسى وهو الرسول والنبي .. فيتعلم من الخضر وهو العبد الصالح ما لم يكن يعلمه .

وقد خلق الله سبحانه المسميات وان كنا لا نعرف وجودها وجعل الملائكة تتلقى أسماء هذه المسميات من آدم . وان البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام . وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق . لأن الخالق يعلم الهاما . يقذف في قلب آدم أسماء المسميات كلها لكل ما في الكون من أسماء المخلوقات ..

اذن فالمشهد الأول . لآدم مع الملائكة . كان قد تم ايجاد كل المسميات والهمها الله لآدم . بدليل أن الملائكة لم تتعرف على هذه المسميات . بينما عرفها آدم . وهنا لابد لنا من وقفة . ان الكلام هو ناتج السمع . واللغة ناتج البيئة ، والله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . وهذا العلم لا يمكن أن يأتي الا اذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه وتعالى .. ثم نطق . فأتت اذا أتيت بطفل عربي .. وتركته في لندن مثلا .. فتراه يتكلم الانجليزية بطلاقة .. ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية . والعكس صحيح . اذا أتيت بطفل انجليزي . وتركته في بلد عربي . يتكلم العربية .. ولا يعلم شيئا عن الانجليزية . اذن فاللغة ليست وراثية ولا جنسية ولا بيئية . ولكنها محاكاة يسمعها الانسان فينطق بها . واذا لم يسمع الانسان شيئا وكان أصم فانه لا يستطيع النطق بحرف واحد . فاذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء . فلا بد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى ..

والعجيب ان الطريقة التي علم الله سبحانه وتعالى آدم بها . هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية الى يومنا هذا . فأتت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال . ولكن لابد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والمسميات . تقول له : هذا كوب . وهذا جبل وهذا بحر . وهذه شمس . وهذا قمر . وبعد أن يتعلم المسميات . يستطيع ان يعرف الأفعال . ويتقدم في التعليم بعد ذلك ..

وهكذا نتعرف على النشأة الاولى للكلام . وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى علمت آدم الأسماء .

وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين : الأول : اذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم آدم الأسماء كلها . فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات في العالم ؟ نقول : إنه حتى لو تعلم آدم الأسماء التي يحتاج اليها في أولويات الوجود

ويستخدمها في متطلبات حياته على الأرض . فإذا جد جديد ، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من المقدمات والأسماء التي تعلموها . فما يجد في الوجود من أسماء . تدخل على اللغة . لم تأت من فراغ . وإنما جاءت من اللغة التي تنطق بها وتكتب بها .

كذلك كل شيء في هذا الكون . لو أعدته الآن إلى أصله . نجد أن أصله من الله . فلو أعدت البشرية إلى أصلها لأبد أن تصل إلى أن الإنسان الأول خلقه الله سبحانه وتعالى . ولو أعدت العلم إلى أصله . وكل علم يحتاج إلى معلم . نقول لك . من الذي علم المعلم الأول . أليس من البديهي أن العلم بدأ بمعلم علمه الله سبحانه وتعالى . وكان هذا هو المعلم الأول . . . إذن فالذي علم الأسماء لآدم هو الله سبحانه وتعالى . وهو علمها لأولاده . وأولاده علموها لأولادهم وهكذا . . .

يأتي السؤال الثاني : إذا كان الله هو المعلم للكلام . فلماذا اختلفت اللغات على الأرض وأصبح هناك ألوان من اللغات والألسنة ؟

نقول أن تنوع فترات التاريخ وانتشار الإنسان على الأرض جعل كل مجموعة من البشر تقترب من بعضها لتكون لها لغة واحدة . وكل لغة موجودة مأخوذة من لغة قديمة . فالفرنسية والانجليزية والابطالية . مأخوذة من اللاتينية . والعبرية . السريالية لها علاقة باللغة العربية . واللهجات التي يتكلم بها العالم العربي صاحب اللغة الواحدة ، تختلف . . . حتى أن لهجة الجزائر أو المغرب مثلا . تجدها مختلفة عن اللهجة المصرية أو السودانية . ولكننا إذا تكلمنا باللغة العربية فهم بعضنا بعضا ، ولغة هؤلاء جميعا في الأصل هي لغة القرآن . وهي العربية . ولكن في فترات الزمن التاريخي الذي مر على العرب انعزلت البلاد العربية بعضها عن بعض ومضى كل مجتمع يأخذ اللغة كمظهر اجتماعي . فيسقط التفاهم بين اللهجات المختلفة .

وهكذا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم « أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » ؟ أي أن الله سبحانه وتعالى كرم آدم في العلم . وأعطاه علما لم يعطه للملائكة . ثم جعل آدم هو الذي يعلمهم أسماء مسميات لم يعرفوها . وهذا دليل على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . يفعل

ما يشاء في كونه . وكما قلنا ان تميز الأدنى عن الأعلى . لا يتم الا بفعل الله وحده .

ولكى نقرب هذا الى العقول : هب ان انسانا ضعيفا يريد ان يحمل حملا ثقيلًا . . لا يقدر . واذا كان هناك انسان قوى يعينه فانه لا يستطيع ان يعطيه من قوته ليحمل هذا الحمل . ولكن يعينه بأن يحمل عنه . أما الذي يستطيع ان يجعل هذا الضعيف قويا بمكنه أن يحمل هذا الحمل الثقيل فهو الله سبحانه وتعالى . . فالانسان لا يستطيع ان يعطى انسانا آخر من قوته . ولكن الله وحده هو القادر على أن يجعل الضعيف قويا والقوى ضعيفا .

وقوله تعالى : « ان كنتم صادقين » وهل يكذب الملائكة ؟ ان الملائكة خلق من نور يسبحون الله . ويفعلون ما يؤمرون . . نقول ان قوله تعالى « ان كنتم صادقين » فيما قسم عليه الأحداث . أو فيما قلتموه ضربا بالغيث .

ولو أن الملائكة قاسوا حكمهم على حكم جنس آخر كان في الأرض كالجن مثلا الذين خلقوا قبل الانسان . . يقول الحق تعالى انكم أخطأتم في قياسكم هذا . أو ان كنتم صادقين فيما تنبأتم به من غيب ؛ فلا يعلم الغيب الا الله تعالى . فالقياسان جانبها التوفيق .

وليس هذا طعنا في الملائكة . ولكنه تصحيح لهم . وتعريف لنا بأن الملائكة لا يعلمون الغيب . ولذلك فهم حينما قاسوا أو حكموا على غيب .. جانبهم التوفيق . لأن الله وحده هو علام الغيوب . والذي دفع الملائكة الى أن يقولوا أو يظنوا هذا الكلام هو حبهم الشديد لله تعالى . . وكراهيتهم لإفساد في كونه .



﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

هذه الآية الكريمة . توضح لنا ان الله سبحانه وتعالى هو المعلم الاول في الكون . واذا كان لكل علم معلم . فإن المعلم الاول لا بد أن يكون هو الله سبحانه وتعالى . واذا كنا نشاهد في عصرنا ألوانا من العلوم . . فهذه العلوم من تفاعل العقل الذي وهبه الله تعالى للانسان . من المواد التي وضعها الله تعالى في الكون . بالمنطق والعلم الذي علمه الله للانسان .

ان كل الاختراعات والابتكارات أخذت وجودها من مقدمات كانت سابقة عليها . فالماء مثلا كان موجودا منذ الازل . والشمس كطاقة تبخر الماء لتصنع منه سحباً . فاذا استخدم الانسان الطاقة الحرارية في تبخير الماء واستخدام البخار كطاقة ، فهناك قفزة حضارية في العلوم اسمها عصر البخار ، وهو الذي كانت تسير به القطارات والآلات في المصانع . وغير ذلك .

إن هذا التقدم في العلم ، إنما هو نابع من وجود العلم والطاقة ، وزاد عليها القدرة العقلية للانسان الممنوحة له من الخالق ، التي جعلته يفكر في استخدام الطاقة الناتجة من البخار ، فاذا توصل الانسان لمراقبة شجرة ساقطة وهي تتدحرج الى الأرض لأن جذعها اسطوانى . فانه أخذ من نظام هذه الشجرة ما يصنع منه العجلة التي كانت تطورا هاما في تاريخ العلم . .

اذن فساق الشجرة الاسطوانية هو الذى أعطى للانسان فكرة العجلة ، فاذا طور الانسان استخدام البخار وصنع قطارا يسير بالبخار . فهذا التطوير هو ابن للعلم

السابق عن قدرة الطاقة الناتجة عن تبخير الماء . وكيفية صناعة العجلة . . فكل علم نابع من علم سابق . . يترابط مع امكانيات وهبها الله سبحانه وتعالى للانسان . ولذلك عندما جاء الاسلام ليعرض العلم التجريبي أو المادى . جاء ليلفتنا الى آيات الخالق في الكون . وطلب منا أن نتأمل في هذه الآيات . . ونعمل فيها العقل والادراك . واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١٠٥)

(سورة يوسف)

وهكذا يلفتنا الله جل جلاله الى آياته التي في السموات والارض لنعمل فيها العقل والادراك ، لتستنبط منها ما يعطينا الحضارة . . ان القرآن يطالبنا بأن نواصل العلم الذى علمه الله لآدم . واذا كان تاريخ العلوم يعمل لنا أخبارا عن قوم لم يكونوا مؤمنين ومع هذا سبقونا في العلم والاستنباط ، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأمل آيات الله تعالى في الأرض . فنيؤمن - الذى لاحظ قوة جاذبية الأرض - كان يراقب تفاحة تسقط من أعلى الشجرة وتصطدم بالأرض . فتوصل الى قانون الجاذبية .

واذا أردنا أن نأخذ لمحة من علم الله الذى علمه لنا . فيكفى أن ننظر الى النواة . ففي هذه النواة الصغيرة نخلة كاملة . متى وضعت النواة في الأرض . نمت النخلة . وأصبح لها وجود .

ولكى نوضح هذا كله نقول إن كل علم مبنى على نظريات . النظرية الاولى تؤدي الى الثانية . والثانية تؤدي الى الثالثة . وهكذا . . ولكن بداية كل هذه العلوم لم تبدأ بنظرية ، ولكنها بدأت بما يسمونه البديهيات . أى الأشياء التي لا تحتاج الى دليل . إنها الأشياء التي خلقها الله في الكون . وعلى هذه البديهيات بنيت النظريات الواحدة بعد الأخرى . حتى اذا أردت أن تعيدها الى أصلها ، فإنك تصل في نهاية الأمر الى أن العلم الاول من الله سبحانه وتعالى ، فالمعلم الاول علمه الله . والثمرة الاولى خلقها الله . وكل اكتشافات الانسان منذ بداية الحياة وحتى قيام الساعة موجودة بالقوة . مثل النواة التي فيها النخلة . تنتظر التأمل والعمل . لتصبح اكتشافا بالفعل . والله سبحانه وتعالى وهو المعلم الاول . وضع في كونه من العلم الكثير .

ومحضرني قول الشاعر احمد شوقي حين قال :

سبحانك اللهم خير معلم	علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا	وابن البتول فعلم الانجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا	فسقى الحديث وناول التنزيلا

وكان شوق يصوغ في ابياته أن كل علم هو منسوب الى الله وحده . . وهكذا يتضح لنا . أن قول الملائكة : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » يتضمن الاعتراف بأن العلم كله مرجعه الى الله . فالله سبحانه وتعالى هو مصدر العلم والحكمة . وقوله سبحانه وتعالى : « العليم الحكيم » العليم أى الذى يعلم كل شئ خافيا كان أو ظاهرا . والعلم كله منه . وأما الحكمة فتطلق في الأصل على قطعة الحديد التى توضع في فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أن يتحكم فيه . ذلك أن الحصان حيوان مدلل شارد . يحتاج الى ترويض . وقطعة الحديد التى توضع في فمه تجعله أكثر طاعة لصاحبه . وكان اطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جل جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى . ودون دراية .

والحكمة أن يوضع هدف لكل حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، ويصير الكون محكوما بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والحكيم العليم . هو الذى يضع لكل كائن إطاره وحدوده . والحكمة هى أن يؤدى كل شئ ما هو مطلوب منه ببراعة . والحكمة في الفقه هى أن تستنبط الحكم السليم . والحكمة في الشعر أن تزن الكلمات على المقاعيل . والحكمة في الطب أن تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه . والحكمة في الهندسة أن تصمم المستشفى طبقا لإحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك . أو في تصميم المنزل للمنزل المريح . وحكمة بناء منزل مثلا تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل .

والكون كله مخلوق من قبل حكيم عليم . وضع الخالق سبحانه وتعالى فيه كل شئ في موضعه ليؤدى مهمته . ووصف الله تعالى بأنه حكيم يتطلب أن يكون عليا . لأن علمه هو الذى يجعله يصنع كل شئ بحكمة . وقد أعطى الله سبحانه

وتعالى لكل خلقه من العلم على قدر حاجته ، فليس من طبيعة الملائكة أن يعرفوا ماذا سيفعل ذلك الانسان الذي سيخلق الله في الارض . ولكنهم موجودون لمهمة أخرى . . . وميز الله الانسان بالعقل ليستكشف من آيات الله في الكون على قدر حاجة حياته . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَبِّحْ أَمْرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ ﴾

(سورة الاعلى)

إذن فكل شيء خلق بقدر . وكل مخلوق ميسر لما هداه الله له . .



﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ٣٣

فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على ملاحظة الملائكة بالنسبة لخلق آدم وخلافته في الأرض ، وأن الله سبحانه وتعالى في حكمته ما يخفى عليهم . ولذلك فهم لم يدركوا هذه الحكمة . وقبل أن يخلق الله آدم ويجعله خليفة في الأرض . . كان على علم بكل ما سيحدث من آدم وذريته حتى قيام الساعة . وبعد قيام الساعة ، أما الملائكة . فهم لم يكونوا على علم بذلك . لأن هذا ليس عملهم . وكما قلنا : كل ميسر لما خلق له . ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى للملائكة الصورة بأنكم قد حكمتهم على آدم إما من تجربة لجنس آخر عاش في الأرض ، وإما من ضرب بالغيب . والمقاييسان غير صحيحين . ولذلك ميز الله سبحانه في هذه اللحظة آدم على الملائكة فعلمه أسماء المسميات كلها ، ثم طلب من الملائكة أن يخبروه بهذه الأسماء . ولكنهم قالوا : ان العلم من الله وحده . وبما أن الله تعالى لم يعلمهم الأسماء فإنهم لا يعرفونها . فطلب الله من آدم أن يخبرهم بأسماء هذه المسميات فأخبرهم بها . ولكنه لم يخبرهم بها بذاته ولا من قانونه . ولا يعلم علمه وحده . ولكنه أخبرهم بتعليم الله سبحانه وتعالى له . وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ تَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّسَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

إذن فعلم آدم للأسماء كان بمشيئة الله سبحانه وتعالى . وهذه المشيئة وحدها هي التي جعلت آدم في ذلك الوقت يعلم ما لا تعلمه الملائكة . . وهنا رد الحق سبحانه وتعالى على قول الملائكة بأن آدم سيفسد في الأرض . فذكرهم الله تعالى بقوله :

« ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض » أي ان الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم الغيب . والغيب هنا هو الغيب المطلق . فهناك غيب نسبي . قد تسرق حافظة نقودي مثلاً وأنا لا أعلم من الذي سرقها فهو غيب عني . ولكنه معلوم للذي سرق ، وللذي سهل له طريقة السرقة بأن حرس له الطريق حتى يسرق دون أن يفاجئه أحد . وقد يكون قد صدر قرار هام بالنسبة لي كترقية أو فصل أو حكم . لم يصلني . فانا لا أعلمه . ولكن الذي وقع القرار أو الحكم يعلمه .

هذا الغيب النسبي . لا يعتبر غيباً . ولكن الغيب المطلق هو الذي ليس له مقدمات تنبئ عما سيحدث .. هذا الغيب الذي يفاجئك . ويفاجيء كل من حولك بلا مقدمات .. هذا الغيب لا يعلمه الا الله وحده . وقوله تعالى : « وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .. تعطينا هنا وقفة . هل الملائكة قالوا لله سبحانه وتعالى : « انجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » هل قالها الملائكة فعلاً وجهرًا ، أم أنهم قالوها في أنفسهم ولم ينطقوا بها .. قوله تعالى « وما كنتم تكتمون » تعطينا إشارة الى أن الملائكة ربما قالوا هذا سرا . ولم يبدوه ، وعلى أية حال . سواء قالوه جهرًا . أو قالوه سرا . فقد علمه الله . لأن الله جل جلاله .. بكل شيء محيط . ولا نريد لهذه النقطة ان تثير جدلاً .. لماذا ؟ لأنه في الحالتين .. سواء في الجهر أو في الكتمان .. فإن الموقف يتساوى عند علم الله سبحانه وتعالى .. فلا داعي للجدل لأنه لاخلاف .



﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾﴾

أصدر الله تعالى أمره للملائكة ليسجدوا لآدم . وهذه القضية أخذت جدلا طويلا . قال بعض الناس : كيف يسجد الملائكة لغير الله ؟ والسجود لله وحده . وقال آخرون : هل معنى سجود الملائكة لآدم أنهم عبدوه ؟ وقالت فئة أخرى : السجود لغير الله لا يجوز تحت أى ظرف من الظروف . نقول هؤلاء : انكم لم تدركوا المعنى ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن ميز آدم على الملائكة بعلم الأسماء . . طلب منهم أن يسجدوا لآدم ، وهنا لابد أن نعرف أن السجود لآدم . . هو إطاعة لأمر الله . . وليست عبادة لآدم . فالله سبحانه وتعالى هو الذى أمر الملائكة بالسجود . ولم يأمرهم بذلك آدم . ولا يحق له أن يأمرهم . فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه وتعالى ، من أطاعة كان عابدا . ومن لم يطعه كان عاصيا . ومن رد الأمر على الأمر كان كافرا .

ولكى نفهم معنى العبادة نقول : ان العبادة هي طاعة أوامر الله . واجتناب نواهيه . فما قال لى الله : افعل . فإني أفعل . وما قال : لا تفعل . فلأني لا أفعل . . لأن العبادة هي طاعة مخلوق لخالقه في أوامره ونواهيه . ولذلك عندما نذهب الى الحج فإننا نقبل الحجر الأسود في الكعبة ، ونرجم الحجر الذى يمثل إبليس فى منى . نقبل حجرا ونرجم حجرا . . هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه . كما أمرنا بفعل . لا شئ مقدس عندنا . الا أمر الله ومنهجه . الملائكة هنا لم يسجدوا لآدم . ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . وفرق كبير بين السجود لشئ ، وبين السجود لأمر الله . السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . لا يعتبر خروجاً على المنهج ، لأن الأساس هو طاعة الله . وهل سجد كل الملائكة لآدم ؟ لا . وإنما

سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه ، وتلك المهمة قد اوضحها الله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كُنُوزٍ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله سبحانه :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾

(سورة ق)

وقوله سبحانه :

﴿ قَالُمُدِيرَتِ أُمْرًا ۝١٩ ﴾

(سورة النازعات)

اذن هناك من الملائكة من سيسجل على الانسان اعماله . وكل قول يقوله وكل فعل يفعله . بل ويكتبون هذه الافعال . ومنهم من يحفظه من الشياطين ، ومنهم من ينفذ أقدار الله في الأرض . هؤلاء جميعا لهم مهمة مع الانسان . ولكن الأمر بالسجود لم يشمل اولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الانسان . ولذلك عندما رفض ابليس السجود . قال له الله تعالى :

﴿ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْكَرْتَهُ أَمْ كُنْتَ مِنْ

الْعَالِينَ ۝٧٥ ﴾

(سورة ص)

قوله تعالى . . كنت من العالين - أى أنك كنت من الملائكة العالين . . الذين لم يشملهم أمر السجود . إذن فأمر السجود لأدم . . كأمر الله لنا بالسجود الى القبلة في الصلاة . فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها . . ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود الى القبلة . . سجد الملائكة الذين يشملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . ولكن ابليس رفض أن يسجد . وعصى أمر الله .

بعض الناس يقولون : أن ابليس لم يكن من الذين أمرهم الله تعالى بالسجود . لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم . . وإبليس ليس ملكاً . ولكنه من الجن . كما يروى لنا القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ونقول : ان كون إبليس من الجن هو الذى جعله يعصى أمر الله بالسجود . فلو أن ابليس كان من الملائكة - وهم مقهورون على الطاعة - كان لابد أن يطيع أمر الله ويسجد . ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا فذلك الذى مكّنه أن يعصى أمر السجود . ولذلك فإن الذين يأخذون من الآية الكريمة ان إبليس كان من الجن - بأنه لم يشمله أمر السجود . نقول لهم : ان الحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أى باب الى المعصية دخل . . ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للانس والجن في الحياة الدنيا وحدها ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مقهوراً على الطاعة ما كان يستطيع أن يعصى . ولكن معصيته جاءت من أنه خلق مختاراً . . والاختيار هو الباب الذى دخل منه الى المعصية . هذه حقيقة يجب أن نفهمها . ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله ان امر السجود لم يشمل ابليس لكونه من الجن لقوله سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ مَمنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾

(من الآية ١٢ سورة الاعراف)

وكان كفر إبليس وخلوده في النار أنه رد الأمر على الأمر . وقال :

﴿ اَتَجِدُّ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة . مبررا أكبر للسجود .
فما دام قد صدر الأمر الى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى .

وقد كان إبليس كما جاء في الأثر يسمى طاووس الملائكة . . وكان يزهو بخيلاء
بينهم . . وهذه الخيلاء أو الكبر هو الذي جعله يقع في المعصية ، ولأن إبليس خلق
مختارا . فقد كان مزهوا باختياره لطاعة الله . . قبل أن يقوده غروره الى الكفر
والمعصية . ولذلك لم يكذب بصدور الأمر من الله بالسجود لآدم . حتى امتنع إبليس
تكبرا منه . . ولم يجاهد نفسه على طاعة الله . . فمعصية إبليس هي معصية في
القمة . لأنه رد الأمر على الأمر وظن أنه خير من آدم . . ولم يلتزم بطاعة الله ،
ومضى غروره يقوده من معصية الى أخرى . فطرده الله من رحمته وجعله رجيا . ولما
عرف إبليس أنه طرد من رحمة الله طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقية الى يوم
الدين ، وأقسم إبليس بعزة الله أن يغري بني آدم . . حدد الأماكن التي يأتي منها
الاغواء . فقال :

﴿ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

نلاحظ هنا أن الجهات بالنسبة للانسان ستة . اليمين والشمال . والامام والخلف
وأعلى وأسفل ، ولكن إبليس لم يذكر الا أربعة فقط . أما الجهتان الأخيرتان وهما
الأعلى والأسفل . فلا يستطيع إبليس أن يقترب منهما . أما الأسفل فهو مكان
السجود والخضوع لله . وأما الأعلى فهو مكان صعود الصلاة والدعاء . وهذان
المكانان لا يستطيع إبليس أن يقترب منهما .

وهكذا نرى أن إبليس لم يمتنع عن السجود فقط . وإنما رد الأمر على الأمر .
وهذا أول الكفر . ثم بعد ذلك مضى في غيه فتوعد آدم وذريته بأن يضلهم عن
سبيل الله

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥)

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة أن تسجد له وحدث كفر ابليس ومعصيته أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض . ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله الله في تجربة عملية عن المنهج الذي سيتبعه الانسان في الأرض ، وعن الفواية التي سيتعرض لها من ابليس . قاله سبحانه وتعالى رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته في الوجود على أساس نظري ، لأن هناك فرقا بين الكلام النظري والتجربة .

قد يقال لك شيء وتوافق عليه من الناحية النظرية ولكن عندما يأتي الفعل فانك لا تفعل شيئا . إذن فالفترة التي عاش فيها آدم في الجنة كانت تطبيقا عمليا لمنهج العبودية ، حتى اذا ما خرج الى مهمته لم يخرج بمبدأ نظري ، بل خرج بمنهج عملي تعرض فيه لا فعل ولا تفعل . والحلال والحرام ، واغواء الشيطان والمعصية . ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود الى الله . ويعرف بنو آدم أن الله لا يخلق بابا في وجه العاصي ، وانما يفتح له باب التوبة . والله سبحانه وتعالى أسكن آدم الجنة . وبعض الناس يقول : أنها جنة الخلد التي سيدخل فيها المؤمنون في الآخرة . وبعضهم قال : لولا أن آدم عصى لكنا نعيش في الجنة . نقول لهم لا . . . جنة الآخرة هي للآخرة ولا يعيش فيها انسان فترة من الوقت ثم بعد ذلك يطرد منها بل هي كما أخبرنا الله تعالى جنة الخلد . . كل من دخلها عاش في نعيم أبدي .

إذن فما هي الجنة التي عاش فيها آدم وحواء ؟ هذه الجنة هي جنة التجربة أو المكان الذي تمت فيه تجربة تطبيق المنهج . ونحن اذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد اطلق لفظ الجنة على جنات الأرض . والجنة تأتي من لفظ

«جن» وهو الستر، ذلك أن فيها أشجارا كثيفة تستر من يعيش فيها فلا يراه أحد. وفيها ثمرات تعطيه استمرار الحياة فلا يحتاج إلى أن يخرج منها. ونجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَتَقَسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ١٧
وَلَا يَسْتَنْوُونَ ١٨ ﴾

(سورة القلم)

وهذه قصة الاخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنات الأرض فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها. وهناك في سورة الكهف قصة صاحب الجنتين : في قوله تعالى :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ٣٢ ﴾

(سورة الكهف)

وهي قصة ذلك الرجل الذي أعطاه الله جنتين .. فبدلاً من أن يشكر الله تعالى على نعمه .. كفر وأنكر البعث والحساب . وفي سورة سبأ اقرأ قوله تعالى عن أهل سبأ الذين هداهم الله وبين لهم الطريق المستقيم ولكنهم فضلوا الكفر. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَمِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ١٦ ذَلِكَ
بِعَزَّتِهِمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ١٧ ﴾

(سورة سبأ)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قد أطلق لفظ الجنة على جنات الدنيا ، ولم يقصره على جنة الآخرة .

إذن فآدم حين قال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

فهى ليست جنة الخلد وإنما هى جنة سيارس فيها تجربة تطبيق المنهج . ولذلك لا يقال : كيف دخل ابليس الجنة بعد أن عصي وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد ولا بد أن تنبه الى ذلك جيداً حتى لا يقال ان معصية آدم هى التى أخرجت البشر من الجنة . لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فآدم مخلوق للخلافة فى الأرض ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد فى الآخرة ، ومن دخل جنة الخلد عاش فى النعيم خالداً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وكلا منها رغدا حيث شئتما » فإله سبحانه وتعالى أمد الجنة التى سكنها آدم وحواء بكل ما يضمن استمرار حياتهما ، تماماً كما خلق كل النعم التى تضمن استمرار حياة آدم وذريته فى الأرض قبل أن تبدأ الحياة البشرية على الأرض . فإله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية فهو الذى خلق . وهو الذى أوجد من عدم ، ولذلك فقد ضمن لخلقه ما يعطيهم استمرار الحياة على الأرض من ماء وهواء وطعام ونعم لا تعد ولا تحصى فكان الله تعالى قد أمد الجنة التى سكن فيها آدم وزوجته بكل عوامل استمرار حياتهما قبل أن يسكنها . كما أمد الأرض بكل وسائل استمرار حياة الانسان قبل أن ينزل آدم اليها . إذن فقولته تعالى : « وبأدم اسكن أنت وزوجك الجنة »

هذه فترة التدريب على تطبيق المنهج . والسكن هو المكان الذى يرتاح فيه الانسان ويرجع اليه دائماً . فأنت قد تسافر فترات ، وكل الدول التى تمر بها خلال

سفرك لا تعتبر سكنا الى أن تعود الى بيتك ، فهذا هو السكن والرجل يكد ويتعب في الحياة وأينما ذهب فإنه يعود مرة أخرى الى المكان الذي يسكنه ليستريح فيه

وقوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » هو استكمال للمنهج . فهناك أمر ونهي افعل ولا تفعل : « اسكن أنت وزوجك الجنة » أمر : « وكلا منها رغدا » أمر ، « ولا تقربا هذه الشجرة » نهى وهذا أول منهج يعلم الانسان الطاعة لله سبحانه وتعالى والامتناع عما نهى عنه ، وكل رسائل السماء ومنهج الله في الأرض أمر ونهى.. افعل كذا ولا تفعل كذا .

وهكذا فان الحق سبحانه وتعالى ضمن لأدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن رغدا . أى مباحا وبلا تعب وعن سعة ويدون مشقة. كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير والمنوع قليل . فكل ما في الجنة من الطعام والشراب مباح لأدم ، ولا قيد إلا على شيء واحد.. شجرة واحدة من بين ألوف الأشجار التي كانت موجودة في الجنة .. شجرة واحدة فقط هي المنوعة .

وإذا نظرت الى منهج السماء الى الأرض تجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح فيه نعمًا لا تحصى ولا تعد وقيد فيه أقل القليل . . فالذي نهانا الله عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل القليل ، كما كان في جنة آدم شجرة واحدة والمباح بعد ذلك كثير. وإذا أخذنا ألفاظ العبارات نجد أن الله سبحانه وتعالى ساعة يقول : « قلنا يا آدم » أى بضمير (نا) ضمير الجمع ، لأن الله واحد أحد ، ولكنهم يسمونها : نون الكبرياء ونون العظمة .

اذن فكل حدث يأتى فيه الحق تبارك وتعالى بنون الكبرياء ونون التعظيم . لأن كل فعل من الأفعال يحتاج الى صفات متعددة حتى يتم . فأنت اذا أردت أن تفعل شيئا فانه يقتضى منك قوة ويقتضى منك علما ويقتضى منك قدرة ويقتضى منك حكمة . . اذن فهناك صفات كثيرة موجودة يقتضيها الفعل .

ولكن حين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن شهادة التوحيد يقول « إني أنا الله » ولا يقول : إنما نحن الله . . لأنه جل جلاله . يريد توحيدًا . ففى موقع التوحيد

يأتى بضمير الافراد واحد أحد .. أما فى صدر الاحداث . فأتى بضمير الكبرياء
والعظمة . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالْأَمَّةَ بَنَيْتُهَا بِيَدِي وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (١٧)

(سورة الذاريات)

وعندما اراد الحق تبارك وتعالى أن يمدح ابراهيم قال : « ان ابراهيم كان أمة »
ما معنى أمة ؟ أى جامعاً لصفات الخير التى لا تجتمع فى فرد ولكنها تجتمع فى أمة .
فالأمة تجتمع فيها صفات الخير .. هذا متميز بالصدق ، وذلك بالشجاعة . وهذا
بالحلم . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول ان ابراهيم كان أمة أى أنه كان جامعاً
لصفات الخير .

وفى قوله « قلنا يا آدم اسكن على المسمى الذى هو أول خلق الله من
البشر « واسكن » تحتاج الى عنصرين : الهدوء والاطمئنان .. هذا هو معنى
اسكن . توفير الهدوء والاطمئنان ، ومنه أخذ اسم السكن . وكلمة المسكن وأطلق
على الزوجة .. واذا فقد المكان الذى تسكن فيه عنصراً من هذين العنصرين وهما
الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن . والزوجة سميت سكناً كما جاء فى قوله
تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
وَرَحْمَةً ﴾

(من الآية ٢١ سورة الروم)

لأن الهدوء والرحمة والبركة تتوافر فى الزوجة الصالحة . والحق سبحانه وتعالى
يقول :

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

أي راحة واطمئنانا وراحة . فالإنسان يريد في بيته أن تكون الحياة فيه مريحة له من عناء العمل وصخب الحياة . ويقول الحق سبحانه وتعالى : « اسكن أنت وزوجك » وكان من الممكن أن يقول اسكن وزوجك لأن الفاعل في فعل الأمر دائما مستتر . ولكنه سبحانه قال : اسكن أنت وزوجك . . . وإياك أن تظن أن أنت هو فاعل الفعل اسكن . ولكنه ضمير جاء ليفصل بين اسكن وبين زوجك حتى لا يعطف الاسم على الفعل .

أنا لا بد أن نلاحظ أن كلمة زوج تطلق على الفرد ومعه مثله . ولذلك لم يأت بثناء التأنيث . . . اسكن أنت وزوجتك . لأن الأمر التكليفي من الله . سواء فيه الذكر والانثى . وقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة غافر)

إذن فيها متساويان في هذه الناحية . هذه الجنة ماذا وفر الله سبحانه وتعالى لأدم وزوجه فيها ؟ اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۖ ﴾

(سورة طه)

هذه عناصر الحياة التي وفرها الله لأدم وزوجه في جنة التجربة الإيمانية العملية على التكليف . وهكذا نرى من الأوصاف التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا لهذه الجنة أنها ليست جنة الآخرة . لأنه أولا فيها تكليف . في قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » وجنة الآخرة لا تكليف فيها ، والحق تبارك وتعالى أباح لأدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة . والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة . ولذلك قال : « حيث شئنا »

وأنت لا تستطيع أن تقدم لإنسان صنفا أو صنفين وتقول له كل ما شئت . لأنه لا يوجد أمامه إلا مجال ضيق للاختيار ، كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تميل . ولذلك لا بد أن يكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

ثم جاء النهي . في قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » أى لا تقربا من مكانها . ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى ولا تأكلا من هذه الشجرة ؟ . لأن الله جل جلاله رحمة بآدم وزوجه كان لا يريد هما أن يقعوا في غواية المعصية . فلو أنه قال : ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحا لهما أن يقتريا منها فتجذبيها بجمال منظرها ويقتريا من ثمارها فتفتنها برائحتها العذبة ولونها الجذاب . حينئذ يحدث الاغواء . وتمتد أيديهما تحت هذا الاغراء الى الشجرة ليأكلا منها .

ولكن الله تعالى يعلم أن النفس البشرية اذا حرم عليها شيء ولم تحم حوله كان ذلك ادعى ألا تفعله . فإله تعالى حين حرم الخمر لم يقل حرمت عليكم الخمر والا كنا جلوسا في مجالس الخمر ومع الذين يشربونها . أو نتاجر فيها وهذا كله اغراء بشرب الخمر . . ولكنه قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هذا النص الكريم قد جعلنا نبتعد عن الاماكن التي فيها الخمر . فلا نجلس مع من يشربونها ، ولا نتاجر فيها حتى لا تقع في المعصية . فاذا رأيت مكانا فيه خمر فابتعد عنه في الحال . حتى لا يغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله . والحق جل جلاله يقول في المحرمات : « لا تقربوا ، واجتنبوا . . أى لا تجوموا حولها . لأنها اذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(إِنْ الْحَلَالَ بَيْنَ وَالحَرَامِ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُّشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى يوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ . أَلَا وَإِنْ لِكُلِّ مَلَكٍ حِمًى مِّمَّا حَرَّمَ اللَّهُ) (١)

(١) (رواه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير) .

ولقد كان بعض الناس يقبلون على شرب الخمر ويقولون انه لم يرد فيها تحريم صريح .. فلم تأت مسبوقة بكلمة حرمت .. نقول ان كلمة اجتنبوا . أشد من التحريم . فقله تعالى : « اجتنبوا الرجس من الأوثان » معناه ألا تنظر حتى الى الصنم . واجتناب الخمر ألا تقع عينك عليها ..

وقد اختلف الناس في نوع هذه الشجرة . وهل هي شجرة تفاح أو تين أو عنب أو غير ذلك . ونحن نقول : ليس هذا هو المقصود . ولكن المقصود هو التحريم . لأن منهج الله سبحانه وتعالى يحلل أشياء . ويحرم أشياء .

وقوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » الظلم هو الجور والتعدي على حقوق الغير . والظالم هو من أخذ فوق ما يستحقه بغير حق . والظلم يقتضى ظلماً ومظلوماً . وموضوعاً للظلم . فكل حق - سواء كان مادياً أو معنوياً - يعتدى عليه انسان بدون حق فقد حل ظلماً . حتى الانسان انه أحياناً يظلم نفسه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

كيف يظلم الانسان نفسه ؟ قد يظلم الانسان غيره . ولكنه لا يظلم نفسه أبداً لانه يريد أن يعطيها كل ما تشتهي . وهذا هو عين الظلم للنفس . لانه أعطاه شهوة عاجلة في الدنيا . ربما استمرت ساعات . وحرمتها من نعيم أبدي في الآخرة . فكأنه ظلمها بأن أعطاه عذاباً أليماً في الآخرة مقابل متعة زائلة لا تدوم .. وهناك من يبيع دينه بدنياه . ولكن أظلم الناس لنفسه من يبيع دينه . بدنيا غيره . يشهد زوراً . ليرضى رئيساً . أو يتقرب لمستول . أو يرتكب جريمة .. اذن قوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله .



﴿ فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٣٦)

بعد أن أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه في الجنة . وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام . بدأ الشيطان مهمته . مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته . والحق سبحانه يقول : « فازلهما الشيطان » أي أن الشيطان باشر مهمته . فأوقعهما في الزلة . وهي العثرة أو الكبوة . كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبع الشيطان . وأبلغه أنه عدولهما . في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (١١٧)

(سورة طه)

اذن فالعداوة معلنة ومسبقة . ولنفرض أنها غير معلنة . ألم يشهد آدم الموقف الذي عصي فيه ابليس أمر الله ولم يسجد لآدم ؟ ألم يعرف مدى تكبر ابليس عليه . في قوله « أنا خير منه » وقوله « أسجد لمن خلقت طينا » كل هذا كان ينبغي أن ينبه آدم الى أن ابليس لن يأتي له بخير أبدا . .

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التي نشأت عن موقف ابليس في رفضه السجود . بل أخبر آدم أن الشيطان عدوله ولزوجه . . يقول الحق سبحانه وتعالى : « فازلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » من ماذا أخرجهما ؟ من العيش الرغيد . واسع النعمة في الجنة . ومن الهدوء والاطمئنان في أن رزقهما يأتيهما بلا تعب . ولذلك سيأتى الحق في آية أخرى ويقول : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »

وهنا لابد أن نتساءل : لماذا لم يقل فتشقا ؟

ان هذه لفظة من الحق سبحانه وتعالى .. الى مهمة المرأة ومهمة الرجل في الحياة .
فمهمة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود الى بيته . تذهب تعب وشقاءه . أما
مهمة الرجل فهي العمل حتى يوفر الطعام والمسكن لزوجته وأولاده . والعمل تعب
وحركة .

وهكذا لفتنا الحق تبارك وتعالى إلى أن مهمة الرجل أن يكسح ويشقى . ثم يأتي
إلى أهله فتكون السكينة والراحة والاطمئنان .

إذا كانت هذه هي الحقيقة . فلماذا يأتي العالم ليغير هذا النظام ؟

نقول ان العالم هو الذي يتعب نفسه . ويتعب الدنيا . فعمل المرأة شقاء لها .
فمهمتها هي البيت . وليس عندها وقت لأي شيء آخر . فإذا عملت فذلك على
حساب أولادها وبيتها وزوجها . . ومن هنا ينشأ الشقاء في المجتمع . فيضيع
الأولاد . ويهرب الزوج الى مكان فيه امرأة تعطيه السكن الذي يحتاج إليه . وينتهي
المجتمع الى فوضى . .

وكان يجب على آدم أن يتنبه الى أن إبليس يعتبره السبب في طرده من رحمة الله .
فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاما ويحتاط . . كيف أزل الشيطان آدم وزوجه ؟ لقد
شرح الله سبحانه وتعالى لنا هذا ولكن ليس في سورة البقرة وإنما في آية أخرى . .
فقال تعالى :

﴿ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدَيْهِمَا مَاؤُورِي عَنَّهُمَا مِنْ سَوَاءٍ تِهْمًا وَقَالَ مَانِهَكُمَا رَبُّكُمَا
عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

اذن فابليس قال كاذبا أن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكا . ويصبح خالدا
لا يموت . . ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية ، والشيطان لا يهمه
أي معصية ارتكبت . وإنما يريدك عاصيا على أي وجه . ولكن النفس عندما توسوس

لك بالمعصية ، تريد شيئاً بذاته . وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان . ووسوسة النفس . فالشيطان يريدك عاصياً بأى ذنب . فان امتنعت فى ناحية أذاك من ناحية أخرى . فقد قال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح . فقال لها : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحاً .. لأكل إبليس من الشجرة .. ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى أن يمهله الى يوم الدين ..

ما الذى اسقط آدم فى المعصية ؟ انها الغفلة أو النسيان . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنُوسٍ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ۝١١٥﴾

(سورة طه)

وهل النسيان معصية . حتى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١١٦﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

نعم النسيان كان معصية فى الأمم السابقة . لذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » (١)

ونسى وعصى . تؤدى معنى واحداً ..

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ أَتَطُؤُونَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا وَلَكِنَّ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتْنًا إِنَّا جَمِينٌ ۝١١٧﴾

(سورة الاعراف)

(١) (رواه الطبرانى عن ثوبان) .

هذا الهبوط هو بداية نزول الانسان الى الأرض ليياشر مهمته في الدنيا . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » . فهي اذن حياة موقوته على قدر وقتها ، وعلى قدر حجمها ..

والذين يقولون بأنه لا بد من وجود بشر نسميه مخلّصا . ليفدى العالم بصلبه أو بغير ذلك من الخطيئة التي ارتكبها آدم . نقول له : انك لم تفهم عن الله شيئا ، لأن القصة هي هنا خطأ قد حدث وُصوب . و الفرق بين الخطأ والخطيئة . فالخطأ بصوب . ولكن الخطيئة يعاقب عليها .

وآدم أخطأ وصوب الله له . وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه . اذن لا توجد خطيئة بعد أن علمه الله التوبة وتاب الى الله . ثم ماذا فعل آدم . حتى نقول نخلص العالم من خطيئة آدم . انه أكل من الشجرة . وهل خطايا العالم كلها أكل ؟ من الذي أوجد القتل وسفك الدماء ، والزنا والاعتصاب والنميمة والغيبة ؟

لو أن كلامهم صحيح لكان لا بد ألا توجد خطيئة على الأرض مادام قد وجد المخلص الذي فدى العالم من الخطيئة . ولكن الخطيئة باقية . ومن الذي قال ان الخطيئة تورث . حتى يرث العالم كله خطيئة آدم ؟ ! . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ..

وقول الحق سبحانه وتعالى « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » العداوة هنا بين الشيطان والانسان . والعداوة أيضا بين شياطين الانس والمؤمنين ، هذه العداوة التي تؤدي بنا الى نشاط وتنبه . فالمستشرقون يعادون الاسلام . ولكن معاداتهم هذه تعطينا نشاطا لكي نبحث ونطلع حتى نرد عليهم . وجنود الشيطان من الانس يعادون المؤمنين . وعداوتهم هذه تعطينا مناعة ألا نخطئ ولا نغفل . فانت مادام لك عدو .. فحاول أن تتفوق عليه بكل السبل .

ولعل الحضارة الانسانية لا ترتقى بسرعة قدر ارتقاؤها وقت الحروب . ففيها يحاول كل خصم ان يتغلب على خصمه . وتجد كل القوى للتفوق علميا على الدول الأخرى . هذه الارتقاءات والاختراعات . قد تكون للتدمير والقتل . ولكن بعد أن تنتهي الحرب توجه الى ارتقاءات الانسان في الأرض . فتفتيت الذرة وصلوا اليه في

الحروب . والصواريخ التي وصل الانسان بها الى القمر كانت نتيجة حرب ،
والارتقاءات العلمية المختلفة التي تمت في أمريكا والاتحاد السوفيتي كان اساسها عدا
كل معسكر للآخر .

وقوله تعالى « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » . . الهبوط قد يكون من مكان أعلى الى
مكان أسفل . وقد يكون الهبوط معنوياً . بأن تقول هذا الانسان هبط في نظري منذ
فعل كذا . هو لم يهبط من مكان أعلى الى مكان أسفل .

ولكنه هبط في قيمته . والمسافات لا تعنى قرباً أو بعداً . فقد يكون انسان يجلس
الى جوارك وأنت بعيد عنه لا تحس به . وقد يكون هناك انسان بعيد عنك بمئات
الأميال ولكنه قريب الى قلبك أكثر من ذلك الجالس الى جوارك . وسواء كان الهبوط
مادياً أو معنوياً . فإنه حدث لياشر آدم مهمته على الأرض . . والعداوة بين الايمان
والكفر مستمرة .

وهكذا بعد معصية آدم . هبط هو وحواء من الجنة ليمارسا حياتهما على الأرض . .
وقوله تعالى « اهبطوا » معناه أن آدم وحواء وابليس هبطوا الى الأرض بعد أن تمت
التجربة الايمانية .

لقد بين الله تعالى لأدم عملياً ان ابليس عدو له . لا يريد له الخير . وأنه كاذب
في كل ما يعد به الانسان . وقد حدد الله الحياة الدنيا بأنها حياة موقوتة . قدراتها
محدودة . ومتاعها محدود . . في قوله تعالى :
« ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » .

أي لا أحد سيبقى في الأرض إلا بمقدار ما قدر الله له من عمر ثم يموت . وهذا
حذر الله آدم وذريته من أن يتخذوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل ، وأمدتها
قصير .



﴿ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٧)

نزل آدم وحواء الى الارض ليبارسا مهمتهما في الكون . وقبل أن يبدأ هذه المهمة . جعلها الله سبحانه وتعالى يمران بتجربة عملية بالنسبة لتطبيق المنهج وبالنسبة لاغواء الشيطان . وحذرهما بأن الشيطان عدو لهما . . كان لابد بعد أن وقعت المعصية أن يشرع الله تعالى التوبة رحمة بعباده . ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصي وحده ، ولكنه رحمة بالمجتمع كله . فالإنسان اذا عصي وعرف أنه .. لا توبة له وأنه محكوم عليه بالخلود في النار . يتهادى في اجرامه . لأنه مادام لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة . فانه يتهادى في المعصية . لأنه لا أمل في الغفران أو التوبة ..

من الذي سيعاني في هذه الحالة ؟ انه المجتمع الذي يعيش فيه ذلك العاصي . وسيكون المؤمنون أكثر الناس معاناة لأنهم أهل خير وتسامح . ولأن الله سبحانه وتعالى .. أمرهم بالعفو . والصفح . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٤)

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ يَنْكَرُ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أوصاني رب بتسع أوصيكم بها :

« أوصاني بالاخلاص في السر وفي العلانية . والقصد في الغنى والفقر وأن اعفو عمن ظلمني ، وأعطى من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكرا ونظمي ذكرا ، ونظري عبدا » (١)

فالتوبة لو لم تشرع لعانى المجتمع كله . وخاصة المؤمنين الذين أمروا أن يقابلوا العدوان بالصفح والظلم بالعفو . ولذلك كان تشريع التوبة من الله سبحانه وتعالى . رحمة بالناس كلهم .

والله جل جلاله شرع التوبة أولا . ثم بعد أن شرعها تاب العاصي . ثم بعد ذلك يقبل الله التوبة أو لا يقبلها تبعاً لمشيئته . واقرأ قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه . أتوجد خطيئة بعد توبة آدم وقبول الله سبحانه وتعالى هذه التوبة ؟ ان بعض الناس يقول ان آدم قد عصى وتاب الله عليه . وابليس قد عصى فجعله الله خالداً في النار . نقول : انكم لم تفهموا ماذا فعل آدم ؟ أكل من الشجرة المحرمة . وعندما علم أنه أخطأ وعصى . لم يصر على المعصية . ولم يرد الأمر على الأمر . ولكنه قال يارب أمرك ومنهك حق . ولكنني لم

(١) (رواه دزين) .

اعترف آدم بذنبه . واعترف بضغفه . واعترف بأن المنهج حق . وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى . ولكن ابليس رد الأمر على الأمر . قال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وقال « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » وقال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » وقال : « لاحتنكن ذريته الأ قليلا » فلإبليس هنا رد الأمر على الأمر . لم يعترف بذنبه . ويقول يارب غلبني ضعفي . وأنت الحق وقولك الحق . ولكنه رد الأمر على الله تعالى وعاند وقال سأفعل كذا وسأفعل كذا . وهذا كفر بالله .

إياك أن ترد الأمر على الله سبحانه وتعالى . فإذا كنت لا تصل . فلا تقل وما فائدة الصلاة . وإذا لم تكن تزكى . فلا تقل تشريع الزكاة ظلم للمقادرين . وإذا كنت لا تطبق شرع الله . فلا تقل إن هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث . فأنك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله . ولكن قل يارب إن فرض الصلاة حق . وفرض الزكاة حق . وتطبيق الشريعة حق . ولكنني لا أقدر على نفسي . فأرحم ضعفى يارب العالمين . إن فعلت ذلك . تكن عاصيا فقط .

إن الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس . أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه . ولكن إبليس رد الأمر على الأمر . فيكون آدم قد عصى ، وإبليس قد كفر والعياذ بالله . ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » هذه الكلمات التي تلقاها آدم . أراد العلماء أن يحصروها . ما هذه الكلمات ؟ هل هي قول آدم كما جاء في قوله تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿

(سورة الاحزاب)

هذه الآية الكريمة . دللتنا على أن ذنب آدم لم يكن من ذنوب الاستكبار . ولكن من ذنوب الغفلة . . بينما كان ذنب إبليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله . ولكن آدم عندما عصي حدث منه انكسار .

فقال : يارب امرك بالأقرب الشجرة حق . ولكني لم أقدر على نفسي . فأدم أقر بحق الله في التشريع . بينما إبليس اعترض على هذا الأمر وقال :
« أسجد لمن خلقت طينا »

الكلمات التي تلقاها آدم من الله سبحانه وتعالى قد تكون : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » وقد تكون : .. اللهم لا اله الا أنت سبحانك ربى وبحمدك . ان ظلمت نفسي ظلما كثيرا فاغفر لى يا خير الغافرين .. أو اقبل توبتى يا خير التوابين .. أو قال : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله .. المهم أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى لأدم بكلمات يتقرب بها اليه . سواء كانت هذه الآية الكريمة أو كلمات أخرى .

لو نظرنا الى تعليم الله آدم لكلمات ليتوب عليه . لوجدنا مبدأ مهما في حياة المجتمع . لأن الله سبحانه وتعالى كما قلنا .. لو لم يشرع التوبة ولو لم يبشرنا بأنه سيقبلها . لكان الذى يذنب ذنبا واحدا لا يرجع عن المعصية أبدا . وكان العالم كله سيعانى ..

والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ولم يخلقنا مقهورين . القهر يثبت صفة القدرة لله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نأق عن حب وليس عن قهر . ولذلك خلقنا مختارين . وجعل لنا طاقة تستطيع أن تعصى وأن تطيع . ومادام هناك اختيار .. فالإنسان يختار هذه أو تلك ..

إن الله لم يخلق بشرا يختارون الخير على طول الخط . وبشرا يختارون الشر فى كل وقت . فهناك من الخيرين من يقع فى الشر مرة ، وهناك من الشريرين من يعمل الخير مرة . فالعبد ليس مخلوقا أن يختار خيرا مطلقا . أو أن يختار شرا مطلقا .. ولذلك فأحيانا ننسى أو نسهو . أو نعصى . ومادام العبد معرضا للخطيئة . فالله سبحانه وتعالى شرع التوبة . حتى لا ييأس العبد من رحمة الله ، ويتوب ليرجع الى الله . وقد جاء فى الحكمة : « رب معصية أورثت ذلا وانكسارا . خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا » .

وهكذا عندما نزل آدم ليباشر مهمته في الحياة . لم يكن يحمل أى خطيئة على كتفيه .. فقد أخطأ وعلمه الله تعالى كلمات التوبة . فتاب فتقبل الله توبته ..

وقوله سبحانه وتعالى : « انه هو التواب الرحيم » .. كلمة تواب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد . لأنه سبحانه وتعالى حتى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبد من عباده كان توابا . والمبالغة في الصفة تأتي من ناحيتين . أولا أن الامر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الأشخاص . أو من شخص واحد . أو أن الامر يقع مرة واحدة ولكن من اشخاص كثيرين ..

فاذا قلت مثلا : فلان أكل ، قد يكون أكله لانه يأكل كمية كبيرة من الطعام . فيسمى أكله .. إنه لا يتجاوز طعامه في عدد مراته وجبات الطعام العادى للانسان . ولكنه يأكل كمية كبيرة . فنسميه اكله . فيأكل مثلا عشرة ارغفة في الافطار ومثلها في الغداء ومثلها في العشاء .

وقد يكون الانسان اكله اذا تكرر الفعل نفسه .. كأن يأكل كميات الطعام العادية ولكنه يأكل في اليوم خمس عشرة مرة مثلا .. فالله سبحانه وتعالى تواب لأن خلقه كثيرون . فلو أخطأ كل واحد منهم مرة . يكون عدد ذنوبهم التى سيتوب الله عليها كمية هائلة . فاذا وجد من يذنب عدة مرات في اليوم . فان الله تعالى . يكون توابا عنه ايضا اذا تاب واتجه اليه ..

اذن مرة تأتي المبالغة . في الحدث وان كان الذى يقوم به شخص واحد . ومرة تأتي المبالغة في الحدث لأن من يقوم به أفراد متعددون ..

إذن فآدم أذنب ذنبا واحدا . يقتضى أن يكون الله تائبا . ولكن ذرية آدم من بعده سيكونون خلقا كثيرا .. فتأتى المبالغة من ناحية العدد ..

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » سيدنا عمر جاءته امرأة تصيح وتصرخ لأن ابنها ضبط سارقا . وقالت لعمر ما سرق ابني الا هذه المرة . فقال لها عمر : الله ارحم بعبده من أن يأخذه من أول مرة . لابد أنه سرق من قبل ..

وانا اتحدى أن يوجد مجرم يضبط من أول مرة .

كلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاث ، فالله يستر عبده مرة ومرة .
ولكن إذا ازداد وتماذى فى المعصية . يوقفه الله عند حده . وهذا هو معنى تواب .

والحق سبحانه وتعالى . تواب برحمته .. لأن هناك من يعفو ويظل بمن عليك
بالعفو . حتى أن المعفوع عنه يقول : ليتك غافبتنى ولم تمن على بالعفو كل ساعة . لكن
الحق سبحانه وتعالى . تواب رحيم . يتوب على العبد . ويرحمه فيمحو عنه ذنوبه .



﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ
تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٢٨ ﴿٤١﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية : « قلنا اهبطوا منها جميعا » وفي سورة طه يقول جل جلاله « قال اهبطا منها جميعا » عندما خاطب الله سبحانه وتعالى بصورة الجمع . كان الخطاب لكل ذرية آدم المطمورة في ظهره . أمرا لهم جميعا بالهبوط . آدم وحواء والذرية . لأن كل واحد منا . الى أن تقوم الساعة فيه جزىء من آدم . ولذلك لا بد أن نلتفت الى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكَ ثُمَّ صَوَّرْنَاكَ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الاعراف)

نلاحظ هنا أن الخطاب بصيغة الجمع ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى . لقد خلقتك ثم صورتك ثم قلت للملائكة اسجدوا لآدم ، فكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه ساعة الخلق كان كل ذرية آدم مطمورين في ظهره . خلقهم جميعا ثم صورهم جميعا . ثم طلب من الملائكة السجود لآدم . فهل نحن كنا موجودين ؟ نعم كنا موجودين في آدم . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطوا » لنعرف أن هذا الخطاب موجه الى آدم وذريته جميعا الى يوم القيامة .

ومرة يقول « اهبطا منها جميعا » لأن هنا بداية تحمل المسؤولية بالنسبة لآدم . في هذه اللحظة وهي لحظة الهبوط في الأرض . سيبدأ منهج الله مهمته في الحياة . ومادام هناك منهج وتطبيق فردى . تكون المسؤولية فردية . ولا يأتى الجمع هنا .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطا منها جميعا » نلاحظ أن أمر الهبوط هنا

بالمثنى . ثم يقول تبارك وتعالى جميعا . . . جمع . . . نقول أنه ما دامت بداية التكليف .
فهناك طرفان سيواجه بعضهما البعض . الطرف الأول . هو آدم وزوجه . والطرف
الثاني هو ابليس . فهم ثلاثة ولكنهم في معركة الايمان . فريقان فقط . آدم وحواء
وذريتهما فريق . والشيطان فريق آخر . فكان الله تعالى يريد أن يلفتنا الى أن هذا
المهبط يتعلق بالمنهج وتطبيقه في الأرض . وفي المنهج آدم وحواء حريصان على
الطاعة . وابليس حريص على أن يقودهما الى المعصية .

وفي قوله تعالى : « فإما يأتينكم مني هدى » نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى بعد أن
مر آدم بالتجربة ووقع في المعصية ، علمه الله تعالى كلمات التوبة . ونصحه أنه اذا
غفل يتوب . والله سبحانه وتعالى . . . سيقبل توبته . . .

اذن فالحق سبحانه وتعالى يريد من آدم وحواء ان يسكنوا الأرض . ويبدأ مهمتهما
في الحياة . والله يدهما على الخير . مصداقا لقوله تعالى : « فإما يأتينكم مني
هدى » . . . وهدى لها معنيان . . . هي بمعنى الدلالة على الخير . أو الدلالة على
الطريق الموصلة للخير . وهناك هدى وهو الاعانة على الايمان والزيادة فيه . واقرأ قوله
تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

الهدى هنا في الآية الكريمة . . . بمعنى الدلالة على طريق الخير . ولذلك يقول الحق
تبارك وتعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ما هو الخوف وما هو الحزن ؟ الخوف أن تتوقع شرا مقبلا لا قدرة لك على دفعه
فتخاف منه . . . والحزن أن يفترق شيء تحبه وتتمناه .

والحق سبحانه وتعالى يقول في هذه الآية : من مشى في طريق الايمان الذى دلت
عليه . وأنزلته في منهجى . فلا خوف عليهم . أى أنه لا خير سيفوتهم فيحزنوا
عليه . لأن كل الخير في منهج الله . فالذى يتبع المنهج لا يخاف حدوث شيء أبدا .

وهذه نعطينا قضية مهمة في المجتمع . الذي لم يرتكب أية مخالفة .. هل يناله خوف ؟ أبدا .. ولكن من يرتكب مخالفة تجده دائما خائفا خشية أن ينكشف أمره .. ويفاجأ بشر لا قدرة له على دفعه .

إن الانسان المستقيم لا يعيش الخوف . لأن الخوف أمران . اما ذنب أنا سبب فيه . والساثر على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه . واما أمر لا دخل لي فيه . يجريه على خالقي . وهذا لا بد أن يكون لحكمة . قد أدركها . وقد لا أدركها ولكنني اتقبلها . فالذي يتبع هدى الله . لا يخاف ولا يحزن . لأنه لم يذنب . ولم يخرق قانونا . ولم يغش بشرا . أو يخفي جريمة . فلا يخاف شيئا ، ولو قابله حدث مفاجيء ، فقلبه مطمئن . والذين يتبعون الله . لا يخافون . ولا يخاف عليهم .. وقوله تعالى : « ولا هم يحزنون » لأن الذي يعيش طائعا لمنهج الله .. ليس هناك شيء يجعله يحزن . ذلك أن ارادته في هذه الحالة تخضع لارادة خالقه . فكل ما يحدث له من الله هو خير . حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك . ملكاته منسجمة وهو في سلام مع الكون ومع نفسه . والكون لا يسمع منه الا التسبيح والطاعة والصلاة . وكلها رحمة . فهو في سلام مع نفسه . وفي سلام مع ربه . وفي سلام مع المجتمع .

إن المجتمع دائما يسعد بالانسان المؤمن الذي لا يفسد في الأرض . بل يفعل كل خير . فالمؤمن نفحة جمال تشع في الكون . ونعمة حسن ورضا مع كل الناس . ومادام الانسان كذلك . فلن يفقد ما يسره أبدا . فإن اصابته أحداث .. أجراها الله عليه .. لا يقابلها الا بالشكر . وان كان لا يعرف حكمتها .. وإياك أن تعترض على الله في حكم .

ولذلك يقول : احمذك رب على كل قضائك وجميع قدرك . حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك ..

والانسان يفعل للأحداث . ولكن هناك فرق بين الانفعال للأحداث وحدها وبين الانفعال للأحداث مع حكمة مجريها . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الدقة حينما قال : (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون) (١)

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد وهذا لفظ البخاري

انظروا الى الايمان وهو يستقبل الاحداث . . العين تدمع . ولا يكون القلب قاسيا مثل الحجر ، لكن فيه حنان . والقلب يخشع لله . مقدرا حكمته وارادته . .

والله سبحانه وتعالى لا يريدنا أن نستقبل الاحداث بالحزن وحده . ولكن بالحزن مع الايمان . قاله لا يمنعك أن تحزن . ولكن عليك ألا تفصل الحدث عن مجريه وحكمته فيه . . ولذلك حين تذهب الى طبيب العظام . . فيكسر لك عظامك لكي يصلحها . هل يفعل لك خيرا او شرا ؟ طبعا يفعل لك خيرا . وان كان ذلك يؤلمك .



﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٣٩

الحق سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن آدم حين يهبط إلى الأرض سيتلقى من الله منهجا لحركة حياته . من اتبعه خرج من حياته الخوف والحزن . وأصبح آمنا في الدنيا والآخرة . أراد الله تعالى أن يعطينا الصورة المقابلة . فالحكم في الآية السابقة كان عن الذين اهتموا . والحكم في هذه الآية عن الذين كفروا . يقول الحق تبارك وتعالى . . . « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، والكفر كما بينا هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود . ومحاولة ستر هذا الوجود هو اعلان بأن الله تعالى موجود . فانت لا تحاول أن تستر شيئا الا اذا كان له وجود أولا . .

إن الشيء الذي لا وجود له لا يحتاج إلى ستر ، لأنه ليس موجودا في عقولنا . وعقولنا لاتفهم ولا تسمع إلا ما هو موجود . توجد الصورة الذهنية أولا . . ثم بعد ذلك يوجد الاسم أو الصورة الكلامية . ولذلك إذا حدثك إنسان عن شيء ليس له وجود فانت لاتفهمه . ولاتستطيع أن تعيه إلا إذا شبه لك بوجود . كأن يقال لك : مثل هذا الجبل أو مثل هذه البحيرة . أو مثل قرص الشمس أو غير ذلك حتى تستطيع أن تفهم . فانت لاتفهم غير موجود إلا إذا شبه بوجود .

وكل شيء لابد أن يكون قد وجد أولا . ثم بعد ذلك تجتمع مجامع اللغة في العالم لتبحث عن لفظ يعبر عنه بعد أن وجد في الصورة الذهنية . فلم يكن هناك اسم للصاروخ مثلا قبل أن يوجد الصاروخ . ولا لسفينة الفضاء قبل أن تبتكر . ولا لأشعة الليزر قبل أن تكتشف . إذن فكل هذا وجد أولا . ووضع له الاسم بعد ذلك .

الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله . وستر وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لوجوده . لأنك لا تستر شيئا غير موجود . وهكذا يكون الكفر مثبتا للإيمان .

وعقلك لا يستطيع أن يفهم الاسم الا اذا وجد المعنى في عقلك . وأنت لا تجد لغة من لغات العالم . ليس فيها اسم الله سبحانه وتعالى . بل ان الله جل جلاله - وهو غيب عنا - اذا ذكر اسمه فهمه الصغير والكبير . والجاهل والعالم . والذي طاف الدنيا . والذي لم يخرج من بيته . كل هؤلاء يفهمون الله بفطرة الإيمان التي وضعها في قلوبنا جميعا .

اذن الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا » والآية هي الشيء العجيب اللافت . فهناك في الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والارض . والجبال والبحار وغير ذلك . هذه تسمى آيات . شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آية في كونه وتخدم الانسان .

وهناك الآيات وهي المعجزات . عندما يرسل الله رسولا أو نبيا الى قومه فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى . وهذه الآيات مقصود بها من شاهدها . لأنها تأتي لتثبت المؤمنين بالرسول . وهم يبرون بأزمة يحتاجون فيها الى التثبيت . ودلالة على صدق رسالة النبي لقومه . . وتطلق الآيات على آيات القرآن الكريم . كلام الله المعجز الذي وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة . الى يوم الدين .

يحدثنا الله سبحانه في آياته . عن كيفية خلق الانسان . وعن منهج السماء للارض وغير ذلك .

والذين كذبوا بآيات الله . هم الكافرون . وهم المشركون . وهم الذين يرفضون الاسلام . ويحاربون الدين . هؤلاء جميعا . حدد لنا الله تعالى مصيرهم . ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم ؟ نقول أحيانا يكون التكذيب متعمدا مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بأفات وامراض وبالعذاب الا صغر حتى يؤمنوا . ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى . لم يعترفوا

بها .. ويقول الحق جل جلاله .

﴿ وَحَمْدُوا بِهَا وَاسْتَبَقَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

والآيات في الكون كثيرة . لو أننا التفتنا إليها لأعنا . فهي ليست محتاجة الى فكر . بل ان الله تعالى ، رحمة بنا جعلها ظاهرة . ليدركها الناس . كل الناس . ولكن البعض رغم ذلك يكذب بآيات الله . وهؤلاء هم الذين يريدون أن يتبعوا هوى النفس . والحق سبحانه وتعالى جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله في عقاب واحد .. وقال جل جلاله : « أولئك أصحاب النار » والصاحب هو الذي يألف صاحبه . ويجب أن يجلس معه . ويقضى أجل أوقاته . فكان قوله تعالى : أصحاب النار . دليل على عشق النار لهم . فهي تفرح بهم ، عندما يدخلونها . كما يفرح الصديق بصديقه . ولا تريد أن تفارقهم أبدا .. ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾

(سورة ق)

وهكذا نرى مدى العشق ، بين النار والكافرين . ان النار تصاحبهم في كل مكان . وهي ليست مصاحبة كريمة بالنسبة للنار . ولكنها مصاحبة تحبها النار . فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة . لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذبوا بآياته في الحياة الدنيا .. وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضا تحب مصاحبة كل من آمن بالله واخلص له العبادة وطبق منهجه .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاخْتَبَأُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

فِيهَا يَخَالِدُونَ ﴾

(سورة هود)

أى أن الجنة تصاحب المؤمنين . ونجهم وتلازمهم . مثلما تصاحب النار الكافرين والمكذبين . . وكما أن النار تكون سعيدة وهي تحرق الكافر . فالجنة تكون سعيدة وهي تمتع المؤمن . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « هم فيها خالدون » أى أن العذاب فيها دائم . لا يتغير ولا يفتر . ولا يخفف . بل هو مستمر الى الأبد . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٨٦)

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف ان الله سبحانه وتعالى قد انزل المنهج الى الارض مع آدم ، وأن آدم . نزل الى الأرض ومعه الهدى ليطبق أول منهج للسماء على الأرض . فكان الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان لحظة واحدة على الأرض دون أن يعطيه المنهج الذى يبين له طريق الهدى وطريق الضلال . ومع المنهج شرعت التوبة . وشرع قبول التوبة حتى لا ييأس الانسان . ولا يحس أنه اذا أخطأ أو نسي أصبح مصيره جهنم . بل يحس ان أبواب السماء مفتوحة له دائما . وان الله الذى خلقه رحيم به . اذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه . حتى يحس كل انسان برعاية الله سبحانه وتعالى له وهو على الأرض . من أول بداية الحياة .

فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن . والتوبة قائمة لكل من يخطئ .

وحذر الله سبحانه وتعالى آدم وفريته أنه من يطع ويؤمن يعيش الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة . ومن يكفر ويكذب . فإن مصيره عذاب أبدي .

لقد عرف الله آدم بعدوه ابليس . وطلب منه أن يحذره . فماذا فعل بنو آدم ؟ هل استقبلوا منهج الله بالطاعة أو بالمعصية ؟ وهل تمسكوا بتعاليم الله . أو تركوها وراء ظهورهم ؟



﴿يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَاَوْفُوا بِعَهْدِيْ اَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَاِتْنِيْ فَاَرْهَبُوْنِ ۝۱۰﴾

بعد أن قص الله علينا قصة الخلق وكيف بدأت بأدم ، وعداوة ابليس لأدم وسببها . قص علينا التجربة الأولى للمنهج في إحدى الجنات ، وكيف أن آدم تعرض للتجربة فاضواء الشيطان وعصى . ثم نزل الى الأرض مسلحا بمنهج الله . وعصيا بالتوبة من أن يظنى . بدأت مهمة آدم على الأرض ..

ان الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعرض علينا موكب الرسالات وكيف استقبل بنو آدم منهج الله بالكفر والعصيان . فاختار جل جلاله قصة بنى اسرائيل لأنها أكثر القصص معجزات ، وأنبياء بنى اسرائيل من أكثر الانبياء الذين ارسلوا لامة واحدة وليس معنى هذا أنهم مفضلون . ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وأثاما فكانوا أكثرها أنبياء . كانوا كلما خرجوا من معجزة انصرفوا . فتأتيتهم معجزة أخرى . فينصرفون . وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفرقوا في الأرض ثم يتجمعوا مرة أخرى في مكان واحد . ليدوقوا العذاب والنكال جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم . ولذلك أخذت قصة بنى اسرائيل ذلك الحجم الضخم في كتاب الله . وفي تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فموسى عليه السلام الذى ارسله الله الى بنى اسرائيل من اولى العزم من الرسل . ولذلك فإنك تجد فيه تربية اولا . وتربية ثانيا . . ولا بد أن نلتفت الى قول الحق سبحانه وتعالى : يا بنى اسرائيل ، فالحق جل جلاله . حين يريد أن ينادى البشر جميعا يقول : يا بنى آدم ، واقرا قوله تعالى :

﴿يَبْنِيْ اِدَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ حِيْنَ تَخْرُجُوْنَ مِّنْ مَّسْجِدٍ﴾

وقوله سبحانه :

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾

(من الآية ١١ سورة الاعراف)

لماذا يخاطبنا الله تعالى بقوله : يا بني آدم ؟ لأنه يريد أن يذكرنا بنعمة علينا منذ بداية الخلق . لأن هذه النعم تخص آدم وذريته . فالله تعالى خلق آدم بيديه . وأمر الملائكة أن تسجد له . وأعد له كونا مليئا بكل ما يضمن استمرار حياته . ليس بالضروريات فقط . ولكن بالكماليات . ثم دربه الحق على ما سيتعرض له من اغواء الشيطان . وأفهمه أن الشيطان عدو له . ثم علمه كلمات التوبة . ليتوب عليه . وأمهده بنعم لا تعد ولا تحصى .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بكل ذلك حتى نخجل من أن نرتكب معصية بعد كل هذا التكريم للإنسان . فإذا تذكرنا نعم الله علينا .. فأننا نخجل أن نقابل هذه النعم بالمعصية .

وقد علمنا الله سبحانه وتعالى علما ميزنا الله تعالى فيه عن ملائكته . لذا كان يجب أن نظل شاكرين عابدين طوال حياتنا في هذه الدنيا .

لكننا نلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله : « يا بني اسرائيل » لماذا ؟ ومن هو اسرائيل ؟

اسرائيل مأخوذة من كلمتين : اسر وإيل . (اسر) يعني عبد مصطفى أو مختار . (وإيل) معناها الله في العبرانية . فيكون معنى الكلمة صفوة الله . والاصطفاء هنا ليعقوب وليس لذريته . .

فإذا نظرنا الى اسرائيل الذي هو يعقوب كيف أخذ هذا الاسم . نجد أنه أخذ الاسم لأنه ابتلى من الله بلاء كبيرا . استحق به أن يكون صفيًا لله . وعندما ينادي الله تعالى قوم موسى بقوله : يا بني اسرائيل . فإنه يريد أن يذكرهم بمنزلة اسرائيل عند الله . ما واجهه من بلاء . وما تحمله في حياته . فاذكروا ما وصاكم به حين

حضرت الوفاة .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يأتى بعد ذلك قول يعقوب .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكَ الَّذِينَ فَلَا عَمُوَّةَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٣٢ سورة البقرة)

تلك هي الوصية التي وصى بها يعقوب بنبيه .. فيها علم وفيها عظة . علم بأن الله اله واحد . لا شريك له . وأن الدين هو الاسلام . وعظة وتذكير بأن الله اختار لهم الدين . فليحرصوا عليه حتى الموت .

ولقد جاءت هذه الوصية حين حضر يعقوب الموت . وساعة الموت يكون الانسان صادقا مع نفسه . وصادقا مع ربه . وصادقا مع ذريته . فكأنه سبحانه وتعالى حينها يقول : « يا بني اسرائيل » يريد أن يذكرهم باسرائيل وهو يعقوب وكيف تحمل وظل صابرا . ووصيته لهم ساعة الموت .

إن الله سبحانه وتعالى يذكر الأبناء بفضلهم على الآباء صلهم يتعظون أو يتحجلون من المعصية تماما كما يكون هناك عبد صالح اسرف أبناؤه على أنفسهم .

فيقال لهم :

« ألا تتحجلون ؟ أنتم أبناء فلان الرجل الصالح . لا يصح أن ترتكبوا ما يغضب الله ... » « يا بني اسرائيل »

اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق . واسحاق ابن ابراهيم . وابراهيم انجب اسحاق واسماعيل . . . ورسولنا صلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل . والله سبحانه وتعالى يقول : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » ولكن الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المسلمين لا يقول اذكروا نعمة الله . وانما يقول : « اذكروا الله » لأن بني اسرائيل ماديون ودنيويون .

فكان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : ما دمتم ماديين ودنيويين . فاذكروا نعمة الله المادية عليكم .

ولكننا نحن المسلمين أمة غير مادية .

وهناك فرق بين أن يكون الانسان مع النعمة . وأن يكون مع المنعم . الماديون يحبون النعمة . وغير الماديين يحبون المنعم . ويعيشون في معيته . ولذلك . فخطاب المسلمين : « اذكروا الله » لأننا نحن مع المنعم . بينما خطابهم سبحانه لبني اسرائيل : « اذكروا نعمة الله »

والحديث القدسي يقول : « أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي الها كان أهلاً أن أغفر له » (١)

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة . ولو لم يخلق الجنة والنار . . . ولذلك فإن المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله . لماذا ؟ لأن الابتلاء منه نعمة . والله سبحانه وتعالى يباهى بعباده ملائكته . ويقول : انهم يعبدونني لذاق . فتقول الملائكة : بل يعبدونك لنعمتك عليهم . فيقول سبحانه لهم : سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبونني . . . ومن عبادي من أحب دعاءهم . فأنا أبتليهم حتى يقولوا يارب . لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى . ولذلك إذا ابتلى عبداً في صحته مثلاً . وسلب منه نعمة العافية . ترى الجاهل هو الذي ينظر الى هذا نظرة عدم الرضا . وأما المتعمق فينظر الى قول الله في الحديث القدسي : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة : « يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني

(١) رواه الترمذي وابن ماجه من حديث الجواب ورواه التستائي .

عنده « (٢) فلو فقد المؤمن نعمة العافية . . فلا يأس فان الله تعالى يريد ان يعيش مع النعم . . وأنه طوال فترة مرضه في معية الله تعالى . ولذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » معناها . ان لم تكونوا مؤمنين لذاتي . فاستحيوا أن ترتكبوا المعصية بنعمتي التي أنعمت عليكم . ولقد جاءت النعمة هنا لأن بني اسرائيل يعبدون الله من أجل نعمه .

« اذكروا نعمتي » الذكر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى المسبب للنعم . فالشمس تطلع كل يوم . كم منا يتذكر أنها لا تطلع الا بإذن الله فيشكره . والمطر ينزل كل فترة . من منا يتذكر أن المطر ينزله الله . فيشكره . فالذكر يكون باللسان وبالقلب . والله سبحانه وتعالى غيب مستور عنا . وعظمته أنه مستور . ولكن نعم الله سبحانه تدلنا عليه . . فبالذكر يكون في بالنا دائماً . وبنعمه يكون ذكره وشكره دائماً .

والحق سبحانه وتعالى طلب من بني اسرائيل أن يذكروا النعمة التي انعمها عليهم فقط . وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله فيذكروا النعم . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك في ركن ركين . لا يصل اليك مكروه ولا شر .

إن ذكر الله المنعم يعطينا حركة الحياة في كل شيء . فذكر الله يوجد في القلوب الخشوع . ويقلل من المعاصي وينتفع الناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى . « اذكروا نعمتي » معناها اذكروني حتى بالنعمة التي أنعمت عليكم . وقوله تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » العهد هو الميثاق . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً ۝١١٥﴾

(سورة طه)

اذن فالعهد أمر موثق بين العبد وربّه . ما هو العهد الذي يريد الله من بني

اسرائيل أن يوفوا به ليفي الله بعهدهم لهم ؟

نقول : اما أن يكون عهد الفطرة . وعهد الفطرة كما قلنا أن نؤمن بالله ونشكره على نعمه . وكما قلنا اذا هبط الانسان في مكان ليس فيه أحد . ثم نام وقام فوجد مائدة حافلة بالنعم أمامه . ألا يسأل نفسه : من صنع هذا ؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لا بد أن يكون لها من صانع . خصوصا أن الخلق هنا فوق قدرات البشر . فاذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا يقول إن الله هو الذي خلق وأوجد . ولم يوجد مدع ولا معارض نظرا لأن ايجاد هذه النعم فوق قدرة البشر . تكون القضية محسومة لله سبحانه وتعالى .

اذن فذكر الله وشكره واجب بالفطرة السلمية ، لا يحتاج الى تعقيدات وفلسفات . والوفاء بعهد الله أن نعبد ونشكره هو فطرة الايمان لما اعطاه لنا من نعم . على أن الحق سبحانه وتعالى نجده يقول :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة البقرة)

وفي آية اخرى :

﴿ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

وفي آية ثالثة :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ما هي هذه القضية التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا اليها في هذه الآيات الكريمة ؟ الله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع في يدنا مفتاح الجنة . ففي يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذي يقوده الى الجنة او الى النار . ولذلك اذا وفيت بالعهد أوفى الله . واذا ذكرت الله ذكرك . واذا نصرت الله نصرك . .

والحديث القدسي يقول : وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة ^(١)

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يتبهننا أن المفتاح في بدنا نحن . فإذا بدأنا بالطاعة . فإن عطاء الله بلا حدود . وإذا تقربنا إلى الله تقرب إلينا . وإذا بعدنا عنه نادانا : هذا هو إيمان الفطرة

هل هذا هو العهد المقصود من الله سبحانه في قوله : « أوفوا بعهدى أوف بعهدكم » أو هو العهد الذي أخذه الله على الأنبياء ليبلغوا أقوامهم بأنهم إذا جاء رسول مصدق لما معهم فلا بد أن يؤمنوا به وينصروه ؟ فالحق سبحانه وتعالى أخذ على الأنبياء جميعا العهد لرسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . أو هو العهد الذي أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علماء بني إسرائيل الذين تلقوا التوراة ولقنوها وكتبوها وحفظوها . عهد بالأ يكتموا منها شيئا . . واقرا قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ كَمَثَلًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والهدف من هذا العهد . ألا يكتموا ما ورد عن الإسلام في التوراة . وألا يخفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي جاءت بها . . والله سبحانه وتعالى قد أعطى صفات رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة وفي الإنجيل . . واقرا قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد ورواه مسلم والترمذي .

ولقد جاء القرآن الكريم . مصدقا لما نزل من التوراة . وعرف بنو اسرائيل أنفسهم صدق ما نزل في القرآن . ولكنهم كفروا لأن رسول الله لم يكن من قومهم . . وقد كان أهل الكتاب من توراة وانجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هي الرسالة الخاتمة . وأنه لا بد أن يؤمن به قوم كل نبي . هل هذا هو العهد الذي يوجب على كافة الأمم الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونصرته ان أدركوه . وان لم يدركوه فالمسئولية على أبنائهم واحفادهم أن ينصروه ويؤمنوا به متى أدركوه . ان كانت هي عهد ايمان الفطرة ، او كانت هي عهد الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فكلاهما وارد .

وقوله تعالى : « أوف بعهدكم » أى بما وعدتكم من جنة النعيم فى الآخرة . فالحمد سبحانه وتعالى بعد نزول الاسلام اختص برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . وكل من لم يؤمن بهذا الدين لا عهد له عند الله .

واقراً قوله تبارك وتعالى عندما أخذت الرجفة موسى وقومه وطلب موسى من الله سبحانه وتعالى الرحمة . قال تعالى :

﴿ وَاصْنَبْ لَنَا فِ هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِ الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا بِكَ قَالْ عَذَابِ أَصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاصْنَبْهَا لِلَّذِينَ يَشْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِى آتَى الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ ءُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني اسرائيل في هذه الآية الكريمة . بالعهد الذي أخذه عليهم . وينذرهم أن رحمته هي للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم متى جاءت رسالته . .

وقوله تعالى : « وإياي فارهبون » أى أنه لا توجد قوة ولا قدرة في الكون الا قوة الله سبحانه وتعالى . ولذلك فاتقوا يوما ستلاقون فيه الله ومحاسبكم . وهو سبحانه وتعالى قهار جبار . ولا نجاة من عذابه لمن لم يؤمن .



﴿وَأَمِنُوا بِمَا آنَزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا
أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾

بعد أن ذكّر الله سبحانه وتعالى بنى اسرائيل بالعهد الذى قطعوها على انفسهم سواء بعدم التبديل والتغيير فى التوراة . لإخفاء أشياء وإضافة أشياء . وذكرهم بعهدهم بالنسبة للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافه فى التوراة . حتى أن الحزب اليهودى ابن سلام كان يقول لقومه فى المدينة : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد . أى أنه كان يُذكر قومه . أن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الموجودة فى التوراة . لا تجعلهم يخطئونه . قال الحق تبارك وتعالى : « وأمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم » . لأن القرآن مصدق للتوراة . والقصد هنا التوراة الحقيقية قبل أن يحرفوها . فالقرآن ليس موافقا لما معهم من المحرف أو المبدل من التوراة . بل هو موافق للتوراة التى لا زيف فيها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « ولا تكونوا أول كافر به » . ولقد قلنا ان اليهود لم يكونوا أول كافر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وإنما كانت قريش قد كفرت به فى مكة . المقصود فى هذه الآية الكريمة أول كافر به من أهل الكتاب . لماذا ؟ لأن قريشا لا صلة لها بمنهج السماء . ولا هى تعرف شيئا عن الكتب السابقة . ولكن أحبار اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة . وكانوا يستفتحون برسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل المدينة ويقولون : « جاء زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم » . ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من أن يسارعوا بالإيمان به . كانوا أول كافر به .

والله سبحانه وتعالى لم يفاجئهم أهل الكتاب بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما نبههم الى ذلك فى التوراة والانجيل . ولذلك كان يجب ان يكونوا أول المؤمنين وليس أول الكافرين . لأن الذى جاء يعرفونه . . .

وقوله تعالى : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » : الحق سبحانه وتعالى حينها يتحدث عن الصفقة الائمانية . يستخدم كلمة الشراء وكلمة البيع وكلمة التجارة. اقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وفي آية أخرى يقول :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَةٍ يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَفَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾

(من الايتين ١٠ ، ١١ سورة الصف)

ان الحق سبحانه وتعالى .. استعمل كلمة الصفقة والشراء والبيع بعد ذلك . في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

ونعلم أن التجارة هي وساطة بين المنتج والمستهلك .. المنتج يريد أن يبيع انتاجه . والمستهلك محتاج الى هذا الانتاج . والربح عملية تطول فترة .. وتقصّر فترة مع عملية تحرك السلعة والاقبال عليها ان كان سريعا او بطيئا . وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه وتعالى ليعين لنا أنها أقصر طريق الى النفع . فالتجارة تقوم على يد الانسان . يشتري السلعة ويبيعها . ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضا من حرية نفسك . ليعطيك أخلد وأوسع منها .

وكما قلنا : لو قارنا بين الدنيا بعمرها المحدود - عمر كل واحد منا - كم سنة ؟ خمسين .. ستين .. سبعين !! نجد أن الدنيا مهما طالت .. ستنتهي . والانسان العاقل هو الذي يضحى بالفترة المرقوته والمنتهى ليكون له حظ في الفترة الخالدة .

وبذلك تكون هذه الصفقة رابحة .

ان النعيم في الدنيا على قدر قدرات البشر . والنعيم في الآخرة على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى . يأتي الانسان ليقول : لماذا أضيق على نفسي في الدنيا ؟ لماذا لا أتمتع ؟ نقول له : لا .. إن الذي ستأله من العذاب والعقاب في الآخرة لا يساوي ما أخذته من الدنيا .. اذن الصفقة خاسرة . أنت اشترت زائلا . ودفعته ثمننا لنعيم خالد ..

والله سبحانه وتعالى يقول لليهود : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » أي لا تدفعوا الآيات الإيمانية التي أعطيت لكم لتأخذوا مقابلها ثمنا قليلا .. وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى .. فذلك قلب للصفقة . والقلب تأتي منه الخسارة دائما ..

وكان الآية تقول : تدفعون آيات الله التي تكون منهجه المتكامل لتأخذوا عرضا من أعراض الدنيا . قيمته قليلة ووقته قصير . هذا قلب للصفقة .

ولذلك جاء الأداء القرآني مقابلا لهذا القلب . ففي الصفقات .. الاثنان دائما تدفع والسلعة تؤخذ . ولكن في هذه الحالة التي نتحدث عنها الآية في قوله تعالى « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » قد جعلت الثمن الذي يجب أن يكون مدفوعا جعلته مشتري وهذا هو الحمق والخطأ .

الله يقول « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » أي لا تقبلوا الصفقة .. الشيء الذي كان يجب أن تضحوا به لا تجعلوه ثمنا . لأنك في هذه الحالة تكون قد جعلت الثمن سلعة . ما دمت ستشتري الآيات بالثمن .. فقد جعلت آيات الله ثمنا لتحصل على مكاسب دنيوية . وليتك جعلتها ثمنا غاليا . بل جعلتها ثمنا رخيصا .

لقد تنكرت لعهدك مع الله ليقى لك مالك أو مركزك !! أما اذا ضحى الانسان بشيء من متع الدنيا .. ليأخذ متع الآخرة الباقية .. فتكون هذه هي الصفقة الرابعة . ذلك لأن الانسان في الدنيا ينعم على قدر تصوره للنعيم . ولكنه في الآخرة ينعم على قدر تصور الله سبحانه وتعالى في النعيم .

بعض الذين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله يستعجلون مكاسب الصفقة . استعجالا أحق . انهم يريدون المتعة حراما أو حلالا . . نقول لكل واحد منهم : ان كنت مؤمنا بالآخرة : أو غير مؤمن فالصفقة خاسرة . . لأنك في كلتا الحالتين ستعذب في النار . . فكأنك اشتريت بإيمانك ودينك متعة زائلة . وجعلت الكفر ومعصية الله هما الثمن فقلبت الآية ، وجعلت الشيء الذي كان يجب أن يشتري بمنهج الله وهو نعيم الآخرة يباع . . ويباع بماذا ؟ بنعيم زائل ! وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى . . يكون هذا قلبا للصفقة .

فكان الآية تقول : انكم تدفعون آيات الله وما تعطيوكم من خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لتأخذوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا وثمنه قليل . والتمن يكون دائما من الأعيان كالذهب والفضة وغيرهما . . وهي ليست سلعة . فهب أن معك كنز قارون ذهباً . وأنت في مكان منعزل وجائع . ألا تعطى هذا الكنز لمن سيعطيك رغيفا . . حتى لا تموت من الجوع ؟ ولذلك يجب ألا يكون المال غاية أو سلعة . فإن جعلته غاية يكون معك المال الكثير . . ولا تشتري به شيئا لأن المال غايتك . فيفسد المجتمع .

إن المال عبد مخلص . ولكنه سيد رديء . هو عبدك حين تنفقه . ولكن حين تخزنه وتتكالب عليه يشقيك ويمرضك . لأنك أصبحت له خادما .

والآية الكريمة . . تعطينا فكرة عن اليهود لأن محور حياتهم وحركتهم هو المال والذهب . قاله سبحانه وتعالى حرم الربا لأن المال في الربا يصبح سلعة . فالمائة تأخذ بمائة وخمسين مثلاً . . وهذا يفسد المجتمع ، لأنه من المفروض أن يزيد المال بالعمل . فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل . فسدت حركة الحياة . وزاد الفقير فقرا . وزاد الغني غنى . وهذا ما نراه في العالم اليوم .

فالدول الفقيرة تزداد فقرا لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائد حتى تكون الفائدة أكثر من الدين نفسه . وكلما مر الوقت . زادت الفوائد . فيتضاعف الدين . ويستحيل التسديد . والدول الغنية تزداد غنى ، لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته .

وإذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » يجب ألا نفهم أنه

يمكن شراء آيات الله بثمان أعلى . . لا . لأنه مهما ارتفع الثمن وعلا سيكون قليلا .
وقليلا جدا . لأنه يقابل آيات الله . وآيات الله لا تقدر بثمان . فالصفقة خاسرة
مهما كانت قيمتها .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإياي فاتقون » وفي الآية السابقة قال : « وإياي
فارهبون » وهي وعيد . ولكن « إياي فاتقون » واقع . فقوله تعالى : « وإياي
فارهبون » هي وعيد وتحذير لما سيأتى فى الآخرة . ولكن « وإياي فاتقون » يعنى اتقوا
صفات الجلال من الله تعالى . وصفات الجلال هى التى تتعلق ببطش الله وعذابه .
ومن هذه الصفات الجبار والقهار والمتكبر والقادر والمتنقم والمذل . وغيرها من صفات
الجلال .

الله سبحانه وتعالى يقول : « اتقوا الله » ويقول « اتقوا النار » كيف ؟ نقول إن
الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين النار - وهى أحد جنود العذاب لله
سبحانه وتعالى - وقاية . ويريدنا أن نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية . ويريدنا
أيضا . . أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية . فقوله تعالى : « وإياي
فاتقون » أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية . حتى لا يصيبكم
عذاب عظيم . وكيف نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية ؟ أن تكون
أعمالنا فى الدنيا وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى . اذن فالتقوى مطلوبة فى الدنيا . .



﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٤٤

بعد أن حذر الحق سبحانه وتعالى اليهود من أن يبيعوا دينهم بثمن قليل وهو المال أو النفوذ الدنيوي . قال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » مادة تلبس . مأخوذة من اللباس الذي نرتديه . واللبس هو التغطية أو التعمية بأن نخفى الحق ولا نظهره . فاللباس تغليف للجسم يستره فلا يبين تفاصيله . .

والحق هو القضية الثابتة المقدرة التي لا تتغير . فلنفرض أننا شهدنا شيئاً يقع . ثم روى كل منا ما حدث . إذا كنا صادقين لن يكون حديثنا الا مطابقاً للحقيقة . ولكن إذا كان هناك من يحاول تغيير الحقيقة فيكون لكل منا رواية . وهكذا فالحق ثابت لا يتغير .

في التوراة آيات لم يحرفها اليهود .. وآيات محرفة . كل الآيات التي تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه .. وأنه النبي الخاتم .. حرفها اليهود . والآيات التي لا تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحرفوها .. فكأنهم خلطوا الحق بالباطل .. ما الذي جعلهم يدخلون الباطل ويحاولون إخفاء الحقائق ؟ المصلحة الأولى : ليشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً .. والباطل هو ما لا واقع له . ولذلك فإن أبواب الباطل متعددة .

وباب الحق واحد . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبلغنا أن اليهود قد وضعوا في التوراة باطلاً لم يأمر به الله . وكتبوا الحقيقة عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ أو السهو أو النسيان ؟ لا بل فعلوه وهم

يعلمون . نأتى مثلا الى قول الحق تبارك وتعالى لليهود :

﴿وَأَدْخُلُوا آلَ الْبَابِ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَرِيبُ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

وحطة أى حط عنا يارب ذنوبنا . يأتى اليهود ويغيرون قول الله . فبدلا من أن يقولوا حطة . يقولوا حنطة . من يسمع هذا اللفظ قد لا يتنبه ويعتقد أنهم قالوا ما أمرهم الله به . مع أن الواقع أنهم حرفوه . ولذلك عندما كانوا يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : راعنا ليا بالسنتهم . وكان المفروض أن يقولوا راعينا . . ولكنهم قالوا راعنا من الرعونة . . والله تعالى نبه المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقولوا مثلهم . فقال جل جلاله : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرننا » .

أى اتركوا هذه الكلمة نهائيا ، هذا لبس الحق بالباطل . اذن فاليهود البسوا الحق بالباطل . والانسان لا يلبس الحق بالباطل . . إلا اذا كان لا يستطيع مواجهة الحق . لأن عدم القدرة على مواجهة الحق ضعف كفر منه الى الباطل ، لأن الحق يتعب صاحبه . . والانسان لا يستطيع أن يتحمل نفسه على الحق .

وقوله تعالى : « وتكتنوا الحق وأنتم تعلمون » أى أنهم يفعلون ذلك عن عمد وليس عن جهل . فقد يكتنم الانسان حقا وهو لا يعلم أنه الحق . ولكن اذا كنت تعلمه فتلك هى النكبة لأنك تخفيه عامدا متعمدا . أو وأنتم تعلمون . قد يكون معناها أن اليهود - وهم أهل كتاب - يعلمون ما سيصيبهم فى الآخرة من العذاب الأليم . . بسبب اخفائهم الحق . فهم لا يجهلون ماذا سيحدث فى الآخرة . ولكنهم يقدمون على عملهم مع علمهم أنه خطأ فيكون العذاب حقا .



﴿ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ٤٢

اقامة الصلاة معروفة . وهي تبدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم . بشرائطها من عناصر القيام والركوع والسجود . ولكن الحق يقول « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » إما انه يريد منهم أن ينضموا الى موكب الايمان الجامع لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع . اذن فهو يريدهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ولا يظنوا أن ايمانهم بموسى عليه السلام يعفيهم من أن يكونوا خاضعين لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ويقولون ديننا كافينا . انما جاء الاسلام لمن لا دين له وهم الكفار والمشركون . . فيقول لهم : « اركعوا مع الراكعين » .

ان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم الى أن صلاتهم لن تقبل منهم إلا أن يكون فيها ركوع . وصلاة اليهود ليس فيها ركوع . . وان كان فيها سجود ، وفي كلتا الحالتين فإن الحق سبحانه وتعالى يلفتهم الى ضرورة الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحق سبحانه وتعالى حينما قال : (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) يريد أن يلفتهم الى أن العكس هو المطلوب وانهم كان يجب أن يشتروا الايمان ويختاروا الصفة الرابعة . ولن يحدث ذلك الا اذا آمنوا بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم . . فهذا هو الطريق الوحيد لرضا الله سبحانه وتعالى .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يهدم تكبرهم على الدين الجديد فأمرهم بالصلاة كما يصلي المسلمون . وبالزكاة كما يزكي المسلمون . فلا يعتقدون أن ايمانهم بموسى والتوراة سيقبل منهم بعد أن جاء الرسول الجديد الذي أمروا ان يؤمنوا به . بل ان ايمانهم بموسى والتوراة . لو كانوا مؤمنين بها حقا . . يستوجب هذا الايمان عليهم أن

يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التوراة تأمرهم بذلك . فكان عدم إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم كفر بالتوراة ونقض لتعاليمها .

والصلاة كما قلنا .. استحضار العبد وقفته بين يدي ربه . وحينما يقف العبد بين يدي الله .. لابد أن يزول كل ما في نفسه من كبرياء . ويدخل بدلا منه الخشوع والخضوع والذلة لله . والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذي يقف أمامه . انما عدم إيمانهم بهذا النبي . والوقوف بين يدي الله للصلاة كما يجب ان تؤدي ، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سموات . انما هو رفض للخضوع لأوامر الله .

وبعد ذلك تأتي الزكاة . لأن العبد المؤمن . لابد أن يوجه حركة حياته الى عمل نافع يتسع له ولمن لا يقدر على الحركة في الحياة . والله سبحانه وتعالى حينما يطالبنا بالسعى في الارض لا يطالبنا أن يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط ، بل يطالبنا أن يكون تحركنا اكثر من حاجة حياتنا . حتى يتسع هذا التحرك ليشمل حياة غير القادر على حركة الحياة . فيتسع المجتمع للجميع . ويزول منه الحقد والحسد ، وتصفى النفوس ..



﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ١٤

بعد أن لفت الله انظار اليهود . الى ان عدم ايمانهم بالاسلام هو كفر بالتوراة . .
لأن تعاليم التوراة تأمرهم أن يؤمنوا بالرسول الجديد . وقد أعطوا أوصاف رسول
الله صلى الله عليه وسلم . . وزمنه في التوراة . وأمروا أن يؤمنوا به . قال تبارك
وتعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » لقد كان اليهود يبشرون بمجيء
رسول جديد . ويعلنون أنهم سيؤمنون به . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولم يكن من قومهم كفروا به . لأنهم كانوا يريدون أن تكون السطوة لهم . بأن يأتي
الرسول الجديد منهم . فلما جاء من العرب . عرفوا أن سطوتهم مستزول . وأن
سيادتهم الاقتصادية ستنتهي . فكفروا بالرسول ورسالته .

ولا بد أن تنبه الى أنه اذا كانت هذه الآيات قد نزلت في اليهود . فليس معناها أنها
تنطبق عليهم وحدهم . بل هي تنطبق على أهل الكتاب جميعا . وغير المؤمنين .
فالعبرة ليست بخصوص الموضوع . ولكن العبرة بعموم السبب .

ان الكلام منطبق هنا حتى على المسلمين الذين يشترطون بآيات الله ثمنا قليلا
وهؤلاء هم خطباء الفتنة الذين رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . تقرض
شفاهم بمقارض من نار . فسأل : من هؤلاء يا جبريل : فقال خطباء الفتنة . انهم
الذين يزينون لكل ظالم ظلمه . ويجعلون دين الله في خدمة أهواء البشر . وكان
الأصل أن تخضع أهواء البشر لدين الله . وهؤلاء هم الذين يحاولون - تحت شعار
التجديد - أن يجعلوا للناس حجة في أن يتحللوا من منهج الله . فهم يبررون
ما يقع . ولا يتدبرون حساب الآخرة .

إن علماء الدين الذين يحملون منهج الله ليس من عملهم تبرير ما يقع من غيرهم . ومنهج الله لا يمكن أن يخضع أبدا لأهواء البشر . وعلى الذين يفعلون ذلك أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله . ومحاولوا استدراك ما وقع منهم . لأن الرجوع إلى الحق خير من التهادي في الباطل .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يعطينا منهجا آخر من مناهج الدعوة . لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله .. يريد أن يخرج من لا يؤمن من حركة الباطل التي ألفها . وإخراج غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاق على نفسه . لأنه خروج عن الذي اعتاده . ويعد عما ألفه . واعتراف أنه كان على باطل لذلك فهو يكون مفتوح العينين على من بين له طريق الإيمان ليرى هل يطبق ذلك على نفسه أم لا ؟ أيطبق الناهي عن المنكر ما يقوله ؟ فإذا طبقه عرف أنه صادق في الدعوة . وإذا لم يطبقه كان ذلك عذرا ليعود إلى الباطل الذي كان يسيطر على حركة حياته .

إن الدين كلمة تقال . وسلوك يفعل . فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة . قاله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ ﴾

(سورة الصف)

لماذا . . ؟ لأن من يراك تفعل ما تنهيه عنه يعرف أنك مخادع وغشاش . وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك . لا يمكن أن تبشر به غيرك . لذلك نقرأ في القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾

(سورة الاحزاب)

فمنهج الدين وحده لا يكفي .. الا بالتطبيق . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر الا كان أسبقهم اليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وعملاً ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه . حين يريد أن يقنن أمراً في الاسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لي أن أمر بكذا وكذا ، والذي نفسى بيده من خالف منكم لأجعلنه نكالا للمسلمين . وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة ، لأنه يعلم من أين تأتي ..

وفي الدعوة الاسلامية .. لابد أن يكون العلماء قدوة لينصالح أمر الناس . ففي كل علوم الدنيا القدوة ليست مطلوبة . الا في الدين . فانت اذا ذكر لك عالم كيمياء بارع . وقيل لك أنه يتناول الخمر . أو يفعل كذا . تقول مالى وسلوكه . أنا آخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع في ذلك . ولكن لا شأن لى سلوكه . وكذلك كل علماء الأرض . ماعدا عالم الدين . فاذا كان هناك عالم يصرك بالطريق المستقيم . وتتلقى عنه علوم دينك ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق . أتستمع له ؟ أبدا . انه يهبط من نظرك في الحال . ولا تحب أن تسمعه . ولا تجلس في مجلسه . مهما كان علمه . فستقول له كفاك دجلاً ..

وهكذا فان عالم الدين لابد أن يكون قدوة . فلا ينهى عن منكر ويفعله . أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه . فالتاس كلهم مفتحة اعينهم لما يصنع . والاسلام قبل أن ينتشر بالمنهج العلمى .. انتشر بالمنهج السلوكى . وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادته اليه . فالذين نشروا الاسلام في الصين .. كان أغلبهم من التجار الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام . فجذبوا حولهم الكثيرين . فاعتنقوا الاسلام . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٤)

(سورة فصلت)

فالشرط الاول هو الدعوة الى الله . والشرط الثانى العمل الصالح . وقوله « اننى من المسلمين » لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته . ولكنه نسب الفضل الى الاسلام . ولكن قولوا لى : أى فائدة أن نقول أننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين ؟

اذن فقله تعالى : « اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يذكر الله بأن اليهود يقولون مالا يفعلون . ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالإسلام . لأن ذلك أمر في التوراة . ولكنهم نسوا أنفسهم . فهم أول مخالف للتوراة . لأنهم لم يتبعوها . . وهم يتلون كتابهم الذي يأمرهم بالإيمان الجديد .

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إلا أنهم لا يؤمنون . ولو كان عندهم ذرة من العقل لآمنوا بما يطلبه منهم كتابهم الذي يتلونه . ولكنهم لا يفكرون بعقولهم ، وإنما يريدون علوا في الأرض . والآية - كما قلنا - لا تنطبق على اليهود وحدهم . بل على كل من يسلك هذا السلوك . .



﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٩)

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان قدوة . وبعد أن لفتنا إلى أن التوراة تطالب اليهود . بأن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . يطلب الله سبحانه وتعالى الاستعانة بالصبر والصلاة . ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحداثا شاقة ستقع . وأن المسألة لن تكون سهلة . بل تحتاج إلى جهد . فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب . وهم ماداموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل .. لأنهم قلبوا الصفة . فجعلوا آيات الله ثمنا لمتع الدنيا . واشتروا بها متعهم وملذاتهم . وبعد أن تعودوا على الربا وغيره من وسائل الكسب الحرام . لابد أن يستعينوا بالصبر إذا أرادوا العودة إلى طريق الإيمان .

وكما قلنا فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب . فإنها موجهة للجميع . فكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه . وليمنع نفسه عن الشهوات التي حرمها الله سبحانه وتعالى .

والصبر في الآية الكريمة فسرهُ بعض العلماء بأنه الصيام ، فكان الله تعالى يأمرهم أن يجوعوا ويصبروا على ألم الجوع . ومشقة الإيمان والصلاة كما قلنا خشوع وخضوع وذلة لله .. تنهى استكبارهم بأن يؤمنوا بدين لم يتزل على أحد من أحبار اليهود . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »

ويطلب الحق في قوله : « واستعينوا بالصبر والصلاة » الاستعانة بشيئين هما الصبر

والصلاة . وكان سياق الآية يقتضى أن يقال : « وانها » لكن القرآن قال : « وانها لكبيرة » فهل المقصود واحدة منها . الصلاة فقط . أم الصبر ؟

نقول انه عندما يأتي أمران منضمان الى بعضهما لا تستقيم الامور الا بهما معا .. يكونان علاجاً واحداً .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَخْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٢)

(سورة التوبة)

فقال يرضوه ولم يقل يرضوها . التفسير السابق نفسه نفهمه : ليس لله حق ولرسوله حق . ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد . وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة الجمعة)

وكان المفروض أن يقال اليها . ولكن التجارة واللهو لها عمل واحد . هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر : « واستيعنوا بالصبر والصلاة » لأن العلاج في الصبر مع الصلاة . والصبر كبير أن تتحملة النفس . وكذلك الصلاة . لأنها يأخذان من حركة حياة الانسان . والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها . والصلاة تحارب الاستكبار في النفس . فكان الوصفة الايمانية لا تتجزأ . فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تتقن الصلاة الا بالصبر .

وقوله تعالى : (إلا على الخاشعين) .. ما معنى الخشوع ؟ الخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع . فالتناس يتفاوتون في القيم والمواهب . وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلوه ومواهبه . ويقول : أنا خير من فلان . أو أنت خير من فلان . إذن فمن الممكن أن يستكبر الانسان بما عنده . ولكن الانسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده . لأنه لو تكبر عليه أتعبه في دنياه . ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى للناس المواهب على الشيع والخشوع على الشيع . فكل انسان منا محتاج للآخر . هذا خشوع على الشيع . وكل انسان منا مميز بما لا يقدر عليه غيره . هذه مواهب

على الشروع . هذا في البشر ، أما بالنسبة لله سبحانه فإنه خشوع لمن خلق ووهب وأوجد .

والخشوع يجعل الانسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ويعرف ضلالة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون . ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة . . ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار . ولذلك فلنخضع للذي لا يتغير . لأن كل ما يحصل عليه الانسان هو من الله وليس من ذاته . والذين يغترون بوجود الأسباب نقول لهم : اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالفها . لأن الأسباب لا تعمل بذاتها . والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولا . . أى متداولة بين الناس . انسان يفاخر بقوته . يأتى من هو أقوى منه فيهزمه . انسان يفاخر بماله . يضيع هذا المال في لحظة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِن يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك لابد أن نفهم . أن الانسان الذى يستعمل بالاسباب سيأتى وقت لا تعطيه الاسباب . فالانسان اذا بلغ في عينه وأعين الناس مرتبة الكمال . اغتر بنفسه . نقول له : لا تغتر بكلمات نفسك . فإن كانت موجودة الآن . فستغير غدا . . فالخشوع لا يكون الا لله . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وانها لكبيرة إلا على الخاشعين » من هم الخاشعون ؟ الخاشع هو الطائع لله . الممتنع عن المحرمات . الصابر على الأقدار . الذى يعلم يقينا داخل نفسه أن الأمر لله وحده . وليس لأى قوة أخرى . . فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له .



واذا أردنا أن نضرب لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - نقول : هب أنك سائر في طريق . وجاء شخص يخبرك أن هذا الطريق فيه لصوص وقطاع طرق . فمجرد

هذا الكلام يجعلك لا تمشي في هذا الطريق إلا اذا كنت مسلحاً ومعك شخص أو اثنان . فانت تفعل ذلك للاحتياط . اذن فمجرد الظن دفعنا للاحتياط . . اذن فقله تعالى : « يظنون انهم ملاقوا ربهم » فمجرد ان القضية راجحة . هذا يكفي لاتباع منهج الله . فتفى نفسك من عذاب عظيم .

ويقول المعري في آخر حياته :
زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلت بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكما
فكل مكذب بالآخرة خاسر . والنفس البشرية لا بد ان تحتاط للقاء الله . وان تعترف ان هناك حشراً وتعمل لذلك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » والرجوع الى الله سبحانه وتعالى أمر يقيني . فهاضمت قد جئت الى الدنيا مخلوقاً من الله فانت - لا محالة - سترجع اليه . وهذا اليوم يجب أن نحتاط له . حيطة كبرى . وان نترقبه . لانه يوم عظيم . . والحق سبحانه يقول :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَنْمَا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الحج)

ويقول جل جلاله :

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة المزمل)

اذا كان هذا حالنا يوم القيامة ، فكيف لا يكفي مجرد الظن لان نتمسك بمنهج الله . ونحن نحتاط لأحداث دنيوية لا تساوى شيئاً بالنسبة لأهوال يوم القيامة . ان الظن هنا بأننا سنلاقي الله تعالى يكفي لان نعمل له ألف حساب .

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٧)

يَدْعِي بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَاكَ تَكَرَّارًا . لِلآيَاتِ السَّبْعِ الَّتِي سَبَقَ فِيهَا تَذْكَيرُ
بَنِي إِسْرَءِيلَ . نَقُولُ : لَا لَمْ تَتَكَرَّرْ هَذِهِ الْآيَاتُ .. وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ
وَإِنِّي فَارُهَبُونَ﴾ (١٧) وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ
بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِقُونَ﴾ (١٨) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ
﴿اتَّامِرُوا إِلَى اللَّهِ وَأَنِفُوا عَنْ ذِكْرِ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهُهُمُ اللَّهُ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ
فَإِنَّكُمْ عِنْدَهُ جَمِيعُونَ﴾ (٢٠) وَتَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْخَلْقُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ
رَأَوْهُ لَتَفَتَحُنَّ خِجَابُكُمْ عَنْهُ وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يُهْتَدُونَ﴾ (٢١) وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ
فَإِنَّكُمْ عِنْدَهُ جَمِيعُونَ﴾ (٢٢)

(سورة البقرة)

هَذِهِ الْآيَاتُ السَّبْعُ كُلُّهَا تَذْكَرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ . بِرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ . وَالَّذِي جَاءَ وَصَفَ صِفَاتِهِ وَزَمَنَهُ فِي التَّوْرَةِ وَلِتَذْكُرَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . هُوَ نِعْمَةُ إِلَهُهُمْ وَإِلَى النَّاسِ جَمِيعًا . وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ فَضَّلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
بِأَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا . فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَنْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالرَّسُولِ

الخاتم . وبما ان اوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرت في التوراة وطلب منهم ان يؤمنوا به وينصروه فان عدم ايمانهم به هو كفر بالتوراة . كما ان الانجيل بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وطلب منهم ان يؤمنوا به . فعدم ايمانهم به كفر بالانجيل .

وقوله تعالى : « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » أي اذكروا اني جعلت في كتابكم ما يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته . والمعنى اذكروا نعمتي بأنى فضلتكم على العالمين ممن عاصروكم وقت نزول رسالة موسى . وجعلت منكم الأنبياء .

وما دام الحق سبحانه وتعالى .. قد فضلهم على العالمين .. فكيف بمن عليهم ؟ نقول المن هنا لشدة النكاية بهم . فالله سبحانه وتعالى . لشدة معصيتهم وكفرهم جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .
واقرا قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ٥٦ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ٥٧ ﴾

(سورة المائدة)

فالله سبحانه وتعالى يبين لنا كيف كفر بنوا اسرائيل بأنبيائهم وقتلوهم . رغم ان الله تعالى أعطاهم خيرا كثيرا .. لكنهم نكثوا العهد .. فاستحقوا العذاب . فهم لم

يجعلوا نعمة الله عليهم سببا في اخلاصهم والايمان به سبحانه وتصديق منهجه .
وتصديق الرسول الخاتم الذي ذكر عندهم في التوراة . كان يجب ان يؤمنوا بالله وان
يذكروا نعمه الكثيرة التي تفضل بها عليهم .

والحق يريد ان يلفتنا الى انه مادام قد أنعم عليهم .. فلا يظنون انهم غير مطالبين
بالايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . انما كان لابد ان يفهموا ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم جاء ليصحح لهم كتابهم . ويوضح لهم الطريق الصحيح .. فكان
يجب عليهم ان ينصروه . والنعمة لا يمكن ان تستمر مع الكفر بها . وحتى لا نظن
ان الله سبحانه وتعالى قد قسا عليهم بأن جعلهم أمتا متفرقة في الأرض كلها . ثم بعد
ذلك يجمعون في وطن واحد ليقتلوا .. واقرا قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الاسراء)

أى أرض تلك التي طلب الله سبحانه وتعالى من بني اسرائيل ان يسكنوها ؟
مادام الحق سبحانه وتعالى قال : « اسكنوا الارض » فهي الأرض كل الأرض .
وهل تكون الأرض كلها وطنا لليهود . طبعاً لا . ولكن الحق سبحانه كتب عليهم ان
يتفرقوا في الأرض . فلا تكون لهم دولة الا عندما يشاء الله ان يجمعهم في مكان
واحد . ثم يسلط عليهم عباده المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفَيْدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلَمَنَّ عُلُوَّ

كِبَرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَٰئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا

خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ

بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ ١٠٤ ﴾

(سورة الاسراء)

هذه هي المرة الاولى التي انتصر فيها المسلمون على اليهود . يقول الحق سبحانه

وتعالى . « ثم رددنا لكم الكرة عليهم » وما دام الحق سبحانه وتعالى قال عليهم فهي على المسلمين . لأنهم هم الذين انتصروا على اليهود . وقوله تعالى : « وأمددناكم بأموال وبنين » معناها انهم ينتصرون على المسلمين وهذا ما هو حادث الآن ، وما شاهدناه وما نشاهده في الفترة الأخيرة . أي ان المدد والقوة تأتيهم من الخارج وليس من ذاتهم .

ونحن نرى ان اسرائيل قائمة على جلب المهاجرين اليهود من الدول الأخرى . وجلب الأموال والمساعدات من الدول الأخرى ايضاً أي أن كل هذا يأتيهم بمدد من الخارج . واسرائيل لا تستطيع ان تعيش الا بالمهاجرين اليها . وبالمعونات التي تأتيها . فالمدد لا بد أن يأتي من الخارج . اذا كانت هناك معركة وطلب قائد المدد .. فمعناه أنه يريد رجالاً يأتونه من خارج أرض المعركة ليصبحوا مدداً وقوة لهذا الجيش . وقوله تعالى : « وجعلناكم أكثر نفيراً » النفير هو الصوت العالي الذي يجلب الانتباه . ونحن نرى الآن ان اسرائيل تسيطر على وسائل الاعلام والدعاية في العالم . وان صوتها عال ومسموع .. ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فاذا جاء وعد الأخرى ليسمعوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » .. ومعنى هذا أن المسجد الأقصى سيضيع من المسلمين ويصبح تحت حكم اليهود فيأتى المسلمون ويحاربونهم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ويقول الله تعالى : « فاذا جاء وعد الأخرى جئنا بكم لفيقا » واللفيف هو الجمع غير المتجانس . الذي يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما ان الله سبحانه وتعالى قد قضى ان يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين .. يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لا بد ان يجمعهم في مكان واحد . لانهم لو بقوا كجاليات متفرقة في كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التي يعيشون فيها لاقتضى ذلك ان يحارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتى بهم من كل دولة الى المكان الذي فيه بيت المقدس حتى يمكن ان يحاربهم المسلمون ، وان يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني اسرائيل بنعمه عليهم . وبمعاصيهم وكفرهم حتى لا يقول أحد ان الله سبحانه كان قاسياً عليهم لأنهم هم الذين كفروا . وهم الذين عصوا وأفسدوا في الأرض . فاستحقوا هذا العقاب من الله سبحانه وتعالى .

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٤٨

قوله تعالى : « واتقوا يوما » يذكرهم بهذا اليوم . وهو يوم القيامة الذي لا ينفع
الانسان فيه إلا عمله . ويطلب الحق سبحانه وتعالى منهم ان يجعلوا بينهم وبين
صفات الجلال لله تعالى في ذلك اليوم وقاية .

ان هناك آية أخرى تقول :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ١٣٣

(سورة البقرة)

وهذه الآية وردت مرتين . وصدر الايتين متفق . ولكن الآية الاولى تقول :
« ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » والآية الثانية :
« ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة ولا هم ينصرون » هل هذا تكرار ؟ نقول
لا . والمسألة تحتاج الى فهم . فالآيتان متفقتان في مطلعهما : في قوله تعالى :
« واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » .

ففي الآية الاولى قدم الشفاعاة وقال : لا يقبل . والثانية أخر الشفاعاة وقال
لا تنفع . الشفاعاة في الآية الاولى مقدمة . والعدل متأخر ، وفي الآية الثانية
العدل مقدم والشفاعة مؤخرة . . وفي الآية الاولى لا يقبل منها شفاعاة . وفي الآية
الثانية .. لا تنفعها شفاعاة . والمقصود بقوله تعالى : « اتقوا يوما » هو يوم القيامة الذي
قال عنه سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (١٦)

(سورة الانفطار)

وقوله تعالى :

« لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، كم نفسا هنا ؟ انهما اثنتان . نفس عن نفس . هناك نفس أولى ونفس ثانية . فما هي النفس الأولى ؟ النفس الأولى هي الجازية . والنفس الثانية . . هي المجزى عنها . . ومادام هناك نفسان فقوله تعالى : « لا تقبل منها شفاعا » هل من النفس الأولى أو الثانية ؟

إذا نظرت الى المعنى فالمعنى انه سيأتى انسان صالح فى يوم القيامة ويقول يارب أنا سأجزى عن فلان أو أغنى عن فلان أو أقضى حق فلان . النفس الأولى أى النفس الجازية تحاول ان تتحمل عن النفس المجزى عنها .

ولكى نقرب المعنى ولله المثل الأعلى نفترض ان حاكما غضب على أحد من الناس وقرر ان ينتقم منه أشنع انتقام . يأتى صديق لهذا الحاكم ويحاول ان يجزى عن المغضوب عليه . فبما لهذا الرجل من منزله عند الحاكم يحاول ان يشفع للطرف الثالث . وفى هذه الحالة اما ان يقبل شفاعته أو لا يقبلها . فاذا لم يقبل شفاعته فانه سيقول للحاكم أنا سأسدد ما عليه . . أى سيدفع عنه فدية ، ولا يتم ذلك إلا اذا فسدت الشفاعا .

فإذا كانت المسألة وفى يوم القيامة ومع الله سبحانه وتعالى . . يأتى إنسان صالح ليشفع عند الله تبارك وتعالى لإنسان أسرف على نفسه . فلا بد أن يكون هذا الإنسان المشفع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله . وقرأ قوله سبحانه :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ١٨ ﴾

(سورة الانبياء)

والانسان الصالح يحاول ان يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأى مساومة أخرى . اذن لا يتكلم عن العدل في الجزاء إلا اذا فشلت الشفاعة .

هنا الضمير يعود الى النفس الجازية . أى التى تتقدم للشفاعة عند الله . فيقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها شفاعة » فلا يقبل منها أى مساومة أخرى . ويقول سبحانه : « ولا يؤخذ منها عدل » . وهذا ترتيب طبيعى للاحداث .

فى الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزى عنها قبل ان تستشفع بغيرها وتطلب منه ان يشفع لها . لا بد ان تكون قد ضاقت حيلها وعزت عليها . الأسباب . فيضطر ان يذهب لغيره . وفى هذا اعتراف بعجزه . فيقول يارب ماذا أفعل حتى أكفر عن ذنوبى فلا يقبل منه . فيذهب الى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

واذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فاقرا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ رَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو أُرُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ

صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ ﴾

(سورة السجدة)

هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله . بأن يعيدهم الى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم . ويعملوا عملا صالحا ينجيهم من العذاب . ذلك ان الحسنات يذهبن السيئات . .

فماذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم . قال جل جلاله :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٨ ﴾

(سورة السجدة)

فهم عرضوا ان يكفروا عن سيئاتهم . بأن طلبوا العودة الى الدنيا ليعملوا صالحا . فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ خَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٢٠ ﴾

(سورة الاعراف)

لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تقبل . فدخلوا في حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ بمصداق لقوله تعالى : « لا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل » . . وهكذا نرى الاختلاف في الآيتين . فليس هناك تكرار في القرآن الكريم . .

ولكن الآية التي نحن بصددھا تتعلق بالنفس الجازية . أو التي تريد أن تشفع لمن أسرف على نفسه : « فلا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل » . والآية الثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة » . أي ان الضمير هنا عائد على النفس المجزى عنها . فهي تقدم العدل أولا : « ارجعنا نعمل صالحا ، فلا يقبل منها ، فتبحث عن شفعاء فلا تجد ولا تنفعها شفاعاة .

وهذه الآيات التي أوردناها من القرآن الكريم كلها تتعلق بيوم القيامة . على ان هناك مثلا آخر في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الانعام)

والآية الثانية في قوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(سورة الاسراء)

يقول بعض الناس ان « نرزقكم » في الآية الأولى « ونرزقهم » في الآية الثانية من جمال الأسلوب . نقول لا . قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ » أى من فقر موجود . ومادام الفقر موجودا فالإنسان لا يريد أولادا ليزداد فقره . ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى : « نحن نرزقكم وإياهم » . أى ان مجيء الأولاد لن يزيدكم فقرا . لأن لكم رزقكم ولهم رزقهم . وليس معنى ان لهم رزقهم ان ذلك سينقص من رزقكم . فلأب رزق وللولد رزق . أما في الآية الثانية : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ » فكان الفقر غير موجود . ولكنه يخشى ان رزق بأولاد يأتته الفقر . يقول له الحق : « نحن نرزقهم وإياكم » . أى ان رزقهم سيأتيهم قبل رزقكم .

فعندما تقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « اتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » مكررة في الآيتين لا تظن ان هذا تكرار . لأن احدهما ختامها : « لَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ » . والثانية : « لَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ » . فالضمير مختلف في الحالتين . مرة يرجع الى النفس الجازية فقدم الشفاعة وأخر العدل . ولكن في النفس المجزى عنها بتقديم العدل وبعد ذلك الشفاعة . الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ

وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة لقمان)

أى ان الانسان لا يمكن ان يجزى عن انسان مهما بلغت قرابته . . لا يجزى الولد عن أمه أو أبيه . أو يجزى الوالد عن أولاده . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ③ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ④ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ⑤ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُقْنِيهِ ⑥ ﴾

(سورة عبس)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها عدل » : « لا يؤخذ منها عدل » . العدل هو المقابل . كأن يقول المسرف على نفسه يارب فعلت كذا وأسرفيت على نفسي فأعدنى الى الدنيا أعمل صالحا . وكلمة العدل مرة ثانی بكسر العين وهى مقابل الشيء من جنسه . أى ان يعدل القماش فماش مثله ويعدل الذهب ذهب مثله . وعدل بفتح العين مقابل الشيء ولكن من غير جنسه . والعدل معناه الحق والعدل لا يكون إلا بين خصمين . ومعناه الانصاف ومعناه الحق . والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير . وانك لا تتحيز لجهة على حساب جهة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يجلس مع أصحابه يوزع نظره الى كل الجالسين . حتى لا يقال انه مهتم بواحد منهم عن الآخر .

ولابد ان نعرف ما هى النفس . كلمة النفس اذا وردت فى القرآن الكريم . فافهم ان لها علاقة بالروح . حينما تتصل الروح بالمادة وتعطيها الحياة توجد النفس . المادة وحدها قبل ان تتصل بها الروح تكون مقهورة ومنقادة مسبحة لله . فلا تقل الحياة الروحية والحياة المادية . لان الروح مسبحة والمادة مسبحة . ولكن عندما تلتقى الروح بالمادة وتبدأ الحياة وتتحرك الشهوات يبدأ الخلل . والموت يترتب عليه خروج الروح من الجسد . الروح تذهب الى عالمها التسخيري . والمادة تذهب الى عالمها التسخيري . وذلك يجعلنا نفهم قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑦ ﴾

(سورة النور)

لماذا تشهد ؟ لأنها لم تعد مسخرة للانسان تتبع أوامره في الطاعة والمعصية .
فحواسك مسخرة لك بأمر الله في الحياة الدنيا وهي مسبحة وعابدة . فإذا أطاعتك في
معصية فإنها تلعنك لأنك أجبرتها على المعصية فتأتى يوم القيامة وتشهد عليك . والله
سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ۝ ﴾

(سورة الشمس)

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة المادية والحياة الروحية . لان الحياة الروحية
تختلف عن الروح التي في جسدك . وهي تنطبق على الملائكة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ تَزَلُّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٤٢﴾ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَكَذَلِكَ أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۝ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

هذه هي الروح التي فيها النقاء والصفاء . وقوله تعالى : « ولا هم ينصرون » .
أى ان الله سبحانه وتعالى اذا اقضى عليهم العذاب لا يستطيع أحد نصرهم أو وقف
عذابهم . لا يمكن ان يحدث هذا . لان الأمر كله لله .



﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٤٩

بعد أن حذر الله سبحانه وتعالى بنى اسرائيل من يوم لا تنفع فيه الشفاعة . أراد أن يذكرهم بفضله عليهم وينعمه . قوله تعالى : « إِذْ هِيَ ظَرْفٌ لَشَيْءٍ » . وسبق أن قلنا أن الظرف نوعان . لأن كل حدث من الأحداث يحتاج الى زمان يقع فيه والى مكان يقع فيه . وعندما أقول لك اجلس مكانك . هذا الظرف يراد به المكان . وعندما يخاطب الله عز وجل عباده : أذكر اذ فعلت كذا . أى اذكر وقت أن فعلت كذا ظرف زمان . وقول الحق تبارك وتعالى : « وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ » أى اذكروا الوقت الذي نجاكم فيه من فرعون .

والآية التي نحن بصددنا وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم . قوله تعالى

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٤٩

(سورة البقرة)

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ﴾

(من الآية ١١١ سورة الاعراف)

وقوله جل جلاله في سورة ابراهيم :

﴿ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة ابراهيم)

الاختلاف بين الأولى والثانية هو قوله تعالى في الآية الأولى : « يذبحون أبناءكم » . وفي الثانية : (يقتلون أبناءكم) . « ونجينا » في الآية الأولى : « وأنجينا » في الآية الثانية . ما الفرق بين نجينا وأنجينا ؟ هذا هو الخلاف الذي يستحق أن نتوقف عنده . . في سورة البقرة : « وإذ نجيناكم من آل فرعون » . الكلام هنا من الله . أما في سورة ابراهيم فنجد « أذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم » . الكلام هنا كلام موسى عليه السلام . ما الفرق بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام موسى ؟ . .

ان كلام موسى يحكى عن كلام الله . ان الله سبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بقمم النعمة ، ولا يمتن بالنعم الصغيرة . والله تبارك وتعالى حين امتن على بني اسرائيل قال : « نجيناكم من آل فرعون يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » . ولم يتكلم عن العذاب الذي كان يلاقيه قوم موسى من آل فرعون . انهم كانوا يأخذونهم أجراء في الأرض ليحرثوا وفي الجبال لينحتوا الحجر وفي المنازل ليعخدموا . ومن ليس له عمل يفرضون عليه الجزية . ولذلك كان اليهود يذكرون ويسرون بملابس قديمة حتى يتهاون فرعون في أخذ الجزية منهم . وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

أى أنهم يتمسكون ويظهرون الذلة حتى لا يدفعوا الجزية . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمتن عليهم بأنه أنجاهم من كل هذا العذاب . بل يمتن عليهم بقمم النعمة . وهي نجاة الابناء من الذبح واستحياء النساء . لأنهم في هذه الحالة يستذل نساؤهم ورجالهم . فالمرأة لا تعبد رجلا يحميها وتنحرف .

كلمة نجى وكلمة أنجى بينهما فرق كبير . كلمة نجى تكون وقت نزول العذاب . وكلمة أنجى يمنع عنهم العذاب . الأولى للتخلص من العذاب والثانية يبعد عنهم عذاب فرعون نهائيا . ففضل الله عليهم كان على مرحلتين . مرحلة انهخلصهم من عذاب واقع عليهم . والمرحلة الثانية انه أبعدهم عن آل فرعون فمنع عنهم العذاب .

قوله تعالى : « يسومونكم سوء العذاب » ما هو السوء ؟ انه المشتعل على الوان شتى من العذاب كالجلد والسخرة والعمل بالاشغال الشاقة . ما معنى يسوم ؟ يقال سام فلان خصمه أى أذله وأعتته وأرهقه . وسام مأخذوة من سام الماشية تركها ترعى . لذلك سميت بالسام أى المتروكة . وعندما يقال إن فرعون يسوم بنى اسرائيل سوء العذاب . معناها أن كل حياتهم ذل وعذاب . فتجد أن الله سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن حكام مصر من الفراعنة يتكلم عن فراعنة قدماء كانوا في عهد عاد وعهد ثمود . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ۝ وَلَبَّاسٍ عَشِيرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَالْأَيْلِ إِذَا يَتَر ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝﴾

(سورة الفجر)

أى أن الله تبارك وتعالى جاء بحضارة الفراعنة وقدماء المصريين بعد عاد وثمود . وهذا دليل على أن حضارة عاد وثمود قديمة . والله سبحانه وتعالى وصف عادا بأنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . أى أنها حضارة أرفى من حضارة قدماء المصريين . قد يتساءل بعض الناس كيف يصف الله سبحانه وتعالى عادا بأنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . مع أنه يوجد الآن حضارات متقدمة كثيرة .

نقول إن الله قد كشف لنا حضارة الفراعنة وآثارهم . ولكنه أخفى عنا حضارة

عاد . ولقد وجدنا في حضارة الفراعنة أشياء لم نصل اليها حتى الآن . مثل براعتهم في تحنيط الموتى والمحافظة على الجثث . وبناء الأهرامات وغير ذلك . وبما أن حضارة عاد كانت أرقى من حضارة الفراعنة . فإنها تكون قد وصلت إلى أسرار ما زالت خافية على العالم حتى الآن . ولكننا لا نعرف شيئاً عنها ، لأن الله لم يكشف لنا آثارها .

ولقد تحدث الحق تبارك وتعالى عن الفراعنة باسم فرعون . وتكلم عنهم في أيام موسى باسم آل فرعون . ولكن الزمن الذي كان بين عهدي يوسف وموسى لم يسم ملك مصر فرعون ، إنما سماه العزيز الذي هو رئيس الوزراء ورئيسه الملك . وقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَـذَا ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

اذن فالحاكم أيام يوسف كان يسمى ملكاً ولم يسم فرعون . بينما حكام مصر قبل يوسف وبعده كانوا يلقبون بفرعون . ذلك لأنه قبل عهد يوسف عليه السلام حكم مصر الهكسوس أهل بني اسرائيل . فقد أغاروا على مصر وانتصروا على الفراعنة . وحكموا مصر سنوات حتى تجمع الفراعنة وطردهم منها .

والغريب أن هذه القصة لم تعرف إلا بعد اكتشاف حجر رشيد ، وفك رموز اللغة الهيروغليفية . وكان ملوك الهكسوس من الرعاة الذين استعمروا مصر فترة . ولذلك نرى في قصة يوسف عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى : « وقال الملك أتؤن به » .

وهكذا نعلم أن القرآن الكريم قد روى بدقة قصة كل حاكم في زمنه . وصف الفراعنة بأنهم الفراعنة . ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون ولكن كان هناك ملك . وعندما جاء موسى كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر . فإذا كان هذا الأمر لم نعرفه إلا في مطلع القرن الخامس . عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد ، ولكن القرآن أرخ له التاريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرناً . وهذه معجزة تنضم لمعجزات

كبيرة في القرآن الكريم عن شيء كان مجهولا وقت نزول القرآن وأصبح معلوما الآن . لنجد أن القرآن جاء به في وضعه الصحيح والسليم .

بعد أن تحدثنا عن الترق بين نجيناكم وأنجيناكم . نتحدث عن الفرق بين « يذبحون أبناءكم » . و « يقتلون أبناءكم » . الذبح غير القتل . . الذبح لابد فيه من اراقة دماء . والذبح عادة يتم بقطع الشرايين عند الرقبة ، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره كالخنق والإغراق . كل هذا قتل ليس شرطا فيه أن تسفك الدماء .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن فرعون حينما أراد أن ينتقم من ذرية بني اسرائيل انتقم منهم انتقامين . . انتقاما لأنهم كانوا حلفاء للهكسوس وساعدوهم على احتلال مصر . ولذلك فإن ملك الهكسوس اتخذ يوسف وزيرا . فكان الهكسوس كانوا مواليين لبني اسرائيل . وعندما انتصر الفراعنة انتقموا من بني اسرائيل بكل وسائل الانتقام . قتلوهم وأحرقوا عليهم بيوتهم .

أما مسألة الذبح في قوله تعالى : « يذبحون أبناءكم » فلقد رأى فرعون نارا هبت من ناحية بيت المقدس فأحرقت كل المصريين ولم ينج منها غير بني اسرائيل . فلما طلب فرعون تأويل الرؤيا . قال له الكهان يخرج من ذرية اسرائيل ولد يكون على يده نهاية ملكك . فأمر القوابل (الدايات) بذبح كل مولود ذكر من ذرية بني اسرائيل . ولكن قوم فرعون الذين تعودوا السلطة قالوا لفرعون : ان بني اسرائيل يوشك أن ينقضوا وهم يقومون بالخدمات لهم . فجعل الذبح سنة والسنة الثانية يبقون على المواليد الذكور وهارون ولد في السنة التي لم يكن فيها ذبح فنجوا . وموسى ولد في السنة التي فيها ذبح فحدث ما حدث .

اذن سبب الذبح هو خوف فرعون من ضياع ملكه . وفرض الذبح حتى يتأكد قوم فرعون من موت المولود . ولو فعلوه بأي طريقة أخرى كأن القوه من فوق جبل أو ضربوه بحجر غليظ . أو طعنوه بسيف أو برمح قد ينجو من الموت . ولكن الذبح يجعلهم يتأكدون من موته في الحال فلا ينجو أحد .

والحق يقول : « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » . كلمة الابن تطلق على الذكر ، ولكن الولد يطلق على الذكر والانثى . ولذلك كان

الذبيح للذكور فقط . أما النساء فكانوا يتركونهن أحياء .

ولكن لماذا لم يقل الحق تبارك وتعالى يذبحون أبناءكم ويستحيون بناتكم بدلا من قوله يستحيون نساءكم . الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أن الفكرة من هذا هو ابقاء عنصر الأنوثة يتمتع بهن آل فرعون . لذلك لم يقل بنات ولكنه قال نساء . أى أنهم يريدونهن للمتعة وذلك للتكيل ببني اسرائيل . ولا يقتل رجولة الرجل الا انه يرى الفاحشة تصنع في نسائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . ما هو البلاء ؟ بعض الناس يقول إن البلاء هو الشر . ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »

اذن هناك بلاء بالخير وبلاء بالشر . والبلاء كلمة لا تخيف . أما الذى يخيف هو نتيجة هذا البلاء . لأن البلاء هو امتحان أو اختبار . إن أدينه ونجحت فيه كان خيرا لك . وإن لم تؤده كان وبالا عليك . والحق سبحانه وتعالى يقول فى خليله ابراهيم :

﴿ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ مُّبِينَةٍ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فإبراهيم نجح فى الامتحان ، والبلاء جاء لبني اسرائيل من جهتين . . بلاء الشر بتعذيبهم وتقتيلهم وذبح أبنائهم . وبلاء الخير بانجائهم من آل فرعون . ولقد نجح بنو اسرائيل فى البلاء الأول . وصبروا على العذاب والقهر وكان بلاء عظيما . وفى البلاء الثانى فعلوا أشياء ستعرض لها فى حينها .



﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ
وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾

مرة ثانية تأتي « وإذ » . وبأى الانجاء وسيلة . هذه الوسيلة ذكرتها الآية الكريمة . فقد خرج موسى وقومه وكانوا ستمائة ألف كما تقول الروايات . وعرف فرعون بخروجهم فخرج وراءهم على رأس جيش من ألف ألف (مليون) . عندما رآهم قوم موسى كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿قَالُوا أَوِذْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الاعراف)

وقال لهم موسى كما جاء فى الكتاب العزيز :

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الاعراف)

وعندما جاء قوم فرعون بعددهم الضخم يقاومون قوم موسى وتراعى الجمعان أى انهم رأوهم رؤية العين قال قوم موسى « انا لمدركون »

وهذا كلام منطقي . فإمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده . ولكن حين تخرج الأحداث من نطاق الأسباب الى قدرة المسبب فهي لا تخضع لأسباب الكون . ولذلك قال لهم موسى بجلء فمه :
« كلا ان معى ربى سيهدين » .

وبذلك نقل المسألة من الأسباب الى المسبب تبارك وتعالى . فيمنطق الأحداث
يكون فرعون وجنوده سيدركونهم . ولكن بمنطق الحق سبحانه وتعالى فانه سيهيء
لهم طريق النجاة .

وأوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى بان يضرب بعصاه البحر فانفرك . وهكذا
توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة . وانفرك البحر وأصبح كل جزء منه
كالجبل . ذرات الماء تماسكت مع بعضها البعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر
منه بنو اسرائيل .

هذا هو معنى قوله تعالى : « واذا فرقنا بكم البحر » والفرق هو الفصل بين
شيئين . . . واذا كان البحر قد انشق . . . فأين ذهب الطين المبطل في قاع البحر ؟ . .
قالوا ان الله ارسل ريحا مرت عليه فجففته . ولذلك قال الحق جل جلاله :
« طريقا في البحر يبسا »

ويقال انه حين كان موسى وقومه يعبرون البحر سألوا عن بقية اخوانهم . فقال لهم
موسى انهم في طرق أخرى موازية لطريقنا . قالوا نريد أن نطمئن عليهم . فرفع
موسى يده الى السماء وقال اللهم أعني على اخلافهم السيئة . فأوحى الله الى موسى
أن يضرب بعصاه الحواجز فانفتحت طاقة بين كل عمر . فكانوا يرون بعضهم
بعضا .

وعندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون الى البحر ليعبروه . اراد
أن يضرب البحر ليعود الى السيولة . فلا يلحق بهم آل فرعون . ولكن الله أوحى
اليه :

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ ﴾ (٢٤)

(سورة الدخان)

أى اترك البحر على ما هو عليه . حتى يتبعكم قوم فرعون . ظانين أنهم قادرون

على أن يسلكوا نفس الطريق ويمشوا فيه . وحينها يكون أولهم قريبا من شاطئكم
واخرهم عند الشاطئ الآخر . أعيد الماء الى استطراقه . فأكون قد أنجيت وأهلك
بالسبب الواحد . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يمن على بني اسرائيل بأنه انجاهم
من العذاب وأهلك عدوهم . فكان العطاء عطاءين . عطاء ايجاب بأن انجاهم
وعطاء سلب بأن أهلك عدوهم .

وقوله تعالى : « وانتم تنظرون » في هذه الآية لم يتحدث الحق جل جلاله عن
فرعون . وإنما حدث عن اغراق آل فرعون . لماذا ؟ لأن آل فرعون هم الذين أعانوه
على جبروته ويطشه وطفياه . هم الأداة التي استخدمها لتعذيب بني اسرائيل .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بنو اسرائيل آل فرعون وهم يفرقون فوققوا
يشاهدونهم . وأنت حين ترى مصرع عدوك . تشعر بالمرارة التي في قلبك تزول .
« وانتم تنظرون » تحتل معنى آخر . أي ينظر بعضكم الى بعض وانتم غير مصدقين
أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم . وفي نفس الوقت تطمثنون وانتم تشاهدونهم .
وهم يفرقون دون أن يتجر منهم أحد حتى لا يدخل في قلوبكم الشك . انه ربما نجى
بعضهم وسيعردون بجيش ليشعروكم .



﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ

مِّنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

قول الحق سبحانه وتعالى «وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» هذا الوعد كان لإعطاء موسى المنهج ، فحينما كلم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور . . كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين - وأنه أرسله ليخلص بنى اسرائيل من طغيان فرعون وعذابه . . وأنه سيمده بآيات ومعجزات . . حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى . . بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه الى فرعون . . وما حدث مع السحرة ثم نجاة موسى وقومه . . بأن شق الله جل جلاله لهم البحر . . هذا في وقت لم يكن المنهج قد نزل بعد . . ولذلك بمجرد أن نجى الله سبحانه وتعالى موسى وقومه وأغرق فرعون . . كان لابد أن يتم ابلاغ موسى بالمنهج . وكان الوعد يشمل أربعين ليلة . . هذه الليالي الأربعون حددت كثلاثين أولاً . . ثم أتمها الحق سبحانه وتعالى بعشر أخرى . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَمُمْ مِيقَاتٍ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وعندما يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائماً بالليلة . . والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن تحدد الزمن بدقة بالنهار . . الشمس تشرق وتغرب ثم تعود لتشرق . . فاذا نظرت الى قرص الشمس . . لا يمكن أن تحدد في أى وقت من الشهر نحن . . هل في أوله أو في وسطه أو في آخره . . ولكن اذا جاء الليل بمجرد أن تنظر الى القمر تستطيع أن تحدد الزمن . فاذا كان القمر هلالاً فنحن في أوائل

الشهر .. وإذا كان بدرا فنحن في وسطه وهكذا ..

إن هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للقمر وقياس الزمن في عرف الناس ؛ الإنسان العادى يستطيع أن يحدد لك الزمن بالتقريب بالليالى .. ويقول لك البدوى في الصحراء ، هذا القمر ابن كذا ليلة .

وفي منطق الدين نحسب كل شيء بدخول الليل .. فهذه ليلة الأول من شهر رمضان نصل فيها التراويح .. وليلة العيد لا تصل فيها التراويح .. وليلة النصف من شعبان .. وليلة الاسراء والمعراج ..

وفي كل مقاييس الدين الليل لا يتبع النهار إلا في شيء واحد هو يوم عرفه .. فلا نقول ليلة عرفه وإنما نقول يوم عرفه .. اذن الليلة هي ابتداء الزمن في الدين .. والزمن عند الله مدته اثنا عشر شهرا للعام الواحد .. السنة الميلادية تختلف عن السنة الهجرية .. والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى وزع رحمته على كونه .. فلو أن المواقيت الدينية سارت على مواقيت الشمس .. لجاء رمضان مثلا في شهر محدد لا يتغير .. يصومه الناس صيفا في مناطق محددة . وشتاء في مناطق محددة ولا يختلف أبدا .. فيظل رمضان يأتي في الصيف والحر دائما بالنسبة لبعض الناس .. وفي الشتاء والبرد دائما بالنسبة لبعض الناس ..

ولكن لأن السنة الهجرية تقوم على حساب الهلال .. فمعنى ذلك أن كل نفحات الله في كونه تأتي في كل الفصول والازمان .. فتجد رمضان في الصيف والشتاء .. وكذلك وقفة هرفات وكذلك كل المناسبات الدينية الطيبة .. لأن السنة الهجرية تنقص أحد عشر يوما عن السنة الميلادية .. والفرق سنة كل ثلاث وثلاثين سنة .

والحق سبحانه يقول : «ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» .

يريد أن يمحض بنى اسرائيل .. ويبين لنا كفرهم بنعم الله . فآله نجاهم من آل فرعون .. ولم يكادوا يعبرون البحر حتى رأوا قوما يعبدون الأصنام .. فقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿يَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

(من الآية ١٣٨ الاعراف)

حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سالمين .. موسى عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه . وترك أخاه هارون مع بني اسرائيل .. وبنو اسرائيل عندما كانوا في مصر .. وكانوا يخدمون نساء آل فرعون .. أخذوا منهم بعض الحلى والذهب خلسة .. ومع أن فرعون وقومه متمردون على الله تبارك وتعالى .. فإن هذا لا يبرر سرقة حلّى نسائهم .. فتحن لا تكافىء من عصى الله فينا بأن نعصى الله فيه .. ونصبح متساوين معهم فى المعصية .. ولكن تكافىء من عصى الله فينا بأن نطيع الله فيه ..

وأبو الدرداء رضى الله عنه حينما بلغه أن شخصا سبه .. بعث له كتابا قال فيه .. يا أخى لا تسرف فى شتمنا .. واجعل للصالح موضعا فإننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .. بنو اسرائيل سرقوا بعض حلّى نساء آل فرعون .. فجعلها الله فتنة لإغوائهم .. وزين لهم الشيطان أن يصنعوا منها عجلا يعبدونه .. صنعه لهم موسى السامرى الذى رباه جبريل .. فأخذ الحلّى وصهرها ليجعلها فى صورة عجل له خوار .. وقال لهم هذا الهكم واله موسى .

اتعرف لماذا فتنهم الله سبحانه وتعالى بالعجل ؟

لأن الذهب المصنوع منه العجل من أصل حرام .. والحرام لا يأتى منه خير مطلقا .. ولا بد أن نأخذ العبرة من هذه الواقعة .. وهى أن الحرام ينقلب على صاحبه شراً ووبالا ، إن كان طعامك حراما يدخل فى تكوين خلاياك ويصبح فى جسدك الحرام .. فإذا دخل الحرام الى الجسد يميل فعلك الى الحرام .. فالحرام يؤرق الجسد ويسوقه الى المعاصى ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ، ثم ذكر ، الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك» (١) .

وقد حصل لبني اسرائيل الشيء نفسه وسرقوا ذهب آل فرعون فانقلب عليهم ظلماً ، وقال الله تعالى عنهم : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .

وعد الله لموسى كما قال أهل العلم كان ثلاثين ليلة . . إتمام الثلاثين ليلة يؤتيه ما وعد . . وكلمة وعد هي الإخبار بشيء سار . والوعيد هي الإخبار بشيء سيئ . . فإذا سمعت وعداً فأعرف أن ماسيحيء بعدها خير . وإذا سمعت وعيداً تعرف أن مابعداً شر ، إلا آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى :

﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الحج)

فهل الوعد هنا بخير أو المعنى يختلف ؟ . . نقول : إن كانت النار موعوداً فهي شر . . وإن كانت النار هي الموعودة والكفار هم الموعود بهم فهي خير للنار ؛ لأن النار تفرح بتعذيب الكافرين من عباد الله . . ونعرف هذا الفرح من قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾

(سورة ق)

ولا يستزيد الانسان إلا من شيء يحبه . . والنار - ككل شيء مسخر - مسخرة لله تكرم العصاة . . ولكنها غير مأمورة بحرقهم في الدنيا . . ولكن في الآخرة تكون سعيدة وهي تحرق العصاة والكافرين .



﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٥٢ ﴿٤١﴾

الله سبحانه وتعالى يمن على بنى اسرائيل مرة اخرى .. مع انهم ارتكبوا ذنبا من ذنوب القمة .. ومع ذلك عفا الله عنهم لأنه يريد أن يستبقى عنصر الخير للناس .. يريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم . يفتح أبواب التوبة للواحد بعد الآخر .. لتمحو خلايا الشر في النفس البشرية ..

إن الانسان حين يذنب ذنبا ينفلت من قضية الايمان .. ولو لم تشرع التوبة والعفو من الله لزاد الناس في معاصيهم وغرقوا فيها .. لانه إذا لم تكن هناك توبة وكان الذنب الواحد يؤدي الى النار .. والعقاب سينال الانسان فإنه يتهادى في المعصية . وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده .. وفي الحديث الشريف :

لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ^(١)

معنى الحديث .. رجل معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه. هذا البعير تاه في صحراء جرداء .. بحث عنه صاحبه فلم يجده .. لقد فقدته وفقد معه كل مقومات حياته .. ثم ينظر فيراه أمامه .. كيف تكون فرحته ؟ .. طبعا بلا حدود . هكذا تكون فرحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن بل أشد من ذلك .

ان الله تبارك وتعالى حين يفتح باب التوبة . يريد لحركة العالم أن تسير .. هب ان نفسا غفلت مرة .. أو قادتها شهوتها مرة الى معصية . أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء . لو لم تكن هناك توبة ومغفرة .. لا نقلب

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ٥٢

الحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل هنا . . أنه بعد أن أراهم من المعجزات الكثير . ونجاهم من آل فرعون وشق لهم البحر - كان لابد أن يؤمنوا إيماناً حقيقياً لا يشوبه أى نوع من التردد . . ذلك لأنهم رأوا وشهدوا . . وكانت شهادتهم عين يقين . أى شهدوا بأعينهم ماذا حدث . .

ولكن هل استطاعت هذه المشاهدة أن تمحو من قلوبهم النفاق والكفر ؟ . . لا . . لقد ظلوا معاندين طوال تاريخهم . لم يأخذوا أى شيء بسهولة . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من أن يكونوا كبنى اسرائيل ويكونوا قوماً شددوا فشد الله عليهم . . وكان ذلك بالنسبة لقصة البقرة . . التى أمروا أن يذبحوها ليعرفوا من القاتل فى جريمة قتل كادت تثير حروباً بينهم . . فآخذوا يسألون ما هى وما لونها الى آخر ما استحدث عنه . . عندما نأتى الى الآيات الكريمة الخاصة بهذه الواقعة . فلو ذبحوا أى بقرة لكفتهم . . لأنه يكفى أن يقول لهم الله سبحانه وتعالى إذبحوا بقرة فيذبحوا أى بقرة . وعدم التحديد يكون أسهل عليهم . . ولكنهم سألوا وظلوا يسألون فشد عليهم . . بتحديد بقرة معينة بذاتها . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) (١) .

والله سبحانه وتعالى فى قوله : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ » . كأن إتيان موسى الكتاب والفرقان . . نعمة يجب أن يذكرها قومه . . وأن يستقبلوا منهج الله

على أنه نعمة .. فلا يأخذ الانسان التكليف الالهى من زاوية ما يقيد حركته ولا ما يعطيه له .. ذلك أن الله حين حرم عليك السرقة .. حرم على الناس جميعا أن يسرقوك .. فاذا أخذ منك حرمتك أن تسرق .. فقد أخذ من الناس كل الناس حرمتهم أن يسرقوا مالك .. وهذه حماية كبيرة لك .

ما هو الكتاب .. وما هو الفرقان ؟ .. الكتاب هو التوراة .. هو الذى يبين المنهج .. والفرقان هو الأشياء التى يفرق الله فيها بين الحق والباطل .. فكان الفرقان تطلق مرة على التوراة .. لانها تفرق بين الحق والباطل . وتطلق ايضا على كل ما يفرق بين الحق والباطل .. ولذلك سمي يوم بدر يوم الفرقان .. لأنه فرق بين الحق والباطل .. فكان منهج الله وكتابه يبين لنا أين الحق وأين الباطل ويفرق بينهما .



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥١﴾﴾

يذكر الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بقصة عبادة العجل . وهي قصة مخالفة خطيرة لمنهج الله ومخالفة في القمة . . عبادة الله وحده . والذي حدث ان موسى عليه السلام ذهب لميقات الله ومعه نقباء قومه ليتلقى المنهج والتوراة . . وأخبره الله سبحانه وتعالى أن قومه قد ضلوا وعبدوا غير الله . . وعاد موسى وهو في قمة الغضب . وامسك بأخيه هارون يجره من رأسه ولحيته . . ويقول له لقد اخلفتك عليهم لكيلا يضلوا ، فقال هارون عليه السلام :

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٥٢﴾﴾

(سورة طه)

فتنة عبادة العجل حدثت بسبب السامري . . والسامري اسمه موسى السامري ولدته أمه في الصحراء وماتت فكفله جبريل ورباه . . وكان جبريل عليه السلام يأتيه على حصان . . يحمل له ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وكان موسى السامري يرى حصان جبريل ، كلما مشى على الأرض وقع منه تراب فتخضر وتنبت الأرض بعد هذا التراب . وأيقن أن في حافر الحصان سراً . . فأخذ قبضة من أثر الحصان ووضعها في العجل المصنوع من الذهب . فأخذ يحدث خوارا كأنه حي . .

ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها الناس . . لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه . والذي يحمل دعوة الحق

لا بد أن يهتبه الله سبحانه وتعالى تهبة خاصة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينتقل الى المدينة . . تعرض هو والمسلمون لا بتلاوات كثيرة . . ولقد جاء حدث الاسراء والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تخلت عنه أسباب الدنيا في مكة وذهب الى الطائف يدعو أهلها فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم فحذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين . . ورفع يديه الى السماء بالدعاء المأثور :

«اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس» . .

وليس هذا على الرسول وحده بل والمؤمنين معه . . حتى أن مصعب بن عمير فقي قريش المدلل . . الذي كان عنده من الملابس والأموال والعبيد ما لا يعد ولا يحصى رثى بعد اسلامه وهو يرتدى جلد حمار وذلك حتى يختبر الحق سبحانه وتعالى في قلب مصعب بن عمير حبه للإيمان . . هل يحب الدنيا أكثر أو يحب الله ورسوله أكثر . . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقول للصحابه انظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم .

والله تبارك وتعالى لا بد أن يمحس ويختبر أولئك الذين سيحملون دعوته الى الدنيا كلها . . لا بد أن يكونوا صابرين على البلاء . أقوياء امام خصوم الدعوة . . مستعدين لتحمل المتاعب والآلام . . لأن هذا هو دليل الصلوق في الإيمان . .

ولذلك تجدد كل دعوة ضلال تأتي بالفائدة لأصحابها . . دعوة الشيوعية يستفيد منها أعضاء اللجنة المركزية . . أما الشعب فإنه يرتدى ملابس رخيصة . . ويسكن في بيوت ضيقة . أما السادة الذين ينفقون بلا حساب فهم أعضاء اللجنة المركزية . . هذه دعوة الباطل . . وعكس ذلك دعوة الحق . . صاحب الدعوة هو الذي يدفع أولا ويضحى أولا . لا يتفجع بما يقول بل على العكس يضحى في سبيل ما يقول . . اذن الباطل يأتي بالخير لصاحب الدعوة . فإذا رايت دعوة تغلق على أتباعها فاعلم أنها دعوة باطل . . لولا أنها أعطت بسخاء ما تبناها أحد .

والآية الكريمة التي نحن بصددناها هي تفريع من موسى عليه السلام لقومه . . الذين نجاهم الله من آل فرعون وأهلك عدوهم فاتخذوا العجل إلها . . ومضى

حدث ذلك ؟ في الوقت الذي كان موسى فيه قد ذهب لميقات ربه ليأتى بالمنهج . .
والذين اتخذوا العجل إلها . . هل ظلموا الله سبحانه وتعالى أو ظلموا
أنفسهم ؟ . . ظلموا أنفسهم لأنهم أوردوها مورد التهلكة دون أن يستفيدوا
شيئا . . والظالم على أنواع . . ظالم في شيء أعلى أي في القمة . . وظالم في مطلوب
القمة . . الظالم في القمة هو الذي يجعل الله شريكا ولذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكا لمن خلق
ورزق . . وذلك الذي جعلته إلها كيف يعبد ؟ . . العبادة طاعة العابد
للمعبود . . فماذا قال لكم هذا العجل الذي عبدتموه من دون الله أن تفعلوا . .
لذلك فأنتم ظالمون ظلم القمة . . والظلم الآخر هو الظلم فيما شرعت القمة . .
بأن أخذتم حقوق الناس واستباحتموها . . في كلتا الحالتين لا يقع الظلم على الله
سبحانه وتعالى ولكن على نفسك . لماذا ؟ . . لأنك آمنت بالله أو لم تؤمن .
سيظل هو الله القوى القادر العزيز . لن يُنقص إيمانك أو عدم إيمانك من ملكه
شيئا . ثم تأتي يوم القيامة فيعذبك . فكان الظلم وقع عليك . . وإذا أخذت
حقوق الناس فقد تتمتع بها أياما أو أسابيع أو سنوات ثم تموت وتركها وتأخذ
العذاب . فكانك ظلمت نفسك ولم تأخذ شيئا . . لذلك يقول الحق جل
جلاله :

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

وظلم الناس يعود على أنفسهم . . لأنه لا أحد من خلق الله يستطيع أن يظلم
الله سبحانه وتعالى . . وقوله سبحانه «فتوبوا إلى بارئكم» . . الحق تبارك وتعالى
قال في الآية السابقة «عفونا عنكم» ثم يقول في هذه الآية «فتوبوا إلى بارئكم» . .
لأن التوبة هي أصل المغفرة . أنت تتوب عن فعلك للذنوب وتعزم ألا تعود لمثله
أبدا ويقبل الله توبتك ويعفو عنك . .

وقد كان من الممكن أن يأخذهم الله بهذا الذنب ويهلكهم كما حدث بالنسبة للأمم السابقة . . . أما وقد شرع الله لهم أن يتوبوا . فهذا فضل من الله وعفو . . . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « فاقتلوا أنفسكم » . . . فانظروا الى دقة التكليف ودقة الحيثية في قوله تعالى : « فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » الله سبحانه وتعالى يقول لهم . . . أنا لم أغلب عليكم خالقاً خلقكم أو أخذكم منه . . . ولكن أنا الذى خلقتكم . ولكن الخالق شيء والبارئ شيء آخر . . . خلق أى أوجد الشيء من عدم . . . والبارئ أى سَوَّاهُ على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم . . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۖ ﴾ (٤)

(سورة الاعلى)

ومن هنا نعرف أن الخلق شيء والتسوية شيء آخر . . . بارئكم مأخوذة من برئء السهم . . . وبرئء السهم يحتاج الى دقة وبراعة .

وقوله تعالى : « فاقتلوا أنفسكم » لأن الذى خلقك وسواك كفرت به وعبدت سواه . فكانك في هذه الحالة لابد ان تعيد له الحياة التى وهبها لك . . . وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى . . . جعل موسى بنى اسرائيل يقفون صفوفا . وقال لهم ان الذى لم يعبد العجل يقتل من عبده . . . ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ . كان الواحد منهم يمد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشق عليه التنفيذ . . . فرحمهم الله بأن بعث ضباباً يسترهم حتى لا يجذوا مشقة في تنفيذ القتل . . . وقيل أنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً .

وعندما حدث ذلك أستصرخ موسى وهارون ربهما . . . وقالا البكية البكية . أى أبكوا عسى أن يعفو الله عنهم . ووقفوا ليكون أمام حائط المبكى فرحمهم الله . . .

وقوله تعالى : « فاقتلوا أنفسكم » لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها . . . هى التى جعلتهم يتمرّدون على المنهج . . .

إن التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب . لأن الذى عبد العجل واتخذ لها آخر غير الله . كونه يقدم نفسه ليقتل فهذا اعتراف منه بأن العجل الذى كان يعبد

باطل .. وهو بذلك يعيد نفسه التي تمردت على منهج الله الى العبادة الصحيحة .. وهذا اقصى انواع الكفارة .. وهو أن يقتل نفسه اثباتا لإيمانه .. بأنه لا إله إلا الله ونندما على ما فعل واعلانا لذلك .. فكان القتل هنا شهادة صادقة للعودة الى الايمان .

وقوله تعالى «ذلكم خير لكم عند بارئكم» .. أى أن هذه التوبة هي أصدق أنواع التوبة .. وهي خير لأنها تنجيكم من عذاب الآخرة .. وقوله سبحانه «فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم» . التوبة الأولى أنه شرع لكم الكفارة .. والتوبة الثانية عندما تقبل منكم توبتكم .. وعفا عنكم عفوا أبديا .



﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ۖ فَآخَذْنَاكُمْ بِالضَّرِيقَةِ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾

بعد أن تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل .. عادوا مرة أخرى الى عنادهم وماديتهم . فهم كانوا يريدون إلها ماديا .. إلها يرونه ولكن الإله من عظمته أنه غيب لا تدركه الأبصار .. واقرأ قوله تعالى :

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

(سورة الأنعام)

فكون الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر .. هذا من عظمته جل جلاله .. ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادى المحس .. لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم الى أن الله سبحانه تعالى فوق المادة وفوق الأبصار .. وهذه النظرة المادية نظرة حمقاء .. والله تبارك وتعالى قد لفتنا الى قضية رؤيته جهرا في الدنيا .. بقوله تعالى :

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(سورة الزاريات)

أى أن الله جل جلاله وضع دليل القمة على وجود الله الذى لا تدركه الأبصار . وضع هذ الدليل فى نفس كل واحد منا . وهى الروح الموجودة فى الجسد .. والانسان مخلوق من مادة نفخت فيها الروح فدبت فيها الحياة والحركة والحس .. اذن كل ما فى جسدك من حياة .. ليس راجعا الى المادة التى تراها

أمامك .. وإنما يرجع الى الروح التي لا تستطيع أن تدركها إلا بآثارها .. فإذا خرجت الروح ذهبت الحياة وأصبح الجسد رمة .

إذا كانت هذه الروح التي في جسدك .. والتي تعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها مع أنها موجودة داخلك .. فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى .. كان يجب أولاً أن تسأل الله أن يجعلك تدرك الروح التي في جسدك .. ولكن الله سبحانه وتعالى قال إنها من أمر الله .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

(سورة الأسراء)

إذا كانت هذه الروح هي مخلوقة لله لا تدركها .. فكيف تطمع أن ترى خالقها .. وانظر الى دقة الأداء القرآني في قوله سبحانه . «حتى نرى الله جهرة» .. فكلمة نرى تطلق ويراد بها العلم . مثلاً :

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الفرقان)

أى أعلمت .. ولكن جاءت كلمة جهرة لتنفي العلم فقط وتطالب بالرؤية بجهرة واضحة يدركونها بحواسهم . وهذا دليل على أنهم متمسكون بالمادية التي هي قوام حياتهم .. نقول لهؤلاء إن سؤالكم يتسم بالغباء .. فأنتم حين تطلبون أن تروا الله جهرة . والمفروض أن الله تبارك وتعالى له مدلول عندكم .. ولذلك تطلبون رؤيته لتقارنوا المدلول على الموجود .. ذلك لو كانت القضية أصلاً أن تعرفوا أن الله موجود أو غير موجود .. والذي شجعهم على أن يقولوا ما قالوا .. طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يراه . واقرأ قوله تعالى :

﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَّرِيْكَ وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اَسْتَقَرَّ

مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيْكَ فَلَمَّا نَجَّى رَبُّهُ الْجَبَلَ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

ولابد أن نعرف أن قضية رؤية الله في الدنيا محسومة . . وأنه لا سبيل إلى ذلك والانسان في جسده البشري . . لأن هذا الجسد له قوانين في ادراكاته . . ولكن يوم القيامة نكون خلقا بقوانين تختلف . . ففي الدنيا لابد أن تخرج مخلقات الطعام من اجسادنا . وفي الآخرة لا مخلقات . وفي الدنيا يحكمنا الزمن . . وفي الآخرة لا زمن . إذ يظل الانسان شابا دائما . . إذن فهناك تغيير . .

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة في الدنيا باعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله . وفي الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى . . وهذا قمة النعيم في الآخرة . أنت الآن تعيش في آثار قدرة الله . . وفي الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى . . وفي ذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

(سورة القيامة)

والانسان في الدنيا قد اخترع آلات حكمته من أن يرى ما لا يراه بعينه المجردة يرى الاشياء الدقيقة بواسطة الميكروسكوب . والاشياء البعيدة بواسطة التلسكوب . . فاذا كان عمل الانسان في الدنيا جعله يبصر ما لم يكن يبصره . . فما بالك بقدرة الله في الآخرة . . وإذا كان الانسان عندما يضعف نظره . يطلب منه الطبيب استعمال نظارة . . فاذا ذهب إلى طبيب أمهر . . أجرى له عملية جراحية في عينه يستغنى بها عن النظارة ويرى بدونها . . فما بالكم بإعداد الحق للمخلوق وبقدرة الله التي لا حدود لها في أن يعيد خلق العين بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشري . . لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكا . . وكان الله يريد أن يفهم موسى . . أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة منه . لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى . إذا كان موسى قد صعد برؤية المتجلى عليه . . فكيف لو رأى المتجلى ؟ . .

والانسان حين يعجز عن إدراك شيء في الدنيا لأنه مخلوق بهذه الامكانيات

يكون العجز عن الادراك ادراكا لأن العجز عن الادراك هو في عظمة الله سبحانه
وتعالى . . وقوم موسى حينما طلبوا منه أن يروا الله جهرة أخذتهم الصاعقة وهم
ينظرون . . عندما اجتروا هذا الاجترأ على الله أخذتهم الصاعقة . . والصاعقة
إما نار ثاق وإما عذاب يتزل . . المهم أنه بلاء يعمهم . . والصاعقة قد أصابت
موسى .



﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٥١

فالحق سبحانه وتعالى يكمل لنا قصة الذين قالوا «ارنا الله جهرة فانخذتهم الصاعقة» . موسى عليه السلام أصيب بالصاعقة أيضا . . . عندما طلب أن ينظر الى الله . ولكن هناك فرق بين الحالتين . . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَنَرَىٰ مُوسَىٰ صَاحِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنكَ بُتُّ إِلَٰهِي وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الاعراف)

ولكن الأمر لم يكن كذلك مع قوم موسى . فمع موسى قال الله سبحانه وتعالى : «فلما أفاق» أي أن الصاعقة أصابته بنوع من الاغماء . . . ولكن مع قوم موسى . قال : «ثم بعثناكم من بعد موتكم» . . . فكان قوم موسى ماتوا فعلا من الصاعقة . . . فموسى أفاق من تلقاء نفسه . . . أما أولئك الذين أصابتهم الصاعقة من قومه . . . فقد ماتوا ثم بعثوا لعلهم يشكرون .



﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ
كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٥٧

قاله سبحانه وتعالى يريد أن يمتن على بني اسرائيل بنعمه ومعجزاته . . ويرينا أنه برغم كل هذه النعم عاش بنو اسرائيل في عنادهم وتمتعهم ، بعد أن طلب بنو اسرائيل أن يروا الله جهرة فقتلتهم الصاعقة . . ثم بعثهم الله تبارك وتعالى لعلهم يشكرون . . ذكر لنا الحق جل جلاله نعماً أخرى من نعمه على بني اسرائيل . . وقال اذكروا إذ كنتم في الصحراء وليس فيها ظل تختمون به من حرارة الشمس القاسية . . وليس فيها مكان تستظلون فيه ، لأنه لا ماء ولا نبات في الصحراء . . فظل الله سبحانه وتعالى عليكم بالغيام . . أي جاء الغمام رحمة من الله سبحانه وتعالى . . ثم بعد ذلك جاء المن والسلوى . .

والمن نقط حمراء تتجمع على أوراق الشجر بين الفجر وطلوع الشمس . وهي موجودة حتى الآن في العراق . . وفي الصباح الباكر يأتي الناس بالملاءات البيضاء ويفرشونها تحت الشجر . . ثم يهزون الشجر بعنف فتسقط القطرات الموجودة على ورق الشجر فوق الملاءات . . فيجمعونها وتصبح من أشهى أنواع الحلويات . فيها طعم القشلة وحلاوة عسل النحل . . وهي نوع من الحلوى اللذيذة المغذية سهلة الهضم سريعة الامتصاص في الجسم . والله سبحانه وتعالى جعله بالنسبة لهم وقود حياتهم . . وهم في الصحراء يعطيهم الطاقة . أما السلوى فهي طير من السماء ويقال انه السمان . . يأتيهم في جماعات كبيرة لا يعرفون مصدرها . . ويبقى على الأرض حتى يمسكوا به ويذبحوه ويأكلوه .

قاله تبارك وتعالى قد رزقهم بهذا الرزق الطيب من غمام يقيهم حرارة الشمس ، ومن يعطيهم وقود الحركة . وسلوى كغذاء لهم ، وكل هذا يأتيهم من

السماء دونما تعب منهم . . ولكنهم لعدم ايمانهم بالغيبات يريدون الأمر المادى وهم يخافون أن ينقطع المن والسلوى عنهم يوما ما فماذا يفعلون ؟

لو كانوا مؤمنين حقا لقالوا : إن الذى رزقنا بالمن والسلوى لن يضيعنا . . ولكن الحق جل جلاله ينزل لهم طعامهم يوميا من السماء وهم بدلا من أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر قابلوها بالجحود .

وقوله تعالى : «وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فالحق سبحانه وتعالى يتحدث للمرة الثالثة عن ظلم قوم موسى . . ففى المرة الأولى قال «وانتم ظالمون» . وفى الآية الثانية قال : «ظلمتم أنفسكم» . . وفى هذه الآية قال : «وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» . .

ولقد سبق أن قلت انه لا أحد يستطيع أن يظلم الله لأن الله سبحانه وتعالى باق بقدرته وقوته وعظمته . . لا يقلل منها لو كفر أهل الأرض جميعا ولا يزيد فيها لو آمن أهل الأرض كلهم . . فقدره الله باقية وكلمته ماضية . . ولكن نحن الذين نظلم أنفسنا . . بأن نوردها مورد التهلكة والعذاب الذى لا نجاة منه دون أن نعطيها شيئا . .

إن الدنيا كما قلنا عالم أغيار . . والنعمة التى أنت فيها زائلة عنك . . إما أن تتركها بالموت أو تتركها هى وتزول عنك . . وتخرج من الدنيا تحمل أعمالك فقط . . كل شىء زال وبقيت ذنوبك تحملها الى الآخرة . . ولذلك فإن كل من عصى الله وتمرد على دينه قد ظلم نفسه لأنه قادها الى العذاب الأبدى طمعا فى نفوذ أو مال زال بعد فترة قصيرة ولم يدم . . فكانه ظلمها بأن حرمها من نعيم أبدي واعطاها شهرة قصيرة عاجلة .



﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٥٨

من هذه الآية الكريمة نعرف أن بني اسرائيل رفضوا رزق السماء من المن والسلوى مع أنه كان رزقا عاليا .. عاليا في الجودة لأنه طعام حلونقى شهى ينزل لهم من السماء مباشرة ، وعاليا في الكثرة من أنه كان يأتيهم بلا عمل وبلا تعب وبكميات هائلة تكفيهم وتزيد .. وطلبوا من موسى طعام الأرض الذى يزرعونه بأيديهم ويروونه أمامهم كل يوم فقد كانوا يخافون أن يستيقظوا يوما فلا يجدون المن والسلوى ، الحق سبحانه وتعالى يكمل لنا القصة في آية قادمة :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى
بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

قاله سبحانه وتعالى مازال يمتن على بني اسرائيل بنعمه وكيف قابلوها بالجحود .. فيذكرهم بإنجائهم من عذاب آل فرعون .. ويذكرهم بالبحر الذى انشق لهم فمشوا فيه ثم انقض الماء بعد ذلك على آل فرعون فأغرقهم .. ويذكرهم كيف أنهم عبدوا العجل بعد ذلك .. وكان من الممكن أن يهلكهم الله بذنوبهم . كما أهلك الأمم السابقة ولكنه عفا عنهم .. ثم يذكرهم بفضله عليهم بأن أعطاهم الكتاب الذى يفرق بين الحق والباطل .. ويذكرهم بأنهم طلبوا أن يروا الله جهرة .. فصعقوا وماتوا ثم بعثهم الله . ويذكرهم كيف ظللهم بالغيام

من حرارة الشمس المحرقة .. ورزقهم بالئن والسلوى .. ثم يذكرهم بأنهم طلبوا طعام الأرض فاستجاب لهم .

في هذه الآية يقول الحق تبارك وتعالى : « فكلوا منها حيث شئتم رغدا » . وفي آية أخرى يقول : « رغدا حيث شئتم » . الفرق في المعنى أن قوله تعالى : « حيث شئتم رغدا » تدل على أن هناك أصنافاً كثيرة من الطعام . « ورغداً حيث شئتم » يكون هناك صنف واحد والناس جائعون فيقبلون على الطعام .. عندما يقول الحق جل جلاله : « كلوا رغداً يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان غير جائع ولذلك تعد له ألواناً متعددة من الطعام لتغريه على الأكل .. فتقدم في هذه الحالة « حيث شئتم » فيقال : « فكلوا منها حيث شئتم رغداً .. فإذا كان الإنسان جوعان يرضى بأي طعام .. فيقال رغداً حيث شئتم » .

إن المسألة في القرآن الكريم ليست تقديمًا وتأخيرًا في الألفاظ .. ولكن المعنى لا يستقيم بدون هذا التغيير .. قوله تعالى « ادخلوا هذه القرية » .. والقرية هي هنا بيت المقدس أو فلسطين أو الأردن .. الحق تبارك وتعالى يقول : « وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » ..

والحق جل جلاله حين مخاطبتهم بين لنا أنهم لم يكونوا في حالة جوع شديد بحيث يأكلون أى شيء فقال : « فكلوا منها حيث شئتم رغداً أى متجدون فيها ألواناً كثيرة من الطعام تغريكم على الأكل ولو لم تكونوا جائعين . وقوله تعالى : « وادخلوا الباب سجداً » .. أى ادخلوا الباب وأنتم في منتهى الخضوع .. « وقولوا حطة » أى حط عنا ذنوبنا يارب .. غير أنهم حتى في الأمر يغيرون مضمونه .. ويلبسون الحق بالباطل .. وهذه خاصية فيهم .. ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين .. دخلوه زاحفين على ظهورهم .. مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه .. فكان المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة .. ولكنها أتت من الرغبة في مخالفة أمر الخالق وبدلاً من أن يقولوا حطة . أى حط عنا يارب ذنوبنا قالوا حنطة والحنطة هي القمح .. ليطوعوا اللفظ لأغراضهم .. فكان المسألة ليست عدم قدرة على الطاعة ولكن رغبة في المخالفة .

ومع ان الحق تبارك وتعالى وعدهم بالمغفرة والرحمة والزيادة للمحسنين ..

فإنهم خالفوا وعصوا . . وقوله تعالى : «وسنزيد المحسنين» يأتي في الآية الكريمة :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

أي لهم اجر مثل ما فعلوا أضعافا مضاعفة . . وما هي الزيادة ؟
أن يروا الله يوم القيامة . هذه هي الزيادة التي ليس لها نظير في الدنيا .



﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ٥٩

الله سبحانه وتعالى يشرح لنا في هذه الآية الكريمة كيف أن اليهود قوم معصية رغم نعم الله عليهم .. فلو أن الله سبحانه وتعالى كلفهم تكليفا لم يستطيعوه ؛ لأنه شاق عليهم فربما كان لهم عذرهم .. ولكن الله تبارك وتعالى لا يكلف إلا بما هو في طاقة الانسان أو أقل منها .. فيقول جل جلاله :

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

والله تبارك وتعالى لم يكلف بني اسرائيل بأن يدخلوا هذه القرية التي يقال إنها القدس ويقال أنها قرية في فلسطين أو قرية في الاردن .. إلا بناء على طلبهم هم . فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أن يدخلوا واديا فيه زرع .. ليأكلوا مما تنتج الأرض ويطعمتوا على طعامهم .. لأنهم يخافون أن يأتي يوم .. لا ينزل عليهم المن والسلوى من السماء .. فلما استجاب الله لدعواهم وقال لهم ادخلوا الباب خاشعين . وقولوا يارب حط عنا ذنوبنا .. بدل بنو اسرائيل القول فبدلا من أن يقولوا حطة قالوا حنطة .. وبدلوا طريقة الدخول فبدلا من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على ظهورهم زاحفين .. وكان هذا رغبة في المخالفة .. فأصابهم الله بعذاب من السماء بما كانوا يفسقون .. أى يتعدون عن منهج الله ولا يطبقونه . رغبة في المخالفة وإصرارا على العناد .

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ
كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ﴾

ومعناها : اذكر اذ استسقى موسى لقومه . . وهذه وردت كما بينا في عدة آيات
في قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَجَبْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الاعراف)

وقول سبحانه :

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۖ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

وقوله جل جلاله :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ۖ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلنا أن هذه كلها نعم امتن الله بها على بني اسرائيل وهو سبحانه وتعالى
يذكرهم بها . إما مباشرة وإما على لسان موسى عليه السلام . والحق يريد أن
يذكر بني اسرائيل حينما تاهوا في الصحراء أنه أظلمهم بالغيام . . وسقاهم حين

طلبوا السقيا . . ولقد وصلت ندرة الماء عند بني اسرائيل لدرجة أنهم لم يجدوا ما يشربونه . . لأن الانسان يبدأ الجفاف عنده لعدم وجود ماء يسقى به زرعه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يسقى به أنعامه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يشربه . . وهذا هو قمة الجفاف أو الجذب . .

وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله تبارك وتعالى . . ولا تطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفذت . . وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم ؛ فالماء مصدر الحياة ينزله الله من السماء . . وينزله نفيا طاهرا صالحا للشرب والرى والزرع وسقيا الأنعام . .

والحق سبحانه وتعالى جعل ثلاثة أرباع الأرض ماء والربع يابسا . . حتى تكون مساحة سطح الماء المعرضة للتبخّر بواسطة اشعة الشمس كبيرة جدا فتسهل عملية البخر ؛ فانك اذا جثت بكوب ماء وتركته في حجرة مغلقة لمدة يومين أو ثلاثة . . ثم عدت تجده ناقصا قيراطا أو قيراطين . . ولكن إذا أمسكت ما في الكوب من ماء وألقيته على أرض الحجرة . . فإنه يجف قبل أن تغادرها . . لماذا ؟ . . لأن مساحة سطح الماء هنا كبيرة . . ولذلك يتم البخر بسرعة ولا يستغرق وقتا .

هذه هي النظرية نفسها التي تتم في الكون . الله تبارك وتعالى جعل سطح الماء ثلاثة أرباع الأرض ليتم البخر في سرعة وسهولة . . فيتكون السحاب وينزل المطر نأخذ منه ما نحتاج اليه ، والباقي يكون ينابيع في الأرض ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿الرَّ تَرَأْنِ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَلَكُمْ أَنْتَ بِحِجَابٍ مِنَ الْأَرْضِ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

هذه الينابيع تذهب الى أماكن لا يصلها المطر . ليشرب منها الناس بما نُسَمِيهِ الآبار أو المياه الجوفية . . وتشرب منها انعامهم . . فإذا حدث جفاف يخرج الناس رجالا ونساء وصبياناً وشيوخاً . يتضرعون الى الله ليمطرهم بالماء . . ونحن اذا توسلنا بأطفالنا الرضع وبالضعفاء بمطرنا الله .

وبعض الناس يقولون ان المطر ينزل بقوانين علمية ثابتة . . يصعد البخار من البحار ويصبح سحباً في طبقات الجو العليا ثم ينزل مطراً . . تلك هي القوانين الثابتة لنزوله .

وأن السحاب لا بد أن يكون ارتفاعه عدد كذا من الأمتار . . ليصل الى برودة الجو التي تجعله ينزل مطراً . ولا بد أن يكون السحاب ملقحاً . . نقول ان هذا كله مرتبط بمتغيرات . فالرياح تهب أو لا تهب . وتحمل السحاب الى منطقة عالية باردة ولا تحمله وغير ذلك . .

إذن فكل ثابت عمول على متغير . . قد تعرف أنت القوانين الثابتة . . ولكن القوانين المتغيرة لا يمكن أن تتنبأ بما ستفعل ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَوَّسَقُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِبَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝١٦﴾

(سورة الجن)

إذن فعوامل سقوط المطر لا تخضع لقوانين ثابتة . ولكن المتغير هو العامل الحاسم . ليسوق السحاب الى المناطق الباردة وإلى الارتفاع المطلوب . . ولا بد أن نشه الى ان هناك قوانين ثابتة في الكون وقوانين تتغير . . وأن القانون المتغير هو الذي يحدث التغير .

وقوله تعالى : «وإذ استسقى موسى لقومه» . . تدل على أن هناك مُستسقى بفتح القاف وأن هناك مستسقى بكسر القاف . . مستسقى بكسر القاف أى صارع الى الله لينزل المطر . . أما المستسقى بفتح القاف فهو الله سبحانه وتعالى الذي ينزل المطر . .

إن هذا الموقف خاص بالله نبارك وتعالى فلا توجد مخازن للمياه وليس هناك ماء في الأرض . . من أنهار أو آبار أو عيون ولا ملجأ الا الله . . فلا بد من التوسل لله تبارك وتعالى :

عن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل اليك

بنينا صلى الله عليه وسلم فتسقيننا ، وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا قال :
فيسقون^(١)

بعض الناس يقولون هذا دليل على أن الميت لا يستعان به . . . بدليل أن عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه لم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ،
وإنما توسل بعم رسول الله . . . نقول وبمن توسل عمر ؟ . . . أتوسل بالعباس أم
بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . . . توسل بالرسول ، وبذلك أخذنا الحجة
أن الوسيلة ليست مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وإنما تتعدى إلى
أقاربه . . .

وهنا يأتي سؤال لماذا نقل الأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عم
الرسول ؟ . . . نقول لأن رسول الله قد انتقل ولا ينتفع الآن بالماء . . . ولكن عمه
العباس هو الخي الذي ينتفع بالماء . . . لذلك كان التوسل بعم رسول الله صلى الله
عليه وسلم . ولم يكن منطقياً أن يتوسلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وهو
ميت لا يحتاج إلى الماء . . . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بذوى الجاه . . . نقول
لهم أن الحديث ضدكم وليس معكم . . . لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن ينتسب
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لا بد أن نتحدث كيف أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن قابل بنو إسرائيل النعمة
بالجحود والنكران فكيف يسقيهم ؟ . . . نقول إنها النبوة الرحيمة التي كانت
السبب في تنزل الرحمة نلو الرحمة على بنى إسرائيل . . . وكان طمع موسى في رحمة
الله بلا حدود . . . ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى من موسى عليه السلام
لقومه . . . وكانت الاستجابة من الله تأتي .

كان من المفروض لاستكمال المعنى أن يقال وإذا استسقى موسى ربه لقومه فقال
يا رب اسقهم . . . ولكن هذه لم تأت حذف وجاء بعدها الإجابة : « وإذا استسقى
موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر . . . إذن قوله يا رب اسق قومي
واستجابة الله له محذوفة لأنها مفهومة . . . ولذلك جاء القرآن باللفظات الأساسية
وترك اللفظات المفهومة للكاء الناس . . . تماماً كما جاء في سورة النمل: الهدهد ذهب
ورأى ملكة بلقيس وعرشها . وعاد إلى سليمان وأخبره . فطلب سليمان من الهدهد

أن يلقى الى ملكة سبأ وقومها كتابا وقال :

﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ٢٨
يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَنزِلْتُ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿ ٢٩ ﴾

(سورة النمل)

فسليمان أمر الهدهد أن يلقى كتابا الى بلقيس وقومها . . والآية التي بعدها جاءت بقوله تعالى : قالت «يا أيها الملأ إن ألقى الى كتاب كريم» كل التفاصيل حذفت من أن الهدهد أخذ الكتاب وطار الى ملكة سبأ وألقى الكتاب أمام عرشها . . والتفتت بلقيس ملكة سبأ الكتاب وقرأته . . ودعت قومها وبدأت تروى اليهم قصة الكتاب . . كل هذا حُذف لأنه مفهوم .

قال موسى يارب اسق قومي . . والله سبحانه وتعالى قال له : إن أردت الماء لقومك . . كل هذا محذوف . . وثاني الآية الكريمة : «فقلنا اضرب بعصاك الحجر» .

«اضرب بعصاك الحجر» لنا معها وقفة . . الإنسان حين يستسقى الله . . يطلب منه أن ينزل عليه مطرا من السماء ، والحق تبارك وتعالى كان قادرا على أن ينزل على بني اسرائيل مطرا من السماء . ولكن الله جل جلاله أراد المعجزة . . فقال سامدكم بماء ولكن من جنس ما منعكم الماء وهو الحجر الموجود تحت أرجلكم . . لن أعطيكم ماء من السماء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بني اسرائيل مدى الإعجاز . . فأعطاهم الماء من الحجر الذي تحت أرجلهم .

ولكن من الذي يتأثر بالضرب : الحجر أم العصا ؟ . . العصا هي التي تتأثر وتنحطم والحجر لا يحدث فيه شيء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بضربة واحدة من العصا أن ينفلق الحجر . . ولذلك يقول الشاعر :

أياها زئاً من صنوف القدر

بنفسك تغنف لا بالقدر

ويا ضاربا صخرة بالعصا

ضربت العصا أم ضربت الحجر

إن انفجار الماء من ضربة العصا دليل على أن العصا أشارت فقط الى الصخرة فتفجر منها الماء . . وحتى لو كانت العصا من حديد . . هل تكون قادرة على ان تجعل الماء ينبع من الحجر ؟

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من السماء . . ولكن الله أرادها نعمة مركبة . . ليعلموا أنه يستطيع أن يأتي بالماء من الحجر الصلب . . وأن ينبع الماء من متعلقات «كن» .

هنا لابد أن ننظر الى تعنت بنى اسرائيل، قالوا لموسى هب أنا في مكان لا حجر فيه . من أين ينبع الماء ؟ . . لابد أن نأخذ معنا الحجر حتى اذا عطشنا نضرب الحجر بالعصا . . ونسوا أن هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة «كن» . . ولذلك تجمد مثلاً كبار الأطباء يختارون في علاج مريض . . ثم يشفى على يد طبيب ناشيء حديث التخرج . . هل هذا الطبيب الناشيء يعرف أكثر من أساتذته الذين علموه ؟ . . الجواب طبعاً لا .

إن التلميذ لا يتفوق على استاذة الذى علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها ولكن بقدرة المسبب . . ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب الناشيء . . فكشف الله له الداء وألهمه الدواء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا» لماذا اثنتا عشرة عينا . لأن اليهود كانوا يعيشون حياة العزال . كل مجموعة منهم كانت تسمى «سبطاً» لها شيخ مثل شيخ القبيلة . . والحق تبارك وتعالى يقول : «قد علم كل أناس مشربهم» أى كل سبط أو مجموعة ذهبت لمشرب . . نبعت العيون من الحجر وامتدت متشعبة الى الأسباط جميعا كل في مكانه . . فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة وكانت الجهة السفلى من الحجر الملامسة للأرض . . والجهة العليا التى ضرب عليها بالعصا لم ينبع منها شيء ، أما باقى الجهات الأربع فقد ينبع منها كل منها ثلاثة ينابيع .

وهناك شيء فى اللغة يسمونه اللفظ المشترك . . وهو الذى يستخدم فى معانٍ متعددة . . فإذا قلت سقى القوم دوابهم من العين . . العين هنا عين الماء . . وإذا قلت أرسل الأمير عيونته فى المدينة يعنى أرسل جنوده . . وإذا قلت اشتريته

بعين أى بذهب . . وإذا قلت نظر الى بعينه شذرا أى يبصره . . إذن كلمة عين تستخدم فى أشياء متعددة . . ومعناها هنا عين الماء الجارية .

قوله تعالى : «قد علم كل أناس مشربهم» أى أن كل سبط عرف مكانه الذى يلزمه . . حتى لا يضيع من كل منهم الماء . . ولكن الإنسان حينما يكون مضطرا يلتزم بما يطلبه الله منه ويكون ملتزما بالأداء ، فإذا فرج الله كربته وعادت إليه النعمة يعود الى طغيانه . . ولذلك يقول الحق جل جلاله فيها : «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين» أى لا يكون شكركم على النعمة بالافساد فى الأرض . . وقرأ قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ لَشِحْيٍ وَمِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

(سورة سبأ)

هنا نرى أن أهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره . . كانوا يتيهون بالسد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار . . ويمددهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، وأخذوا يتفاخرون بعلمهم ونسوا الله الذى علمهم . . فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم . . كذلك حدث لبني اسرائيل، قيل لهم : «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين» فأفسدوا فى الأرض ونسوا نعمة الله فنزل بهم العذاب .



﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَاطِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيِّطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا لَكُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِثَابِتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَغْيًا الْحَقُّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة أيضا من آيات التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى على موسى وعلى بني إسرائيل . . . وكنا قد تعرضنا لمعنى طعام واحد عند ذكر المن والسلوى . . . وقلنا أن تكرار نزول المن والسلوى كل يوم جعل الطعام لونا واحدا . . . وكلمة واحد هي أول العدد . . . فإذا انضم إليه مثله يصير اثنين . . . وإذا انضم إليه مثله يصبح ثلاثة . . . إذن فأصل العدد هو الواحد . . . والواحد يدل على وحدة الفرد ولا يدل على وحدانية . . . فإذا قلنا الله واحد فإن ذلك يعنى أنه ليس كمثله أحد . . . ولكنه لا يعنى أنه ليس مكونا من أجزاء . . . فأنت لست واحدا ولست أحدا لأنك مكون من أجزاء - كما أن هناك من يشبهونك . . . والشمس في مجموعتنا واحدة ولكنها ليست أحدا لأنها مكونة من أجزاء وتتفاعل . . . والله سبحانه وتعالى واحد ليس كمثله شيء . . . وأحد ليس مكونا من أجزاء . . . ولذلك من أسمائه الحسنى الواحد الأحد . . . ولا نقول أن الاسم مكرر فهذه تعنى الفردية ، وهذه تنفى التجزئة .

وقوله تعالى : « لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ » . . . نلاحظ هنا أن الطعام وُصف بأنه واحد رغم أنه مكون من صنفين هما المن والسلوى . . . ولكنه واحد لرتابة نزوله . . . الطعام كان يأتيهم من السماء . . . ولكن تعنتهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه فقالوا ما يدرينا لعله لا يأتى . . . نريد طعاما نزرعه بأيدينا ويكون طوال الوقت أمام عيوننا . . . وكأن هذه المعجزات كلها ليست كافية . . . لنعطاهم الثقة في استمرار رزق الله . . . إنهم يريدون أن يروا . . . ألم يقولوا لموسى : « أرنا الله جهرة » . . .

ماذا طلبوا ؟ .. قالوا : « فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض » .. « ادع لنا ربك » أى اطلب من الله .. ولأن الدعاء لون من الطلب فإنك حين تتوجه إلى الله طالبا أن يعطيك .. فإنك تدعو بذلة الداعى أمام عزة المدعو .. والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قيل دعاء .. ومن مساوٍ إلى مساوٍ قيل طلب .. ومن أعلى إلى أدنى قيل أمر ..

لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعوا الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت الأرض .. وعددوا ألوان الأطعمة المطلوبة .. وقالوا : « من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » .. ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد .. والمعروف أن آل فرعون إستعبدوا بنى إسرائيل .. ويبدو أن بنى إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها ..

الحق تبارك وتعالى كان يريد أن يرفع قدرهم فتزل عليهم المن والسلوى .. ولكنهم فضلوا طعام العبيد .. والبقل ليس مقصوداً به البقول فحسب .. ولكنه كل نبات لا ساق له مثل الخس والفجل والكراث والجرجير .. والقثاء هو القثه صنف من الخبار .. والفوم هو القمح أو الثوم. والعدس والبصل معروفان .. والله سبحانه وتعالى قبل أن يجيبهم أراد أن يؤنبهم : فقال « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » ..

عندما نسمع كلمة استبدال فاعلم أن الباء تدخل على المتروك .. تقول اشتريت الثوب بدرهم .. يكون معنى ذلك إنك أخذت الثوب وتركت الدرهم .

قوله تعالى : « الذى هو أدنى بالذى هو خير » .. أى انهم تركوا الذى هو خير وهو المن والسلوى .. وأخذوا الذى هو أدنى .. والدنو هنا لا يعنى الدناءة .. لأن ما تنتجه الأرض من نعم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءة .. ولكن الله تبارك وتعالى يخلق بالأسباب ويخلق بالأمر المباشر .. ما يخلق الله بالأمر المباشر منه بكلمة « كن » .. يكون خيرا مما جاء بالأسباب .. لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه .. عطاء خالص من الله .. أما الخلق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه .. كأن تحرث الأرض أو تبذر البذور .. ما جاء خالصا من الله بدون أسبابك يقترب

من عطاء الآخرة التي يعطى الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة « كن » .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَعْتَدْ عَيْنُكَ إِلَيْنَا مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٣١﴾

(سورة طه)

فالله تبارك وتعالى يصف رزق الدنيا بأنه فتنة .. ويصف رزق الآخرة بأنه خير منه .. مع أن رزق الدنيا والآخرة ، وكل رزق في هذا الوجود حتى الرزق الحرام هو من الله جل جلاله .. فلا رازق إلا الله ولكن الذي يجعل الرزق حراما هو استعجال الناس عليه فيأخذونه بطريق حرام .. ولو صبروا لجاءهم حلالا .. نقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق .. ولكنه سمي رزقا فتنة وسمى رزقا خيرا منه .. ذلك أن الرزق من الله بدون أسباب أعلى وأفضل منزلة من الرزق الذي يتم بالأسباب ..

إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » .. يكون المعنى أتستبدلون الذي هو رزق مباشر من الله تبارك وتعالى .. وهو المن والسلوى بآتيكم « بكن » قريب من رزق الآخرة بما هو أقل منه درجة وهو رزق الأسباب في الدنيا .. ولم يجب بنو إسرائيل على هذا التأييب .. وقال لهم الحق سبحانه وتعالى : « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » .. ولا يقال لهم ذلك إلا لأنهم أصرروا على الطلب برغم أن الحق جل جلاله بين لهم أن ما ينزله إليهم خير مما يطلبونه ..

نلاحظ هنا أن مصر جاءت منونة .. ولكن كلمة مصر حين ترد في القرآن الكريم لا ترد منونة .. ومن شرف مصر أنها ذكرت أكثر من مرة في القرآن الكريم .. نلاحظ أن مصر حينها يقصد بها وادي النيل لا تان أبدا منونة وإقرأ قوله تعالى :

﴿ تَبَوَّءَ الْقَوْمُ مَكَّاءَ بِمِصْرَ بَيْوتًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يونس)

وقوله جل جلاله :

﴿الْبَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾

(من الآية ٥١ سورة الزخرف)

وقوله سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾

(من الآية ٢١ سورة يوسف)

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

(من الآية ٩٩ سورة يوسف)

كلمة مصر ذكرت في الآيات الأربع السابقة بغير تنوين . . ولكن في الآية التي نحن بصدددها : « اهبطوا مصراً » بالتنوين . . هل مصر هذه هي مصر الواردة في الآيات المشار إليها ؟ . . نقول لا . . لأن الشيء الممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . . إذا كان لبقعة أو مكان . . مرة تلحظ أنه بقعة فيبقى مؤنثا . . ومرة تلحظ أنه مكان فيكون مذكرا . . فإن كان بقعة فهو علم ممنوع من الصرف . . وإن كان مكانا تكون فيه علمية وليس فيه تأنيث . . ومرة تكون هناك علمية وأهمية ولكن الله صرفها في القرآن الكريم . . كلمات نوح ولوط وشعيب ومحمد وهود . .

كل هذه الأسماء كان مفروضا أن تمتنع من الصرف ولكنها صرفت . . ففيل في القرآن الكريم نوحا ولوطا وشعيبا ومحمدا وهودا . . إذن فهل من الممكن أن تكون مصر التي جاءت في قوله تعالى : « اهبطوا مصراً » فإن لكم ما سألتكم « هي مصر التي عاشوا فيها وسط حكم فرعون . . قوله تعالى : « اهبطوا مصراً » من

الممكن أن يكون المعنى أى مصر من الأمصار . . ومن الممكن أن تكون مصر التى عاش فيها فرعون . . وكلمة مصر تطلق على كل مكان له مفتى وأمير وقاض . . وهى مأخوذة من الاقتطاع . . لأنه مكان يقطع إمتداد الأرض الخلاء . . ولكن الثابت فى القرآن الكريم . . ان مصر التى لم تنون هى علم على مصر التى نعيش فيها . . أما مصرًا التى خضعت للتونين فهى تعنى كل وادٍ فيه زرع . .

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » . . الذلة هى المشقة التى تؤدى إلى الإنكسار . . ويمكن أن ترفع عنك بأن تكون فى حمى غيرك فيعزك بأن يقول إنك فى حماه . . والله سبحانه وتعالى يقول عن بنى إسرائيل :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا يَحْبِلُ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة آل عمران)

حبيل من الله كما حدث عندما عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . . وعاشوا فى حمى العهد . . إذن بحبل من الله أى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين به . . وبحبل من الناس أى فى حماية دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية . . إذا عاهدتهم عزوا وإن تركتهم ذلوا . .

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة » ضربت أى طبعت طبعة قوية بضربة قوية تجعل الكتابة بارزة على النقود . . ولذلك يقال ضربت فى مصر . . أى أعدت بضربة قوية أذلتهم وبقيت بارزة لا يستطيعون محوها . . أما المسكنة فهى إنكسار فى الهيئة .

أهل الكتاب كانوا يدفعون الجزية والجزية كانت تؤخذ من الأغنياء . . وكانوا يلبسون الملابس القذرة . . ويقفون فى موقف الذل والخزى حتى لا يدفعوا الجزية .

وقوله تعالى : « وباءوا بغضب من الله » . . أى غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم . حتى أصبح الغضب - من كثرة عصيانهم - كأنه سمة من سماتهم

لماذا ؟ : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق » أى انهم كانوا يكفرون بالنعم ولا يشكرون . . ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمنًا قليلا . . ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق . .

الأنبياء غير الرسل . . والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد . . أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسل لأنهم جاءوا بمنهج جديد . . ولذلك كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً . والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة . . ولكنه يعصم رسله من القتل فلا يقدر عليهم أعداؤهم . . فمجيء الأنبياء ضرورة . . لأنهم نماذج سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج ، وبنو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتدوا بهم فقتلوهم . . لماذا ؟ . . لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج . . ولذلك تجد الكافر والعاصي وغير الملتزم يغار ويكره الملتزم بمنهج الله . . ويحاول إزالته عن طريقه ولو بالقتل . . إذن فغضب الله عليهم من عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وما ارتكبوه من آثام .



بعد أن تحدث الحق سبحانه وتعالى عن بني إسرائيل وكيف كفروا بنعمه . .
أراد أن يعرض لنا حساب الأمم التي سبقت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم القيامة ، ولقد وردت هذه الآية في سورة المائدة ولكن بخلاف يسير من
التقديم والتأخير . . ففي سورة المائدة :

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِغِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١٧)

(سورة الحج)

الآيات الثلاث تبدو متشابهة .. إلا أن هناك خلافات كثيرة .. ما هو سبب التكرار الموجود في الآيات .. وتقديم الصابئين مرة وتأخيرها .. ومع تقديمها رفعت وتغير الإعراب .. وفي الآيتين الأوليين (البقرة والمائدة) تأتي : « من آمن

بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. أما في الآية التي في سورة الحج فقد زاد فيها : « المجوس والذين أشركوا » .. واختلف فيها الخبر .. فقال الله سبحانه وتعالى : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » .

عندما خلق الله آدم وأنزله ليعمر الأرض أنزل معه الهدى .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى مِّنَ رَبِّي أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقَّ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

مفروض أن آدم أبلغ المنهج لأولاده .. وهؤلاء أبلغوه لأولادهم وهكذا .. وتشغل الناس الحياة وتطراً عليهم الغفلة .. ويصيبهم طمع الدنيا وجشعها ويتبعون شهواتهم .. فكان لابد من رحمة الله لخلقهم أن يأتي الرسل ليذكروا وينذروا ويشرروا ..

الآية الكريمة تقول : « إن الذين آمنوا » .. أي إيمان الفطرة الذي نزل مع آدم إلى الأرض .. وبعد ذلك جاءت أديان كفر الناس بها فأبيدوا من على الأرض .. كقوم نوح ولوط وفرعون وغيرهم .. وجاءت أديان لها أتباع حتى الآن كاليهودية والنصرانية والصابئية ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع كل ماسبق في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لتصفية الوضع الايمان في الأرض ..

إذن الذين آمنوا أولاً سواء مع آدم أو مع الرسل .. الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التي وقعت .. ثم الذين تسموا باليهود والذين تسموا بالنصارى والذين تسموا بالصابئية .. فإله تبارك وتعالى يريد أن يبلغهم لقد انتهى كل هذا .. فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. فكان رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت لتصفية كل الأديان السابقة .. وكل إنسان في الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .. فقد دعى الناس كلهم إلى الايمان برسالته .. ولو بقى إنسان من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من

عهد نوح أو إبراهيم أو هود . . وأولئك الذين نسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئية . . كل هؤلاء مطالبون بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بدين الاسلام . . فالاسلام يمسخ العقائد السابقة في الأرض . . ويجعلها مركزة في دين واحد . . الذين آمنوا بهذا الدين : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن . . وهذا إعلان بوحدة دين جديد . . يتنظم فيه كل من في الأرض إلى أن تقوم الساعة . . أما أولئك الذين ظلوا على ما هم عليه . . ولم يؤمنوا بالدين الجديد . . لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة . . ولذلك فإن الآية التي تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة . . جاء فيها كل من لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام . . بما فيهم المجوس والذين أشركوا .

والحق تبارك وتعالى أراد أن يرفع الظن . . عن تبع ديننا سبق الاسلام وبقي عليه بعد الاسلام . . وهو يظن أن هذا الدين نافعه . . نقول له أن الحق سبحانه وتعالى قد حسم هذه القضية في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة آل عمران)

وقوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة آل عمران)

إذن التصفية النهائية لمركب الإيمان والرسالات في الوجود حسمت . . فالذي آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة . . والذي لم يؤمن يقول الله تبارك وتعالى له « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » . . إذن الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم . . والذين هادوا هم أتباع موسى عليه السلام . . وجاء الإسم من قولهم : « إنا هدنا إليك » - أي هدنا إليك . . والنصارى جمع نصراني وهم منسوبون إلى الناصرة البلدة التي ولد فيها عيسى عليه

السلام .. أو من قول الخواريين نحن أنصار الله في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أما الصابئة فقد اختلف العلماء فيهم .. قال بعضهم هم أتباع نوح ولكنهم غيروا بعده وعبدوا من دون الله الوسائط في الكون كالشمس والقمر والكواكب .. أو الصابئة هم الذين انتقلوا من الدين الذي كان يعاصرهم إلى الدين الجديد .. أو هم جماعة من العقلاء قالوا ما عليه قومنا لا يقنع العقل .. كيف نعبد هذه الأصنام ونحن نصنعها ونصلحها ؟ .. فامتنعوا عن عبادة أصنام العرب .. فقالوا عنهم إنهم صبئوا عن دين آبائهم .. أي تركوه وآمنوا بالدين الجديد .. وأيا كان المراد بالصابئين فهم كل من مال عن دينه إلى دين آخر .

أننا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى .. جاء بالصابئين في سورة البقرة متأخرة ومنصوبة .. وفي سورة المائدة متقدمة ومرفوعة .. نقول هذا الكلام يدخل في قواعد النحو .. الآية تقول : « إن الذين آمنوا » .. نحن نعرف أن (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر .. فالذين مبنى لأنه اسم موصول في محل نصب اسم لأن : « والذين هادوا » معطوف على الذين آمنوا يكون منصوباً أيضاً .. والنصارى معطوف أيضاً على اسم إن .. والصابئين معطوف أيضاً ومنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم ..

نأتي إلى قوله تعالى : « من آمن بالله واليوم الآخر » . هذه مستقيمة في سورة البقرة إعراباً وترتيباً .. والصابئين تأخرت عن النصارى لأنهم فرقة قليلة .. لا تمثل جمهرة كثيرة كالنصارى .. ولكن في آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع في قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .. الذين آمنوا اسم إن والذين هادوا معطوف .. ود الصابئون ، كان القياس إعرابياً أن يقال والصابئين .. وبعدها النصارى معطوفة .. ولكن كلمة (الصابئون) توسطت بين اليهود وبين

النصارى .. وكسر إعرابها بشكل لا يقتضيه الظاهر .. وللمعرب إذن مرهفة لغويا .. فمتى سمع الصابئين التى جاءت معطوفة على إسم إن تأتى بالرفع يلتفت لفئة قسرية ليعرف السبب ..

حين تولى أبا جعفر المنصور الخلافة .. وقف على المنبر ولحن لحنه أى أخطأ فى نطق كلمة .. وكان هناك إعرابى يجلس فأذت أذنيه .. وأخطأ المنصور للمرة الثانية فحرك الإعرابى أذنيه باستغراب .. وعندما أخطأ للمرة الثالثة قام الإعرابى وقال .. أشهد أنك وليت هذا الأمر بقضاء وقدر .. أى أنك لا تستحق هذا .. هذا هو اللحن إذا سمعه العربى هز أذنيه .. فإذا جاء لفظ مرفوعا والمفروض أن يكون منصوبا .. فإن ذلك يجعله يتنبه أن الله له حكمة وعلة .. فما هى العلة ؟ ..

الذين آمنوا أمرهم مفهوم والذين هادوا أمرهم مفهوم والنصارى أمرهم مفهوم .. أما الصابئون فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين .. ولكنهم سلكوا طريقا مخالفا .. فجاءت هذه الآية لتلفتنا أن هذه التصفية تشمل الصابئين أيضا .. فقدمتها ورفعتها لتلفت إليها الأذان بقوة .. فإله سبحانه وتعالى يعطف الإيمان على العمل لذلك يقول دائما : « آمن وعمل صالحا » .. لأن الإيمان إن لم يقترن بعمل فلا فائدة منه .. والله يريد الإيمان أن يسيطر على حركة الحياة بالعمل الصالح .. فيأمر كل مؤمن بصالح العمل وهؤلاء لا خوف عليهم فى الدنيا ولا هم يحزنون فى الآخرة .



﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَاءَ اتِّبَتَافِكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٣)

يَمْتَنُّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَرَّةً أُخْرَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالنَّعْمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ وَيَذْكُرُهُمْ بِجُحُودِهِمْ بِهَا . . . وَلَكِنَّا نَلَاظُ أَنْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ حِينَما يَتَكَلَّمُ عَنْ الْيَهُودِ . . . يَتَكَلَّمُ عَنْهُمْ بِالْخُطَابِ الْمُبَاشِرِ . . . فَهَلِ الَّذِينَ عَاصَرُوا نَزُولَ الْقُرْآنِ وَهُمْ الَّذِينَ أَخَذَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ . . . هَؤُلَاءِ مُخَاطَبُونَ بِمَرَادِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمُ الَّذِينَ عَاصَرُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

نَقُولُ أَنَّهُ كَانَ الْمَطْلُوبُ مِنْ كُلِّ جَدٍّ أَوْ أَبٍ أَنْ يَبْلُغَ ذُرِّيَّتَهُ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ قَضِيَّةُ الْإِيمَانِ . . . فَحِينَ يَمْتَنُّ اللهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ أَهْلَكَ أَهْلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْقَذَهُمْ . . . يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُ أَنْقَذَ آبَاءَهُمْ مِنَ التَّذْيِيعِ . . . وَلَوْلَا أَنَّهُ أَنْقَذَهُمْ مَا جَاءَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الْمُعَاصِرُونَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَهُمْ كَانُوا مَطْمُورِينَ فِي ظُهُورِ آبَائِهِمْ . . . وَلَكِنْ يَنْقُذُهُمُ اللهُ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ تَسْتَمِرَّ حَلْقَةُ الْحَيَاةِ مُتَّصِلَةً . . . فَمَتَى انْتَهَتْ حَيَاةُ الْأَبِ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَ وَيَنْجِبَ انْتَهَتْ فِي اللَّحْظَةِ نَفْسُهَا حَيَاةَ ذُرِّيَّتِهِ . . . الشَّيْءُ نَفْسُهُ يَنْطَبِقُ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « وَإِذَا اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ » . . . إِمْتِنَانٌ عَلَى الْيَهُودِ الْمُعَاصِرِينَ لِنَزُولِ الْقُرْآنِ . . . لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَوْ لَمْ يَنْقُذْ آبَاءَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ عَطَشًا لَمَاتُوا بِلا ذُرِّيَّةٍ .

إِذَنْ كُلُّ إِمْتِنَانٍ عَلَى الْيَهُودِ فِي عَهْدِ مُوسَى هُوَ إِمْتِنَانٌ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخَذَ عَلَى الْيَهُودِ الْمِيثَاقَ الْقَدِيمَ . . . وَلَوْلَا هَذَا الْمِيثَاقُ مَا آمَنُوا وَلَا آمَنْتَ ذُرِّيَّتُهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » . . . أَيْ إِنْ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَذْكُرُهُمْ

بأنهم بعد أن نجوا وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى عنه التوراة . . فعبد بنو اسرائيل العجل . وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح . . وجدوا في تعاليمها مشقة عليهم . . وقالوا نحن لا نطبق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به وألا يقبلوه .

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى . . وهم يقولون إن الله كلفهم ما لا يطيقون . . مع أن الله جل جلاله لا يكلف نفساً إلا وسعها . . هذا هو المبدأ الإيمان الذي وضعه الحق جل جلاله . . يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

يظنون أننا نضع أنفسنا حكماً على تكليف الله . . فإن كنا نعتقد أننا نقدر على هذا التكليف نقل هو من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقدر عليه بحكمنا نحن . . نقل الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا . . ولكن الحكم الصحيح هل كلفك الله بهذا الأمر أو لم يكلفك ؟ إن كان الله قد كلفك فهو عليم بأن ذلك في وسعك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . . ونحن نسمع الآن صحاحات تقول أن العصر لم يعد يحتمل . . وأن ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هي تبرير أنه ليس في وسعنا أن نؤدي بعض التكليف . . ربما كان هذا التكليف في الوسع في الماضي عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة .

نقول لمن يردد هذا الكلام : إن الذي كلفك قديماً هو الله سبحانه وتعالى . إنه يعلم أن في وسعك أن تؤدي التكليف وقت نزوله . . وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة . . والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل في باب الإحسان ؛ فهناك من يصل الفروض وهي التكليف . . وهناك من يزيد عليها السنن . . وهناك من يقوم الليل . . فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض . . وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية . . أو كل اثنين وخميس على

مدار العام أو في شهرى رجب وشعبان .. وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات .. وهناك من يلتزم بحدود الزكاة ومن يتصدق بأكثر منها .

إذن كل التكليف الذى كلفنا الله بها فى وسعنا وأقل من وسعنا .. ولا يقال ان العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر .. بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكليف ونزيد عليها دون أى مشقة . والله سبحانه وتعالى رفع فوق بنى إسرائيل الطور رحمة بهم .. تماما كما يمسك الطبيب المشروط ليزيل صديدا تكون داخل الجسد .. لأن الجسد لا يصح بغير هذا .

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفضلِهِ ورحمته بنى إسرائيل رغم أنوفهم .. رفع فوقهم جبل الطور الموجود فى سيناء .. وقال لهم تقبلوا التكليف أو أطبق عليكم الجبل .. تماما كما أهلك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقاوموا الرسل الذين من قبلهم .. قد يقول البعض إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو القاتل :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

نقول إن الله جل جلاله لم يرغم أحدا على التكليف .. ولكنه رحمة منه خيرهم بين التكليف وبين عذاب يصيبهم فيهلكهم .. وهذا العذاب هو أن يُطَبَّقَ عليهم جبل الطور .. إذن المسألة ليس فيها إجبار ولكن فيها تخيير .. وقد خير الذين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلم يصدقوا حتى أصابهم الهلاك .. ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم خشعوا ساجدين على الأرض .. وسجودهم دليل

على أنهم قبلوا المنهج . . ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فوقهم خشية أن يطبق عليهم . . ولذلك تجمد سجد اليهود حتى اليوم على جهة من الوجه . . بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أعلى وكان ذلك خوفاً من أن ينقض الجبل عليهم . . ولو سألت يهودياً لماذا نسجد بهذه الطريقة يقول لك أحمل التوراة وهتز متفضاً . . نقول انهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فوقهم . . فكانوا في كل صلاة يأخذون الوضع نفسه ، والذين شهدوهم من أولادهم وفريتهم . . اعتقدوا أنها شرط من شروط السجود عندهم . . ولذلك أصبح سجدوهم على جانب من الوجه . . ونظرهم إلى شيء أعلاهم يخافون منه . . أي أن الصورة التي حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لازالوا باقين عليها حتى الآن .

في هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ رفعنا فوقكم الطور . . » وفي آية أخرى يقول المولى جل جلاله في نفس ما حدث :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

« نتقنا » كان الجبل وتد في الأرض ونريد أن نخلعه . . فنحركه يمينا ويسارا حتى يمكن أن يخرج من الأرض . . هذه الحركة والزحزحة والجذب هي التثاقب . . والجبل كالوتد تماما يحتاج إلى هز وزعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه . . وهذه الصورة عندما حدثت خشعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « خذوا ما آتيناكم بقوة » . . الأخذ عادة مقابل للعطاء . . أنت تأخذ من معط . . والتكليف أخذ من الله حتى تعطى به حركة صلاح في الكون . . إذن كل أخذ لا بد أن يأتي منه عطاء . . فأنت تأخذ من الجيل الذي سبقك وتعطى للجيل الذي يليك . . ولكنك لا تعطيه كما هو ، ولكن لا بد أن تضيف عليه . وهذه الإضافة هي التي تصنع الحضارات .

وقوله تعالى : « بقوة » . . أي لا تأخذوا التكليف بتخاذل . . والإنسان عادة

يأخذ بقوة ما هو نافع له . . ولذلك فطبيعة مناهج الله أن تؤخذ بقوة وبيقين . .
لتعطى خيرا كثيرا بقوة وبيقين . . وإذا أخذت منهج الله بقوة فقد ائتمنت عليه
وان صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر . . لذلك تجد في القرآن الكريم
يسألونك عن كذا . . دليل على أنهم عشقوا التكليف وعلموا أنه نافع فهم
يريدون زيادة النفع .

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « خذوا ما آتيناكم بقوة » . . فقد عشقوا
التكليف ولم يعد شاقا على أنفسهم .

وقوله تعالى : « واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » . . اذكروا ما فيه أى ما فى
المنهج وأنه يعالج كل قضايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا . . « لعلكم
تتقون » أى تطيعون الله وتتقون عقابه وعذابه يوم القيامة .



﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ٦٤ ﴿

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا كيف أمر اليهود بأن يتذكروا المنهج ولا ينسوه .. وكان مجرد تذكيرهم للمنهج يجعلهم يؤمنون بالإسلام ويرسل الله صلى الله عليه وسلم لأنه مكتوب عندهم في التوراه ومذكورة أوصافه .. ماذا فعل اليهود ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ .. أَيْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ مَنَهِجِ اللَّهِ وَنَسِيتُمُوهُ وَلَمْ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ .. » ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكانتم من الخاسرين « ما هو الفضل وما هي الرحمة ؟ الفضل هو الزيادة عما نستحق .. يقال لك هذا حقك وهذا فضل مني أي زيادة على حقك ..

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشَرُوا فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفَرَةٍ وَرَحْمَةٍ) (١) .

فإذا تساءلت كيف يتم هذا ؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله ؟ نقول نعم لأن عمل الدنيا كله لا يساوي نعمة من نعم الله على خلقه ، فأنت تذكرت العمل ولم تذكر الفضل .. وكل من يدخل الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى .. حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهي كل ما يملكون في هذه الدنيا .. يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

(١) « رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه والدارمي » .

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ
أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧)

(سورة آل عمران)

فلذا كان هؤلاء الشهداء وهم في أعلى مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفضل الله .. فما بالك بمن هم أقل منهم أجرا .. والله سبحانه وتعالى له فضل على عباده جميعا .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤٣ سورة البقرة)

أما الرحمة فهي التي فتحت طريق التوبة لغفران الذنوب. والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لولا هذا الفضل لبني إسرائيل .. ولولا أنه فتح لهم باب الرحمة والمغفرة ليعودوا مرة أخرى إلى ميثاقهم ومنهجهم .. لولا هذا لكانوا من الخاسرين الذين أصابهم خسران مبین في الدنيا والآخرة .. ولكن الله تبارك وتعالى بفضل منه ورحمة قد قادهم إلى الدين الذي حفظه الله سبحانه وتعالى بقدرته من أي تحريف .. فرفع عنهم عبء حفظ الكتاب .. وما ينتج عن ذلك من حمل ثقيل في الدنيا .. ورحمهم برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله رحمة للعالمين .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧)

(سورة الأنبياء)

وأعطاهم فضل هذا الدين الخاتم الذي حسم قضية الإيمان في هذا الكون .. ومع هذه الرحمة وهذا الفضل .. بأن نزل إليهم في التوراة أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعد بعثه .. فتح لهم بابا حتى لا يصبحوا من الخاسرين .. ولكنهم تركوا هذا الباب كما تولوا عن دينهم .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ٦٥

بعد أن بين الله جل جلاله لنا كيف أنه فتح باب الفضل والرحمة لليهود فتركوه . . أراد أن يبين لنا بعض الذي فعلوه في مخالفة أوامر الله والتحايل عليها . . والله تبارك وتعالى له أوامر في الدين وأوامر تتعلق بشئون الدنيا . . وهو لا يحب أن نأخذ أى أمر له يتعلق بالدين أو بالدنيا مأخذ عدم الجِد . . أو نفضل أمراً على أمر . . ولذلك نجد في سورة الجمعة مثلاً قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٥
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿

(سورة الجمعة)

هذان أمران أحدهما في الدين والثاني يتعلق بالدنيا . . وكلاهما من منهج الله . . فالله لا يريدك أن تتاجر وتعمل وقت الصلاة . . ولا أن تترك عملك بلا داع وتبقى في المسجد بعد الصلاة . . إذا نودي للصلاة فإلى المسجد . . وإذا قضيت الصلاة فإلى السعى للرزق . . وهناك يومان في الأسبوع ذكرا في القرآن بالإسم وهما يوما الجمعة والسبت . . بينما أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تذكر في القرآن بالإسم . . وهى الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . . الجمعة هى عيد المسلمين الذى شرع فيه إجتماعهم في المساجد وأداء صلاة الجماعة . . ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد . . فأيام الأسبوع

نسبت إلى الأعداد فيها عدا الجمعة والسبت . لذلك تجد الأحد منسوب إلى واحد والإثنين منسوب إلى اثنين . . . والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة والأربعاء منسوب إلى أربعة والخميس منسوب إلى خمسة . .

كان المفروض أن ينسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم ينسب . . لماذا ؟ لأنه اليوم الذي اجتمع فيه للكون نظام وجوده . . فسماه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله لنا عيداً . . والعيد هو اجتماع كل الكون في هذا اليوم ، إجماع نعمة الله في إيجاد الكون وتماها في ذلك اليوم . . فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماع حفاوة بنهم خلق الكون لهم . . والسبت . . الباء والتاء تفيد معنى القطع . . وسبت ويسبت سبنا إذا انقطع عمله . . ونلاحظ أن خلق السموات والأرض تم في ستة أيام مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٤ سورة الحديد)

وكان تمام الخلق يوم الجمعة . . وفي اليوم السابع وهو يوم السبت . . كان كل شيء قد استقر وفرغ من خلق الكون . . ولذلك له سبات أي أن هذا اليوم يسمى سباتاً . . لأن فيه سكون الحركة بعد تمام الخلق . . فلما أراد اليهود يوماً للراحة أعطاهم الله يوم السبت وأراد الحق تبارك وتعالى أن يتليهم في هذا اليوم والإبتلاء هو إمتحانهم فقد كانوا يعيشون على البحر وعملهم كان صيد السمك . . وكان الإبتلاء في هذا اليوم حيث حرم الله عليهم فيه العمل وجعل الحيتان التي يصطادونها تأتي إليهم وقد بدت أشرعتها وكانوا يبحثون عنها طوال الأسبوع وربما لا يجدونها . . وفي يوم السبت جاءتهم ظاهرة على سطح الماء تسمى إليهم لتفتنهم . . وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَطَّلَهُمْ مِنَ الْغَافِقَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّاءَ يَوْمٍ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا

يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا يمثل سطح البحر بالأسماك والحيتان يوم السبت .. فإذا جاء صباح الأحد اختفت بعيدا وهم يريدون أن يجعلوا السبت عيدا لهم لا يفعلون فيه أي شيء .. ولكنهم في الوقت نفسه يريدون أن يحصلوا على هذه الأسماك والحيتان .. صنعوا شيئا اسمه الحياض العميقة ليحتالوا بها على أمر الله بعدم العمل في هذا اليوم .. وفي الوقت نفسه يحصلون على الأسماك .. هذه الحياض يدخلها السمك بسهولة .. ولأنها عميقة لا يستطيع الخروج منها ويتركونه يبيت الليل وفي الصباح يصطادونه .. وكان هذا تحايلا منهم على مخالفة أمر الله .. والله سبحانه وتعالى لا يحب من يحتال في شيء من أوامره .

ويقول الله تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .. وهذه قصة مشهورة عند اليهود ومتواترة .. يعلمها الأجداد للأباء والآباء للأحفاد .. وهي ليست جديدة عليهم وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولذلك عندما نسمع : « ولقد علمتم » أي لقد عرفتم ومعنى ذلك أن القصة عندكم معروفة .. وكأنها من قصص التراث التي يتناقلونها ..

وقوله تعالى : « الذين اعتدوا منكم في السبت » .. المفعول هنا واحد هنا حيلة مذكورة انهم اعتدوا على أمر الله بالراحة يوم السبت .. هم حقيقة لم يصطادوا يوم السبت .. ولكنهم تحايلا على الممنوع بنصب الفخاخ للحيتان والأسماك .. وكانوا في ذلك أغبياء .. وقد كان الممنوع أن يأخذوا السمك في حيازتهم بالصيد يوم السبت .. ولكنهم أخذوه في حيازتهم بالحيلة والفخاخ .. وقوله تعالى : « اعتدوا » أي تجاوزوا حدود الله المرسومة لهم .. وعادة حين يحرم الله شيئا يأتي بعد التحريم قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

لأنه يريد أن يمنعك من الإغراء .. حتى لا تقع في المعصية فيقول لك لا تقرب .. ولكن بني إسرائيل اعتدوا على حكم الله متظاهرين بالطاعة وهم عاصرون .. وحسبوا أنهم يستطيعون خداع الله بأنهم طائعون مع أنهم

عاصرون .. وصدر حكم الله عليهم : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .

وعادة أنك لا تأمر إنسانا أمرا إلا إذا كان في قدرته أن يفعله .. الأمر هنا أن يكونوا قردة .. فهل يستطيعون تنفيذه ؟ وأن يغيروا خلقتهم إلى قردة .. إنه أمر في مقدرة الله وحده فكيف يقول لهم كونوا قردة ؟

نقول إن الأمر نفسه هنا هو الذي يستطيع أن يجعلهم قردة .. وهذا الأمر يسمى أمرا تسخيريا ولم يقل لهم كونوا قردة ليكونوا هم بإرادتهم قردة .. ولكنه سبحانه بمجرد أن قال كونوا قردة كانوا .. وهذا يدلنا على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار .. ولو كان لا يريد ذلك ولا يلزم أن يكونوا قد سمعوا قول الله أو قال لهم .. لأنه لو كان المطلوب منهم تنفيذ ما سمعوه ربما كان ذلك لازما .. ولكن بمجرد صدور الأمر وقبل أن يتنبهوا أو يعلموا شيئا كانوا قردة .

ولقد اختلف العلماء كيف تحول هؤلاء اليهود إلى قردة ؟ كيف مسخوا ؟ قال بعضهم لقد تم المسخ وهم لا يدرون .. فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان .. لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا .. وقال بعض العلماء إن الإنسان إذا مسخ فإنه لا يتناسل ، ولذلك فبمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا .. ولماذا لم يتناسلوا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَلَا زَرْءًا تَحْرَىٰ ۚ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ولو أنهم تناسلوا .. لتحمل الأبناء وزر آبائهم .. وهذا مرفوض عند الله .. إذن فمن رحمة الله أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون .. ويبقون فترة ثم ينقرضون بالأمراض والأوبئة وهذا ما حدث لهم .

قد يقول بعض الناس لو أنهم مسخوا قردة .. فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن ؟ نقول لهم أنه لم يكن كل اليهود عاصين .. ولكن كان منهم أقلية هي التي عصت ومسخت .. وبقيت الأكثرية ليصل نسلها إلينا اليوم .. وقد قال علماء

آخرون أن هناك آية في سورة المائدة تقول :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هذه قضية قوم غضب الله عليهم ومسحهم قردة وخننازير وعبدوا الطاغوت .. ولقد أخبرنا الله جل جلاله أن اليهود مسحوا قردة .. ولكنه لم يقل لنا أنهم مسحوا خننازير .. فهل مسحوا قردة ؟ ثم بعد ذلك إزداد غضب الله عليهم ومسحوا خننازير ؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى بهيمية في القيم والإرادة والخلق ؟

نقول علينا أولا أن ننظر إلى البهيمية التي نقلهم الله إليها .. نجد أن القردة هي الحيوان الوحيد المفضوح العورة دائما .. وإن عورته لها لون مميز عن جسده .. وأنه لا يتأدب إلا بالعصا .. واليهود كذلك لم يقبلوا المنهج إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور .. وما هم فيه الآن ليس مسخ خلفه ولكن مسخ خلق .. والخننازير لا يغارون على أنثاهم وهذه لازمة موجودة في اليهود .. وعبدوا الطاغوت .. الطاغوت هو كل إنسان تجاوز الحد في البغى والظلم .. وعبدوا الطاغوت هم الطائعون لكل ظالم يعينونه على ظلمه وهم كذلك .

إذن فعملية المسخ هذه سواء تمت مرة واحدة أو على مرتين مسألة شكلية .. ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا في الآية التي ذكرناها في سورة المائدة سمات اليهود الأخلاقية .. فكانهم مسحوا خلقه ومسحوا أخلاقا .



﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أنه بعد أن جعل المسخة الخلقية والأخلاقية لليهود : « وجعلناها نكالا لما بين يديها » أى ما معها : « وما خلفها » أى ما بعدها : « والنكال » هو العقوبة الشديدة . . والعقوبة لا بد أن تنشأ عن تجريم أولا . . هذا هو المبدأ الإسلامى والمبدأ القانونى . . فرجال القانون يقولون لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص . . قبل أن تعاقب لا بد أن نقول إن هذا الفعل جريمة عقوبتها كذا وكذا . . وفى هذه الحالة عندما يرتكبها أى إنسان يكون مستحقا للعقوبة . . ومادام هذا هو الموقف فلا بد من تشريع .

والتشريع ليس معناه إن الله شرع العقوبة . . ولكن معناه محاولة منع الجريمة بالتخويف حتى لا يفعلها أحد . . فإذا تمت الجريمة فلا بد من توقيع العقوبة . . لأن توقيعها عبرة للغير ومنع له من ارتكابها . . وهذا الزجر يسمى نكولا ومنها النكول فى اليمين أى الرجوع فيه .

إذن قوله تعالى : « فجعلناها نكالا » . . أى جعلناها زجرا وعقابا قويا . . حتى لا يعود أحد من بنى إسرائيل إلى مثل هذه المخالفة : « ونكالا لما بين يديها » . . أى عقوبة حين يرونها الذين عاصروها تكفى لكيلا يفتربوا من هذه المعصية أبدا . . وتكون لهم موعظة لا ينسونها : « وما خلفها » يعنى جعلناها تتوارثها الأجيال من بنى إسرائيل جيلا بعد جيل . . كما بيننا الأب يحكى لابنه حتى لا يعود أحد فى المستقبل إلى مثل هذا العمل من شدة العقوبة : « وموعظة للمتقين » . . أى موعظة لكل الناس الذين سيبلغهم الله تبارك وتعالى بما حدث من بنى إسرائيل وما عاقبهم به . . حتى يقروا أنفسهم شر العذاب يوم القيامة الذى

سيكون فيه ألوان أشد كثيرا من هذا العذاب .. على أننا لابد أن نلفت الإنتباه إلى أن مبدأ أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص هو مبدأ إلهي .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

أى يأتى الرسول أولا ليجرم هذه الأفعال .. فإن ارتكبتها أحد من خلق الله حقت عليه العقوبة .. ومن هنا فإن كل ما يقال عن قوانين بأثر رجعى مخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله .. فلا يوجد فى عدالة السماء ما يقال عنه أثر رجعى .



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا
الَّتَّخَذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٢٧ ﴿

تعرضنا إلى هذه الآية الكريمة في بداية سورة البقرة . . لأن السورة سميت بهذا
الإسم . . ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أن يحرف : « وإذ » . . يعنى
واذكروا : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . . ولم يقل
لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة . . ولا بد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف
السبب في قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ٧٦ ﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ
بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَبُرُكْرَاءِئِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ٧٧ ﴿

(سورة البقرة)

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علة . . ولكن هذه عظمة القرآن
الكريم . . لأن السؤال عن العلة أولا معناه أن الأمر صادر من مسألك . . فإذا
قال لك إنسان إفعل كذا . . تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه . . إذن الأمر من
المساوى هو الذى تسأل عن علة . . ولكن الأمر من غير المساوى . . كأمر الأب
لابنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده . . مثل هذا الأمر لا يسأل عن علة قبل
تنفيذه . . لأن الذى أصدره أحكم من الذى صدر إليه الأمر . . ولو أن كل
مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علة أولا . . فيكون قد فعل الأمر
بعلة . فكانه قد فعله من أجل العلة . . ومن هنا يزول الإيمان . . ويستوى أن
يكون الإنسان مؤمنا أو غير مؤمن . . ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله . .

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعا .. عرف علته أو لم يعرف .. ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله .. ولذلك فإن تنفيذ أى أمر إيمان يتم لأن الأمر صادر من الله .. وكل تكليف يأتى .. علة حدوثه هى الإيمان بالله .. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. أى يا من آمنتم بالله رباً وإلهاً وخالقاً .. خذ عن الله وافعل لأنك آمنتم بمن أمرك ..

في هذه الآيات التى نحن بصدد ما أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك .. فجاء بالأمر بذببح البقرة أولاً .. وبالعلة فى الآيات التى روت لنا علة القصة .. وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى .. سواء عرفت العلة أو لم تعرفها .. فأنت تؤدى الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تصلى .. فلو أديت الصلاة على أنها رياضة أو أنها وسيلة للاستيقاظ المبكر .. أو أنها حركات لازمة لليونة المفاصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر .. إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادى ولیدربك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها .. وإن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك .. وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التى فرضها الله عليك لأن الله فرضها .. وكذلك كل العبادات الأخرى ..

الصوم ليس شعوراً بإحساس الجائع .. ولا هو طريقة لعمل الرجيم ولكنه عبادة .. إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك .. وإن جعلت للصيام أى سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله .. والله أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن أشرك معه أحدا ترك الله عمله لمن أشركه .. وكذلك كل العبادات ..

هذا هو المفهوم الإيمان الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه فى قصة بقرة بنى إسرائيل .. ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولاً .. بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه فى آخرها عن السبب .. وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير فى إيماننا بحقيقة ما حدث .. وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهى موجودة ..

قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » .. أعطى الله تبارك وتعالى

الأمر أولا ليختبر قوة إيمان بني إسرائيل . . ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل . . ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك أخذوا في المساومة والتباطؤ :
« وإذا قال موسى لقومه : . . كلمة قوم تطلق على الرجال فقط . . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن قوم هم الرجال . . لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم . . ولذلك يقول الشاعر العربي :

وما أدري ولست أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

فالقوام للرجال . . والمرأة حياتها مبنية على الستر في بيتها . . والرجال يقومون لها بما تحتاج اليه من شئون . . والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها وهي في هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال . . قوله تعالى : « إن الله يأمركم » . . الأمر طلب فعل . وإذا كان الأمر أعلى من المأمور نسميه أمرا . . وإذا كان مساويا له نسميه إلتماسا . . وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء . . على أننا لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا :

﴿ هَٰلِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

هل هذا أمر من زكريا ؟ طبعاً لا . لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى . . قوله تعالى : « الله يأمركم » . . لو أن إنسانا يعقل أدنى عقل ثم يطلب منه أن يذبح بقرة . . أهذه تحتاج إلى إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شيء قد تم دون أى جهد . . فها دام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة . . فكل

ما عليهم هو التنفيذ ..

ولكن انظر إلى الغباء حتى في السؤال .. إنهم يريدون أن يفعلوا أى شيء لإبطال التكليف .. لقد قالوا لموسى نبينهم إنك تهزأ بنا .. أى أنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد .. فاتهموا موسى أنه تهزأ بهم .. كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى .. لا يمكن أن تحمل بمجرد ذبح بقرة .. وعندما سمع موسى كلامهم ذهل .. فهل هناك نبي يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى .. أينقل نبي الله لهم أمرا من أوامر الله جل جلاله على سبيل الهزل ؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون .. جاهلون بربهم ورسولهم وجاهلون بآخرتهم .. وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شيء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى .. فاتجه إلى السماء يستعيز بالله من هؤلاء الجاهلين .. الذين يأتيهم اليسر فيريدونه عسرا. ويأتيهم السهل فيريدونه صعبا .. ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شيء في حياتهم صعبا وشاقا .



﴿ قَالُوا اَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ٦٨

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم . . لم يقولوا ادع لنا ربنا . . بل قالوا ادع لنا ربك ، وكأنه رب موسى وحده . . ولقد تكررت هذه الطريقة في كلام بنى إسرائيل عدة مرات . . حتى إنهم قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة . . يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى . . فبدلاً من أن ينفذوا الأمر وتنتهى المسألة يوجهون سؤالاً آخر . . فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب ، ويؤدى الجواب إلى سؤال فى غير محله منهم . . ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدل . . بأن يعطيهم أوصافاً لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط . . فكانهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . .

نأتى إلى أسئلة بنى إسرائيل . . يقول الحق سبحانه وتعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » . . سؤال لا معنى له ولا محل . . لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة . . ولم يقل مثلاً إنها حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال . . فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم : « إنها بقرة لا فارض ولا بكر » . . الفارض فى اللغة هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة . . ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الواسع ؟ البقرة تتعرض للحمل كثيراً وأساساً هي اللبن وللإنجاب . . ومادامت قد تعرضت للحمل كثيراً يكون مكان اللبن فيها فى

اتساع . . أى أن بطنها يزداد اتساعا مع كل حمل جديد . . وعندما يكون بطن البقرة واسعا يعرف عنها أنها مسنة وولدت كثيرا وصارت فارضا .

وكلمة « بكر » لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطاها فحل . . ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة . . ومنها أنها ولدت مرارا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن .

وقوله تعالى : « عوان بين ذلك » . . يعنى وسط بين هذه الأوصاف كلها . . الحق بعد ذلك يقرعهم فيقول : « فافعلوا ما تؤمرون » . . يعنى كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة . . ولكنهم لم يسكنوا انهم يريدون أن يحاوروا . . ولذلك غيروا صيغة السؤال .



﴿ قَالُوا أَذْعُ لِنَارِكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ ٦٩

بحثوا عن سؤال آخر : مالونها ؟ كان الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا ما لونها ؟ مع انه سبحانه وتعالى قال لهم : « فافعلوا ما تؤمرون » . فلم يفعلوا بل سألوا ما لونها ؟ « قال إنه يقول إنها بقرة صفراء ، والصفرة لون من الألوان . . ثم قال جل جلاله : « فاقع لونها » . . يعني صفرة شديدة . . ثم قال : « تسر الناظرين » . . يعني أن كل من ينظر إليها يسر لنضارتها ونظافتها وحسن مظهرها وتناسق جسدها . .

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف . . وفي الألوان لا يمكن أن تحدد لونا إلا برؤيته . . ولذلك فإن المحسّات في الألوان لا بد أن تسبق معرفتها وبعد ذلك تأتى باللون المطلوب . . لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده ، لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها . . ومزج الألوان يعطيك عدداً لا نهائياً من درجاتها . . ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قام بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة . . حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون . . ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة باللون نفسه . . بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لا يستطيع . . فإذا سمعت صفراء يأق اللون الأصفر إلى ذهني . . فإذا سمعت "فاقع" فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطينا دقة اللون المطلوب . . "فاقع" أى شديد الصفرة .

أظن أن المسألة قد أصبحت واضحة . . إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر الناظرين . . وكان من المفروض أن يكتفى بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى .

﴿ قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يَبِينَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ
عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ٧٠

وبرغم أن ما قيل لبني إسرائيل . . واضح تمام الوضوح عن البقرة . . وعمرها
وشكلها ولونها ومنظرها . . فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم
ينظرون إلى البقر . . وهذا يقول هذه هي والآخر يقول لا بل هي في مكان
كذا . . والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا . . وعادوا إلى موسى يسألونه أن
يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم . . وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم
ينفذوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة ثم قال لهم : « افعلوا ما تؤمرون » . .
فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم . . وجاء الجواب
من الله سبحانه وتعالى .



﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْتَزَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١)

«بقرة لا ذلول» .. البقرة الذلول هي البقرة المروضة الممرنة تؤدي مهمتها بلا تعب .. تماما مثل الخيل المروضة التي لا تعب راكبها لأنها تم ترويضها .. وسيدنا اسماعيل هو أول من روض الخيل وساسها .. وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة .. لا أحد قادها ولا قامت بعمل .. إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها في الحقول بدون قائد .. «تثير الأرض» أي لم تستخدم في حراثة الأرض أو فلاحتها .. «ولا تسقى الحرث» .. أي لم تستخدم في إدارة السواقي لسقية الزرع .. «مسلمة لا شية فيها» أي خالية من العيوب لا أذن مثقوبة .. ولا فيها أي علامة من العلامات التي يميز الناس أبقارهم بها .. ولا رجلها عرجاء ، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع .. وكلمة «لا شية فيها» .. أي لا شيء فيها .

والتأمل في وصف البقرة كما جاء في الآيات يرى الصعوبة والتشدد في اختيار أوصافها .. كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم .. ولم يجد بنو إسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا «الآن جئت بالحق» كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجا عن نطاق الحق . وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم .. لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها ، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج . هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى .. والله يقول لنا أن سمة المؤمنين أن يسارعوا إلى تنفيذ تكاليفه .. واقرأ قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٢)

وهذه السرعة من المؤمنين في تنفيذ التكليف .. دليل على عشق التكليف ..
لأنك تسارع لتفعل ما يطلبه منك من تحبه .. وقوله تعالى : «وما كادوا
يفعلون» .. يدلنا على أنهم حاولوا الإبطاء في التنفيذ والتلكؤ .

اننا لا بد أن نلتفت الى أن تباطؤ بني اسرائيل في التنفيذ خدم قضية ايمانية
أخرى .. فالبقرة التي طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره
لهم بقرة نادرة لا تتكرر .. والمواصفات التي أعطيت لهم في النهاية .. لم تكن
تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها في ثمنها وبيعها بأغل الأسعار ..

والقصة أنه كان هناك في بني اسرائيل رجل صالح .. يتحرى الحلال في
الرزق والصدق في القول والايمان الحقيقي بالله . وعندما حضرته الوفاة كان عنده
عجلة وكان له زوجة وابنها الصغير .. ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة .
اتجه الى الله وقال : اللهم اني استودعك هذه العجلة لولدي ، ثم أطلقها في
المراعى .. لم يوص عليها أحداً ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمانة
على كل شيء .. ثم قال لامرأته اني لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها
إلا الله .. ولقد أطلقته في المراعى ..

وعندما كبر الولد قالت له أمه: إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهي
عجلة .. فقال يا أمي وأين أجدها ؟ .. قالت كن كأيك هو توكل واستودع ،
وأنت توكل واسترد .. فقال الولد: اللهم رب ابراهيم ورب موسى .. رد الى
ما استودعه أبى عندك .. فاذا بالعجلة تأتي اليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليربها
لأمه .. وبينما هو سائر رآه بنو اسرائيل . فقالوا ان هذه البقرة هي التي طلبها
الرب .. وذهبوا الى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم .. قالوا بثلاثة
دنانير .. فذهب لپستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير ..
قالت أمه لا .. لا تباع .. فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدتها ذهباً ، فدفعوا
له ما أراد .. وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظاً على أولاده يرعاهم ويسر
لهم أمورهم .



وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٤﴾

قصة القتل هي أن رجلا ثريا من بني اسرائيل لم يكن له ولد يرثه . . وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل . . والمال والذهب هما حياة بني اسرائيل . . فتأمر على هذا الرجل الثرى ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولى على أمواله . . ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة لبيتهم أهلها بقتل الثرى . . وفي الصباح قام أهل القرية ووجدوا جثة الثرى أمام قريتهم . . ووجدوه غريبا عن القرية فسألوا من هو؟ حتى وصلوا الى ابن أخيه . . فتجمع أهل القتل وانهموهم بقتله . . وكان أشدهم تحمسا في الاتهام القاتل ابن أخيه . .

وقوله تعالى «إدارأتم فيها» الدرا هو الشيء حين يحىء اليك وكل واحد ينفيه عن نفسه . . إدارأتم أى ان كلا منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكل واحد يقول لست أنا . .

وليس من الضروري أن يتهم أحدا آخر غيره . . المهم أن يدفعها عن نفسه .

ولقد حاول أهل القرينين . . قرية القتل ، والقرية التي وجدت أمامها الجثة . أن يدفع كل منهما شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر . . ولم يكن هناك دليل دامغ يرجح اتهامهما محمدا . بل كانت الادلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى .

وكان التشريع في ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتل على باب قرية ولم

يستدل على قاتله . . فإن قرية القنيل وأهله يأخذون خمسين رجلا من أعيان القرية
التي وجدت بجوارها الجثة . . فيلقوا اليمين بأنهم ما قتلوه . . ولا علموا
قاتله . . وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من خمسين رجلا . . تكررت الأيمان حتى
تصير خمسين يمينا . . فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله . . عندها يتحمل
بيت المال دية القنيل . .

ولكن الله كان يريد شيئا آخر . . يريد أن يرد بهذه الجريمة على جحود بني
اسرائيل باليوم الآخر . . ويجعل الميت يقف امامهم وينطق اسم قاتله . .
ويجعلهم يرون البعث وهم أحياء . . ولذلك قال سبحانه وتعالى : «والله مخرج
ما كنتم تكتمون» . . أى أن بني اسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة دبروها
على أن تبقى في طي الكتمان فلا يعلم احد عنها شيئا . . ولذلك جاء الشاب وقتل
عمه دون أن يراه أحد . . ثم حمل الجثة خفية في ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت
أحد اليه . . ثم ذهب الى قرية مجاورة وألقى بالجثة على باب القرية وأهلها نائمون
وانصرف عائدا . .

كانت كل هذه الخطوات في رأيه ستجعل الجريمة غامضة لا تنكشف ابدا
ولا يعرف سرها أحد . . ولكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك . . أراد أن يكشف
الجريمة بطريقة لا تحتمل الجدل ، وفي نفس الوقت يرد على جحود بني اسرائيل
للبعث . . بأن يريهم البعث وهم أحياء .



﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى
وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣)

احتدم الخلاف بين بني اسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة . . فقرروا أن يلجأوا الى موسى عليه السلام ليطلب من الله تبارك وتعالى أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدلهم على القاتل . . وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اذبحوا البقرة ولو ذبحوا بقرة أية بقرة لانتهت المشكلة . . ولكنهم ظلوا يقولون ما لوئها وما شكلها الى آخر مارويناه . . حتى وصلوا الى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وذبحوها . . فأمرهم الله أن يضربوه ببعضها . . أي أن يضربوا القاتل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت . .

وانظر الى العظمة في القصة . جزء من ميت يُضرب به ميت فيحيا . . اذن المسألة أعدها الحق بصورة لا تجعلهم يشكون أبدا . . فلو أن الله احياء بدون أن يضرب بجزء من البقرة . لقالوا لم يكن قد مات ، كانت فيه حياه ثم أفاق بعد اغماءة . ولكن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى تموت ليعطيهم درسا ايمانيا بقدرة الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديات . . وأن يأخذوا جزءاً أو أجزاء منها وأن يضربوا به القاتل فيحيا وينطق باسم قاتله ويميته الله بعد ذلك . .

يقول الحق جل جلاله . . «كذلك يخبي الله الموتى ويريكهم آياته لعلكم تعقلون» ليرى بنو اسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يخبي الله الموتى وليعرفوا أن الانسان لا يبقى حيا بأسباب الحياه . . ولكن بارادة مسبب الحياه في أن يقول «كن فيكون» .



﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ
قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ
مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ
مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى القلب ووصفه بأنه يقسو ولم يقل نفوسكم . لأن القلب هو موضع الرقة والرحمة والعطف . . وإذا ما جعلنا القلب كثير الذكر لله فإنه يمثل رحمة وعطفا . . والقلب هو العضو الذي يحسم مشاكل الحياة . . فإذا كان القلب يعمر باليقين والايمان . . فكل جارحة تكون فيها خيرة الايمان .

وحتى نعرف قوة وقدرة وسعة القلب على الايمان واحتوائه أوضح الله تعالى هذا المعنى في كتابه العزيز حيث يقول :

﴿ اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ (٢٢)

(سورة الزمر)

وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار . . وبمجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها . . وبعد ذلك تأتي الرحمة ، وفي هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ولكن لا بد أن تلين القلوب لأنها هي التي تعطى اللمة الايمانية لكل جوارح الجسد . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«ألا وإن في الجسد مضغطة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد

الجسد كله ألا وهي القلب»^(١)

إذن فالقلب هو منبع اليقين ومصب الايمان ، وكما أن الايمان في القلب فإن القسوة والكفر في القلب .. فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو .. لماذا ؟ .. لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا والا المادة فيحاول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع ويأى طريقة فلا تآى إلا بالظلم والطغيان وأخذ حقوق الضعفاء ، ثم لا يفرط فيها أبدا لأنها هي منتهى حياته فلا شيء بعدها .

انه يجد انسانا يموت امامه من الجوع ولا يعطيه رغيفا .. وإذا خرج الايمان من القلب خرجت منه الرحمة وخرج منه كل ايمان الجوارح .. فلمحة الايمان التي في اليد تخرج فتتمد اليد الى السرقة والحرام .. ولمحة الايمان التي في العين تخرج فتتنظر العين الى كل ما حرم الله . ولمحة الايمان التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم الى المسجد أبدا ولكنها تمشي الى الخمارة والى السرقة .. لأنه كما قلنا القلب مخزن الايمان في الجسم .

ويشبه الحق تبارك وتعالى قسوة قلوبهم فيقول : «فهي كالحجارة أو أشد قسوة» .. الحجارة هي الشيء القاسى الذى تدركه حواسنا ومألوف لنا ومألوف لبني اسرائيل ايضا .. لأن لهم مع الحجارة شوطا كبيرا عندما تاهوا في الصحراء .. وعندما عطشوا وكان موسى يضرب لهم الحجر بعصاه .

الله تبارك وتعالى لفتهم الى أن المفروض أن تكون قلوبهم لينة ورفيقة حتى ولو كانت في قسوة الحجارة .. ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح في شدة الحجارة وقسوتها بل هي أشد .

ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة .. لا تنظر الى لينونة مادة القلوب ولكن انظر الى ادائها لمهمتها .

الجيل قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته أن يكون وتبدأ للأرض صلبا قويا ، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته .. أما قلوب بني اسرائيل فهي أشد قسوة من الجيل .. والمطلوب في القلوب اللين ، وفي الحجارة

(١) رواه البخارى ومسلم .

القسوة .. فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة .. فالخطاف مثلا أعرج .. هذا العوج يجعله يؤدي مهمته على الوجه الأكمل .. فعوج الخطاف استقامة لمهمته .. وحين تفسد القلوب وتخرج عن مهمتها تكون أقسى من الحجارة .. وتكون على العكس تماما من مهمتها ..

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾

(من الآية ٧٤ سورة البقرة)

هنا يذكرهم الله لما راوه من الرحمة الموجودة في الحجارة .. عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون .. وذلك مثل مثل حصى شهوده .. يقول لهم الحق جل جلاله : ان الرحمة تصيب الحجارة فيتفجر منها الانهار ويخرج منها الماء ويقول سبحانه : «وان منها لما يبيط من خشية الله» ..

اذن فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء .. ولكن قلوبكم اذا قست لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدا ولا تحشع أبدا .. والله سبحانه وتعالى نزل عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وسره ومغفرته الكثير .. كان المفروض أن تلين قلوبكم لذكر الله ..

ولكن ما الفرق بين تفجر الانهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء ؟ عندما تتفجر الحجارة يخرج منها الماء .. نحن نذهب الى مكان الماء لنأخذ حاجتنا .. ولكن عندما تتفجر منها الانهار فالماء هو الذي يأتي الينا ونحن في أماكننا .. وفرق بين عطاء تذهب اليه وعطاء يأتي اليك .. أما هبوط الحجر من خشية الله فذلك حدث عندما تجلى الله للجبل فجعله دكا .. واقرا قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَتَرَّ مَوْسَىٰ صَعِقًا﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

يذكرهم الحق سبحانه كيف أن الجبل حين تجلى الله له هبط وانهار من خشية الله . وهكذا لا يعطيهم الأمثلة مما وقع لغيرهم ، ولكن يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم .

وقوله تعالى : «وما الله بغافل عما تعملون» أي تذكروا ان الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء وأن كل ما تعملونه يعرفه وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته ، فلا تجعلوا قلوبكم تقسو حتى لا يطردهم الله من رحمته كما خلت قلوبكم من ذكره .



﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ
مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٥

يعطينا الحق تبارك وتعالى هنا الحكمة . . فيها رواه لنا عن بنى إسرائيل وعن
نصصهم . لأنهم سيكون لهم دور مع المسلمين في المدينة ، ثم في بيت المقدس ،
ثم في المسجد الأقصى . . فهو يروى لنا كيف أتعبوا نبيهم وكيف عصوا ربهم .
وكيف قابلوا النعمة بالمعصية والرحمة بالجحود . وإذا كان هذا موقفهم يا محمد مع
الله ومع نبيهم . . فلا تطمع أن يؤمنوا لك ولا أن يدخلوا في الاسلام ، مع أنهم
عندهم التوراة تدعوهم الى الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . .

هذه الآيات تحمل أعظم تعزية للرسول الكريم . وتطالبه ألا يحزن على عدم
ايمان اليهود به لأنه عليه البلاغ فقط ، ولكن حرص رسول الله صلى الله عليه
وسلم على أن يؤمن كل أهل الأرض يهود ونصارى وكفاراً ، ليس معناه أنه لم
يفهم مهمته ، ولكن معناه أنه أدرك حلاوة التكليف من ربه ، بحيث يريد أن
يهدي كل خلق الله في الأرض . . فيطمئنه الله ويقول له لا تعتقد أنهم سيؤمنون
لك . وليس معنى عدم ايمانهم أنك لست صادقاً . . فتكذيبهم لك لا ينبغي أن
يؤثر فيك . . فلا تطمع يا محمد أن يؤمنوا لك . .

ما هو الطمع ؟ . . الطمع هو رغبة النفس في شيء غير حقها وإن كان محبوباً
لها . . والأصل في الانسان العاقل ألا يطمع إلا في حقه . . والانسان أحياناً يريد
أن يرفه حياته ويعيش مترفاً ولكن بحركة حياته كما هي . نقول له إذا أردت أن
تتوسع في ترفك فلا بد أن تتوسع في حركة حياتك ؛ لأنك لو أترفت معتمداً على حركة
حياة غيرك فسيفسد ميزان حركة الحياة في الأرض ، أى إن كنت تريد أن تعيش حياة
مترفة فعش على قدر حركة حياتك ؛ لأنك إن فعلت غير ذلك تسرق وترش وتفسد .
فإن كان عندك طمع فليكن فيما تقدر عليه .

إذن فكلمة «افتطمعون» هنا تحدد أنه يجب ألا نطمع إلا فيما نقدر عليه . هؤلاء اليهود هل نقدر على أن نجعلهم يؤمنون ؟ يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . . هذا أمر زائد على ما كلفت به . . لأن عليك البلاغ ، وحتى لو كان محببا الى نفسك . . فإن مقدماتهم مع الله لا تعطيك الأمل في أنك ستصل الى النتيجة التي ترجوها . .

وهذه الآية فيها تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما سيلاقه مع اليهود . وتعطيه الشحنة الايمانية التي تجعله يقابل عدم ايمان هؤلاء بقوة وعزيمة . . لأنه كان يتوقعه فلا يحزن ولا تذهب نفسه حشرات ، لأن الله تبارك وتعالى قد وضع في نفسه التوقع لما سيحدث منهم . . فإذا جاء تصرفهم وفق ما سيحدث . . يكون ذلك أمرا محتملا من النفس . .

والحق سبحانه وتعالى يقول : «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله» انظر الى الأمانة والدقة . . فريق منهم ليس كلهم . . هذا هو ما استنبط منه العالم نظرية صيانة الاحتمال . . وهي عدم التعميم بحيث تقول انهم جميعا كذا . لا بد أن تضع احتمالا في أن شخصا ما سيؤمن أو سيشك أو سيخالف . . هنا فريق من اهل الكتاب عرفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والانجيل . . وعندما بعث آمنوا به ، وهؤلاء لم يعرفوا كلام الله . لو أن القرآن جاء بالحكم عاما لتغيرت نظرة الكافرين للاسلام . . ولقالوا لقد قال عنا هذا الدين اننا حرفنا كتاب الله ولكتنا لم نحرفه ونحن نتظر رسوله . . فكان هذا الحكم غير دقيق . . ولا بد أن شيئا ما خطأ . . لأن الله الذي نزل هذا القرآن لا يخفى عليه شيء ويعرف ما في قلوبنا جميعا . . ولكن لأن الآية الكريمة تقول ان فريقا منهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه . . الكلام بلا تعميم ومنطبق بدقة على كل حال . .

والحق جل جلاله يقول : «ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» . . هذه معصية مركبة سمعوا كلام الله وعقلوه وعرفوا العقوبة على المعصية ثم بعد ذلك حرفوه . . لقد قرأوه في التوراة وقرأوا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انهم يعرفونه كأبنائهم . . ثم حرفوا كلام الله وهم يعلمون . . ومعنى التحريف تغيير معنى الكلمة . . كانوا يقولون السَّام عليكم بدلا من السلام عليكم . . ولم يتوقف الأمر عند التحريف بل تعداه الى أن جاءوا بكلام من عندهم وقالوا انه من التوراة .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

هذه صور من صور نفاق اليهود . والناس مقسمون إلى ثلاث : مؤمنون وكافرون ومنافقون . . . المؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذي يعيش فيه . . . والكافر انسجم مع نفسه ولم ينسجم مع الكون ، والكون يلعنه . . . والمنافق لا انسجم مع نفسه ولا انسجم مع الكون ، والآية تعطينا صورة من صور النفاق وكيف لا ينسجم المنافق مع نفسه ولا مع الكون . . . فهو يقول ما لا يؤمن به . . . وفي داخل نفسه يؤمن بما لا يقول . والكون كله يلعنه ، وفي الآخرة هو في الدرك الأسفل من النار . وهذه الآية تتشابه مع آية تحدثنا عنها في أول هذه السورة . . . وهي قوله تعالى :

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴿١١﴾﴾

(سورة البقرة)

في الآية الأولى كان الدور لليهود ، وكان هناك منافقون من غير اليهود وشياطينهم من اليهود . . . وهنا الدور من اليهود والمنافيين من اليهود . الحق سبحانه وتعالى يقول : «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا» وهل الإيمان كلام ؟ . . . الإيمان يقين في القلب وليس كلاما باللسان . . . والاستدلال على الإيمان بالسلوك فلا يوجد انسان يسلك سبيل المؤمنين نفاقا أو رياء . . . يقول آمنت نفاقا ولكن سلوكه لا يكون سلوك المؤمن . . . ولذلك كان سلوكهم هو الذي يفضحهم . يقول تعالى : وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم . . .

وفي سورة أخرى يقول الحق :

﴿وَإِذَا لَقُرُّكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

وفي سورة المائدة يقول سبحانه :

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ﴾

(من الآية ٦١ سورة المائدة)

هنا أربع صور من صور المنافقين . . كلها فيها التظاهر بإيمان كاذب . . في الآية الأولى «وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم» وفي الآية الثانية : «وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا اتخذوثهم بما فتح الله عليكم» . وفي الآية الثالثة : «عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» . وفي الآية الرابعة : «وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به» .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث كان اليهود يقولون للمؤمنين هذا هو نبيكم موجود عندنا في التوراة أو صافه كذا . . حيثئذ كان أحبار اليهود ينهونهم عن ذلك ويقولون لهم : «اتخذوثهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» فكأنهم علموا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرادوا أن يخفوها . . إن الغريب أنهم يقولون : «بما فتح الله عليكم» . وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه . . ولو أراد الله لهم الفتح لأمنت القلوب . .

قوله تعالى : «ليحاجوكم به عند ربكم» يدل على أن اليهود المنافقين والكفار وكل خلق الأرض يعلمون أنهم من خلق الله ، وإن الله هو الذي خلقهم . . وماداموا يعلمون ذلك فلماذا يكفرون بخالقهم ؟ «ليحاجوكم به» أى لتكون حججتهم عليكم قوية عند الله . . ولكنهم لم يقولوا عند الله بل قالوا «عند ربكم» والمحاجة معناها أن يلتقى فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة . وتقام بينهما مناظرة

يدلى فيها كل فريق بحجته . واقرأ قوله تعالى :

﴿الرَّ تَرَى إِلَى اللَّهِ حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ أَسْأَلَهُ الْمَلِكَ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه هي المناظرة التي حدثت بين ابراهيم عليه السلام والنمرود الذي آتاه الله الملك .. ماذا قال ابراهيم ؟

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه كانت حجة ابراهيم في الدعوة الى الله ، فرد عليه النمرود بحجة مزيفة . قال انا احيى واميت .. ثم جاء بواحد من جنوده وقال لحراسه اقتلوه .. فلما اتجهوا اليه قال اتركوه .. ثم التفت الى ابراهيم :

﴿قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

جدل عقيم لأن هذا الذي أمر النمرود بقتله . كان حيا وحياته من الله .. والنمرود حين قال اقتلوه لم يمته ولكنه أمر بقتله .. وفرق بين الموت والقتل .. القتل أن تهدم بنية الجسد فتخرج الروح منه لأنه لا يصلح لإقامتها .. والموت أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة لم تهدم .. الذي يميت هو الله وحده ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَمَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقِلَبَتْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

والنمرود لو قتل هذا الرجل ما كان يستطيع أن يعيده الى الحياة .. ولكن ابراهيم عليه السلام .. لم يكن يريد أن يدخل في مثل هذا الجدل العقيم ..

الذي فيه مقارعة الحجة . بالحجة يمكن فيه الجدال ولو زيفا . . ولذلك جاء بالحجة البالغة التي لا يستطيع النمرود ان يجادل فيها :

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذا هو معنى الحاجة . . كل طرف يأتي بحجته ، وما داموا يحاجونكم عند ربكم وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام لأنه رب الجميع وسيُنصف المظلوم من الظالم . . اذا كانت هذه هي الحقيقة فهل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم ؟ الجواب لا . . لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم في هذا الخطأ فهذا ليس فتحا . .

وقوله تعالى : «أفلا تعقلون» ختام منطقي للآية . . لأن من يتصرف تصرفهم ويقول كلامهم لا يكون عنده عقل . . الذي يقول «لبحاجوكم عند ربكم» يكون مؤمنا بأن له ربا ، ثم لا يؤمن بهذا الاله ولا يخافه لا يمكن أن يتصرف بالعقل .



﴿ ٧٧ ﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿ ٧٧ ﴾

يبين الله لنا بأنه يعلم أمرهم وما يفعلون . لقد ظنوا أن الله غافل عندما خلا بعضهم إلى بعض وقالوا : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » .. الله علم وسمع .. وعندما يلاقى المنافقون المؤمنين ويقولون آمنا .. « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » هذا انفعال حركي ليس فيه كلام يقال ولكن فيه واقع يرى .. ومع ذلك فهو ليس سرا .

ما هو السر وما هو العلن ؟ .. الأمر المعلن هو الذي يخرج منك الى من عنده آله السماع ليسمعك .. والأمر المعلن يخرج منك الى من عنده آله الرؤية ليراك .. فإن كان حركة بلا صوت فهذا عدته العين .. وإن كان بصوت فعدته الأذن .. هذه وسائل الإدراك الأصلية ..

وقوله تعالى « يعلم ما يسرون وما يعلنون » ألم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون .. وإذا كان يعلم ما نسر أفلا يعلم ما نعلن ؟ .. لاشك أنه يعلم .. ولكنها دقة في البلاغة القرآنية ، ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه ..

ونحن نعلم أن الله غيب .. وغيب يعني مستور عن حواسنا .. ومادام الله غيبا فهو يعلم الغيب المستور .. ربما كان العلن الظاهر له قوانين أخرى .. فمثلا إذا كان هناك شخص في المنزل ، ثم يقول « أنا أعلم ما في المنزل وما هو خارج المنزل » .. لو قال أنا أعلم ما في المنزل لقلنا له أنت داخله فلا غرابة في ذلك .. ولكنك مستور عما في الخارج فكيف تعلمه ؟

ومادام الله غيباً فقلوه ما يسرون أقرب لغيره . وما يعلنون هي التي تحتاج وقفة . لا تظنوا أن الله تبارك وتعالى لأنه غيب لا يعلم إلا ما هو مستور وخفى فقط . . . لا . . . إنه يعلم المشهود والغائب . . . إذن فالمناسب لأن الله غيب عز ابصارنا وكوننا لا ندركه أن يقول ما يسرون أولاً . .

ما معنى ما يسرون ؟ . . السر هو ما لم نهمس به إلى غيرك . . لأن همسك للغير بالشئ لم يعد سرا . . ولكن السر هو ما تسره في نفسك ولا نهمس به لأحد من الناس . . وإذا كان السر هو ما تسره في نفسك ، فالعلن هو ما تجاهر به . ويكون علنا مادام قد علمه اثنان . . والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفى . . والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب . . فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيباً . إنه يعلم السر والعلن . . والله جل جلاله يقول في القرآن الكريم :

﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

(من الآية ٧ سورة طه)

فإذا كان السر هو ما تحفيه في نفسك وله واقع داخلك . . وما هو أخفى ، هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أن تفعله . ويعلم أنه سيحدث منك قبل أن يحدث منك .



﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ
إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ٧٨

الله سبحانه وتعالى لا زال يتحدث عن أهل الكتاب .. فبعد أن بين لنا الذين يقولون : « اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » .. انتقل سبحانه وتعالى الى طائفة أخرى وهم من أسماهم بالأميين .. وأصح قول في الأمي هو أنه كما ولدته أمه .. أي لم يعلم شيئا من ثقافة وعلم في الوجود منذ لحظة نزوله من بطن أمه .. ولذلك فإن الأمي على إطلاقه هو الذي لا يكتسب شيئا من ثقافة الوجود حوله ، بصرف النظر عن أن يقال كما ولدته أمه .. لأن الشائع في المجتمعات أن الذي يعلم هم الخاصة لا العامة .. وعلى أية حال فالمعاني كلها ملتقية في تعريف الأمي .

قوله تعالى : « ومنهم أميون » .. تلاحظ أن هناك معسكرات من الأميين واجهت الدعوة الإسلامية .. فالمعسكر الأول كان المشركون في مكة ، والمعسكر الثاني كان أهل الكتاب في المدينة . وأهل الكتاب تطلق على أتباع موسى وأتباع المسيح .. ولكن في الجزيرة العربية كان هناك عدد لا يذكر من النصارى .. وكان هناك مجتمع . والمقصود من قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » هم اليهود الذين كان لهم مجتمع في المدينة .. ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « ومنهم أميون » .. معنى هذا أنه لابد أن يكون هناك منهم غير أميين .. وهؤلاء هم الذين سيأتى قول الله تعالى عنهم في الآية التالية :

﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

هنا قسم الله تبارك وتعالى اليهود إلى أقسام .. منهم قسم أمي لا يعرفون

الكتاب وما يقوله لهم أحبارهم هو الذي يعرفونه فقط . . . وهؤلاء ربما لو كانوا يعلمون ما في التوراة . . . من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا به . . . والكتاب هنا يقصد به التوراة . . . والله سبحانه وتعالى لم ينف عنهم مطلق العلم . . . ولكنه نفى خصوصية العلم ، لأنه قال لا يعلمون إلا أمانى . . . فكان الأمانى يعلمونها من الكتاب .

ولكن ما الأمانى ؟ . . . إنها تطلق مرة بدون تشديد الباء ومرة بتشديد الباء . . . فإن كانت بالتخفيف تكون جمع أمنية . . . وإن كانت بالتشديد تكون جمع أمنية بالتشديد على الباء . . . الأمنية تجدها في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة النساء)

هذا بالنسبة للجمع . أما بالنسبة للمفرد . . . في قوله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

ما هي الأمنية ؟ . . . الأمنية هي الشيء الذي يحب الانسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل . . . إذن لن يحدث ولن يكون له وجود . . . ولذلك قالوا إن من معاني التمني اختلاق الأشياء . . . الشاعر الذي قال :

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا

فَأُخِيرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

هل الشباب يمكن أن يعود ؟ . . . طبعاً مستحيل . . . هذا شيء لن يحدث . . . والشاعر الذي قال :

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَذُو لِي فَأَنْظِمَهَا
عُقُودَ مَذْحِجٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمَ

هل النجوم ستزل من السماء وتأتى إلى هذا الشاعر . . ينظمها أبيات شعر إلى حبيته . . إذن من معانى التمنى الكذب والاختلاق . ولقد فسر بعض المستشرقين قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى (أى قرأ) : « ألقى الشيطان فى أمنيه » (أى فى قراءته) . . وطبعاً الشيطان لن يلقى فى قراءة الرسول إلا كذباً وإفتراء وكفراً . . إقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۖ (٢٠) أَلَكُمُ اللَّهُ كُرْهُهُ أَلَا لَئِن تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۖ (٢١) ﴾

(سورة النجم)

قال أعداء الإسلام مادام قد ذكر فى القرآن أسماء الغرائق . . وهى الأصنام التى كان يعبدونها الكفار . . ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . . إذن فشفاعة هذه الأصنام تترجم فى الآخرة . . وهذا كلام لا ينسجم مع منطق الدين كله الذى يدعو لعبادة الله وحده . . وخرج المستشرقون من ذلك بأن الدين فعلاً يدعو لعبادة الله وحده . . إذن فيكون الشيطان قد ألقى فى أمنيه فيما يقوله رسول الله . . ثم أحكم الله سبحانه آياته فقال تعالى :

﴿ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النجم)

وهم يريدون بذلك أن يشككوا . . فى أنه من الممكن أن يلقى الشيطان بعض أفكاره فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن الله سبحانه ينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم آياته .

إن الله جل جلاله لم يترك وحيه لعبث الشيطان . . ولذلك سنبعث الآية بعيداً عن كل ما قيل . . نقول لو أنك تنبّهت إلى قول الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى) لو قلنا تمنى بمعنى قرأ ، ثم أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته . . إذن هو سبحانه لن يترك رسوله

يخطئ... وبذلك ضمنا أن كل ما ينتهي إليه الرسول صواب... وأن كل ما وصلنا عن الرسول محكم... فنطمئن إلى أنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه الشيطان في ثني الرسول ويصلنا دون أن ينسخ.

لذا قلنا: إن الله ينسخ ما يلقي الشيطان فما الذي جعلكم تعرقون ما ألقاه الشيطان مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لكم إلا المحكم... ثم من هو الرسول؟ بشر أوحى إليه بمنهج من السماء وأمر بتبليغه... ومن هو النبي؟ بشر أوحى إليه بمنهج... ولم يؤمر بتبليغه... ومادام لم يؤمر بتبليغه يكون خاصا بهذا النبي... ويكون النبي قدوة سلوكية... لأنه يطبق منهج الرسول الذي قبله فهو لم يأت بجديد.

الآية الكريمة جاءت بكلمتي رسول أو نبي... إذا كان معنى أمنية الشيطان مستقيما بالنسبة للرسول فهو غير مستقيم بالنسبة للنبي... لأن النبي لا يقرأ شيئا، ومادام النبي ذكر في الآية الكريمة فلا بد أن يكون للتمنى معنى آخر غير القراءة... لأن النبي لم يأت بكلام يقرؤه على الناس... فكانه سيقرا كلاما محكما ليس فيه أمنية الشيطان أي قراءته.

إن التمنى لا يأتي بمعنى قراءة الشيطان... وأمنية الرسول والنبي أن ينجحا في مهمتهما... فالرسول كمبلغ لمنهج الله، النبي كأسوة سلوكية... المعنى هنا يختلف... الرسول أمنيته أن يبلغ منهج الله... والشيطان يحاول أن ينزع المنهج من قلوب الناس... هذا هو المعنى... والله سبحانه وتعالى حين يحكم آياته ينصر الإيمان ليسود منهج الله في الأرض وتنظم حركة الناس... هذا هو المعنى.

وكلمة تمنى في هذه الآية الكريمة بمعنى أن الرسول أو النبي يجب أن يسود منهجه الأرض... والشيطان يلقي العراقيل والله يحكم آياته وينصر الحق... ويجب أن نفهم الآية على هذا المعنى... بهذا ينتفى تماما ما يدعيه المستشرقون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يقرأ ما يوحى إليه يستطيع الشيطان أن يتدخل ويضع كلاما في الوحي... مستحيل.

وقوله تعالى: «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني»... معناها أنه يأتي

قوم لا يعرفون شيئا عن الكتاب إلا ظنا .. فيصدقهم هؤلاء الأميون دون علم .. وكأن الله سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن كثيرا من المذاهب الدينية في الأرض ينشأ عن المبلغين لها .. فهناك أناس يأتمنون آخريين ليقولوا لهم ما انتهت إليه الأحكام الدينية .. فيأتى الأمي أو غير المثقف يسأل عالما عن حكم من الأحكام الشرعية .. ثم يأخذ منه الحكم ويطبقه دون أن يناقشه .. لأن علمه قد إنتهى عند السؤال عن الفتوى .. والحق سبحانه وتعالى كما يقول :

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الانعام)

أى لا يحمل احدا ذنب أحد يوم القيامة .. فيقول تعالى :

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

بعض الناس يظن أن الأيتين بينهما تعارض .. نقول لا .. من يرتكب إثما بحاسب عليه .. ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يحمل له بها ما حرم الله .. فإنه يحمل معاصيه ومعاصي من أضل .. فيكون له وزر لأنه ضل، ووزر لأنه أضل غيره .. بل وأكثر من ذلك .. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)^(١) .

ولابد أن نتنبه إلى خطورة الفتوى في الدين بغير علم .. الفتوى في الدنيا أقصى ما يمكن أن تؤدي إليه هو أن تجعلك تحسر صفقة .. لكن الفتوى في الدين ستدوم عمرا طويلا ..

(١) (رواه أحمد ومسلم أن أبي هريرة)

الحق تبارك وتعالى يقول : « إن هم إلا يظنون » .. والظن كما قلنا هو نسبة راجحة ولكن غير مؤكدة .. وإذا كان التمني كما ورد في اللغة هو القراءة .. فهؤلاء الآميون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لسان بلا فهم .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

وهكذا نرى أن هناك صنفا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئا .. والله جل جلاله قال إن مثله كالحمار .. ولكن أقل من الحمار ، لأن الحمار مهمته أن يحمل الأثقال .. ولكن الإنسان ليست مهمته أن يحمل ما يجهل .. ولكن لابد أن يقرأ الكتاب ويعلم المطلوب منه .



﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ٧٩

هذه الآية الكريمة جاءت في القسم الثاني من اليهود وهو المقابل للأمين . . وهم إما أميون لا يعلمون الكتاب . . وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . ولذلك توعدهم الله تبارك وتعالى فقال : ويل لهم ، وبدأ الآية بالوعيد بالجزاء مباشرة . نلاحظ أن كلمة ويل في اللغة تستعمل معها كلمتي ويح وويس . . وكلها تعني الهلاك والعذاب . . وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿يَتَوَيْلَتَنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ ٤

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

وقوله جل جلاله :

﴿يَتَوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنبياء)

هذه الويلات تعني الحسرة وقت رؤية العذاب . . وقيل إن الويل وإد في جهنم هو الإنسان فيه أربعين خريفاً والعياذ بالله . . والحق تبارك وتعالى ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم أن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفاً . . لأن كل من ارتكب إثماً نتيجة لتزييفهم للكتاب سيكونون شركاء وسيحملون عذابهم معهم يوم القيامة ، وسيكون عذابهم مضاعفاً أضعافاً كثيرة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » . . . ألم يكن يكفي أن يقول الحق فويل للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى مفهوما . . . يكتبون الكتاب بماذا ؟ بأيديهم . . . نقول لا . . . لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل . . . رئيس الدولة مثلا يتصل بأحد وزرائه ويقول له ألم أكتب إليك كتابا بكذا فلماذا لم تنفذه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كتبوه بأمره ، ورؤساء الدول نادرا ما يكتبون كتباً بأيديهم .

إن الله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم . . . فهم لا يكتبون مثلاً بأن يقولوا لغيرهم إكتبوا . . . ولكن لإهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماماً . . . فليست المسألة نزوة عابرة . . . ولكنها مع سبق الإصرار والترصد . . . وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمنا قليلا ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية . . . يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب في الماضي إذا اختلفوا في شيء . . . ذهبوا إلى الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم . . . لماذا ؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين . . . يعني لا أنهزم امامه ولا ينهزم أمامي . . . وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان . . . فإذا كنا منلجأ إلى تشريع السماء ليحكم بيننا . . . لا يكون هناك غالب ومغلوب أو منهزم ومتصر . . . ذلك حين اخضع أنا وأنت لحكم الله يكون كل منا راضيا بنتيجة هذا الحكم .

ولكن رجال الدين اليهودي والمسيحي أخذوا يصدرون فتاوى متناقضة . . . كل منهم حسب مصلحته وهواه . . . ولذلك تضاربت الأحكام في القضايا المشابهة . . . لأنه لم يعد الحكم بالعدل . . . بل أصبح الحكم خاضعا لأهواء ومصالح وقضايا البشر . . . وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . . . إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة . . . وبذلك يكونون هم المشرعين باسم الله ، يكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابة ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأخبار ، بدأوا يطلبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة .

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ؟! .. الحق سبحانه وتعالى يقول : « ليشتروا به ثمنا قليلا » .. وقد قلنا إن الإنسان لا يشتري الثمن .. ولكنه يدفع الثمن ويشتري السلعة .. ولكنك هنا تدفع لتأخذ ثمنا .. تدفع من منهج الله وحكم الله فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنا موفوتا .. والله سبحانه وتعالى يعطيك في الآخرة الكثير ولكنك تبيعه بالقليل .. وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منهج الله يعتبر ثمنا قليلا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فويل لهم مما كتبت أيديهم » .. الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » .. ثم جاء قوله تعالى : « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .. فساعة الكتابة لها ويل وعذاب .. وساعة بيع الصفقة لها ويل وعذاب .. والذي يكسبونه هو ويل وعذاب .

لقد انتشرت هذه المسألة في كتابة صكوك الغفران التي كانت تباع في الكنائس لمن يدفع أكثر . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وويل لهم مما يكسبون » .. وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرا أو نفعا .. وهناك كسب وهناك اكتسب .. كسب تأق بالشئ النافع ، واكتسب تأق بالشئ الضار .. ولكن في هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : « وويل لهم مما يكسبون » .. وفي آية ثانية قال : « بلى من كسب سيئة » .

فلماذا تم هذا الإستخدام ؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبيعيا ، إنما هو افتعال في الكسب .. أى اكتساب .. ولا بد أن نفهم إنه بالنسبة لجوارح الإنسان .. فإن هناك القول والفعل والعمل .. بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل .. نقول لا .. هناك قول هو عمل اللسان .. وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان .. وعمل وهو أن يوافق القول الفعل .. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِمَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٤﴾ كَبُرَ مَقْصِدَ ءَلَلَهُ أَن

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٥﴾

إذن هناك قول وفعل وعمل .. والإنسان إذا استخلم جوارحه استخدما
 سلبيا يفعل ما هو صالح له .. فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يغضب الله
 فإن جوارحه لا تفعل ولكنها تفعل .. تصادم ملكاتها بعضها مع بعض
 والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون مطمئنا لا يخاف شيئا ..
 والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطربا وتصرفاته كلها افتعال ..
 والإنسان مع زوجته منسجم في هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون في وضع
 مخالف .. إنها حالة افتعال .. وكل من يكسب شيئا حراما إفتغله .. ولذلك
 يقال عنه اكتسب .. إلا إذا ثمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو ممن نقول عنهم
 معتادو الإجرام .. في هذه الحالة يفعل الشيء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه ..
 هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذي يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله ..
 أصبح الرثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين في آية واحدة .



﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
 أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ
 عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٨٠

هنا يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس .. لقد زين لهم الشيطان
 الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوي
 وفازوا به .. لأنهم لن يعذبوا في الآخرة إلا عذابا خفيفا قصيرا .. ولذلك يفضح
 الله تبارك وتعالى مايقولونه بعضهم مع بعض .. ماذا قالوا ؟ : وقالوا لن تمسنا النار إلا
 أياما معدودة ،

المس يعنى اللمس الخفيف أو اقتراب شيء من شيء .. ولكن لا يحس أحدهما
 بالآخر إلا إحساسا خفيفا لا يكاد يذكر .. فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أنا يديك
 على يده يقال مسست .. ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو
 نعومة جلده .. ولكن اللمس يعطيك إحساسا بما تلمس : وقالوا لن تمسنا النار
 إلا أياما معدودة ، وهكذا أخذوا أقل الأقل في العذاب .. ثم أقل الأقل في الزمن
 فقالوا أياما معدودة .. الشيء إذا قيل عن معدود فهو قليل .. أما الشيء الذي
 لا يحصى فهو الكثير .. ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النحل)

فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشيء يمكن إحصاؤه .. فإن لم يكن ممكنا
 لا يُقبل أحد على عده ، ولا نرى من حاول عد حبات الرمال أو ذرات الماء
 في البحار .. نعم الله سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك

لا يُقبل أحد على إحصائها . . وإذا سمعت كلمة « أياما معدودة » فاعلم انها أيام قليلة . . ولذلك نرى في سورة يوسف قول الحق جل جلاله :

﴿ وَشَرَّوهُ يُثْمِنُ بِخَيْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

قوله لن نمنسنا النار إلا أياما معدودة . . دليل على غيبتهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة . . ولكنها أمانى وضعها الشيطان في عقولهم ليأتى الرد من الله في قوله سبحانه : « قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده » أى إذا كان ذلك وعدا من الله ، فالله لا يخلف وعده . والله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم . . بل هو جل جلاله الذى يحكم . . فإن كان قد أعطاكم عهدا فالله لا يخلف وعده .

وقوله تعالى : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . . هنا أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فبدلا من أن يقول لهم أتفترون على الله أو أنكذبون على الله . . أو أتختلفون على الله ما لم يقله . . قال : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » إن الذى يخلق الكلام يعلم أنه مخلق . . إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدق ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مخلق رغم أنهم صدقوه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فلهل بعضكم أن يكون الحق بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليركها)^(١) .

إذن مخلق الشيء يعرف إن هذا الشيء مخلق . وهؤلاء اليهود هم أول من يعلم إن قولهم . . « لن نمنسنا النار إلا أياما معدودة » قول مخلق . . ولكن لمن يقولون على الله ما هو إفتراء وكذب ؟ يقولون للأمين الذين لا يعرفون الكتاب .

(١) (رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم)

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨١)

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم .. فجاء القرآن قائلا : « بلى » وهي حرف جواب مثل نعم تماما .. ولكن « بلى » حرف جواب في النفي .. يعنى ينفي الذى قبله .. هم قالوا لن نمسنا النار إلا أياما معدودة ورسول الله سألهم هل اتخذوا عند الله عهدا أو يقولون على الله ما لا يعلمون ، فجاء القرآن ليقول : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. بداية الجواب ببلى تنفى ما قالوا .. لأن بلى تأتي بعد النفي .. ونعم تأتي بعد الإجابة .. فإذا قال إنسان ليس لك عندى شيء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندى شيء .. أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندى شيئا أو أشياء .. ولذلك بعد قولهم « لن نمسنا النار إلا أياما معدودة » .. لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت .. وجاء الكلام بعدها مؤكدا النفي :

« من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » هم قالوا لن نمسنا النار .. قال لن نمسكم فقط بل أنتم فيها خالدون .. وقوله تعالى : « أصحاب النار » .. الصيغة تقتضى نوعا من الملازمة فيها تجاذب المتصاحين .. ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار ..

هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : « بلى من كسب سيئة » .. وكان السياق يقتضى أن يقال اكتسب .. ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا .. كما بينا في الآية السابقة .. وقوله تعالى : « وأحاطت به خطيئته » .. إحاطة بحيث

لا يوجد منفذ للإفلات من الخطيئة لأنها محيطة به . وأنسب تفسير لقوله تعالى :
« كَسِبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ » .. أن المراد الشرك .. لأن الشرك هو الذي
يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه .. والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ولذلك فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط .. ولكنهم كانوا كافرين مشركين .
والدليل قوله تعالى : « هم فيها خالدون » .. وأصحاب الصغائر أو الكبائر
الذين يتوبون منها لا يخلدون في النار .. ولكن المشرك بالله والكافر به هم
الخالدون في النار .. وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كافر ..
لأن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٨٥ ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك قلت هناك فرق بين .. الإنسان الذي يرتكب معصية لأنه لا يقدر على
نفسه فيندم ويتوب .. وبين إنسان يفرح بالمعصية .. ولذلك يقول الحق سبحانه
وتعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبة .. وهناك من يفرح بالمعصية وهذا
يزداد معصية .



﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٨٢

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .. العذاب والنار يأتي بالمقابل وهو النعيم والجنة .. ذلك أن المقابلة تربنا الفرق .. وتعطى للمؤمن إحساسا بالسعادة .. لأنه زحزح عن عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط .. بل دخل الجنة ليقيم خالدا في النعيم .. ولذلك يقول سبحانه :

﴿فَمَنْ زُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إذن الفوز في الآخرة ليس على درجة واحدة ولكن على درجتين .. أولى درجات الفوز أن يزحزح الإنسان عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم .. يكفى انك تمر على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .. يكفى ذلك ليكون فوزا عظيما .. لأن الكافر في هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل النار .. فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه .. فإذا تجاوز النار ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيمها خالدا كان هذا فوزا آخر .. ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحزح عن النار فاز .. ولم يقل من أدخل الجنة فاز .. بل قال « فَمَنْ زُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » .. وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات العذاب لتعطينا المقارنة .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٢)

أخذ الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ثمانية أشياء : الميثاق . . وهو العهد
الموثق المربوط ربطاً دقيقاً وهو عهد الفطرة أو عهد الذر . . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَفْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى على رسله جميعاً . . أن يشرخوا برسالة
رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثه . .
أو ألا يكتنموا ما في كتبهم ولا يغيروه . . والميثاق هو كل شيء فيه تكليف من
الله . . ذلك أنك تدخل في عقد إيمان مع الله سبحانه وتعالى بأن تفعل ما يأمر به
وتترك ما نهى عنه . . هذا هو الميثاق . . كلمة الميثاق وردت في القرآن الكريم
بوصف غليظ . . في علاقة الرجل بالمرأة . . قال سبحانه وتعالى :

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا بِهِ
شَيْعًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهِنَّ وَهِيَ لَهُنَّ مِثْلٌ مِّمَّا مِثْلًا ۚ وَكَفَّ تَأْخُذُوهنَّ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٢١)

(سورة النساء)

نقول نعم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به . . أشياء لا تحل لأبيها أو لأخيها أو أى إنسان عدا زوجها . . والرجل إذا دخل على ابنته وكانت ساقها مكشوفة تسارع بتغطيته . . فإذا دخل عليها زوجها فلا شيء عليها . . إذن هو ميثاق غليظ لأنه دخل مناطق العورة وأباح العورة للزوج والزوجة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن كلا منهما يغطى ويخفى ويستر عورة الآخر . . والأب لا يفرح من انتقال ولاية ابنته إلى غيره . . إلا انتقال هذه الولاية لزوجها . . ويشعر بالقلق عندما تكبر الفتاة ولا تتزوج .

الحق يقول : « وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » هذا الميثاق شمل ثلاثة شروط : « لا تعبدون إلا الله » . . أى تعبدون الله وحده . . وتؤمنون بالتوراة وبموسى نبيا . . لماذا ؟ لأن عبادة الله وحده هي قمة الإيمان . . ولكن لا تحدد أنت منهج عبادته سبحانه . . بل الذى يحدد منهج العبادة هو المعبود وليس العابد . . لا بد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو التوراة وتؤمن به . . ثم بعد ذلك تؤمن بموسى نبيا . . لأنه هو الذى نزلت عليه التوراة . . وهو الذى سيبين لك طريق العبادة الصحيحة . ويدون هذه الشروط الثلاثة لا تستقيم عبادة بنى إسرائيل . .

وقوله تعالى : « وبالوالدين إحسانا » لأنها السبب المباشر في وجودك . . ربياك وأنت صغير ، ورعاك ، وقوله تعالى : « إحسانا » معناه زيادة على المفروض . لأنك قد تؤدي الشيء بالقدر المفروض منك . . فالذى يؤدي الصلاة مثلا بقدر الغرض يكون قد أدى . . أما الذى يصل النوافل ويقوم الليل يكون قد دخل في مجال الإحسان . . أى عطاؤه أكثر من المفروض . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٩﴾ إِخْرَجْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا قَبْلَ

ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ مَنِيعِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا لَنَتَحَارِّمُهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

(سورة النازعات)

وهكذا نرى أن الإحسان زيادة على المفروض في الصلاة والتسبيح والصدقة .
والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطى لوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب عليك ..

وقوله تعالى : « وذوي القربى » .. يحدد الله لنا فيها المرتبة الثانية بالنسبة للإحسان .. فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا وترعى أقاربنا .. ولو أن كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين في المجتمع .. والله يريد مجتمعاً لا فقر فيه ولا حقد .. وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان للوالدين والأقارب .. فيكون لكل محتاج في المجتمع من يكفله ..

يقول الله سبحانه : « واليتامى » .. واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال .. هذا في الإنسان .. أما في الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه .. لأن الأمومة في الحيوان هي الملازمة للطفل ، ولأن الأب غير معروف في الحيوان ولكن الأم معروفة .. اليتيم الذي فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أجله ومن يدافع عنه .. والله سبحانه وتعالى جعل الأم هي التي تربي وترعى .. والأب يكافح من أجل توفير إحتياجات الأسرة .. ولكن الحال إنقلب الآن ولذلك يقول شوقي رحمه الله :

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ
هَمِّ الْحَيَاةِ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلًا
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلَقَّى لَهُ
أُمًّا تَحَلَّتْ أَوْ أَبًا مَشْغُولًا

إن اليتيم يكون منكسراً لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له .. فإذا رأينا في المجتمع الإسلامي أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع .. فذلك

يجعل الأب لا يخشى أن يترك ابنه بعد وفاته . . إذن فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولا حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيما وله مال فإن الناس كلهم يطمعون في ماله ، لأنه لا يقدر أن يحميه . . هذه واحدة . . والثانية أن هذا التكافل يذهب الحقد من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئنا على أولاده . .

وقوله سبحانه وتعالى : « والمساكين » . . في الماضي كنا نقول إن المساكين هم الذين لا يملكون شيئا على الإطلاق ليقيموا به حياتهم . . إلى أن نزلت الآية الكريمة في سورة الكهف :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فعرفنا أن المسكين قد يملك . . ولكنه لا يملك ما يكفيه . . وهذا نوع من التكافل الإجتماعي لابد أن يكون موجودا في المجتمع . . حتى يتكافل المجتمع كله . . فانت إن كنت فقيرا أو مسكينا ويأتيك من رجل غنى ما يعينك على حياتك . . فإنك ستعني له الخير لأن هذا الخير يصيبك . . ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئا . . هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرا . . تكون النتيجة أن حقه يزداد عليك . .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : « وقولوا للناس حسنا » . . كلمة حسنا بضم الحاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء . . والحسن هو ما حسنه الشرع . . ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ما حسنه الشرع أو ما حسنه العقل ؟ نقول : ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع . . لأن العقل قد يختلف في الشيء الواحد . . هذا يعتبره حسنا وهذا يعتبره قبيحا . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّدْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النحل)

هذا هو معنى قوله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » . . ثم جاء قوله جل

جلاله : « وأقيموا الصلاة » وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وهناك فرق بين أن تقول صلوا . . وبين أن تقول أقيموا الصلاة . . أقيموا الصلاة معناها صل ولكن صلاة على مستواها الذي يطلب منك . . وإقامة الصلاة كما قلنا هي الركن الذي لا يسقط أبدا عن الإنسان . .

ويقول الحق : « وآتوا الزكاة » . . بالنسبة للزكاة عندما يقول الله سبحانه : « وذوي القربى واليتامى والمساكين » . . نقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق في الزكاة ماداموا فقراء . . لنحس جميعا أننا نعيش في بيئة إيمانية متكاملة متكافلة . . يحاول كل منا أن يعاون الآخر . . فالزكاة في الأساس تعطى للفقير ولو لم يكن يتيمًا أو قريبًا . . فإن لكل فقير حقوقا ورعاية . . فإذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حقان . . حق القريب وحق الفقير . .

وإن كان يتيمًا فله حق اليتيم وحق الفقير . . بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى عناصر الميثاق الثمانية . . قال : « ثم توليتهم » . . تولى يعنى أعرض أو لم يقطع أو لم يستمع . . يقول الحق سبحانه : « ثم توليتهم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » . . هذا هو واقع تاريخ بنى إسرائيل . . لأن بعضهم تولى ولم يقطع الميثاق وبعضهم أطاع . .

إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شن حملة على المخالفين منهم . ولذلك احترم الواقع وقال : « إلا قليلا » . . وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر قانون صيانة الاحتمال . .

إن الحق جل جلاله يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق . . لذلك لم يقل « ثم توليتهم » بل قال « إلا قليلا » . « توليتهم » يعنى أعرضتم ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ثم توليتهم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » نريد أن نأخذ الدقة الأدائية . . إذا أردنا أن نفسر تولى . . فمعناها أعرض أو رفض الأمر . . ولكن الدقة لو نظرنا للقرآن لوجدنا أنه حين يلتقى المؤمن بالكافر في معركة . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَهُمْ دُبْرُهُ إِلَّا مَنْحَرًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الانفال)

إذن فالتولى هو الإعراض .. والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بين لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة .. المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بنية الهرب من المعركة .. ولكن بنية أن يذهب ليقاتل في مكان آخر أو يعاون إخوانه الذين تكاثروا عليهم الأعداء .. هذا إعراض ولكن ليس بنية الهرب من المعركة .. ولكن بنية القتال بشكل أنسب للنصر ..

نفرض أن إنسانا مدين لك رأيتك وهو قادم في الطريق فتوليت عنه .. أنت لم تعرض عنه كرها .. ولكن رحمة لأنك لا تريد المساس بكرامته .. إذن هناك تول أو إعراض ليس بنية الإعراض .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هؤلاء اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأي نية أخرى .. أي أنهم أعرضوا وهم متعمدون أن يعرضوا .. وليس لهدف آخر .



﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قلنا ساعة نسمع « إذ » فأعلم أن معناها أذكر . . وقلنا إن الميثاق هو العهد الموثق . . وقوله تعالى : « لا تسفكون دماءكم » . . والله تبارك وتعالى ذكر قبل ذلك في الميثاق عبادة الله وحده . . وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين . . وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة إلى آخر ما جاء في الآية الكريمة . . وكلها أوامر أى وكلها افعل . . إستكمالا للميثاق . . يقول الله فى هذه الآية الكريمة ما لا تفعل . . فالعبادة كما قلنا هى إطاعة الأوامر والامتناع عن النواهى . . أو ما نهى عنه الميثاق :

« لا تسفكون دماءكم » ومعناها لا يسفك كل واحد منكم دم أخيه . . لا يسفك بعضكم دم بعض . ولكن لماذا قال الله : « دماءكم » ؟ لأنه بعد ذلك يقول : « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . . الحكم الإيماني يخاطب الجماعة الإيمانية على أنها وحدة واحدة . . لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحهم كمثل الجسد الواحد إذا شتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)^(١) .

فكان المجتمع الإيماني وحدة واحدة . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّتُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

ولكن إذا كنت أنا الداخل فكيف أسلم على نفسي ؟ كان الله يخاطب المؤمنين على أساس أنهم رحلة واحدة .. وعلى هذا الأساس يقول سبحانه : « لا تسفكون دماءكم » .. أى لا تقتلوا أنفسكم .. السفك معناه حب الدم .. « ودماءكم » هو السائل الموجود في الجسم اللازم للحياة .. وقوله تعالى : « ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم » يعنى لا تخرج بعضكم بعضا من ديارهم .. ثم ربط المؤمنين من بنى إسرائيل بقوله تعالى : « ثم أقررتم وأنتم تشهدون » .. أقررتم أى اعترفتم : « وأنتم تشهدون » الشهادة هى الإخبار بمشاهد .. والقاضى يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا .. وأنت حين تروى ما شاهدت .. فكان الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهودا وواقعاً لديهم .. وشاهد الزور يغير المواقع .

الحق سبحانه وتعالى يخاطب اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ويذكرهم بما كان من آبائهم الأولين .. وموقفهم من أخذ الميثاق حين رفع فوقهم جبل الطور وهى مسألة معروفة .. والقرآن يريد أن يقول لهم إنكم غيرتم وبدلتم فيما تعرفون .. فالذى جاء على هواكم طبقتموه .. والذى لم يأت على هواكم لم تطبقوه .



﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدُوانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

يخاطب الحق جل جلاله اليهود ليفضحهم لأنهم طبقوا من التوراة ما كان على هواهم . . ولم يطبقوا ما لم يعجبهم ويقول لهم : « أفتمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . إنه يذكرهم بأنهم وافقوا على الميثاق وأقروا .

ولقد نزلت هذه الآية عندما زنت امرأة يهودية وأرادوا ألا يقيموا عليها الحد بالرجم . . فقالوا نذهب إلى محمد طائين انه سيعفيهم من الحد الموجود في كتابهم . . أو أنه لا يعلم ما في كتابهم . . فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذا الحكم موجود عندكم في التوراة . . قالوا عندنا في التوراة أن نلطح وجه الزاني والزانية بالقذارة ونطوف به على الناس . . قال لهم رسول الله لا . . عندكم آية الرجم موجودة في التوراة فانصرفوا . . فكانهم حين يجبرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخفف حدا من حدود الله . . يذهبون إليه ليستفتوه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . . أي بعد أن أخذ عليكم الميثاق ألا تفعلوا . . تقتلون أنفسكم . . يقتل بعضكم بعضا ، أو أن من قتل سيقتل . فكانه هو الذي قتل نفسه . . والحق سبحانه قال : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » . . لماذا جاء بكلمة هؤلاء هذه ؟ لأنها إشارة للتنبيه لكي نلتفت إلى الحكم .

وقوله تعالى : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » وحذرهم بقوله : « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . . وجاء هذا في الميثاق . ما هو الحكم الذي

يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا إليه ؟ نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة إنتقل من دار شرك إلى دار إيمان . . ومعنى دار إيمان أن هناك مؤمنين سبقوا . . فهناك من آمن من أهل المدينة . . لقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة ولكنها كانت هجرة إلى دار أمن وليست دار إيمان . . ولكن حين حدثت بيعة العقبة وجاء جماعة من المدينة وعاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به . . أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم . . وجاءت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام على خمرة إيمانية موجودة . . لما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أفسد على اليهود خطة حياتهم . . فاليهود كانوا يمثلين في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . . وكان هناك في المدينة الأوس والخزرج . . وبينهما حروب دائمة قبل أن يأتي الإسلام . . فاليهود قسموا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنوا استمرار العداوة . . فكلما هدا القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد . . وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم .

إن الذي صنع الشيوعية يهودي ، والذي صنع الرأسمالية يهودي . . والذي يحرك العداوة بين المعسكرين يهودي . . وكان بنو النضير وبني قينقاع مع الخزرج وبني قريظة مع الأوس . . فإذا اشتبك الأوس والخزرج كان مع كل منهم حلفاؤه من اليهود . عندما تنتهي المعركة ماذا كان يحدث ؟ إن المأسورين من بني النضير وبني قينقاع يقوم بنو قريظة بالمساعدة في فك أسرهم . . مع انهم هم المنسيون في هذا الأسر . . فإذا إنتصرت الأوس وأخذوا أسرى من الخزرج ومن حلفائهم اليهود . . يأتي اليهود ويعملون على إطلاق سراح الأسرى اليهود . . لأن عندهم نصا انه إذا وجد أسير من بني إسرائيل فلا بد من فك أسره .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم إن أعمالكم في أن يحارب بعضكم بعضا وأن تسفكوا دماءكم . . لا تتفق مع الميثاق الذي أخذه الله عليكم بل هي مصالح دنيوية . . تقتلون أنفسكم والله نهاكم عن هذا : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » والله نهاكم عن هذا : « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » . . وهذا ما كان يحدث في المدينة في الحروب بين الأوس والخزرج كما بينا . . والأسارى جمع أسير وهي على غير قياسها ، لأن القياس فيها أسرى . . ولذلك نرى في آية أخرى أنه يأتي قول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْوَيْلِ الْأُولَىٰ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ولكن القرآن أتى بها أسارى .. واللغة أحيانا تأتي على غير ما يقتضيه قياسها لتلفتك إلى معنى من المعاني .. فكسلان تجمع كسالى . والكسلان هو هابط الحركة .. الأسير أيضا أنت قيدت حركته .. فكان جمع أسير على أسارى إشارة إلى تقييد الحركة .. القرآن الكريم جاء بأسارى وأسرى .. ولكنه حين استخدم أسارى أراد أن يلفتنا إلى تقييد الحركة مثل كسالى .. ومعنى وجود الأسرى أن حربا وقعت .. لحرب تقتضى الالتقاء والالتحام .. ويكون كل واحد منهم يريد أن يقتل عدوه .

كلمة الأسر هذه أخذت من أجل تهذبة سجع اللقاء .. فكان الله أراد أن يحمى القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال لهم إستأسروهم .. لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل .. ولكن خذوهم أسرى وفي هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية .. وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة .. لأنه لو لم يكن الأسر مباحا .. لكان لابد إذا التقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر .. لذلك يقال خذ أسيرا إلا إذا كان وجوده خطرا على حياتك .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارَىٰ تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ » .. كانت كل طائفة من اليهود مع حليفاتها من الأوس أو الخزرج .. وكانت تخرج المغلوب من دياره وتأخذ الديار .. وبعد أن تنتهى الحرب يفادوهم .. أى يأخذون منهم الفدية ليعيدوا إليهم ديارهم وأولادهم . لماذا يقسم اليهود أنفسهم هذه القسمة .. إنها ليست تقسيمة إيمانية ولكنها تقسيمة مصلحة دنيوية .. لماذا ؟ لأنه ليس من المعقول وأنتم أهل كتاب .. ثم تقسمون أنفسكم قسما مع الأوس وقسما مع الخزرج .. ويكون بينكم إثم وعدوان .

وقوله تعالى : « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » .. تظاهرون عليهم أى

تعاونون عليهم وأنتم أهل دين واحد : « بالإثم » .. والإثم هو الشيء الخبيث الذى يستحق منه الناس : « والعدوان » .. أى التعدى بشراسة .. وقوله تعالى : « وأن يأتوكم أسارى تغادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » .. أى تخرجوهم من ديارهم وتأخذوا الفدية لترجعوها إليهم .

ثم يقول الله تبارك وتعالى : « أفنتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » .. أى تأخذون القضية على أساس المصلحة الدنيوية .. وتقسمون أنفسكم مع الأوس أو الخزرج .. تفعلون ذلك وأنتم مؤمنون بإله ورسول وكتاب .. مستحيل أن يكون دينكم أو نبيكم قد أمركم بهذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا » أى إنكم فعلتم ذلك وخالفتم لتصلوا إلى مجد دنيوى ولكنكم لم تصلوا إليه .. سيصيبكم الله بخزى فى الدنيا .. أى أن الجزاء لن يتأخر إلى الآخرة بل سيأتيكم خزى وهو الهوان والذل فى الدنيا .. وماذا فى الآخرة ؟ يقول الله تعالى : « ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » الخزى فى الدنيا أصابهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .. وأخرج بنو قينقاع من ديارهم فى المدينة .. كذلك ذبح بنو قريظة بعد أن خانوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .. وهكذا لا يؤخر الله سبحانه وتعالى جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة .. وجزاء الظلم فى الدنيا لا يؤجل إلى الآخرة ، لأن المظلوم لا بد أن يرى مصرع ظالميه حتى يعتدل نظام الكون .. ويعرف الناس أن الله موجود وأنه سبحانه لكل ظالم بالمرصاد .. اليهود أتاهم خزى الدنيا سريعا : « يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » .

قد يتساءل الناس ألا يكفيهم الخزى فى الدنيا عن عذاب الآخرة ؟ نقول لا .. لأن الخزى لم ينلهم فى الدنيا حدا .. ولم يكن نتيجة إقامة حدود الله عليهم .. فالخزى حين ينال الإنسان كحد من حدود الله يعفيه من عذاب الآخرة .. فالذى سرق وقطعت يده والذى زنا ورجم .. هؤلاء نالهم عذاب من حدود الله فلا يحاسبون فى الآخرة .. أما الظالمون فالأمر يختلف .. لذلك فإننا نجد إناسا من الذين ارتكبوا إثما فى الدنيا يلحون على إقامة الحد عليهم لينجوا من عذاب الآخرة .. مع انه لم يرهم أحد أو يعلم بهم أحد أو يشهد عليهم أحد ..

حتى لا يأتى واحد ليقول : لماذا لا يعفى الظالمون الذين أصابهم خزي فى الدنيا من عذاب الآخرة ؟ نقول إنهم فى خزي الدنيا لم يحاسبوا عن جرائمهم . . أصابهم ضر وعذاب . . ولكن أشد العذاب ينتظرهم فى الآخرة . . وما أهون عذاب الدنيا الذى هو بقدره البشر بالنسبة لعذاب الآخرة الذى هو بقدره الله سبحانه وتعالى ، كما أن هذه الدنيا تنتهى فيها حياة الإنسان بالموت ، أما الآخرة فلا موت فيها بل خلود فى العذاب .

ثم يقول الحق جل جلاله : « وما الله بغافل عما تعملون » . . أى لا تحسب أن الله سبحانه وتعالى يغفل عن شىء فى كونه فهو لا تأخذه سنة نوم . . وهو بكل شىء محيط .



﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ
فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٨٦

ويذكر لنا الله سبحانه وتعالى سبب خيبة هؤلاء وضيالهم لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .. جعلوا الآخرة ثمنًا لنزواتهم ونفوذهم في الدنيا .. هم نظروا إلى الدنيا فقط .. ونظرة الإنسان إلى الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب في كل ما تفعله ثواب الآخرة .. فالدنيا عمرك فيها محدود .. ولا تقل عمر الدنيا مليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين سنة .. عمر الدنيا بالنسبة لك هو مدة بقائك فيها .. فإذا خرجت من الدنيا انتهت بالنسبة لك .. والخروج من الدنيا بالموت .. والموت لا أسباب له ولذلك فإن الإسلام لا يجعل الدنيا هدفاً لأن عمرنا فيها مظلون .. هناك من يموت في بطن أمه .. ومن يعيش ساعة أو ساعات ، ومن يعيش إلى أرذل العمر .. إذن فاقبض إلى الآخرة ، ففيها النعيم الدائم والحياة بلا موت والمتعة على قدرات الله .. ولكن خيبة هؤلاء أنهم اشتروا الدنيا بالآخرة .. ولذلك يقول الحق عنهم : « فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » .. لا يخفف عنهم العذاب أي يجب ألا يأمنوا أن العذاب في الآخرة سيخفف عنهم .. أو ستقل درجته أو تنقص مدته .. أو سيأتي يوماً ولا يأتي يوماً وقوله : « ولا هم ينصرون » .. النصرة تأتي على معنيين .. تأتي بمعنى أنه لا يغلب .. وتأتي بمعنى أن هناك قوة تتصرف له أي تنصره .. كونه يغلب .. الله سبحانه وتعالى غالب على أمره فلا أحد يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً .. ولكن الله يملك النفع والضرر لكل خلقه .. ويملك تبارك وتعالى أن يقهر خلقه على ما يشاء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

أما مسألة أن ينصره أحد .. فمن الذى يستطيع أن ينصر أحدا من الله ..
واقرا قوله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام :

﴿ وَيَقَوْمٌ مِّنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة هود)

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلا يخفف عنهم العذاب » .. أمر لم يقع بعد
بل سيقع مستقبلا .. يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه بلهجة المضارع .. نقول
إن كل أحداث الكون وما سيقع منها هو عند الله تم وانتهى وقضى فيه .. لذلك
نجد في القرآن الكريم قوله سبحانه :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۗ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

أتى فعل ماض .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يقول الله سبحانه وتعالى
أتى ثم يقول لا تستعجلوه ؟ إنه مستقبل بالنسبة لنا .. أما بالنسبة لله تبارك وتعالى
فما دام قد قال أتى .. فمعنى ذلك أنه حدث .. فلا أحد يملك أن يمنع أمرا من
أمور الله من الحدوث .. فالعذاب أت لهم أت .. ولا يخفف عنهم لأن أحدا
لا يملك تخفيفه .



﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى
أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا ما فعله اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام . .
أراد أن يبين لنا ما فعله بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى . . وأراد أن يبين لنا موقفهم من
رسول جاءهم منهم . . ولقد جاء لبني إسرائيل رسل كثيرون لأن مخالقاتهم للمنهج
كانت كثيرة . . ولكن الآية الكريمة ذكرت عيسى عليه السلام . . لأن الديانتين
الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية . . ولكن لا بد أن نعرف أنه
قبل مجيء عيسى . . وبين رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام رسل كثيرون . .
منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم . . فكانه في كل فترة كان بنو إسرائيل
يتعدون عن الدين . . ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية . . فيرسل الله
رسولا يعدل ميزان حركة حياتهم . . ومع ذلك يعودون مرة أخرى إلى معصيتهم
وفسقتهم . . فيبعث الله رسولا جديدا . . ليزيل الباطل وهوى النفس من المجتمع
ويطبق شرع الله . . ولكنهم بعده يعودون مرة أخرى إلى المعصية والكفر .

وقال الله سبحانه وتعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » والقائل هو الله جل
جلاله . . والكتاب هو التوراة : « وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ » . . والله تبارك وتعالى
بين لنا موقف بني إسرائيل من موسى . . وموقفهم من رسول الله صلى الله عليه
وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين . . ولكنه لم يبين لنا موقفهم من الرسل الذين جاءوا
بعد موسى حتى عيسى ابن مريم .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا . . إلى أنه لم يترك الأمر لبني إسرائيل بعد
موسى . . أن يعملوا بالكتاب الذي أرسل معه فقط . . ولكنه أتبع ذلك بالرسول . .
حين تسمع « قفينا » . . أي اتبعنا بعضهم بعضا . . كل يخلف الذي سبقه « وقفينا »

مشتقة من قفا .. وقفا الشيء خلفه .. وتقول قفوت فلاناً أى سرت خلفه قريباً منه .

إن الحق يريد أن نلتفت إلى أن رسالة موسى لم تقف عند موسى وكتابه .. ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياء ليذكروا وينبهوا .. ولقد قلنا إن كثرة الأنبياء لبنى إسرائيل ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم .. إنهم يتفاخرون أنهم أكثر الأمم أنبياء .. ويعتبرون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا .. فكثرة الأنبياء والرسل دلالة على كثرة فساد الأمة ، لأن الرسل إنما يبعثون لتخليص البشرية من فساد وأمراض وإنقاذها من الشقاء .. وكلما كثرت الرسل والأنبياء دل ذلك على أن القوم قد انحرفوا بمجرد ذهاب الرسول عنهم ، ولذلك كان لابد من رسول جديد .. تماماً كما يكون المريض في حالة خطيرة فيكثر أطباؤه بلا فائدة .. وليقطع الله سبحانه وتعالى عليهم الحجة يوم القيامة .. لم يترك لهم فترة من غفلة .. بل كانت الرسل تأتيهم واحداً بعد الآخر على فترات قريبة .

وإذا نظرنا إلى يوشع وأشمويه وشمعون . وداود وسليمان وشعيب وأرميا . وحزقييل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى .. نرى موكباً طويلاً جاء بعد موسى .. حتى إنه لم تمر فترة ليس فيها نبي أو رسول .. وحتى نفرق بين النبي والرسول .. نقول النبي مرسل والرسول مرسل .. كلاهما مرسل من الله .. ولكن النبي لا يأتي بتشريع جديد .. وإنما هو مرسل على منهج الرسول الذي سبقه .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبي مرسل أيضاً .. ولكنه أسوة سلوكية لتطبيق منهج الرسول الذي سبقه .

وهل الله سبحانه وتعالى قص علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ؟
إقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ
اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٦١﴾

(سورة النساء)

إذن هناك رسل وأنبياء أرسلوا إلى بني إسرائيل لم تعرفهم . . لأن الله لم يقصص علينا نبأهم . . ولكن الآية الكريمة التي نحن بصددتها لم تذكر إلا عيسى عليه السلام . . باعتباره من أكثر الرسل أتباعا . . والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى أيده بالآيات والبيانات التي تثبت صدق بلاغه عن الله . . ولذلك قال جل جلاله : « وآتيناه عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . . وعيسى ابن مريم عليه السلام جاء ليرد على المادية التي سيطرت على بني إسرائيل . . وجعلتهم لا يعترفون إلا بالشيء المادي المحسوس . . فعقولهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب . . حتى إنهم قالوا لموسى : « أرنا الله جهرة » . . وحين جاءهم المن والسلوى رزقا من الله . . خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزق غيبى فطلبوا نبات الأرض . . لذلك كان لابد أن يأتي رسول كل حياته ومنهجه أمور غيبية . . مولده أمر غيبى ، وموته أمر غيبى ورفعه أمر غيبى ومعجزاته أمور غيبية حتى ينقلهم من طغيان المادية إلى صفاء الروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتي عن غير طريق التكاثر المادى . . أى الذى يتم بين الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان منوى . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يخلق من أذهان بني إسرائيل ان الأسباب المادية تحكمه . . وإنما هو الذى يحكم السبب . هو الذى يخلق الأسباب ومتى قال : « كن » كان . . بصرف النظر عن المادية المألوفة فى الكون . . وفى قضية الخلق أراد الله جل جلاله للعقول أن تفهم أن مشيئته هى السبب وهى القاعلة . . وإقرأ قوله سبحانه :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمَا يَشَاءُ يُهْبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّا وَيَهْبُ
لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ١٦٢ أَوْ زَوْجَهُمْ ذُرِّيًّا وَإِنَّا وَبَعَثْنَا مِّنْ بَيْنِهِمْ
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٦٣﴾

(سورة الشورى)

فكان الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هما السبب في الإنجاب . . ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة على الأسباب . . فبأن رجل وامرأة ويتزوجان ولكنها لا ينجبان . . فكان الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئا إلا بإرادة المسبب .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . . لماذا قال الحق تبارك وتعالى : « وأيدناه بروح القدس » . . ألم يكن باقى الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس ؟

نقول : لقد ذكرنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح ستشيع في كل أمر له . . ميلاداً ومعجزة وموتاً . . والروح القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبداً . . لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر مما جعله معرضاً دائماً للهجوم . . ولذلك لابد أن يكون الوحي في صحبته لا يفارقه . . ليجعل من مهابته على القوم ما يرد الناس عنه . . وعندما يتحدث القرآن انه رفع إلى السماء . . اختلف العلماء هل رفع إلى السماء حياً ؟ أو مات ثم رفع إلى السماء ؟ نقول : لو أننا عرفنا انه رفع حياً أو مات فما الذى يتغير في منهجنا ؟ لاشيء . . وعندما يقال إنه شيء عجيب أن يرفع إنسان إلى السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت . . نقول إن عيسى ابن مريم لم يتبرأ من الوفاة . . إنه سيتوفى كما يتوفى سائر البشر . . ولكن هل كان ميلاده طبيعياً ؟ الاجابة لا . . إذن فلماذا تتعجب إذا كانت وفاته غير طبيعية ؟ لقد خلق من أم بدون أب . . فإذا حدث أنه رفع إلى السماء حياً وسينزل إلى الأرض فما العجب في ذلك ؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى السماء حياً ؟ ثم نزل لنا بعد ذلك إلى الأرض حياً ؟ لقد حدث هذا لمحمد عليه الصلاة والسلام . . إذن فالمبدأ موجود . . فلماذا تستبعد صعود عيسى ثم نزوله في آخر الزمان ؟ والفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً في السماء ، بينما عيسى بقى . . والخلاف على الفترة لا ينقض المبدأ .

عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد) (١) .

(١) رواه البخارى في المظالم ومسلم في الإيمان وأبو داود في الملاحم والترمذى في الفتن وابن ماجه في الفتن ورواه أحمد في المسند .

وهذا الحديث موجود في صحيح البخارى .. فقد جعله الله مثلاً لبنى اسرائيل .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٤٩﴾

(سورة الزخرف)

قوله تعالى : « وأتينا عيسى ابن مريم البينات » .. البينات هي المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات .. وهي الأمور البينة الواضحة على صدق رسالته .

لكننا إذا تأملنا في هذه المعجزات .. نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله لإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله .. وبعضها نسبتها إلى معجزته كرسول .. ومعروف أنه كرسول يؤيده الله بمعجزات تحرق قوانين الكون .. ولكن هناك فرق بين معجزة تعطى كشفاً للرسول .. وبين معجزة لا بد أن تتم كل مرة من الله مباشرة .. وإقرأ الآية الكريمة :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٥٠﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نرى في الآية الكريمة أنه بينما كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدخرون في بيوتهم كشفاً من الله .. كان إحياء الموتى في كل مرة بإذن الله .. وليس كشفاً ولا معجزة ذاتية لعيسى عليه السلام .. إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام .. ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائماً معه .. وهذا معنى قوله تعالى : « وأيدناه بروح القدس » .. وأيدناه مشقة من القوة ومعناها قويناه

بروح القدس في كل أمر من الأمور . . . وكلمة روح تأن على معنيين . . . المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة . . . وهناك روح أخرى هي روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة . . . ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح . . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والقرآن روح . . . من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم . . . إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح . . . والقدس هذه الكلمة تأن مرة بضم القاف وتسكين الدال . . . ومرة بضم القاف وضم الدال . . . وكلا اللفظين صحيح وهى تفيد الطهر والتزهر عن كل ما يعيب ويشين . . . والقدس يعنى المطهر عن كل شائبة .

قوله تبارك وتعالى : أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، قوله تعالى : « أفكلما » . . . هناك عطف وهناك استفهام ، وهى تعنى أكفرتم ، وكلمة جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . . . أى إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله . . . وهم يريدون أن يشرعوا لرسولهم . . . فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : « بما لا تهوى أنفسكم » . . . هناك هوى بالفتحة على الواو وهوى بالكسرة على الواو . . . هوى بالفتحة على الواو بمعنى سقط إلى أسفل . . . وهوى بالكسرة على الواو معناه أحب وأشتهى . . . اللفظان ملتقيان . . . الأول معناه الهبوط ، والثانى حب الشهوة والهوى يؤدي إلى الهبوط . . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع يقول (تَعَالَوْا) ومعناها إرتفعوا من موقعكم الهابط . . . إذن فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . . يعطينا هذا المعنى ، وكيف إن الدين يعصمنا من أن نهوى ونسقط في جهنم يقول :

(إنما مثل ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأتانا أخذ بحجزكم وأنتم موحدون فيه) (١) .

(١) رواه مسلم في الزهد ، وابن ماجه في الزهد . ورواه أحمد .

ومعنى أخذ بحجزكم أى أخذ بكم .. وكأننا نقبل على النار ونحن نشتهيها
باتباعنا شهوتنا .. ورسول الله بمنهج الله يحاول أن ينقذنا منها .. ولكن رب نفس
عشقت مصرعها .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ اَسْتَكْبَرْتُمْ فَمَرْيَمًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة البقرة)

معنى استكبرتم أى أعطيتم لأنفسكم كبرا لستم أهلا له .. إدعيتم أنكم كبار
ولستم كبارا .. ولكن هل المشرع مساو لك حتى تكبر على منهجه ؟ طبعاً لا ..
قوله تعالى : « فمريماً كذبتم » .. والكذب كلام يخالف الواقع .. أى أنكم اتهمتم
الرسول بأنهم يقولون كلاماً يخالف الواقع .. لأنه يخالف ما تشتهي أنفسكم .. وقوله
تعالى : « وفريقاً تقتلون » .. التكذيب مسألة منكرة .. ولكن القتل أمر بشع ..
وحين ترى إنساناً يتخلص من خصمه بالقتل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام
خصمه .. وإن طاقته وحياته لا تطيق وجود الخصم .. ولو أنه رجل مكتمل
الرجولة لما تأثر بوجود خصمه .. ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله ..

قوله تعالى : « وفريقاً تقتلون » .. مثل نبي الله يحيى ونبي الله زكريا .. وهناك
قصص وروايات تناولت قصة سالومي .. وهى قصة راقصة جميلة أرادت إغواء
يحيى عليه السلام فرفض أن يخضع لإغوائها .. فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه ..
وفعلاً قتلوه وجاءوها برأسه على صينية من الفضة .



﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٨٨

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برر بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم .. فماذا قالوا ؟ لقد قالوا « قلوبنا غلف » والغلف مأخوذ من الغلاف والتغليف .. وهناك غلف بسكون اللام ، وغلف بضم اللام .. مثل كتاب وكتب « قلوبنا غلف » أى مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكانهم يقولون إننا لسنا فى حاجة إلى كلام الرسل .. أو « قلوبنا غلف » أى مغلفة ومطبوع عليها .. أى ان الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتى لا ينفذ إليها شعاع من الهدى .. ولا يخرج منها شعاع من الكفر .

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا .. ألم تسألوا أنفسكم لماذا ؟ ما هو السبب ؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : « بل لعنهم الله بكفرهم قليلا ما يؤمنون » : لفظ « بل » يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح .. فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منهج الرسل .. ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله .. فلا تنفذ إشعاعات النور ولا الهداية إلى قلوبهم .. ولكن ذلك ليس لأن الله ختم عليها بلا سبب .. ولكنه جزاء على أنهم جاءهم النور والهدى .. فصدوه بالكفر أولا .. ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله .. لأن من يصد الإيمان بالكفر يطرد من رحمة الله ، ولا ينفذ إلى قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة . وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر — علها تنجيهم من العذاب يوم القيامة — يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ ط

(من الآية ٨ سورة فاطر)

تلك هي حجة الكافرين الذين يظنون انها ستنجيهم من العذاب يوم القيامة . .
 انهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل من يشاء . . ومادام الله قد شاء أن يضلني فما
 ذنبي أنا ؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله . . نقول له : إن الله إذا قيد أمرا من
 الأمور المطلقة فيجب أن تلجأ إلى التقييد . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

ويقول سبحانه :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(من الآية ١٩ سورة التوبة)

ويقول جل جلاله :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس . .
 الكافرين والظالمين والفاسقين . . ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية
 أولا ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟ !
 إنسان واجه الله بالكفر . . كفر بالله . . رفض أن يستمع لآيات الله ورسله . .
 ورفض أن يتأمل في كون الله . . ورفض أن يتأمل في خلقه هو نفسه ومن الذي
 خلقه . . ورفض أن يتأمل في خلق السموات والأرض . . كل هذا رفضه تماما . .
 ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر . . لأنه فعل ذلك أولا . .
 ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه وتعالى وضع له في الكون وفي نفسه آيات تجعله
 يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذي بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه .

الإنسان الظالم يظلم الناس ولا يخشى الله .. يذكرونه بقدرته الله وقوة الله فلا يلتفت .. يختم الله على قلبه .. كذلك الإنسان الفاسق الذي لا يترك منكراً إلا فعله .. ولا إثم إلا ارتكبه .. ولا معصية إلا أسرع إليها .. لا يهديه الله .. أكننت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله ؟ يهديهم قهراً أو قسراً ، والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ؟ طبعاً لا .. ذلك يضع الاختيار البشري في أن يطيع الإنسان أو يعصى .

والحق تبارك وتعالى أثبت طلاقة قدرته فيما نحن مقهورون فيه .. في أجسادنا التي تعمل أعضاؤها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة منا كالقلب والتنفس والدورة الدموية .. والمعدة والأمعاء والكبد .. كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله .. لا نستطيع أن نأمره ليفعل فيفعل .. وأن نأمره ألا يفعل فلا يفعل .. وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقة قدرته فيما يقع علينا من أحداث في الكون .. فهذا يمرض ، وهذا تدممه سيارة ، وهذا يقع عليه حجر .. وهذا يسقط ، وهذا يعتدى عليه إنسان .. كل الأشياء التي تقع عليك لا تدخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها .. بقي ذلك الذي يقع منك وأهمه تطبيق منهج الله في الفعل ولا تفعل .. هذا لك اختيار فيه .

إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلاً .. فإذا اخترت الكفر لا يجبرك الله على الإيمان .. وإذا اخترت الظلم لا يجبرك الله على العدل .. وإذا اخترت الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة .. إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء . ولكنه سبحانه قال إنه لا يهدي القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم الفاسقين .. فمن يرد أن يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق .. ويكون في هذه الحالة هو الذي اختار فحق عليه عقاب الله .. لذلك فقد قال الكافرون من بني إسرائيل إن الله نختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه .. فاختراروا عدم الهداية ..

لقد أثارت هذه القضية جدلاً كبيراً بين العلماء ولكنها في الحقيقة لا تستحق هذا

الجدل .. قاله سبحانه وتعالى قال : « بل لعنهم الله بكفرهم » .. واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله .. ويتم ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى .. لأن الطرد يتناسب مع قوة الطارد .

فمثلا .. ابنك الصغير بطرد حجرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع سنه وقوته .. والأكبر أشد فأشد .. فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدار لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشرى .

قوله تعالى : « بل لعنهم الله بكفرهم » .. أى طردهم الله بسبب كفرهم .. والله تبارك وتعالى لا يتوعد للناس لكى يؤمنوا .. ولا يريد للرسول أن يتعبوا أنفسهم فى حمل الناس على الإيمان .. إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا .. وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ ﴿١﴾ إِنْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيبٌ ۖ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أى انهم لا يستطيعون ألا يؤمنوا إذا أردناهم مؤمنين قهرا .. ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارا .. وإيمان العبد هو الذى ينتفع به .. فالله لا ينتفع بإيمان البشر .. وقولنا لا إله إلا الله لا يسند عرش الله .. قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله .. ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيامة .. نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله ..

وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطينا قضية مهمة هى : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك .. لذلك يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عَمِلَ عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه) (١)

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالالوهية .. هي شهادة الذات للذات ..
وذلك في قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله .. شهد لنفسه
بالالوهية .. ولنقرأ الآية الكريمة :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات للذات . والملائكة شهدوا
بالمشاهدة .. وأولو العلم بالدليل .. والحق تبارك وتعالى يقول : « فقليلًا
ما يؤمنون » .. عندما تقول قليلًا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا صيانة
الإحتمال ، لأنه من الممكن أن يشوب واحد منهم إلى رشده ويؤمن .. فيبقى الله
الباب مفتوحًا لهؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم في شبابهم قد يأتون في
آخر عمرهم ويتوبون .. في ظاهر الأمر انهم أسرفوا على أنفسهم .. ولكنهم عندما
تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق تقبل الله إيمانهم .. لذلك يقول الله
جل جلاله : « فقليلًا ما يؤمنون » أي أن الأغلبية تظل على كفرها .. والقلة هي
التي تعود إلى الإيمان .



﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٨٩

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى . . أن بني إسرائيل قالوا إن قلوبهم غلظ لا يدخلها شعاع من الهدى أو الإيمان . . أراد تبارك وتعالى أن يعطينا صورة أخرى لكفرهم بأنه أنزل كتابا مصدقا لما معهم ومع ذلك كفروا به . . ولو كان هذا الكتاب مختلفا عن الذى معهم لقلنا إن المسألة فيها خلاف . . ولكنهم كانوا قبل أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتزل عليه القرآن كانوا يؤمنون بالرسول والكتاب الذى ذكر عندهم فى التوراة . . وكانوا يقولون لأهل المدينة . . أهل زمن رسول سنؤمن به ونطيعه ونقتلكم قتل عاد وادم .

ولقد كان اليهود يعيشون فى المدينة . . وكان معهم الأوس والخزرج وعندما تحدث بينهم خصومات كانوا يهددونهم بالرسول القادم . . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن .

واليهود فى كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن الأوس والخزرج عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا هذا النبى الذى يهدونا به اليهود وأسرعوا بيايعونه . . فكان اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الناس فى الطائف . . وينتظر القبائل عند قدومها إلى مكة فى موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة فيصدقونه ويضطهدونه . . وعندما شاء الله أن تنتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة ومعهم الأوس والخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب هو إليهم ،

وأعلنوا مبايعته والإيمان برسالته ونشر دعوته . . دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك . . ثم دعوه ليعيش بينهم في دار الإيمان . . كل هذا تم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصره بمن إتبعوه .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا » . . أى أنهم قبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستفتحون بأنه قد أطل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه . . فلما جاء الرسول كذبوه وكفروا برسالته .

وقوله تعالى : « على الذين كفروا » . . أى كفار المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يكونوا أسلموا بعد . . لأن الرسول لم يأت . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا تمام الصورة في قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وهكذا نرى أن بنى إسرائيل فيهم جحود مركب جاءهم الرسول الذى انتظروه وبشروا به . . ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجيء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم في التوراة إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله . . واللعنة كما قلنا هى الطرد من رحمة الله .



﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءٌ وَيَغَضِبَ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٠﴾﴾

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من رحمته .. بين لنا أنهم : « بشما اشتروا به أنفسهم » .. وكلمة اشترى سبق الحديث عنها وقلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التي نريدها .. ولكن الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة .. على أننا لابد أن نتحدث أولا عن الفرق بين شري واشترى .. شري بمعنى باع .. وإقرأ قوله عز وجل :

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة يوسف)

ومعنى الآية الكريمة انهم باعوه بثمن قليل .. واشترى يعنى ابتاع .. ولكن اشترى قد تان بمعنى شري .. لأنك في بعض الأحيان تكون محتاجا إلى سلعة ومعك مال .. وتذهب وتشتري السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم .. ولكن لنفرض أنك احتجت لسلعة ضرورية كالدواء مثلا .. وليس عندك المال ولكن عندك سلعة أخرى كان يكون عندك ساعة أو قلم فاخر .. فتذهب إلى الصيدلية وتعطى الرجل سلعة مقابل سلعة .. أصبح الثمن في هذه الحالة مشترى .. إذن فمرة يكون البيع مشترى ومرة يكون مبيعاً ..

والحق تبارك وتعالى يقول : « بشما اشتروا به أنفسهم » .. وكأنما يعيرهم بأنهم يدعون الذكاء والفطنة .. ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء .. لو كانوا حقيقة يتقنون هذا لعرفوا أنهم قد أثموا صفقة خاسرة .. الصفقة الرابعة

كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم . . ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخرسوا الصفقة لأنهم أخذوا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . . والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب في الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة . . فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذابا دنيويا يقع على ظالم . . يخاف من الظلم ويتعد عنه حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن في الدنيا مقاييس في الثواب والعقاب . . وحتى لا يتشر في الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة . . وضع الحق تبارك وتعالى قصاصا في الدنيا . . وقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِي آلَافٍ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧٩)

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى في قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عقوبة الحياة الدنيا . . فيأتى للمرابى الذى يمتص دماء الناس ويصيبه بكارثة لا يجد بعدها ما ينفقه . . ولذلك نحن نقول يارب إن القوم غرهم حلمك واستبطلوا آخرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعتدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمتجبرين في الدنيا . . جعلها الله عبرة لمن لا يعتبر بمنهج الله . فتجد إنسانا ابتعد عن دينه وأقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده في آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين . . وتجد امرأة غرها المال فانطلقت تجمععه من كل مكان حلالا أو حراما وأعطتها الدنيا بسخاء . . وفي آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء . . وتموت فيجمع لها الناس مصاريف جنازتها . . كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس . . ولذلك فهي تحدث على رؤوس الأشهاد . . يعرفها عدد كبير من الناس . . إما لأنها تنشر في الصحف وإما أنها تذاع بين أهل الحى فيتناقلونها . . المهم أنها تكون مشهورة .

وتجد مثلا أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح . . ينتهى بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسبى نساؤهم . . أليس هذا خزيا ؟

قوله تعالى : « أن يكفروا بما أنزل الله بغيا » .. البغي تجاوز الحد ، والله جعل لكل شيء حداً مَنْ تجاوزَه بَغَى .. والحدود التي وضعها الله سبحانه هي أحكام .. ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهي .. ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ويقول تعالى بالنسبة للنواهي :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ولكن ما سبب بغيتهم ؟ .. بغيتهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتي إليه الرسالة .. وعلى العرب أن يكون الرسول منهم .. واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلى الأرض .. وعندما جاءت التوراة والإنجيل يبشران برسول خاتم قالوا إنه منا .. الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فنحن شعب الله المختار .. ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتبعون النبي القادم وينصرونه .. ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم .. حيثئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا ما دام ليس منا فلن نتبعه بل سنحاربه .. لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أهلها .. وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومعصيتهم ويجعل الرسالة في أمة غيرهم .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْ بَنِيكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۖ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧ ﴾

(سورة فاطر)

لقد اختبرهم الله في رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا في الآيات السابقة .. كذبوا فريقاً من الأنبياء .. ومن لم يكذبوه قتلوه .. لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها في أمة غيرهم .. لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلى الأرض .. ولذلك بغوا ..

وقوله تعالى : « بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » . . . ومن هنا نعرف أن الرسالات واختيار الرسل . . . فضل من الله يختص به من يشاء . . . والله سبحانه حين يطلق أيدينا ويملكنا الأسباب . . . فإننا لا نخرج عن مشيئته بل نخضع لها . . . ونعرف أنه لا ذاتية في هذا الكون . . . وذلك حتى لا يغتر الإنسان بنفسه . . . فإن بطل العالم في لعبة معينة هو قمة الكمالات البشرية في هذه اللعبة . . . ولكن هذه الكمالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه . . . ولأنه قد يصيبه أي عائق يجعله لا يصلح للبطولة . . . وعلى كل حال فإن بطولته لا تدوم . . . لأنها ليست ذاتية فيه ومن وهبها له وهو الله سيهبها لغيره متى شاء . . . ولذلك لا بد أن يعلم الإنسان أن الكمال البشري متغير لا يدوم لأحد . . . وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأننا في عالم أغيار . . . ولا بد لكل من علا أن ينزل . . . فالكمال لله وحده . . . والله سبحانه يحرس كماله بذاته .

إذن اليهود حسدوا رسول الله . . . حسدوا نزول القرآن على العرب . . . والحق سبحانه يقول : « فبأءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » . . . والله جل جلاله يخبرنا أنه غضب عليهم مرتين .

الغضب الأول أنهم لم يتفدوا ما جاء في التوراة فغضب الله عليهم . . . والغضب الثاني حين جاءهم رسول مذكور عندهم في التوراة ومطلوب منهم أن يؤمنوا به فكفروا به . . . وكان المفروض أن يؤمنوا حتى يرضى الله عنهم . . . ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

وقوله تعالى : « وللكافرين عذاب مهين » . . . العذاب في القرآن الكريم وُصِفَ بأنه اليم . . . وُوصِفَ بأنه عظيم وُوصِفَ بأنه مهين . . . اليم أى شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد . . . ولكن لتفرض أن الذي يعذب يتجلد . . . ويحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس . . . يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله . . . ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل . . . فإذا كان الإنسان من الذين تزعموا الكفر في الدنيا . . . ووقفوا أمام دين الله بحاربونه وتزعموا قومهم . . . يأتيهم الله تبارك وتعالى بعذاب مهين . . . ويكون هذا أكثر إيلا للنفوس من الألم . . . تماما كما تأتى لرجل هو أقوى من في المنطقة يخافه الناس جميعا ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض . . . تكون في هذه الحالة قد أهنته أمام

الناس . . فلا يستطيع بعد ذلك أن يتعبر أو يتكبر على واحد منهم . . ويكون هذا أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴾ ﴿٥٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوَّلُهَا صَلِيًّا ﴾ ﴿٦٠﴾

(سورة مريم)

وقوله جل جلاله :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ﴿٤٩﴾

(سورة الدخان)

ذلك هو العذاب المهين .



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا
أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ ٩١

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود . . من عدم الإيمان برسالة رسول
الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنهم أومروا بذلك في التوراة . . فيقول جل
جلاله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ » أى إذا دعاهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يؤمنوا بالإسلام وأن يؤمنوا بالقرآن رفضوا ذلك « وَقَالُوا نُوْمِنُ بِمَا
أُنزِلَ عَلَيْنَا » أى نؤمن بالتوراة ونكفر بما وراءه ، أى بما نزل بعده .

ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء
يناقض ما عندهم ربما قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفر به . . ولكنه جاء بالحق
مصدقا لما معهم .

إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة . . لأن القرآن يصدق ما جاء
في التوراة .

وهنا يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . . إن كفركم هذا وسلوكك
ضد كل نبي جاءكم . . ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدق رجب . .
فقولوا لنا لم قتلتم أنبياء الله ؟ . . ولذلك يقول الحق : « فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ
مِنْ قَبْلُ » . . هل هناك في كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . . كأن الحق
سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قلوبهم : « نؤمن بما أنزل علينا ونكفرون بما
وراءه » . . إذا كان هذا صحيحا وانكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاتوا لنا بما أنزل
إليكم وهى التوراة ما يبيع لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . . وطبعاً لم
يستطيعوا ردا لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . فهم كاذبون في قلوبهم نؤمن بما أنزل

علينا .. لأن ما ينزل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء .. فكانهم كفروا بما أنزل عليهم .. وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .

والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التي تحرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة في المناقشة .. وهنا لابد أن ننتبه الى قوله تعالى : « فَلَمْ تَقْتُلُونِ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ » .. قوله تعالى : « مِنْ قَبْلُ » طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قتلهم الأنبياء انتهى ، وفي الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود في أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام .. والله يريد نزع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى للرسول السابقين من بني إسرائيل لن يجرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك قطع القرآن خط الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن ذلك كان عهدا وانتهى .. وأنهم لو تأمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يفلحوا ولن يصلوا إلى هدفهم .

واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة لم يترجعوا عن تأمرهم ولن يكفوا عن بغيتهم في قتل الرسل والأنبياء .. فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة .. مرة وهو في حيههم ألقوا فوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر .. ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت كلها .

إذن فقوله تعالى « مِنْ قَبْلُ » معناها .. إن كنتم تفكرون في التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم في أنبيائكم نقل لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه .

ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس في نفوسهم حتى يكفوا عن أسلوبهم في قتل الأنبياء ولكنهم ظلوا في محاولاتهم ، وفي الوقت نفسه كانت الآية تثبيتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تأمروا فلن يمكنهم الله من شيء .. وقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .. أى بما أنزل إليكم .

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٦٤﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط . . أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنهم في طبيعتهم الكفر والإلحاد . . فقال سبحانه : « ولقد جاءكم موسى بالبينات » . . أى أن موسى عليه السلام أيدى الله بينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتملأ قلوبكم بالإيمان وتجعلكم لا تعبدون إلا الله . . فلقد شق لكم البحر ومررت فيه وأنتم تنظرون وتثرون . . أى أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم بل حدثت أمامكم ورأيتموها . . ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله . . بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلهًا من دون الله وعبدتموه . . فكيف تدعون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم . . لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهًا .

والحق تبارك وتعالى يريد أن ينقض حججهم في أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم . . ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم . . فجاء بحكاية قتل الأنبياء . . ولو أنهم كانوا مؤمنين حقا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاذبون . . أما الحجة الثانية فهي إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم . . فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التى تحولت إلى حية واليد البيضاء من غير سوء والبحر الذى شققناه لكم لتنجوا من قوم فرعون . . والقتيل الذى أحياه الله أمامكم بعد أن ضربتموه ببعض البقرة التى ذبحتوها . . آيات كثيرة ولكن بمجرد أن ترككم موسى وذهب للقاء ربه عبدتم العجل .

إذن فقولكم تؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح . . فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم . . وكل هذه حجج الهدف منها عدم الإيمان أصلا .

وقوله تعالى : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .. واتخاذ العجل في ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرب أو للذبح لتأكل لحمه .. ولكن المعصية هي اتخاذ العجل معبودا .. وقوله تعالى : « اتخذتم العجل » .. أي أن ذلك أمر مشهود لم تعبدوا العجل سرا بل عبدتموه جهرا ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجا إلى شهود ولا إلى شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم .. وذكر حكاية العجل هذه ليشعروا بذنوبهم في حق الله .. كان يرتكب الإنسان خطأ ثم يمر عليه وقت .. وكلما أردنا أن نؤنبه ذكرناه بما فعل .. وقوله تعالى : « وأنتم ظالمون » .. أي ظالمون في إيمانكم .. ظالمون في حق الله بكفركم به .



﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَاءَ اتِّينَتِكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْمَاجِلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
يَسْكَمَا يَا مَرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٩٣

بعد أن ذكّرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل . . وكان هذا نوعا من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر . . أراد أن يؤنبهم مرة أخرى وأن يذكرهم أنهم آمنوا خوفا من وقوع جبل الطور عليهم . . ولم يكن الجبل سيقع عليهم . . لأن الله لا يقهر أحدا على الإيمان . . ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم آمنوا . . مثلهم كالطفل الذي وصف له الطبيب دواء مر الشفي . ولذلك فإن رفع الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمنهج . . لا يقال إنه فعل ذلك إرغاما لكي يؤمنوا . . إنه إرغام المحب . . يريد الله من خلقه ألا يعيشوا بلا منهج سواي فرفع فوقهم جبل الطور إظهارا لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه القوة الهائلة وما يمكن أن تفعله لهم وبهم آمنوا . . فكانهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا . . تماما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المر وهو كاره . . ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه أو أعطيته له نعمة في الحب والاشفاق عليه ؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح . . نقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها . . لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم أن يستمعوا على الإيمان . . تماما كما يقال للأب إن الدواء مر لم يحقق الشفاء وطفلك مريض . . فيقول وماذا أفعل أكثر من ذلك أرغمته على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف .

وقول الله تعالى : « ميثاقكم » . هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله ؟ . طبعاً هو ميثاق الله . . ولكن الله جل جلاله خاطبهم بقوله : « ميثاقكم » لأنهم أصبحوا طرفاً في العقد . . وماداموا قد أصبحوا طرفاً أصبح ميثاقهم . . ولا بد أن نؤمن أن رفع

جبل الطور فوق اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال أنهم أجبروا على ذلك .. هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور .. فلا بد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعاً فوق رؤوسهم أينما كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا .. فلو أنهم أجبروا لحظة وجود جبل الطور فوقهم .. فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج .. ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى .. حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم .. وقد يأخذهم بالعذاب الأصغر عليهم يعودون إلى إيمانهم .. وهذا يأتي من حب الله لعباده لأنه يريد لهم المؤمنين ..

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله .. وليس في هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يعودوا إلى المعصية .. ولكنها آية تدفع إلى الإيمان .. وقوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة) لأن ما يؤخذ بقوة يعطى بقوة .. والأخذ بقوة يدل على عشق الأخذ للمأخوذ .. وما دام المؤمن يعشق المنهج فإنه سيؤدى مطلوباته بقوة .. فالإنسان دائماً عندما يأخذ شيئاً لا يحبه فإنه يأخذه بفتور وتهاون .

قوله تعالى : « واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا » .. القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان .. هناك قول وفعل وعمل .. القول أن تنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ .. والعمل أن يطابق القول الفعل .. هم : « قالوا سمعنا وعصينا » هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه .. ولكن (عصينا) على أى شيء معطوفة ؟ .. إنها ليست معطوفة على « سمعنا » .. ولكنها معطوفة على (قالوا) .. قالوا سمعنا فى القول وفى الفعل عصينا .. وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا فى الفعل .. فالمشكلة جاءت من عطف عصينا على سمعنا .. فتحسب أنهم قالوا الكلمتين .. لا .. هم قالوا سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع تجرد أى مجرد سماع .. ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئاً فكان عدم فعلهم معصية .

قوله تعالى : « وأشربوا فى قلوبهم العجل » .. الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم .. فالحب أمر معنوى وليس أمراً مادياً لأنه غير محسوس .. وكان التعبير

يقتضى أن يقال وأشربوا حب العجل .. ولكن الذى يتكلم هو الله .. يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة فى أنهم أشربوا العجل ذاته أى دخل العجل إلى قلوبهم .

لكن كيف يمكن أن يدخل العجل فى هذا الحيز الضيق وهو القلب .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الشيوع فى كل شيء بكلمة أشربوا .. لأنها وصف لشرب الماء والماء يتغلغل فى كل الجسم .. والصورة تعرب عن تغلغل المادية فى قلوب بنى إسرائيل حتى كأن العجل دخل فى قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء فى الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .

ويقول الحق جل جلاله : « وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » .. كأن الكفر هو الذى أسقامهم العجل .. هم كفروا أولا .. وبكفرهم دخل العجل إلى قلوبهم وختم عليها .. وقوله تعالى : « قل بثما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .. هم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء بعده .. قل هل إيمانكم يأمركم بهذا ؟ .. وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم .. مثل قوله تعالى :

﴿ أَتُخْرِجُونَ آلَ لُوطَ مِّنْ قَرْيَتِكَ^ط إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النمل)

هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية ؟ .. طبعا لا .. ولكنه أسلوب تهكم واستنكار .. والحق أن إيمانهم لا يأمرهم بهذا بل يأمرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاسْكُتْ لَّنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً^ط وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ^ط قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ^ط

مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ^ط فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ

هُمْ بِعَايَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ

فِي السُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَبَنْهَيْهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمْ أَنْخَبَتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ
آمَنُوا بِهِ مَوَعِزْرُهُ وَتَصْرَوْهُ وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ بَأْوَكَكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٩١﴾

(سورة الأعراف)

هذا هو ما يأمرهم به إيمانهم . . أن يؤمنوا بالنبى الأمى محمد عليه الصلاة
والسلام . . والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جل جلاله . .
ولذلك عندما يحاولون خداع الله . . يثبهم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول لهم :
« بشيا يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » دليل على أنهم ليسوا مؤمنين . . ولكن لا زال
في قلوبهم الشرك والكفر أو المعجل الذى عبدوه .



﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١١١

والله سبحانه وتعالى يريد أن يفضح اليهود . . وبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . وهو سبحانه يريدنا أن نعرف أن هؤلاء اليهود . . لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خدعوا بل هم يعلمون أنهم غيروا وبدلوا . . ويعرفون أنهم جاءوا بكلام ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى زورا وبهتانا . . ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضحهم أمام الناس وبين كذبهم بالدليل القاطع . . فيقول : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة » : « قل » موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى قل لهم يا محمد . . ولا يقال هذا الكلام إلا إذا كان اليهود قد قالوا إن لهم : « الدار الآخرة عند الله خالصة » .

الشيء الخالص هو الصافي بلا معكر أو شريك . أى الشيء الذى لك بمفردك لا يشاركك فيه أحد ولا ينازحك فيه أحد . . فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد . . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد . . فما دامت لهم الدار الآخرة وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم . . فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا . . ألا يتمنون الموت كما تمنى المسلمون الشهادة ليدخلوا الجنة . . وليست هذه هى الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى . . وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

من الذى قال ؟ اليهود قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ،

والنصارى قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . . كل منهم قال عن نفسه إن الجنة خاصة به . ولقد شكل قولهم هذا لنا لغزا في العقائد . . من الذى سيدخل الجنة وحده . . اليهود أم النصارى ؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله جل جلاله :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وهذا أصدق قول قالته اليهود وقالته النصارى بعضهم لبعض . فاليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . وكلاهما صادق في مقولته عن الآخر . . في الآية الكريمة التى نحن بصدددها . . اليهود قالوا إن الدار الآخرة خالصة لهم . . سنصدقهم ونقول لهم لماذا لا يتعجلون ويتمنون الموت . . فالمفروض أنهم يشاققون للآخرة مادامت خالصة لهم . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » . . ولكنها أمان كاذبة عند اليهود وعند النصارى . . وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْنُ خَلْقٍ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٨ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة . . ولكن عدل الله يأتى ذلك . . كيف يعذب بشرا بذنوبهم ثم لا يعذب اليهود بما اقترفوا من ذنوب . . بل يدخلهم الجنة فى الآخرة . . وكيف يجعل الله سبحانه وتعالى الجنة فى الآخرة لليهود وحدهم . . وهو قد كتب رحمة لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالة الإسلام . . وأبلغ اليهود والنصارى بذلك فى كتبهم . . وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا بِكَ ءَالٍ عَذَابٍ أُصِيبَ بِهِ
 مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ؕ فَسَاكُنُهَا الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ
 هُمْ بِعَابِقِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ
 فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿١٥٧﴾﴾

(الآية ١٥٦ ومن الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

إذا كانت هذه هي الحقيقة الموجودة في كتبهم .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٨﴾﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يدّعي اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم يوم القيامة ؟ ولكن الحق جل
 جلاله يفضح كذبهم ويؤكد لنا أن ما يقولونه هم أول من يعرف أنه كذب .



﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ١٥

إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافوه . . والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية . . وضع قضية الإيمان كله في يد اليهود . . بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا في هذا الدين . . كيف ؟ ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية أن يأتي عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت . . نحن نتمنى الموت يا محمد . فإدع لنا ربك بميتنا . . ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا ؟ ولو نفاقا . . ولو رياء ليهدموا هذا الدين . . ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخطر على بالهم . . أنظر إلى الإعجاز القرآني في قوله سبحانه : « ولن يتمنوه » .

لقد حكم الله سبحانه حكما نهائيا في أمر اختياري لعدو يعادي الإسلام . . وقال إن هذا العدو وهم اليهود لن يتمنوا الموت . . وكان من الممكن أن يفتنوا لهذا التحدي . . ويقولوا بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله . . ولكن حتى هذه لم تخطر على بالهم ! لأن الله تبارك وتعالى إذا حكم في أمر اختياري فهو يسلب من أعداء الدين تلك الخواطر التي يمكن أن يستخدموها في هدم الدين . . فلا تخطر على بالهم أبدا مثلما تحداهم الله سبحانه من قبل في قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ آتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة قبل أن يقولوا . . بدليل استخدام حرف السين في قوله : « سيقول » . . ووصفهم الله جل جلاله بالسفهاء . . ومع ذلك فقد قالوا . . ولو أن عقولهم تنبته لسكتوا ولم يقولوا شيئا . . وكان في ذلك تحدي للقرآن

الكريم .. كانوا سيقولون لقد قال الله سبحانه وتعالى : « سيقول السفهاء من الناس .. ولكن أحدا لم يقل شيئا فإين هم هؤلاء السفهاء ولماذا لم يقولوا ؟ وكان هذا يعتبر تحديا للقرآن الكريم في أمر يملكون فيه حرية الاختيار .. ولكن لأن الله هو القائل والله هو الفاعل .. لم يخطر ذلك على بالهم أبدا ، وقالوا بالفعل .

في الآية الكريمة التي نحن بصددتها .. تحذاهم القرآن أن يتمنوا الموت ولم يتمنوه .. وكان الكلام المنطقي مادامت الدار الآخرة خالصة لهم .. والله تحذاهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين لتمنوه .. ليذهبوا إلى نعيم أبدي .. ولكن الحق حكم مسبقا ان ذلك لن يحدث منهم .. لماذا ؟ لأنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون .. لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه .

إنظروا مثلا إلى العشرة المبشرين بالجنة .. عمار بن ياسر في الحرب في حنين .. كان ينشد وهو يستشهد .. الآن ألقى الأحبة محمدا وصحبه .. كان سعيدا لأنه أصيب وكان يعرف وهو يستشهد انه ذاهب إلى الجنة عند محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته .. هكذا تكون الثقة في الجزاء والبشرى بالجنة .. وعبدالله بن رواحه كان يحارب وهو ينشد ويقول :

يا حبيذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والإمام علي رضي الله عنه يدخل معركة حنين ويرتدى غلالة ليس لها دروع .. لا ترد منها ولا طعنة رمح .. حتى إن ابنه الحسن يقول له : يا أبي ليست هذه لباس حرب .. فيرد على كرم الله وجهه : يا بني إن أباك لا يبالي أسقط على الموت أم سقط الموت عليه .. وسيدنا حذيفة بن اليمان ينشد وهو يحتضر .. حبيب جاء على ناقة لا ربح من ندم .. إذن الذين يثقون بآخرتهم يحبون الموت .

وفي غزوة بدر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يا رسول الله أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلون .. فيجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم .. وكان في يد الصحابي ثمرات بمضغها .. فيستطىء أن يبقى بعيدا عن الجنة حتى يأكل الثمرات فيلقبها من يده ويدخل المعركة ويستشهد .

هؤلاء هم الذين يثقون بما عند الله في الآخرة .. ولكن اليهود عندما تحذاهم

القرآن الكريم بقوله لهم : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .. سكتوا ولم يجيبوا .. ولو تمنوا الموت لانقطع نفس الواحد منهم وهو يبلع ريقه فماتوا جميعا .. قد يقول قائل وهل التمني باللسان ؟ ربما تمنوا بالقلب .. نقول ما هو التمني ؟ نقول إن التمني هو أن تقول لشيء محبوب عندك ليته يحدث . فهو قول .. وهب انه عمل قلبي فلو أنهم تمنوا بقلوبهم لأطلع الله عليها وأماتهم في الحال .. ولكن مادام الحق تبارك وتعالى قال : « ولن يتمنوه أبدا » .. فهم لن يتمنوه سواء كان باللسان أو بالقلب .. لأن الادعاء منهم بأن لهم الجنة عند الله خالصة أشبه بقولهم الذي يرويه لنا القرآن في قوله سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ
أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى : « بما قدمت أيديهم » .. أي ان أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت .. أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت .. ولذلك نسمع ان فلانا حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح .. فساعة الموت يعرف فيها الإنسان يقينا انه ميت .. فالإنسان إذا مرض يأمل في الشفاء ويستبعد الموت .. ولكن ساعة الفرغرة يتأكد الإنسان انه ميت ويستعرض حياته في شريط عاجل .. فإن كان عمله صالحا تنبسط أساريه ويفرح لأنه سينعم في الآخرة نعيما خالدا .. لأنه في هذه الساعة والروح تغادر الجسد يعرف الإنسان مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار .. وتسلمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب .. فالذي أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة .. والذي عصي وفعل ما يغضب الله يستعرض شريط أعماله .. فيجده شريط سوء وهو مقبل على الله .. وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله .. عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريه وتنقبض روحه على هذه الهيئة .. فيقال فلان مات وهو أسود الوجه منقبض الأساريه .

إذن فالذي أساء في دنياه لا يتمنى الموت أبدا .. أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تمنى الموت إقبال :

(لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُو بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ وَثَّقَ بِعَمَلِهِ)^(١) .

نقول إن تمنى الموت المنهى عنه هو تمنى البأس وتمنى الاحتجاج على المصائب . . .
يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أن يتحمل قدر الله في مصيبة حدثت له . . . أو يتمناه
احتجاجاً على أقدار الله في حياته . . . هذا هو تمنى الموت المنهى عنه . . . أما صاحب
العمل الصالح فمستحب له أن يتمنى لقاء الله . . . وإقرأ قوله تعالى في آخر سورة
يوسف :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١١)

(سورة يوسف)

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا تتمنوا الموت جزعاً مما يصيبكم من
قدر الله . . . ولكن إصبروا على قدر الله . . . وقوله تعالى : « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » . . .
لأن الله عليم بظلمهم ومعصيتهم . . . هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يخافون
الموت ولا يتمنونه .



(١) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة .

﴿ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْزَقٍ
مِّنَ الْعَذَابِ إِنَّ يُعَمَّرُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٦

الحق سبحانه وتعالى بعد أن فصح كذبهم .. في أنهم لا يمكن أن يتمنوا الموت لأنهم ظالمون .. وماداموا ظالمين فالموت أمر ضئيف بالنسبة لهم .. وهم أحرص الناس على الحياة .. حتى إن حرصهم يفوق حرص الذين أشركوا .. فالمشرك حريص على الحياة لأنه يعتقد أن الدنيا هي الغاية .. واليهود أشد حرصا على الحياة من المشركين لأنهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة .. لذلك كلما طالَّت حياتهم ظنوا أنهم بعيدون عن عذاب الآخرة .. الحياة لا تجعلهم يواجهون العذاب ولذلك فهم يفرحون بها .

إن اليهود لا يبالون أن يعيشوا في ذلة أو في مسكنة .. أو أى نوع من أنواع الحياة .. المهم أنهم يعيشون أى حياة .. ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر من المشركين ؟ لأن المشرك لا آخرة له فالدنيا هي كل همه وكل حياته .. لذلك يتمنى أن تطول حياته بأى ثمن وبأى شكل .. لأنه يعتقد أن بعد ذلك لا شيء .. ولا يعرف أن بعد ذلك العذاب .. واليهود أحرص من المشركين على حياتهم .

وقوله تعالى : وَيَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ .. الود هو الحب .. أى أنهم يحبون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر .. ولكن هب أنه عاش ألف سنة أو حتى أكثر من ذلك .. أيزحزحه هذا عن العذاب ؟ لا .. طول العمر لا يغير النهاية .

فمادامت النهاية هي الموت . يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف

السنين . . قوله تعالى : « يعمر » بفتح العين وتشديد الميم يقال عنها إنها مبنية للمجهول دائما . . ولا ينفع أن يقال يعمر بكسر الميم . . فالعمر ليس بيد أحد ولكنه بيد الله . . فالله هو الذي يعطي العمر وهو الذي ينهيه . . وبما أن العمر ليس ملكا للإنسان فهو مبنى للمجهول . .

والعمر هو السن الذي يقطعه الإنسان بين ميلاده ووفاته . . ومادة الكلمة مأخوذة من العمار لأن الجسد تعمره الحياة . . وعندما تنتهي يصبح الجسد أشلاء وخرابا . . قوله تعالى : « ألف سنة » . . لماذا ذكرت الألف ؟ لأنها هي نهاية ما كان العرب يعرفونه من الحساب . . ولذلك فإن الرجل الذي أسر في الحرب أخت كسرى فقالت كم تأخذ وتركني ؟ قال ألف درهم . . قالوا له بكم فديتها ؟ قال بألف . . قالوا لو طلبت أكثر من ألف لكانوا أعطوك . . قال والله لو عرفت شيئا فوق الألف لقلته . . فالألف كانت نهاية العدد عند العرب . . ولذلك كانوا يقولون ألف ألف ولم يقولوا مليونا . .

وقوله تعالى : « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » . . معناها أنه لو عاش ألف سنة أو أكثر فلن يهرب من العذاب . . وقوله تعالى : « والله بصير بما يعملون » . . أي يعرف ما يعملونه وسيعذبهم به سواء عاشوا ألف سنة أو أكثر أو أقل .



مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن اليهود لم يقتلوا الأنبياء ويحرفوا التوراة ويشترخوا بآيات الله جاء الدنيا فقط . . ولكنهم عادوا الملائكة أيضا . . بل إنهم أضمرُوا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله الذي نزل بوحى القرآن وهو جبريل عليه السلام . . وانهم قالوا جبريل عدو لنا .

الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد جلس ابن جوريا أحد
أحبار اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له من الذى ينزل عليك
بالوحي ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل . . فقال اليهودى لو كان
غيره لأمنا بك . . جبريل عدونا لأنه ينزل دائما بالخسف والعذاب . . ولكن
ميكائيل ينزل بالرحمة والغيث والخصب . . وأيضا هو عدوهم لأنهم اعتقدوا أن بيت
المقدس سيخرجه رجل اسمه بختنصر، فأرسل اليهود إليه من يقتله . . فلقى
اليهودى غلاما صغيرا وسأله الغلام ماذا تريد ؟ قال إني أريد أن أقتل بختنصر لأنه
عندنا في التوراة هو الذى سيخرب بيت المقدس . . فقال الغلام إن يكن مقدرا
أن يخرب هذا الرجل بيت المقدس فلن تقدر عليه . . لأن المقدر نافذ سواء رضىنا
أم لم نرض . . وإن لم يكن مقدرا فلماذا تقتله ؟ أى ان الطفل قال له إذا كان الله
قد قضى في الكتاب أن بختنصر سيخرب بيت المقدس . . فلا أحد يستطيع أن
يمنع قضاء الله . . ولن تقدر عليه لتقتله وتمنع تخريب بيت المقدس على يديه . .
وإن كان هذا غير صحيح فلماذا تقتل نفسا بغير ذنب . . فعاد اليهودى دون أن
يقتل بختنصر . . وعندما رجع إلى قومه قالوا له إن جبريل هو الذى تمثل لك في
صورة طفل وأقنعك ألا تقتل هذا الرجل .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان له أرض في أعلى المدينة . . وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم . . وظن اليهود أن مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم . . فقالوا له إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك . . ففهم عمر مرادهم فقال والله ما جالسكم حبا فيكم . . ولكني أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم عنه ما في كتابكم . . فقالوا له ومن يخبر محمدا بأخبارنا وأسرارنا ؟ فقال عمر إنه جبريل ينزل عليه من السماء بأخباركم . . قالوا هو عدونا . . فقال عمر كيف منزلته من الله ؟ قالوا إنه يجلس عن يمين الله وميكائيل يجلس عن يسار الله . . فقال عمر مادام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدوا للآخر لأنها عند الله في منزلة واحدة . . فمن كان عدوا لأحدهما فهو عدو لله . . فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية .

إن عداوتهم لجبريل عليه السلام تؤكد ماديتهم . . فهم يقيسون الأمر على البشر . . إن الذي يجلس على يمين السيد ومن يجلس على يساره يتنافسان على المنزلة عنده . . ولكن هذا في دنيا البشر . . ولكن عند الملائكة لا شيء من هذا . . الله عنده ما يجعله يعطى لمن يريد المنزلة العالية دون أن ينقص من الآخر . . ثم إن الله سبحانه وتعالى اسمه الحق . . وما ينزل به جبريل حق وما ينزل به ميكائيل حق . . والحق لا يخاصم الحق . . وقال لهم عمر أنتم أشد كفرا من الحمير . . ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكذ الرسول يراه حتى قال له وافقك ربك يا عمر . . وتنزل قول الله تبارك وتعالى : « قل مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » فقال عمر يا رسول الله . . إني بعد ذلك في إيمان لأصلب من الجبل .

إذن فقولهم ميكائيل حبيبا وجبريل عدونا من الماديات ، والله تبارك وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم . . إنهم يُعَادُونَ جِبْرِيلَ لَأَنَّهُ نَزَّلَ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ . . ومادام نزل من عند الله على قلبك . . فلا شأن لهم بهذا . . وهو مصدق لما بين يديهم من التوراة . . وهو هدى وبشرى للمؤمنين . . فأى عنصر من هذه العناصر تنكرونه على جبريل . . إن عداوتكم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى .

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ٩٨

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى الحكم . . فقال إن العداوة للرسول . . مثل العداوة للملائكة . . مثل العداوة لجبريل وميكائيل . . مثل العداوة لله . ولقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالملائكة ككل . . ثم ذكر جبريل وميكائيل بالاسم .

إن المسألة ليست مجزأة ولكنها قضية واحدة . . فمن كان عدواً للملائكة وجبريل وميكائيل ورسول الله . . فهو أولاً وأخيراً عدو لله . . لأنه لا انقسام بينهم فكلهم دائرون حول الحق . . والحق الواحد لا عدوان فيه . . وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات . وهذا يحدث في أمور الدنيا .

والآية الكريمة أثبتت وحدة الحق بين الله وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل . . ومن يعادى واحداً من هؤلاء يعاديهما جميعاً وهو عدو لله سبحانه . . واليهود أعداء الله لأنهم كفروا به . . وأعداء الرسل لأنهم كذبوهم وقتلوا بعضهم .

وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى وحدة الحق في الدين . . مصدره هو الله جل جلاله . . ورسوله من الملائكة هو جبريل . . ورسوله من البشر هم الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله . . وميكائيل ينزل بالخير والخصب لأن الإيمان أصل وجود الحياة . . فمن كان عدواً للملائكة والرسل وجبريل وميكائيل فهو كافر . . لأن الآية لم تقل إن العداوة هؤلاء هي مجرد عداوة . . وإنما حكّم الله عليهم بأنهم كافرون . . الله سبحانه وتعالى لم يخبر محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم فقط ، وإنما أمره بأن يعلنه حتى يعرفه الناس جميعاً ويعرفوا أن اليهود كافرون .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ ١١

انتقل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى تأكيد صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . . وان الآيات فيها واضحة بحيث إن كل إنسان يعقل ويريد الإيمان يؤمن بها . . . ولكن الذين يريدون الفسق والفجور . . . هم هؤلاء الذين لا يؤمنون . . . ما معنى الآيات البينات ؟ إن الآية هي الأمر العجيب . . . وهو عجيب لأنه معجز . . . والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله . . . وهي كذلك الآيات في القرآن الكريم . . . وبيانات معناها أنها أمور واضحة لا يختلف عليها ولا تحتاج إلى بيان : « وما يكفر بها إلا الفاسقون » . . . والفسق هو الخروج عن الطاعة وهي مأخوذة من الرطبة . . . البلح قبل أن يصبح رطباً لا تستطيع أن تنزع قشرته ولكن عندما يصبح رطبة تجد أن القشرة تبعد عن الثمرة فيقال فسقت الرطبة . . . ولذلك من يخرج عن منهج الله يقال له فاسق .

والمعنى أن الآيات التي أيد بها الله سبحانه وتعالى محمداً عليه الصلاة والسلام ظاهرة أمام الكفار ليست محتاجة إلى دليل . . . فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يقرأ كلمة في حياته . . . يأتي بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى . . . هذه معجزة ظاهره لا تحتاج إلى دليل . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا تغريه الدنيا كلها . . . لترك هذا الدين مهما أعطوه . . . دليل على أنه صاحب مبدأ ورسالة من السماء . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يخبر بقرآن موحي من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنوات . . . ويخبر الكفار والمنافقين بما في قلوبهم ويفضحهم . . . ويتنبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون . . . وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كل أنواع الإعجاز علمياً وفلكياً وكونياً . . . كل هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار . . . كلها آيات واضحة لا يمكن أن

يكفر بها إلا الذي يريد أن يخرج عن منهج الله ، ويفعل ما تهواه نفسه ..

إن الإعجاز في الكون وفي القرآن وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد .. لنعرف ان هذا القرآن هو من عند الله مليء بالمعجزات لغة وعلم .. وانه سيظل معجزة لكل جيل له عطاء جديد .



﴿ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الدين الاسلامي ، وكتابه القرآن فيه من الآيات الواضحة ما يجعل الإيمان به لا يحتاج إلا إلى وقفة مع العقل مما يجعل موقف العداء الذي يقفه اليهود من الاسلام منافيا لكل المعهود التي أخذت عليهم ، منافيا للإيمان القطري ، ومنافيا لأنهم عاهدوا الله ألا يكتسبوا ما جاء في التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لعهدهم أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لما طلب منهم موسى أن يؤمنوا بالإسلام عندما يأتي الرسول ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن موسى عليه السلام الذي أخذ عليه الميثاق قد أبلغه إلى بني إسرائيل ، وأن بني إسرائيل كانوا يعرفون هذا الميثاق جيدا عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عندهم أوصاف دقيقة للرسول عليه الصلاة والسلام . . ولكنهم نقضوه كما نقضوا كثيرا من المواثيق . . منها عهدهم بعدم العمل في السبت ، وكيف تحايلوا على أمر الله بأن صنعوا مصاييد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج وهذا تحايل على أمر الله ، ثم كان ميثاقهم في الإيمان بالله إلهها واحدا أحدا ، ثم عبدوا

العجل... وكان قولهم لموسى عليه السلام بعد أن أمرهم الله بدخول واد فيه زرع... لأنهم أرادوا أن يأكلوا من نبات الأرض بدلا من المن والسلوى التى كانت تأتيهم من السماء... قالوا لموسى: « فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون »... وغير ذلك الكثير من المواثيق بالنسبة للحرب والأسرى والعبادة، حتى عندما رفع الله تبارك وتعالى جبل الطور فوقهم ودخل فى قلوبهم الرعب وظنوا أنه واقع عليهم، ولم يكن هذا إلا ظنا وليس حقيقة... لأن الله تبارك وتعالى يقول: « وظنوا أنه واقع بهم »... وبمجرد ابتعادهم عن جبل الطور نقضوا الميثاق.

ثم نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة وذلك فى غزوة الخندق... وعندما أرادوا أن يفتحوا طريقا للكفار ليضربوا جيوش المؤمنين من الخلف.

قوله تعالى « نبذه فريق منهم » قلنا إن هذا يسمى قانون صيانة الاحتمال... لأن منهم من صان المواثيق... ومنهم من صدق ما عاهد الله عليه... ومنهم مثلا من كان يريد أن يعتنق الدين الجديد ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام.

إذن فليسوا كلهم حتى لا يقال هذا على مطلق اليهود... لأن فيهم أناسا لم ينقضوا العهد... ويريد الله تبارك وتعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان، حتى لا يقولوا لقد حكم الله علينا حكما مطلقا ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على العهد، ولكن هؤلاء الذين حافظوا على العهد كانوا قلة... ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: « بل أكثرهم لا يؤمنون »... أى أن الفريق الناقض للعهد... الناقض للإيمان هم الأكثرية من بنى إسرائيل.



﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ
اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن اليهود الذين نقضوا المواثيق الخاصة بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوها وهم يعلمون . . قال الله سبحانه : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم » . . أى أن ما جاء في القرآن مصدق لما جاء في التوراة . . لأن القرآن من عند الله والتوراة من عند الله . . ولكن التوراة حرفوها وكتبوا بعضها وغيروا وبدلوا فيها فأخفوا ما يريدون إخفائه . . لذلك جاء القرآن الكريم ليظهر ما أخفوه ويؤكد ما لم يخفوه ولم يتلاعبوا فيه .

وقوله تعالى : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » . . قلنا إن هناك كتابا نبذوه أولا وهو التوراة . . ولما جاءهم الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم نبذوه هو الآخر وراء ظهورهم . . ما معنى نبذه ؟ . . المعنى طرحه بعيدا عنه . . إذن ما في كتابهم من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم نبذوه بعيدا . . ومن التبشير بمجيء رسول الله عليه الصلاة والسلام نبذوه هو الآخر . . لأنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون أتى زمن نبي سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم . .

وقوله تعالى : « نبذ فريق » . . يعنى نبذ جماعة وبقيت جماعة أخرى لم تنبذ الكتاب . . بدليل أن ابن سلام وهو أحد أئمة اليهود صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به . . وكعب الأحمري مخيرق أسلم . . فلو أن القرآن عمم ولم يقل فريق لقل إنه غير منصف هؤلاء الذين آمنوا .

وقوله تعالى : « وراء ظهورهم » . . النبذ قد يكون أمامك . . وكونه أمامك

فأنت تراه دائما ، وربما بغريك بالإقبال عليه ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم أى جعلوه وراءهم حتى ينسوه تماما ولا يلتفتوا إليه .

وقوله تعالى : « كأنهم لا يعلمون » .. أى يتظاهرون بأنهم لا يعلمون ببشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه .. وقوله تعالى : « كأنهم » .. دليل على أنهم يعلمون ذلك علم يقين .. لأنهم لو كانوا لا يعلمون .. لقال الحق سبحانه : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم وهم لا يعلمون » .. إذن هم يعلمون يقينا ولكنهم تظاهروا بعدم العلم .. ولا بد أن تنبه إلى أن نبذ يمكن أن يأتى مقابلها فتقول نبذ كذا واتبع كذا .. وهم نبذوا كتاب الله ولكن ماذا اتبعوا ؟



﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

﴿١١﴾

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين . . لأن النبذ يقابله الإتياع . . واتبعوا يعني اقتدوا وجعلوا طريقهم في الاهتداء هو ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان . . وكان السياق يقتضي أن يقال ما تلت الشياطين على ملك سليمان . . ولكن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن هذا الاتباع مستمر حتى الآن كأنهم لم يحددوا المسألة بزمان معين .

إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تلت الشياطين على ملك سليمان ، ونظراً لأن المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكانهم فعلوا .

الحق سبحانه يقول : « واتبعوا ما تتلو الشياطين » ولكن الشياطين تلت وانتهت . . واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه . . الشياطين هم العصاة من الجن . . والجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِفَ قَدْ دَا ۝١١﴾

وقوله سبحانه عن الجن :

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾

(من الآية ١٤ سورة الجن)

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر . . والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصي . .
والشياطين هم مرءة الجن المتمردون على منهج الله . . وكل متمرد على منهج الله
نسميه شيطانا . . سواء كان من الجن أو من الإنس . . ولذلك يقول الحق سبحانه
وتعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فالشياطين هم المتمردون على منهج الله . . قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو
الشياطين على ملك سليمان » . . يعني ما كانت تتلو الشياطين أيام ملك سليمان . .

ولكن ما هي قصة ملك سليمان والشياطين ؟ . . الشياطين كانوا قبل مجيء رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد مكنهم من قدرة الاستماع إلى أوامر السماء وهي
نازلة إلى الأرض . . وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكة وينقلونها إلى أئمة
الكفر ويزيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات . . فبعضها يكون على حق والأكثر
على باطل . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السمع ، ولكن عند بعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم إمتنع ذلك كله ، حتى لا يضع الشياطين خرافاتهم في منهج

رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في القرآن . . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَا نَقَعْدُ مِنْهَا مَقْعِدَ السَّمْعِ قَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ٩ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الشياطين كانت لها مقاعد في السماء تقعد فيها لتستمع الى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه . . . ولكن عند نزول القرآن أرسل الله سبحانه وتعالى الشهب - وهى النجوم المحترقة - فعندما تحاول الشياطين الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم . . . ولذلك فإن عامة الناس حين يرون شهابا يحترق في السماء بسرعة يقولون : سهم الله في عدو الدين . . . كان المسألة في أذهان الناس وجعلتهم يقولون : سهم الله في عدو الدين . . . الذى هو الشيطان .

واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ٨ ﴾

﴿ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الأمر اختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع . . . ولذلك لم يعرفوا هل الذى ينزل من السماء خير أو شر ؟ . . . أنظر الى دقة الأداء القرآنى في قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء » . . . كأنهم صعدوا حتى بلغوا السماء لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها . . . فالله تبارك وتعالى في هذه الحالة - وهى اتباع اليهود لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والتعاويد والأشياء التى تضر ولا تفيد - أراد أن يبرىء سليمان من هذا كله . . . فقال جل جلاله : « وما كفر سليمان » . . .

وكان المنطق يقتضى أن يخص الله سبحانه وتعالى حكاية الشياطين قبل أن يبرىء سليمان من الكفر الذى أرادوا أن ينشروه . . . ولكن الله أراد أن ينفى تهمة الكفر عن

سليمان ويثبتها لكل من اتبع الشياطين فقال جل جلاله : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر .. وكيف كفر الشياطين وبماذا أغروا أتباعهم بالكفر؟ .. يقول الله سبحانه وتعالى : « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » .

ما قصة كل هذا؟ . اليهود نبذوا عهد الله واتبعوا ما تتلو الشياطين أيام سليمان ، وأرادوا أن ينسبوا كل شيء في عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين ، وهكذا أراد اليهود أن يوهموا الناس أن منهج سليمان هو من السحر ومن الشياطين . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبريء سليمان من هذه الكذبة .. سليمان عليه السلام حين جاءته النبوة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكا لا يعطيه لأحد من بعده .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٤١﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٤٢﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٤٣﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة ص)

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالرياح والطير وغير ذلك .. حين أخذ سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفراً بالسحر وكتبه . فأخذ سليمان كل كتب السحر وقيل أنه دفنها تحت عرشه .. وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على غيباً كتب السحر أخرجتها وأذاعتها بين الناس .. وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هي التي كان سليمان يسيطر بها على الإنس والجن ، وأنها كانت منهجه ، وأشاعوها بين الناس .. فأراد الله سبحانه

وتعالى أن يبرىء سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسحر ونشر الكفر . . قال جل جلاله : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » .

ما هو السحر ؟ . . الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع النهار . . حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شيء غير واضح . . هكذا السحر شيء يخيل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع . . إنه قائم على شيئين . . سحر العين لترى ما ليس واقعا على أنه حقيقة . . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى في سحرة فرعون :

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الاعراف)

إذن فالساحر يسيطر على عين المسحور ليرى ما ليس واقعا وما ليس حقيقة . . وتصبح عين المسحور خاضعة لإرادة الساحر . . ولذلك فالسحر تخيل وليس حقيقة . . وإقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ أَقْوَامٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (١١٦)

(سورة طه)

إذن ما دام الله سبحانه وتعالى قال : « يخيل إليه » . . فهي لا تسعى . . إذن فالسحر تخيل . . وما الدليل على أن السحر تخيل ؟ . . الدليل هو المواجهة التي حدثت بين موسى وسحرة فرعون . . ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ولكن عينيه لا يسحرهما أحد . . حينما جاء السحرة وموسى . . إقرأ قوله سبحانه :

﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ (١١٥) قَالَ بَلْ أَنْتُمْ أَقْوَامٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (١١٦)

(سورة طه)

عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيتهم خيل للموجودين إنها حيات تسعى .. ولكن هل خيل للسحرة إنها حيات ؟ طبعاً لا .. لأن أحدا لم يسحر أعين السحرة .. ولذلك ظل ما القوه في أعينهم حبالاً وعصياً .. حين ألقى موسى عصاه وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ۝١٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۝٢٠﴾

(سورة طه)

هنا تظهر حقيقة السحر .. لماذا سجد السحرة ؟ لأن حبالهم وعصيتهم ظلت كما هي حبالاً وعصياً .. ذلك ان أحدا لم يسحر أعينهم .. ولكن عندما ألقى موسى عصاه تحولت إلى حية حقيقية .. فعرفوا ان هذا ليس سحراً ولكنها معجزة من الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟ لأن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، وهم تأكدوا أن عصا موسى قد تحولت إلى حية .. ولكن حبالهم وعصيتهم ظلت كما هي وإن كان قد خيل إلى الناس أنها تحولت إلى حيات .

إذن فالسحر تخيل والساحر يرى الشيء على حقيقته لذلك فإنه لا يخاف .. بينما المسحورون الذين هم الناس يتخيلون ان الشيء قد تغيرت طبيعته .. ولذلك سجد السحرة لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحراً .. ولكنها شيء فوق طاقة البشر .

السحر إذن تخيل والشياطين لهم قدرة التشكل بأي صورة من الصور ، ونحن لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه في صورة مادية .. فإذا تشكل في صورة إنسان رأيناه إنساناً ، وإذا تشكل في صورة حيوان رأيناه حيواناً ، وفي هذه الحالة تحكمه الصورة .. فإذا تشكل كإنسان وأطلقت عليه الرصاص مات ، وإذا تشكل في صورة حيوان ودهمته بسيارتك مات ، ذلك لأن الصورة تحكمه بقانونها .. وهذا هو السر في إنه لا يبقى في شكله إلا لمحة ثم يختفي في ثوان .. لماذا ؟ لأنه يخشى ممن يراه في هذه الصورة أن يقتله خصوصاً ان قانون التشكل يحكمه .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تشكل له الشيطان في صورة إنسان قال :

(ولقد هممت أن أربطه في سارية المسجد ليتفرج عليه صبيان المدينة ولكنني تذكرت قول أخى سليمان : « رب هب لي مملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » . فتركته) الحديث لم يخرج .

ومن رحمة الله بنا انه اذا تشكل الشيطان فإن الصورة تحكمه . . وإلا لكانوا فرعوناً وجعلوا حياتنا جحيماً . . فالله سبحانه وتعالى جعل الكون يقوم على التوازن حتى لا يطغى أحد على أحد . . بمعنى أننا لو كنا في قرية وكلنا لا نملك سلاحاً وجد التوازن . . فإذا ملك أحدنا سلاحاً وادعى انه يفعل ذلك ليدافع عن أهل القرية ، ثم بعد ذلك استغل السلاح ليسيطر على أهل القرية ويفرض عليهم إتاوات وغير ذلك ، يكون التوازن قد اختل وهذا مالا يقبله الله .

السحر يؤدي لاختلال التوازن في الكون . . لأن الساحر يستعين بقوة أعلى في عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخلوق من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك . . الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الجن . . يدعى أنه يفعل ذلك لينشر الخير في الكون ، ولكنها ليست حقيقة . . لأن هذا يغريه على الطغيان . . والذي يخل بأمن العالم هو عدم التكافؤ بين الناس . . إنسان يستطيع أن يطغى فإذا لم يقف أمامه المجتمع كله إختل التوازن في المجتمع . . والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ الفرص ليحفظ أمن وسلامة الكون . . ولذلك يقول لنا لا تطغوا وتستعينوا بالشياطين في الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون .

ولكن الله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع في الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيته . . ولا يحسب انه هو الذي حقق لنفسه العلو في الأرض . . ولقد كانت معصية إبليس في انه رفض أن يسجد لأدم . إنه قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلى نفسه فيعصى ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين ، ما يجعل هذا الأعلى في العنصر - وهو الشيطان - يخضع للأدنى وهو الإنسان ، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله في عنصر من العناصر ، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم . . ولكنه بمشيئة الله

سبحانه وتعالى . . فأرسل الملكين بيابل هاروت وماروت ليعلميا الناس السحر .
الذي يخضع الأعلى عنصراً للأدنى .

واقراً قوله سبحانه : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين بيابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر » . . فإله تبارك وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت ليعلميا الناس السحر . . ولقد رويت عن هذين الملكين قصص كثيرة . . ولكن مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلميا الناس السحر . . فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين فيه الإنسان بالشياطين . . وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة . . أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض لينظروا ماذا يفعلان ؟ فاختاروا هاروت وماروت . . وعندما نزلا إلى الأرض فتتبعها امرأة فارتكبا الكبائر . هذه القصة برغم وجودها في بعض كتب التفسير ليست صحيحة . . لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله . . ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدي المخلوق كل ما تكلف به من الله جل جلاله . . وهذان الملكان كلنا بأن يعلميا الناس السحر . . وأن يحذرا بأن السحر فتنه تؤدي إلى الكفر وقد فعلا ذلك . . والفتنة هي الإمتحان . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » . . إذن فهذان الملكان حذرا الناس من أن ما يعلمانه من السحر فتنه تؤدي إلى الكفر . . وإنها لا تنفع إلا في الشر وفي التفريق بين الزوج وزوجه . . وإن ضررها لا يقع إلا بإذن الله . . فليس هناك أى قوى في هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

ثم يأتي قول الحق تبارك وتعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبسوا ما شروا به أنفسهم لو كانوا

يعلمون . . . ان الله سبحانه وتعالى يخبرنا ان تعلم السحر يضر ولا ينفع . . . فهو لا يجلب نفعا ابدا حتى لمن يشتغل به . فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد في رزقه على غيره من البشر فهم أفضل منه . . . وهو يظل طوال اليوم يبحث عن إنسان يغريه بأنه يستطيع أن يفعل له أشياء ليأخذ منه مالا ، ونجد شكله غير طبيعي وحياته غير مستقرة وأولاده منحرفين . وكل من يعمل بالسحر يموت فقيرا لا يملك شيئا وتصيبه الأمراض المستعصية ، ويصبح عبرة في آخر حياته .

إذن فالسحر لا يأتي إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله في آخر حياة الساحر . . . والذي يشتغل بالسحر يموت كافرا ولا يكون له في الآخرة إلا النار . . . ولذلك قد اشتروا أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك . . . لأنهم لم يأخذوا شيئا إلا الضرر . . . ولم يفعلوا شيئا إلا التفريق بين الناس . . . وهم لا يستطيعون أن يضرُوا أحدا إلا بإذن الله .

والله سبحانه وتعالى إذا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا وابتلاءاتها . . . فإنه سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر . . . ولذلك لا يجب أن يتعلم الإنسان السحر أو يقرأ عنه . . . لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل الخير ثم يستخدمه في الشر . . . كما ان الشياطين التي يستعين بها الساحر غالبا ما تنقلب عليه لتذيقه وبال أمره وتكون شرا عليه وعلى أولاده . . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝١﴾

(سورة الجن)

أي أن الذي يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألوانا من العذاب . . .



﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣)

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة . . لقد بين لهم أن السحر كفر ، وإن من يقوم به يبعث كافرا يوم القيامة ويخلد في النار . . وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم إمتيازاً في الضرر والإيذاء . . لكان ذلك خيراً لهم عند الله تبارك وتعالى . . لأن الملكين اللذين نزلتا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنهما : « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفرا » .

إذن فممارسة السحر كفر . فلو أنهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون في الكفر ، واتقوا الله لكان ذلك ثواباً لهم عند الله وخيراً في الدنيا والآخرة . . ولكن ما هي المثوبة ؟ هي الثواب على العمل الصالح . . يقابلها العقوبة وهي العقاب على العمل السيئ . . وهي مشتقة من ثاب أى رجع . . ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام في الصلاة المثوب . . لأن الإمام يقول الله أكبر فيردها المبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصلون الذين لا يصلحهم صوت الإمام . . وهذا اسمه المثوب . . أى إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الذين لم يسمعوا ما قاله الإمام . . وكما قلنا فهي مأخوذة من ثاب أى رجع . . لأن الإنسان عندما يعمل صالحاً يرجع عليه عمله الصالح بالخير . . فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود . . ولكنه لا بد أن يعود عليك بالخير .

وإذا نظرنا إلى دقة التعبير القرآني : « لمثوبة من عند الله خير » . نجد أن كلمة مثوبة مأخوذة من نفس معنى كلمة ثوب وجمعه ثياب . . وكان الناس قديماً يأخذون أصواف الأغنام ليصنعوا منها ملابسهم . . فيأتى الرجل بما عنده من غنم ويحز صوفها

ثم يعطيه لآخر ليغزله وينسجه ثوبا ويعيده إلى صاحبه . . فكان ما أرسله من الصوف رد إليه كثوب . . ولذلك سميت مثوبة لأن الخير يعود إليك لتنتفع به نفعا عاليا . . وكذلك الثواب عن العمل الصالح يرتد إليك بالنفع العالى .

إذن فكلمة ثوب جاء منها الثواب ، والله سبحانه وتعالى علمنا أن الثوب لستر العورة . . والعمل الصالح يستر الأمراض المعنوية والنفسية فى الإنسان . . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ أَزَلَّنَا عَنِكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تِكْرُورِنَا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فكان هناك لباسين أحدهما لستر العورة . . والثانى لستر الإنسان من العذاب . . ولباس التقوى خير من لباس ستر العورة . . قوله تعالى : « لمثوبة من عند الله خير » . . انظر إلى المثوبة التى تأتى من عند الله . . إذا كان الثوب يأتىك من عند من صنعه جميلا مزركشا وله ألوان مبهجة . . إذا كان هذا ما يصنعه لك بشر فما بالك بالثواب الذى يأتىك من عند الله . إنه قمة الجمال . فالله هو القادر على أن يرد الثواب بقدراته سبحانه فيكون الرد عاليا وعاليا جدا ، بحيث يضاعف الثواب مرات ومرات . على أننا لابد أن ننتبه إلى قول الله تعالى : « ولو أنهم آمنوا واتقوا » قلنا معنى اتقوا أنهم جعلوا بينهم وبين صفات الجلال فى الله وقاية . . ولذلك قلنا إن بعض الناس يتساءل . . كيف يقول الله تبارك وتعالى : « إتقوا الله » . . ويقول جل جلاله : « إتقوا النار » . . نقول إن معنى اتقوا الله أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية : « واتقوا النار » . . أى اجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية . . لأن النار من متعلقات صفات الجلال . . لذلك فإن قوله : « اتقوا الله » . . تساوى : « اتقوا النار » . . والحق تبارك وتعالى حينما قال : « اتقوا » أطلقها عامة . . والحذف هنا المراد به التعميم . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن السحرة لو آمنوا بأن تعليم السحر فتنة تؤدى إلى الكفر . . واتقوا الله وخافوا عذابه فى الآخرة لكان ذلك خيرا لهم . . لذلك قال جل جلاله : « لمثوبة من عند الله خير » . .

وساعة تسمع كلمة خير تأتى إلى الذهن كلمة شر . . لأن الخير يقابله الشر . . ولكن فى بعض الأحيان كلمة خير لا يقابلها شر . ولكن يقابلها خير أقل . وكلمة

خير هي الوحيدة في اللغة العربية التي يساوي الاسم فيها أفعال التفضيل . . فانت تقول هذا فاضل وهذا مفضل عليه . . كلمة خير اسم تفضيل فيقال ذلك خير من كذا . . أي واحد منها يعطى أكثر من الآخر . . وكلمة خير إذا لم يأت مقابله أي خير من كذا يكون مقابله شر . . فإذا قلت فلان خير من فلان . . فكلاهما إشتراك في الخير ولكن بدرجة مختلفة . . والخير هو ما يأتي لك بالنفع . . ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس . . واحد ينظر إلى النفع العاجل وآخر ينظر إلى النفع الأجل . . وفي ظاهر الأمر كل منها أراد خيرا .

وإذا أردنا أن نقرب ذلك إلى الأذهان فلنقل إن هناك أخوين أحدهما يستيقظ مبكراً ليذهب إلى مدرسته والثاني ينام حتى الضحى ، ويخرج من البيت ليجلس على المقهى . . الأول يحب الخير لنفسه والثاني يحب الخير لنفسه والخلاف في تقييم الخير . . الكسول يحب الخير العاجل فيعطى نفسه حظها من النوم والترفيه وعدم العمل . . والمجتهد يحب الخير الأجل لنفسه لذلك يتعب ويشقى سنوات الدراسة حتى يرتاح بعد ذلك ويحقق مستقبلاً مرموقاً .

الفلاح الذي يزرع ويذهب إلى حقله في الصباح الباكر ويروى ويبذر الحب ويشقى ، يأتيه في آخر العام محصول وافر وخير كثير . . والفلاح الذي يجلس على المقهى طول النهار أعطى نفسه خير الراحة ، ولكن ساعة الحصاد يحصد الندم .

إذن كل الناس يحبون الخير ولكن نظرتهم ومقاييسهم تختلف . . فمنهم من يريد متعة اليوم ، ومنهم من يعمل لأجل متعة الغد . . والله تبارك وتعالى حين يأمرنا بالخير . . قد يكون الخير متعباً للجسد والنفس . . ولكن النهاية متاع أبدى في جنة الخلد . . إذن فالخير الحقيقي هو ما جاء به الشرع . . لماذا ؟ لأن الخير هو ما ليس بعده بعد . . فانت تولد ثم تكبر ثم تتخرج في الجامعة . . ثم تصبح في أعلى المناصب ثم تموت ثم تبعث ثم تدخل الجنة . . وبعدها لا شيء إلا الخلود في النعيم .

قوله تعالى : « لو كانوا يعلمون » . . الله ينفي عنهم العلم بينها في الآية السابقة أثبت لهم العلم في قوله تعالى : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » . . نقول إن العلم الذي لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئاً . .

لأن هذا العلم سيكون حجة على صاحبه يوم القيامة وليته لم يعلمه .. واقرأ قول الشاعر :

رَزَقُوا وَمَا رَزَقُوا سَمَاحٌ يَدُ
فَكَأَنَّهُمْ رَزَقُوا وَمَا رَزَقُوا
خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِكُرْمَةٍ
فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا

فكان العلم لم يثبت لك لأنك لم تنتفع به .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ..) وهكذا نفى الله عن الناس العلم الحقيقي .. وأثبت لهم العلم الدنيوي الظاهر .. وقوله جل جلاله :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

(سورة الجمعة)

أي إنهم حملوا التوراة علما ولكنهم لم يحملوها منهاجاً وعملاً .. وهؤلاء السحرة علموا أن من يمارس السحر يكفر .. ومع ذلك لم يعملوا بما عملوا .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
أَنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤)

هذا نداء للمؤمنين .. لأن الآية الكريمة تبدأ : « يا أيها الذين آمنوا » .. وعندما ينادى الحق المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف .. فالله لا يكلف كافرا أو غير مؤمن .. ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا .. فإدام العبد قد آمن فقد أصبحت مسئولية حركته في الحياة عند ربه .. ولذلك يوحى إليه بمنهج الحياة .. أما الكافر فلا يكلفه الله بشيء ..

إذن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. أمر لمن آمن بالله ورضى به إلها ومشروعاً .. قوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نداء للمؤمنين وقوله : « لا تقولوا راعينا » .. نهى .. وكان راعنا كانت مقولة عندهم يريد الله أن ينهاهم عنها .. والإيمان يلزمهم أن يستمعوا إلى نهى الله ..

ما معنى راعنا ؟ نحن نقول في لغتنا الدارجة (راعينا) .. يعنى إحفظنا وراقبنا وخذ بيدنا وكلها مأخوذة من مادة الرعاية والراعى . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) .^(١)

وأصل المادة مأخوذة من راعى الغنم .. لأن راعى الغنم لابد أن يتجه بها إلى الأماكن التى فيها العشب والماء .. أى إلى أماكن الرعى .. وأن يكون حارسا عليها حتى لا تشرذم واحدة أو تفضل فتفتك بها ذئاب الصحارى .. وأن يوفر لها الراحة حتى

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

لا تتعب وتنفق في الطريق . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كنتُ أرمى الغنم على قراريط لأهل مكة) .^(١)

ولكن لماذا استبدل الحق سبحانه وتعالى كلمة راعنا بكلمة انظرنا ؟ إن عند اليهود في العبرانية والسريانية كلمة راعنا ومعناها الرعونة . . ولذلك كانوا إذا سمعوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة راعنا . . اتخذوها وسيلة للسياق بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمسلمون لا يدرون شيئاً . . لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتركوا هذه الكلمة . . حتى لا يجد اليهود وسيلة لستر سياهم ، وأمرهم بأن يقولوا : انظرنا .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : « واسمعوا » . . والله هنا يشير إلى الفرق بين اليهود والمؤمنين . . فاليهود قالوا سمعنا وعصينا ، ولكن الله يقول للمؤمنين إسمعوا سماع طاعة وسمع تنفيذ .

سعد بن معاذ سمع واحداً من اليهود يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم - راعنا - وسعد كان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم - فلما سمع ما قاله فهم مراده . فذهب إلى اليهودي وقال له لو سمعتها منك مرة أخرى لضربت عنقك . . وقال اليهودي أو لستم تقولونها لنبيكم ؟ أمي حرام علينا وحلال لكم ؟ فنزلت الآية الكريمة تقول : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » . . ولو تأملنا كلمة (راعنا) وكلمة (انظرنا) لوجدنا المعنى واحداً . . ولكن (انظرنا) تؤدي المعنى وليس لها نظير في لغة اليهود التي تعني الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقوله تعالى : « وللكافرين عذاب أليم » . . أي من يقولون راعنا إساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم عذاب أليم .



﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥)

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين العداوة التي يكنها لهم أهل الكتاب من اليهود والمشركين .. الذين كفروا لأنهم رفضوا الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .. فبلغتهم إلى أن اليهود والمشركين يكرهون الخير للمؤمنين .. فتشككوا في كل أمر يأتي منهم ، واعلموا أنهم لا يريدون لكم خيرا .. قوله تعالى : « ما يود » .. أى ما يحب ، والود معناه ميل القلب إلى من يحبه .. والود يختلف عن المعروف .. أنت تصنع معروفا فيمن تحب ومن لا تحب .. ولكنك لا تود إلا من تحب .. لذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ثم بعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليقول عن الوالدين :

﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

يقول بعض المستشرقين إن هناك تناقضا بين الآيتين .. كيف أن الله سبحانه وتعالى يقول : لا توادوا من يجارب الله ورسوله .. ثم يأتي ويقول إذا حاول أبواك أن

يجعلك تشرك بالله فصاحبها في الدنيا معروفا . . وطبعاً الوالدان اللذان يحاولان دفع ابنهما إلى الكفر إنما يجاربان الله ورسوله . . كيف يتم هذا التناقض ؟

نقول إنكم لم تفهموا المعنى . . إن الإنسان يصنع المعروف فيمن يحب ومن لا يحب كما قلنا . . فقد تجد إنساناً في ضيق وتعطيه مبلغاً من المال كمعروف . . دون أن يكون بينك وبينه أى صلة . . أما الود فلا يكون إلا مع من تحب .

إذن : « ما يود » معناها حب القلب . . أى أن قلوب اليهود والنصارى والمشركين لا تحب لكم الخير . . إنهم يكرهون أن ينزل عليكم خير من ربكم . . بل هم في الحقيقة لا يريدون أن ينزل عليكم من ربكم أى شيء مما يسمى خيراً . . والخير هو وحى الله ومنهجه ونبوة رسول صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : « من خير » . . أى من أى شيء مما يسمى خيراً . . فأنت حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالا يقول لك ما عندي مال . . أى لا أملك مالا ، ولكنه قد يملك جنيتها أو جنيتها . . ولا يعتبر هذا مالا يمكن أن يوفى بما تريده . . وتذهب إلى رجل آخر لنفس الغرض تقول أريد مالا . . يقول لك ما عندي من مال . . أى ليس عندي ولا قرش واحد ، ما عندي أى مبلغ مما يقال له مال حتى ولو كان عدة قروش . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن أهل الكتاب والكفار والمشركين . . مشتركون في كراهيتهم للمؤمنين . . حتى إنهم لا يريدون أن ينزل عليكم أى شيء من ربكم مما يطلق عليه خير .

وقوله تعالى : « من ربكم » . . تدل على المصدر الذى يأتي منه الخير من الله . . فكانهم لا يحبون أن ينزل على المؤمنين خير من الله . . وهو المنهج والرسالة . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله يختص برحمته من يشاء » . . أى أن الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانيتهم . . والله ينزل الخير لمن يشاء . . والله قد قسم بين الناس أمور حياتهم الدنيوية . . فكيف يطلب الكافرون أن يخضع الله منهجه لإرادتهم ؟ واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٥١ أَهَمْ يَقْسِمُونَ

رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّمَا قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ

بَعْضٌ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حُرِّيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة الزخرف)

اعترض الكفار على نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا لو نزل على رجل من القريتين عظيم .. فبرد عليهم الله سبحانه وتعالى .. أنتم لا تقسمون رحمة الله ولكن الله يقسم بينكم حياتكم في الدنيا .

الحق تبارك وتعالى في الآية التي نحن بصددتها يقول : « والله يختص برحمته من يشاء » .. ساعة نقرأ كلمة يختص تفهم أن شيئا خصص لشيء دون غيره .. يعنى أننى خصصت فلانا بهذا الشيء : « والله يختص برحمته من يشاء » .. أى يعطى الرحمة لمن يشاء لكى يؤدي مهمته أو ينزل رحمته على من يشاء ، فليس لهؤلاء الكفار أن يتحكموا في مشيئة الله ، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا يعطيهم حق التحكم في رحمة الله .. ولذلك أراد الله أن يرد عليهم بأن هذا الدين سيتشر ويزداد المؤمنون به .. وسيفتح الله به أقطارا ودولا .. وسيدخل الناس فيه أفواجا وسيظهره على الدين كله .

ولو تأملنا أسباب انتصار أى عدو على من يعاديه لوجدنا إنها إما أسباب ظاهرة واضحة وإما مكر وخداع .. بحيث يظهر العدو لعدوه أنه يحبه ويكيد له في الخفاء حتى يتمكن منه فيقتله .. ولقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سرا .. لماذا ؟ لأن الله أراد أن يقول لقريش لن تقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بالمكر والخداع والتبیت .. هم بيتوا الفتية ليقتلوه .. وجاءوا من كل قبيلة بفتى ليضيع دمه بين القبائل .. وخرج صلى الله عليه وسلم ووضع التراب على رؤوس الفتية .. الله أرادهم أن يعرفوا أنهم لن يقدرُوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكر والتبیت والخداع ولا بالعداء الظاهر .

قوله تعالى : « والله ذو الفضل العظيم » .. الفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان معه فضل ظهر فليعْذ به على من لا ظهر له ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) (١) .

(١) رواه مسلم في اللقطة وأبو داود في الزكاة وأحمد في المسند .

وفضل مال أى مال زائد على حاجته . هذا عن الفضل بالنسبة للبشر . أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإن كل ما فى كون الله الآن وفى الآخرة هو فضل لله لأنه زائد على حاجته ؛ فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التى سبقت والتى ستأتى . ولذلك قال : « والله ذو الفضل العظيم » . . أى ذو الفضل الهائل الزائد على حاجته ؛ لأنه ربما يكون عندى فضل ، ولكنى أبقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلا . والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم ؛ لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه ؛ لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شيء ، وسيكون بعد ألا يوجد شيء . وهذا ما يسمى بالفضل العظيم .



﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦)

ولكن ماهو السبب ؟ السبب أن أهل الكتاب والمشركين لا يريدون خيرا للمؤمنين في دينهم ؛ لأنهم أحسوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمنه خير مما جاء به موسى وبقى إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . . وخير مما جاء به عيسى في زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وليس معنى ذلك أننا نحاول أن ننقص ما جاء به الرسل السابقون . . لكننا نؤكد أن الرسل السابقين جاءوا في أزمانهم بخير ما وجد في هذه الأزمان . . فكل رسالة من الرسالات التي سبقت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جاءت لقوم محددين ولزمن محدد . . ثم جاء نبي جديد لينسخ ما في الرسالة السابقة لقوم محددين وزمن محدد . . وافرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلى بني إسرائيل كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُم بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّاتُكُمْ بَاقِيَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٥٠)

(سورة آل عمران)

فكان عيسى عليه السلام جاء لينسخ بعض أحكام التوراة . . ويحل لبني إسرائيل بعض ما حرمه الله عليهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله ؛ لأن دينه للعالمين وبقى إلى يوم القيامة .

وهكذا نرى أن المؤمنين بالرسل كلما جاء رسول جديد كانوا ينتقلون من خير إلى خير . . وفيما تتفق فيه الرسالات كانوا ينتقلون إلى مثل هذا الخير . . وذلك فيما

يتعلق بالعقائد ، وإلى زيادة في الخير فيها يتعلق بمنهج الحياة . . هناك في رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين رسول ورسول وهي قضية الإيمان بالله واحد أحد له الكمال المطلق . . سبحانه في ذاته ، وسبحانه في صفاته ، وسبحانه في أفعاله . . كل ذلك قدر الرسالات فيه مشترك . . ولكن الحياة في تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة ولا مواجهة في العصر الذي سبق . . فإذا قلنا إن رسالة بقيمتها العقائدية تبقى . . فإنها لا تستطيع أن تواجه قضايا الحياة التي ستأتي بها العصور التي بعدها فيها عدا الإسلام . . لأنه جاء ديناً خاتماً لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . على أننا نجد من يقول وماذا عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣)

(سورة الشورى)

نقول إن هذا يأتي في شيء واحد . . يتعلق بالأمر الثابت في رسالات السماء وهو قضية قمة العقيدة والإيمان بالله الواحد . . أما فيما يتعلق بقضايا الحياة فإننا نجد أحكاماً في هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات . . ولذلك عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعطى أشياء يعالج بها قضايا لم تكن موجودة في عهد الرسل السابقين .

يقول الله تبارك وتعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » . . كلمة ننسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتي بآية أخرى بدلا منها . . كما يقال نسخت الشمس الظل . . أي أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحته وحلت هي مكانه . . ويقال نسخت الكتاب أي نقلته إلى صور متعددة ، ونسخ الشيب الشباب أي أصبح الشاب شيخا . .

وقوله تعالى « ننسها » لها معان متعددة . . قد يعني ذلك أن الله يجعل الإنسان سهو ويغفل عنها . . فتضيع من ذاكرته أو يتركها إلى غيرها . . والعلماء يختلفوا في

هذه المسألة . . . وكان هذا الاختلاف لأن أحدهم يلحظ ملحظا وغيره يلحظ ملحظا آخر وكلاهما يريد الحق . . .

ثاني للنسخ في القرآن الكريم . . . قوم قالوا لا نسخ في القرآن أبدا . . . لماذا ؟ لأن النسخ بداء على الله . . . ما معنى البداء ؟ هو أن تأتي بحكم ثم يأتي التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيعدل الحكم . . . وهذا محال بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . . نقول لهم طبعا هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى . . . ولكننا نقول إن النسخ ليس بداء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجىء بحكم آخر . . . ونقول لهم ساعة حكم الله الحكم أولا فهو سبحانه يعلم أن هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه ثم يحل مكانه حكم جديد . . . ولكن الظرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج . . . وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشيء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل الله عن الحكم . . . إن هذا غير صحيح .

لماذا . . . لأنه ساعة حكم الله أولا كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة . . . ثم بعد ذلك ينسخ أو يبطل بحكم آخر . إذن فالمشرع الذي وضع هذا الحكم وضعه على أساس أنه سينتهي وسيحل محله حكم جديد . . .

وليس هذا كواقع البشر . . . فأحكام البشر وقوانينهم تعدل لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع . . . لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء . . . فجاء الواقع ليظهر ما خفى وأصبح الحكم لا بد أن ينسخ أو يعدل . . . ولكن الأمر مع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك . . . أمر الله جعل الحكم موقوتا ساعة جاء الحكم الأول .

مثلا حين وجه الله المسلمين إلى بيت المقدس . . . أكانت القضية عند الله أن القبلة ستبقى إلى بيت المقدس طالما وجد الإسلام وإلى يوم القيامة ؟ ثم بدا له سبحانه وتعالى أن يوجه المسلمين إلى الكعبة ؟ لا . . . لم تكن هذه هي الصورة . . . ولكن كان في شرع الله أن يتوجه المسلمون أولا إلى بيت المقدس فترة ثم بعد ذلك يتوجهون إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فالواقع لم يضطر المشرع إلى أن يعدل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . . .

وإنما كان في علمه وفي شرعه أنه سيغير القبلة بعد فترة إلى الكعبة . . ولعل لذلك هدفا إيمانيا في أن العلة في الأمور هي أنها من الله ؛ فالالتجاء إلى بيت المقدس أو الالتجاء إلى الكعبة لا يكلف المؤمنين جهدا إيمانيا إضافيا . . ولا يضع عليهم تكاليف جديدة . فالجهد نفسه الذي أبدله للالتجاء إلى الشرق أبدله للالتجاء إلى الغرب . ولكن الاختبار الإيماني أن تكون علة الأمر أنه صادر من الله . . فإذا قال الله اتجه إلى بيت المقدس إتجهنا . . فإذا قال اتجه إلى الكعبة اتجهنا . . ولا قدسية لشيء في ذاته . . ولكن القدسية لأمر الله فيه .

والله تبارك وتعالى حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم لم يسجدوا لذات آدم ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . والله سبحانه وتعالى اختار الكعبة المشرفة بيتا ومسجدا له في الأرض . . واتخذت الكعبة مقامها العالي عند المسلمين ليس لأنها بقعة في مكان ما جاءها إبراهيم والأنبياء وحج إليها الناس ، ولكن مقامها جاء من أنها هي بيت الله باختيار الله لها . . وكل مساجد الأرض هي بيوت الله باختيار خلق الله . . ولكن المسجد الوحيد الذي هو بيت الله باختيار الله هو الكعبة . . ولذلك كان لا بد لكل المساجد التي هي باختيار خلق الله . . أن تتجه إلى المسجد الذي هو باختيار الله . . ولكن العلة الإيمانية الكبرى هي أن نؤمن أن صدور الأمر من الله هو الحيثية لاتباع هذا الأمر دون أن نبحث عن أسبابه الدنيوية .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات في اليوم . . فدون أن نبحث عن السبب أو نقول لماذا خمسة ؟ فلنتقص منها . . دون أن نفعل ذلك نصل خمس مرات في اليوم والسبب أن الله قال ، وهكذا الزكاة ، وهكذا الصوم وهكذا الحج . . كلها تتم طاعة لله . . وهكذا تغيير القبلة ثم اختباراً للطاعة الإيمانية لله . . فالله موجود في كل مكان . . فلا يأتي أحد ليقول لماذا الكعبة ؟ وهل الله ليس موجوداً إلا في الكعبة ؟ نقول لا إنه موجود في كل مكان . . ولكنه أمرنا أن نتجه إلى الكعبة . . ونحن لا نتجه إليها لأننا نعتقد أن الله تبارك وتعالى موجود في هذا المكان فقط . . ولكن طاعة لأمر الله الذي أمرنا أن تكون قبلتنا إلى الكعبة .

ولعل تغيير القبلة يعطينا فلسفة نسخ الآيات . . لماذا ؟ لأنه لم توجد أية ظروف أو تعبد وقائع ، أو تظهر أشياء كانت خفية تجعل الالتجاء إلى بيت المقدس صعباً أو محوطاً بالمشاكل أو غير ذلك ، ولكن تغيير القبلة جاء هنا لأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يتوجه المسلمون إلى بيت المقدس فترة ثم يتوجهوا إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فكل آية نسخت كان في علم الله سبحانه وتعالى أنها ستطبق لفترة معينة ثم بعد ذلك ستعدل .. وكان كل من الحكم الذي سينسخ ، والوقت الذي سيستغرقه ، والحكم الذي سيأتي بعده معلوما عند الله تبارك وتعالى ومقررا منذ الأزل وقبل بداية الكون .. وأيضا فإن الله أراد أن يلفتنا بالتوجه إلى بيت المقدس أولا .. لأن الاسلام دين يشمل كل الأديان ، وأن بيت المقدس سيصبح من مقدسات الإسلام .. وأنه لا يمكن لأحد أن يدعى ان المسلمين لن يكون لهم شأن في بيت المقدس ، لذلك أسرى الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس .. ليثبت ان لبيت المقدس قداسة في الإسلام وأنه من المقدسات عند الله .. ومن هنا كان التوجه إلى بيت المقدس كقبلة أولى ، ثم نسخ الله القبلة إلى الكعبة .. فالحق جل جلاله يقول : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .. أى أن النسخ يكون إما أن يأتي الله سبحانه وتعالى بخير من هذه الآية أو يأتي بمثلها .. وهل الآية المنسوخة كان هناك خير منها ولم ينزله الله ؟ نقول لا .. المعنى ان الآية المنسوخة كانت خيراً في زمانها .. والحكم الثانى كان زيادة في الخير بعد فترة من الزمن .. كلاهما خير في زمنه وفي أحكامه .. والله تبارك وتعالى أنزل الآية الكريمة :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٥٦)

(سورة آل عمران)

ولكن من يستطيع أن يتقى الله حق تقاته .. ذلك صعب على المسلمين .. ولذلك عندما نزلت الآية قالوا ليس منا من يستطيع أن يتقى الله حق تقاته .. فنزلت الآية الكريمة :

﴿ فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ

نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٦١)

(سورة التباين)

الذى يتقى الله حق تقاته خير ، أم الذى يتقى الله ما استطاع ؟ طبعاً حق تقاته خير من قدر الاستطاعة .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « نأت بخير منها » ..

نقول إنك لم تفهم عن الله . . « اتقوا الله حق تقاته » في الآية الأولى أو « فاتقوا الله ما استطعتم » في الآية الثانية . . أى الحالتين أحسن ؟ نقول إن العبرة بالنتيجة . . عندما تريد أن تقيم شيئاً لا بد أن تبحث عن نتيجته أولاً .

ولنقرب المعنى للأذهان سنضرب مثلاً والله المثل الأعلى . . نفرض أن هناك تاجراً يبيع السلع بربح خمسين في المائة . . ثم جاء تاجر آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر في المائة . . ماذا يحدث ؟ سيقبل الناس طبعاً على ذلك الذى يبيع السلع بربح خمسة عشر في المائة ويشترّون منه كل ما يريدون ، والتاجر الذى يبيع السلع بربح خمسين في المائة يحقق ربحاً أكبر . . ولكن الذى يبيع بربح خمسة عشر في المائة يحقق ربحاً أقل ولكن بزيادة الكمية المبيعة . . يكون الربح فى النهاية أكبر .

والذى يطبق الآية الكريمة : « اتقوا الله حق تقاته » يحقق خيراً أكبر فى عمله . . ولكنه لا يستطيع أن يتقى الله حق تقاته إلا فى أعمال محدودة جداً .

إذن الخير هنا أكبر ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود .

أما قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة . . ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان الأجر عليها أقل .

عندما نأتى إلى النتيجة العامة . . أعمال أجرها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جداً . . وأعمال أجرها أقل ولكنها كثيرة . . أيهما فيه الخير ؟ طبعاً الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل فى مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع .

إذن فقد نسخت هذه الآية بما هو خير منها . . رغم أن الظاهر لا يبدو كذلك ، لأن اتقاء الله حق تقاته خير من اتقاء الله قدر الاستطاعة . . ولكن فى المحصلة العامة الخير فى الآية التى نصت على الاستطاعة . .

نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى : « أو مثلهما » . . هنا توقف بعض العلماء : قد يكون مفهوماً أن ينسخ الله آية بخير منها ، ولكن ما هى الحكمة فى أن ينسخها بمثلها ؟ إذا كانت الآية التى نسخت مثل الآية التى جاءت . . فلماذا تم النسخ ؟

نقول إننا إذا ضربنا مثلاً لذلك فهو مثل تغيير القبلة . . ان الله تبارك وتعالى حين أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة بدلاً من بيت المقدس نسخ آية يمثلها . . لأن التوجه إلى الكعبة لا يكلف المؤمن أية مشقة أو زيادة في التكليف . . فالإنسان يتوجه ناحية اليمين أو إلى اليسار أو إلى الأمام أو إلى الخلف وهو نفس الجهد . . والله سبحانه وتعالى كما قلنا موجود . . وهنا تبرز الطاعة الإيمانية التي تحدثنا عنها وأن هناك أفعالا نقوم بها لأن الله قال . . وهذه تأتي في العبادات لأن العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود . . والله تبارك وتعالى يريد أن تثبت العبودية له عن حب واختيار . . فإن قال أفعلو كذا فعلنا . . وإن قال لا تفعلوا لا نفعل . . والعلة في هذا أننا نريد اختياراً أن نجعل مرادتنا في الكون خاضعة لمرادات الله سبحانه وتعالى . . إذن مثلها لم تأت بلا حكمة بل جاءت للحكمة عالية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « أو نُنسِها » ما معنى نسيتها ؟ قال بعض العلماء إن النسخ والنسيان شيء واحد . . ولكن ساعة قال الله الحكم الأول كان في إرادته ومشيئته وعلمه أن يأتي حكم آخر بعد مدة . . ساعة جاء الحكم الأول ترك الحكم الثاني في مشيئته قدراً من الزمن حتى يأتي موعد نزوله .

إذن فساعة يأتي الحكم الأول . . يكون الحكم مرجأ ولكنه في علم الله . ينتظر انقضاء وقت الحكم الأول : « ما ننسخ من آية » هي الآية المنسوخة أو التي سيتم عدم العمل بها : « أو ننسها » . . أي لا يبلغها الله للرسول والمؤمنين عن طريق الوحي مع أنها موجودة في علمه سبحانه . . ويجب أن نتنبه إلى أن النسخ لا يحدث في شيئين :

الأول: أمور العقائد فلا تنسخ آية آية أخرى في أمر العقيدة . . فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة . . فالله سبحانه واحد أحد لا تغيير ولا تبديل ، والغيب قائم ، والآخرة قادمة والملائكة يقومون بمهامهم . . وكل ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبداً . .

والثاني: الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لا ينسخها بآية جديدة . . لأن الإخبار هو الإبلاغ بشيء واقع . . والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله . . فلا تروى لنا حادثة الفيل ثم تنسخ

بعد ذلك وتروى بتفاصيل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت . . إذن لا نسخ في العقائد والإخبار عن الله . . ولكن النسخ يكون في التكليف . . مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۖ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۖ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝١٥﴾
(سورة الأنفال)

كأن المقياس ساعة نزول هذه الآية أن الواحد من المؤمنين يقابل عشرة من الكفار ويغلبهم . . ولكن كانت هذه عملية شاقة على المؤمنين . . ولذلك نسخها الله ليعطينا على قدر طاقتنا . . فنزلت الآية الكريمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكَ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكَ ضَعْفًا ۖ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۖ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝١٦﴾
(سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى علم أن المؤمنين فيهم ضعف . . لذلك لن يستطيع الواحد منهم أن يقاتل عشرة ويغلبهم . . فنقلها إلى خير يسير يقدر عليه المؤمنون بحيث يغلب المؤمن الواحد اثنين من الكفار . . وهذا حكم لا يدخل في العقيدة ولا في الإخبار . . وفي أول نزول القرآن كانت المرأة إذا زنت وشهد عليها أربعة بمسكونها في البيت لا تخرج منه حتى تموت . . وقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٧﴾
(سورة النساء)

وبعد أن شاع الإسلام وامتلات النفوس بالإيمان . . نزل تشريع جديد هو الرجم أو الجلد . . ساعة نزل الحكم الأول بحبسهن كان الحكم الثاني في علم الله . . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « أو يجعل الله لهن سبيلا » . . وقوله سبحانه :

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى حتى يأتي الله بأمره . . كان هناك حكما أو أمرا في علم الله سيأتي ليعدل الحكم الموجود . . إذن الله حين أبلغنا بالحكم الأول أعطانا فكرة . . ان هذا الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل . . بعد أن تتدرب النفوس على مراد الله من الحكم الأول . . ومن عظمة الله أن مشيئته اقتضت في الميراث أن يعطى الوالدين اللذين بلغا أرذل العمر فقال جل جلاله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٨٠ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا جعلها في أول الأمر وصية ولم تكن ميراثا . . لماذا ؟ لأن الإنسان إن مات فهو الحلقة الموصولة بآبيه . . أما أبنائه فحلقة أخرى . . ولما استقرت الأحكام في النفوس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله . . جعل سبحانه المسألة فرضا . . فيستوفى الحكم . . ويقول جل جلاله :

﴿ يُوْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمِ نْ لِحَظِ الْاُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اَثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ

ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(سورة النساء)

وهكذا بعد أن كان نصيب الوالدين في تركة الابن وصية .. إن شاء أوصى بها
وإن شاء لم يوص أصبحت فرضا .. وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء
قدير » .. أى كل شيء يدخل في إرادة الله وقدرته سبحانه .. إذا قلنا إذا جاء
الله بحكم لعصر فهذا هو قمة الخير .. لأنه إذا عدل الحكم بعد أن أدى مهمته في
عصره ، فإن الحكم الجديد الذى يأتى هو قمة الخير أيضا .. لأن الله على كل شيء
قدير ، يواجه كل عصر بقمة الخير للموجودين فيه .. ولذلك فمن عظمة الله انه لم
يات بالحكم خبرا من عنده ولكنه أشرك فيه المخاطب .. فلم يقل سبحانه « إن الله
على كل شيء قدير » .. ولكنه قال : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .. لأنه
واثق أن كل من يسمع سيقول نعم .. وهذا ما يعرف بالاستفهام الإنكارى أو
التقريرى .



﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٧)

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هناك آيات نسخت في القرآن . . أراد أن يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة في كونه يفعل ما يشاء . . ولذلك بدأ الآية الكريمة : « ألم تعلم » . . وهذا التعبير يسمى الاستفهام الاستنكاري أو التقريرى . . لأن السامع لا يجد إلا جوابا واحدا بأنه يقر بما قاله الله تبارك وتعالى . . ويقول نعم يا رب أنت الحق وقولك الحق .

قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » . . الملك يقتضى مالكا ويقتضى مملوكا . . ويقتضى قدرة على استمرار هذا الملك وعدم زواله . . فكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة . . والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه . . والإنسان لا يملك الفعل في الكون . . إن أراد مثلا أن يبنى عمارة قد لا يجد الأرض . . فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذى يبنى . . فإن وجدته قد لا يجد مواد البناء . . فإن وجد هذا كله قد تأتى الحكومة أو الدولة وتمنع البناء على هذه الأرض . . أو أن تكون الأرض ملكا لإنسان آخر فتقام القضايا ولا يتم البناء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » . . أى أن كل شيء في الوجود هو ملك لله وهو يتصرف بقدرته فيما يملك . . ولذلك عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . . كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوى لذلك سادوا المدينة . . وبدأوا يمحرون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . . والله تبارك وتعالى طمان رسوله بأن طلاقة القدرة في الكون هي لله وحده . . وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك عن

يشاء ويعطيه لمن يشاء . . . ولذلك حينما يأتي يوم القيامة ويهلك الله الأرض ومن عليها . . . يقول سبحانه :

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويرد جل جلاله بشهادة الذات للذات فيقول :

﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ومادام الله هو المالك وحده . . . فإنه يستطيع أن يتزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه . . . ويحدثنا العلماء أن العسس وهم الجنود الذين يسرون ليلاً لتفقد أحوال الناس وجدوا شخصاً يسير ليلاً . . . فلما تقدموا منه جرى فجروا وراءه إلى أن وصل إلى مكان خرب ليستتر فيه . . . تقدم العسس وأمسكوا به وإذا بهم يجدون جثة قتيل في المكان . . . فقالوا له أنت القاتل لأنك جريت حين رأيتنا ولأنك موجود الآن في المكان الذي فيه جثة القتيل . . . فأخذوه ليحاكموه فقال لهم أمهلوني لأصلي ركعتين لله . . . فأمهلوه فصلى ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على براءتي إلا أنت . . . وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك في نفسك . . . فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل فقال . . . أنا قاتل هذا القتيل وأنا أقر بجريمتي . . . فتعجب الناس وقالوا لماذا تقر بجريمتك ولم يرك أحد ولم يتهمك أحد . . . فقال لهم والله ما أقررت إنما جاء هاتف فأجرى لساني بما قلت . . . فلما أقر القاتل بما فعل وقام ولي المقتول وهو أبوه فقال . . . اللهم إني أشهدك إني قد أعفيت قاتل ابني من دينه وقصاصه .

انظر إلى طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى . . . القاتل أراد أن يختفي ولكن أنظر إلى دقة السؤال من السائل أو المتهم البريء . . . وقد صلى ركعتين لله . . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أنه إذا حزبتنا أمر قمنا إلى الصلاة فليس أمامنا إلا هذا الباب . . . وبعد أن صلى سأل الله أنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة ولا يشهد ببراءتي أحد إلا أنت فأسألك ذلك في نفسك وبعد ذلك كان ما كان .

وهذه القصة تدلنا على أننا في قبضة الله . . أردنا أو لم نرد . . بأسباب أو بغير أسباب . . لماذا ؟ . . لأن الله له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير . . وقوله تعالى : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » . . الولي هو من يواليك ومحبك . . والنصير هو الذي عنده القدرة على أن ينصرك وقد يكون النصير غير الولي . . الحق تبارك وتعالى يقول أنا لكم وليٌ ونصير أي محب وأنصركم على من يعادىكم .



﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ
مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٠٨)

ثم ينقل الحق جل جلاله المسلمين بعد أن بين لهم أنه وليهم ونصيرهم . . ينقلهم إلى سلوك أهل الكتاب من اليهود مع رسولهم حتى يتفادوا مثل هذا السلوك فيقول جل جلاله : « أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ » . . الحق يقول للمؤمنين أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا سَأَلَ الْيَهُودُ مُوسَى . . ولم يشأ الحق أن يشبه المسلمين باليهود فقال : « كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ » . . وكان من الممكن أن يقول أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ الْيَهُودُ مُوسَى . . ولكن الله لم يرد أن يشبه اليهود بالمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهذا تكريم من الله للمؤمنين بأن ينزههم أن يتشبهوا باليهود . . وقد سأل اليهود موسى عليه السلام وقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ بِسْأَلِكَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ
مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ
مَاجَاءَتِهِمُ الْبَيْتَ فَسَفَّوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ (١٠٩)

(سورة النساء)

وقد سأل أهل الكتاب والكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (١١٠)

(سورة الإسراء)

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَّمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلَهُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾
 أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَٰكِن نُّؤْمِنُ بِرُفُوقِكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ
 عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(سورة الإسراء)

الله تبارك وتعالى يهيب بالمؤمنين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كما
 سأله أهل الكتاب والكفار ويقول لهم ان اليهود قد سألوا موسى أكبر من ذلك . .
 فبعد أن رأوا المعجزات وشق الله البحر لهم . . وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة
 فلم تكن خافية عنهم . . بل كانت ظاهرة لهم واضحة . . دالة دلالة دامغة على
 وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته . . ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى لن
 نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . أى لم تكفهم هذه المعجزات . . وكأنما كانوا
 بماديتهم يريدون أن يروا في حياتهم الدنيوية من لا تدركه الأبصار . . وبمجرد أن
 عبروا البحر أرادوا أن يجعل لهم موسى صنما يعبدونه وعبدوا العجل رغم كل الآيات
 التى شاهدوها .

وقوله تعالى : « ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » . . قلنا ان
 الباء في قوله تعالى : « بالإيمان » تدخل دائما على المتروك . . كأن تقول اشتريت هذا
 بكذا درهم . . يعنى تركت الدراهم وأخذت البضاعة . . ومعناها أن الكفر مأخوذ
 والإيمان متروك . . فقد أخذ اليهود الكفر وتركوا الإيمان حين قالوا لموسى : « أرنا الله
 جهرة » . . وقوله سبحانه : « فقد ضل سواء السبيل » .

ما هو الضلال ؟ . . هو أن تسلك سبيلا لا يؤدى بك إلى غايتك . . « وسواء
 السبيل » . . سواء هو الوسط . . « وسواء السبيل » . . هو وسط الطريق . . والله
 تبارك وتعالى يقول :

﴿ فَاطْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾

(سورة الصافات)

أى فى وسط الجحيم . . أى أنه يكون بعيدا عن الحافتين بعدا متساويا . . وسواء الطريق هو وسطه . . والسبيل أو الطريق كان قبل إستخدام التكنولوجيا الحديثة تكون أطرافه وعرة من جنس الأرض قبل أن تمهد . . أى لا تصلح للسير . . ولذلك فإن السير فى وسط الطريق يبعدك عن المتاعب والصعوبات. ويريد الله من المؤمنين به أن يسيروا فى الطريق الممهد أو فى وسط الطريق لأنه أكثر أمانا لهم . . فهم فيه لن يضلوا يميننا ولا يسارا بل يسيروا على منهج الله والإيمان . . وطريق الإيمان دائما ممهد لا يقودهم إلى الكفر .



﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ
لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

هذه الآية الكريمة تتناول أحداثا وقعت بعد غزوة أحد . . وفي غزوة أحد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . من الرماة ألا يغادروا مواقعهم عند سفح الجبل سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . . فلما بدأت بوادر النصر طمع الرماة في الغنائم . . فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزمهم الله . . ولكن الكفار لم يحققوا نصرا لأن النصر هو أن تحتل أرضا وتبقى .

هؤلاء الكفار بعد المعركة انطلقوا عائدين إلى مكة . . حتى أن المسلمين عندما خرجوا للقائهم في اليوم التالي لم يجدوا أحدا . . يهود المدينة استغلوا هذا الحدث . . وعندما التقوا بحذيفة بن اليمان وطارق وغيرهما . . قالوا لهم إن كنتم مؤمنين حقا لماذا انهزمتم فارجعوا إلى ديننا واتركوا دين محمد . . فقال لهم حذيفة ماذا يقول دينكم في نقض العهد ؟ . . يقصد ما تقوله التوراة في نقض اليهود ولعهودهم مع الله ومع موسى . . ثم قال أنا لن أنقض عهدي مع محمد ما حييت . . أما عمار فقال . . لقد آمنت بالله ربا وآمنت بمحمد رسولا وآمنت بالكتاب إماما وآمنت بالكعبة قبله وآمنت بالمؤمنين إخوة وسأظل على هذا ما حييت .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله حذيفة وطارق بن ياسر فسر بذلك ولكن اليهود كانوا يستغلون ما حدث في أحد ليهزوا العقيدة الإيمانية في قلوب المسلمين كما استغلوا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليهزوا الإيمان في القلوب وقالوا إذا كانت القبلة تجاه بيت المقدس باطلة فلماذا اتجهتم إليها ، وإذا كانت صحيحة فلماذا تركتموها ، فنزل قول الله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم » .

انظر إلى دقة التعبير القرآن في قوله تعالى : « من أهل الكتاب » .. فكأن بعضهم فقط هم الذين كانوا يحاولون رد المؤمنين عن دينهم .. ولكن كانت هناك قلة تفكر في الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .. ولو أن الله جل جلاله حكم على كل أهل الكتاب لسد الطريق أمام هذه القلة أن يؤمنوا .. أى أن أهل الكتاب من اليهود يحبون أن يردوكم عن دينكم وهؤلاء هم الكثرة .. لأن الله تعالى قال : « ود كثير من أهل الكتاب » .

وقوله تعالى : « من بعد إيمانكم كفاراً » .. كفاراً بماذا ؟ .. بما آمنتكم به أو بما يطلبه منكم دينكم .. وهم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة أو لصالحكم ولكن : « حسداً من عند أنفسهم » .. فدينهم يأمرهم بعكس ذلك .. يأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. ولذلك فهم لا يتفقدون ماتأمرهم به التوراة حينما يرفضون الإيمان بالإسلام .. والذي يدعوهم إلى أن يحاولوا ردكم عن دينكم هو الحسد .. والحسد هو ثمنى زوال النعمة عن تكرر .. وقوله تعالى : « حسداً من عند أنفسهم » .. أى هذه المسألة من ذواتهم لأنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإيمان .. ويتمنون زوال هذه النعمة .. التى جعلت من المسلمين إخواناً متحابين متكاتفين مترابطين .. بينما هم شيع وأحزاب .. وهناك حسد يكون من منطق الدين وهذا مباح .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس » (١) .

فكان الحسد حرام في غير هاتين الحالتين .. فكأن هؤلاء اليهود يحسدون المسلمين على دينهم .. وهذا الحسد من عند أنفسهم لا تقره التوراة ولا كتبهم .. وقوله سبحانه : « من بعد ما تبين لهم أنه الحق » .. أى بعد ما تأكدوا من التوراة من شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبی الخاتم .

وقوله تعالى : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » .. ما هو العفو وما هو الصفح ؟ .. يقال عفت الريح الأثر أى مسحته وأزالته .. فالإنسان حين

(١) رواه البخارى في العلم ومسلم في قصر الصلاة وابن ماجه في الزكاة وأحمد في مسنده .

يمشي على الرمال تترك قدمه أثرا فتأق الرياح وتعفو الأثر أي تزيله . . . ولذلك فإن
العضو أن تمحو من نفسك أثر أي إساءة وكأنه لم يحدث شيء . . . والصفح يعني طي
صفحات هذا الموضوع لا تجعله في بالك ولا تجعله يشغلك . . . وقوله تعالى : « حتى
يأتي الله بأمره » . . . أن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه في المؤمنين لن يستمر
لأن الله سبحانه قد أعد لهم أمرا ولكن هذا الأمر لم يأت وقته ولا أوانه . . . وعندما
يأتي سيتغير كل شيء . . . لذلك يقول الله للمؤمنين لن تظلوا هكذا . . . بل يوم
تأخذونهم فيه بجرائمهم ولن يكون هذا اليوم بعيدا . . . عندما يقول الله سبحانه :
« حتى يأتي الله بأمره » . . . فلا بد أن أمر الله آت . . . لأن هذه قضية تتعلق بجوهر
الإيمان كله . . . فلا يقال أبدا حتى يأتي الله بأمره ثم لا يجيء هذا الأمر . . . بل أمر الله
بلاشك نافذ وسينصركم عليهم . . . وقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » . . .
أن الله له طلاقة القدرة في ملكه . . . ولذلك إذا قال أنه سيأتي بأمر فسيحقق هذا
الأمر حتما وسيتم . . . ولا توجد قدرة في هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه . . . ولا قوة
إلا قوته جل جلاله . . . ولا فعل إلا ما أراد .



﴿١﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن أقصى أمانى أهل الكتاب أن يردونا كفارا ، وأن هذا حسدا منهم . أراد الله تبارك وتعالى أن يبين لنا ما الذى يكرهه أهل الكتاب . . . وقال إن الذى يتعبهم ميزان العدل والحق الذى تتبعه . . . منهج الله سبحانه وتعالى . . . ولذلك يأمر الله المؤمنين أن يشتوا ويتمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف فهذا أحسن رد عليهم . . . والتكاليف التى جاء بها الإسلام منها تكاليف لا تتطلب إلا وقتا من الزمن وقليلًا من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إن شهادة لا إله إلا الله تقال مرة في العمر . . . والزكاة والصوم مرة كل عام . . . والحج للمستطيع مرة في العمر . . . ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطى المؤمن شحنة اليقين والإيمان ويأخذه من دنياه بالله أكبر خمس مرات في اليوم . . . وهذه هى العبادة التى لا تسقط أبدا . . . والإنسان سليم والإنسان مريض . . . فالمؤمن يستطيع أن يصلى واقفا وأن يصلى جالسا وأن يصلى راقدًا . . . وأن يجرى مراسم الصلاة على قلبه . . . لذلك كانت هذه أول عبادة تذكّر في قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » أى والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة . . . وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله . . . إقبال في ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا في حضرته يعطيكم الله المدد . . . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى) (١) .

ومعنى حزبه أمر . . . أى ضاقت به أسبابه فلم يجد مخرجًا ولا طريقًا إلا أن يلجأ

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة في رواية : كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

إلى الله . . إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصلي ركعتين غير الفريضة . . ثم يدعو ما يشاء فيفرج الله كربته . . إذن : « فاقموا الصلاة » هي الرد المناسب على كل محاولاتهم ليسلبوكم دينكم . . ذلك أن هذا التكليف المقرر لإعلان الولاء للإيمان بالله كل يوم خمس مرات . . نترك كل ما في الدنيا ونتوجه إلى الله بالصلاة . . إنها عماد الدين وأساسه .

وقوله تعالى : « وآتوا الزكاة » . . آيتاء الزكاة لا يحدث إلا إذا كان لديهم ما هو زائد عن حاجتك . . فكان الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نضرب في الأرض لنكسب حاجتنا وحاجة من نعول ونزيد . . وبذلك يخرج المسلمون من سيطرة اليهود الإقتصادية التي يستدلون بها المسلمين .

فالمؤمن حين يأتي الزكاة معناه أن حركته اتسعت لتشمل حاجته وحاجة غيره . . ولذلك حتى الفقير يجد في الزائد في أموال المسلمين ما يكفي حاجته . . فلا يذهب إلى اليهودى ليقترض بالربا . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى يريد أن يتكامل المسلمون . . بحيث تكفى أموالهم غنيهم وفقيرهم والقادر على العمل منهم وغير القادر. والله تبارك وتعالى يزيد أموال المسلمين بأكثر مما يخرج منها من زكاة . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعة الله) (١) .

وقد سميت « الزكاة » لأنها في ظاهرها نقص وفي حقيقتها زيادة . . والربا ظاهره زيادة وحقيقته نقص . . وفي ذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِّي الصَّدَقَاتِ ﴾

(من الآية ٢٧٦ سورة البقرة)

ثم يقول الحق سبحانه : وما تقدموا لأنفسكم من خير تهجدوه عند الله . . إذن لابد أن يطمئن المؤمن لأن حركة حياته هي ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى . . فإذا

صل فله أجر وإذا زكى فله أجر ، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر ، وإذا حج فله أجر ، كل ما يفعله من منهج الله له أجر ، وليس أجرا بقدر العمل ، بل أضعاف العمل .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف أن كل حركة في منهج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى .. ولكنه أجر مضاعف أضعافا مضاعفة .. وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه .. ولذلك فهو ليس مضاعفا فقط في عدد المرات ولكنه مضاعف في القدرة أيضا .. فكان كل إنسان غير مؤمن لا أجر له في الآخرة .. وإذا أعطى في الدنيا يُعطى عطاء المثل .. ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافا مضاعفة .. وهو عطاء ليس زائلا كعطاء الدنيا ولكنه باق وخالد .

والخير الذي تفعله لن تدخره عندك أو عند من قد ينكره .. ويقول لا شيء لك عندي . ولكن الله سيدخره لك .. فانظر إلى الإطمئنان والعمل في يد الله الأمانة ، وفي مشيئته التي لا يغفل عنها شيء ، وفي قدرته التي تضاعف أضعافا مضاعفة .. وتجدد في الوقت الذي تكون في أحوج اللحظات إليه وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله بما تعملون بصير » .. أى لا تعتقد أن هناك شيئا يخفى على الله ، أو أن أحدا يستطيع أن يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شيء .. ليس بالظاهر منك فقط .. ولكن بما تخفيه في نفسك ولا تطلع عليه أحدا من خلق الله ، إنه يعلم كل شيء وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (سورة إبراهيم)

وهكذا نظمنا إلى أن الله بصير بكل شيء ، وانظر إلى قوله جل جلاله : « يعملون » لتفهم أهمية العمل .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿١١١﴾

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى كيف أن كل عمل في منهج الله له أجر ، وأجر باق وثابت ومضاعف عند الله ومحفوظ بقدرة الله سبحانه . . أراد أن يرد على ادعاءات اليهود والنصارى الذين يحاولون أن يثيروا اليأس في قلوب المؤمنين بالكذب والإحباط عليهم ينصرفون عن الإسلام . . لذلك فقد أبلغنا الله سبحانه بما افتروه .

وإقرأ قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » . . وفي هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى . . ولقد أوردنا كيف أن اليهود قد قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا » . . وقالت النصارى : « لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا » . . والله سبحانه وتعالى يفضح التناقض في آية ستأتي في قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ومعنى ذلك أنهم تناقضوا في أقوالهم ، فقالت النصارى : إنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقالت اليهود القول نفسه . ثم قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا . . ثم قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

ويقول الناس إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً ، ذلك أن الذى يكذب تتناقض أقواله لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة ، ولذلك تجدد أن المحقق أو القاضى يظل يسأل

المتهم أسئلة مختلفة . . حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب . . فأنت إذا رويت الواقعة كما حدثت فإنك ترونها مائة مرة دون أى خلاف فى التفاصيل. ولكنك إذا كذبت تتناقض مع نفسك . . والله سبحانه وتعالى يقول : « تلك أمانيتهم » . . ما هى الأمانى ؟ . . هى أن تعلق نفسك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية . . ولكن إذا كان التمنى قائما على عمل يوصلك إلى تحقيق الأمنية فهذا شيء آخر .

بعض الناس يقول التمنى وإن لم يتحقق فإنه يروح عن النفس . . فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش أياما فى نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية . . نقول إن الصدمة التى ستلحق بالإنسان بعد ذلك ستدمره . . ولذلك لا يكون فى الكذب أبدا راحة . . فأحلام اليقظة لا تتحقق لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع وهى لا تعطى الإنسان إلا نرعا من بعد عن الحقيقة . . ولذلك يقول الشاعر :

مَنْ إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمَنَى وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغَدًا

يعنى الأمانى لو كانت حقيقة أو تستند إلى الحقيقة فإنها أحسن الأمانى لأنها تعيش معك . . فإن لم تكن حقيقة يقول الشاعر :

فقد عشنا بها زمنا رغدا

أمانى من ليلى حسان كأنما سقتنا بها ليلى على ظمأ بردا

وقوله تعالى : « تلك أمانيتهم » تين لنا أن الأمانى هى مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق . . والحق سبحانه يقول : « قل هاتوا برهانكم » . . ما هو البرهان ؟ . . البرهان هو الدليل . . ولا تطلب البرهان إلا من إنسان وقعت معه فى جدال واختلفت وجهات النظر بينك وبينه . . ولا تطلب البرهان إلا إذا كنت متأكدا أن محدثك كاذب . . وأنه لن يجد الدليل على ما يدعيه .

هب أن شخصا ادعى أن عليك مالا له . . وطلب منك أن تعيده إليه وأنت لم تأخذ منه مالا . . فى هذه الحالة تطلب منه تقديم الدليل . . (فالكمبيالة) التى

كتبتها له أو الشيك أو إيصال الأمانة . . وأضعف الإيمان أن تطلب منه شهودا على أنك أخذت منه المال . . ولكن قبل أن تطالبه بالدليل . . يجب أن تكون واثقا من نفسك وأنه فعلا يكذب وأنت لم تأخذ منه شيئا .

إذن فقول الحق سبحانه : « هاتوا برهانكم » . . كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون . . وأنهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل . . فلن يجحدوا في كتب الله ولا في كلام رسله ما يؤكد ما يدعونه ، وإن أضافوه يكن هذا افتراء على الله ويمكن هناك الدليل الدامغ على أن هذا ليس من كلام الله ولكنه من إفتراءاتهم .

إذن فليس هناك برهان على ما يقولونه . . ولو كان هناك برهان ولو كان في هذا الكلام ولو جزءا من الحقيقة . . ما كان الله سبحانه وتعالى يطالبهم بالدليل .

إذن لا تقول هاتوا برهانكم إلا إذا كنت واثقا أنه لا برهان على ما يقولون ؛ لأنك رددت الأمر إليه فيها يدعيه . . وهو يجب أن يثبت ويفعل كل شيء في سبيل الحصول على برهان . . ولا يمكن أن يقول الله : « هاتوا برهانكم » . . إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يكذبون . . ولذلك قال : « إن كنتم صادقين » . . أي إن كنتم واثقين من أن ما تقولونه صحيح ؛ لأن الله يعرف يقينا انكم تكذبون .



﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢)

بعد أن بين لنا الله تبارك وتعالى كذب اليهود وطالبهم بالدليل على ما قالوه من أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى جاء بحقيقة القضية ليخبرنا جل جلاله من الذي سيدخل الجنة .. فقال : « بلى » .. وعندما تقرأ : « بلى » اعلم انها حرف جواب ولا بد أن يسبقها كلام ونفى .. فساعة يقول لك إنسان ليس لي عليك دين .. إذا قلت له نعم فقد صدقت أنه ليس عليه دين .. ولكن إذا قلت بلى فذلك يعني أن عليه ديناً وأنه كاذب فيما قاله .. إذن بلى تأتي جواباً لتثبت نفى ما تقدم .

هم قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » .. عندما يقول الله لهم بلى فمعنى ذلك أن هذا الكلام غير صحيح .. وأنه سيدخلها غير هؤلاء .. وليس معنى أنه سيدخلها غير اليهود والنصارى .. أن كل يهودى وكل نصرانى سيدخل الجنة .. لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم حينها جاء الإسلام بأن الذى لا يسلم لا يدخل الجنة .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٠٨)

(سورة آل عمران)

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى .. أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى .. لأن القرآن أزل .. ما معنى أزل ؟ .. أى أنه يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة .. فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى .. فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لكان في هذا تجاوز .. لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وعاصره واتبعه وحسن دينه ومات قبل أن يدرك محمداً عليه الصلاة

والسلام .. فهل هذا لا يدخل الجنة ويجازى بحسن عمله .. وهناك من النصارى من آمن بعيسى وقت حياته .. وعاصره ونفذ تعاليمه ومنهجه ثم مات قبل أن يبعث محمد عليه الصلاة والسلام .. أهذا لن يدخل الجنة ؟ .. لا .. يدخل وتكون منزلته حسب عمله ويجازى بأحسن الجزاء .. ولكن بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وجاء الإسلام ونزل القرآن ، فكل من لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة .. بل ولن يراها .. ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه .

إذن فقوله تعالى : « بل من أسلم وجهه لله وهو محسن » .. أى لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن .. فقد يسلم واحد وجهه لله ويكون منافقا يظهر غير ما يبطن .. نقول إن المتنافقين لم يكونوا محسنين ولكنهم كانوا مسيئين .. لأن لهم شخصيتين شخصية مؤمنة أمام الناس وشخصية كافرة في الحقيقة أو في قلوبهم .

قوله تعالى : « من أسلم وجهه لله » تدلنا على أن كل شيء أسلم لله لأن الوجه هو أشرف شيء في الإنسان .. فيه التمييز وفيه السمة وفيه التشخص وهو أعلى ما في الجسم .. وحينما عرفوا الإنسان قالوا حيوان ناطق أى حيوان مفكر .. وقال بعضهم حيوان مستوى القامة يعنى قامته مرفوعة .. والقامة المرفوعة على بقية الجسم هي الوجه .. والإنسان مرفوع على بقية أجناس الأرض .. إذن هو مرفوع على بقية الأجناس ووجهه مرفوع عليه .. فإذا أسلم وجهه لله يكون قد أسلم أشرف شيء فيه لله .. ولذلك قيل .. أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد .. لماذا ؟ .. لأنه جاء بالوجه الذى رفعه الله به وكرمه .. وجعله مساويا لقدميه ليستوى أكمل شيء فيه بأدنى شيء .. فلم يبق عنده شيء يختال به على الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « فله أجره عند ربه » .. كلمة « أجره عند ربه » .. دلت على أن الله لم يجعلنا مقهورين .. ولكنه كلفنا وجعلنا مختارين أن نفعل أو لا نفعل .. فإن فعلنا فلنا أجر .. ولأن التكليف من الله سبحانه وتعالى فالمنطقى أن يكون الأجر عند الله .. وألا يوجد خوف أو حزن .. لأن الخوف يكون من شيء سيئ .. والحزن يأتى على شيء قد وقع .. ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرنا عند الله .

ان الإنسان حين يكون له حق عند مساويه . . فرجما يخاف أن ينكر المساوى هذا الحق أو يطمع فيه ، أو يحتاج إليه فيدعى عدم أحقيته فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . ولذلك فهو لا يطمع فيما في أيدينا من خير لأنه من عنده . . ولا يطمع فيما معنا من مال لأن عنده خزائن السموات والأرض .

الله سبحانه لا ينكر حقاً من حقوقنا لأنه يعطينا من فضله ويزيدنا . . ولذلك فإن ما عند الله لا خوف عليه بل هو يضاعف ويزداد . . وما عند الله لا حزن عليه . . لأن الإنسان يحزن إذا فاته خير . . ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تفوته . . فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات . . ولذلك كان قول الحق سبحانه وتعالى : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . أدق ما يمكن أن يقال عن حالة المؤمنين في الآخرة . . أنهم يكونون فرحين بما عند الله لا خوف عندهم ولا حزن .



﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ قَالَ اللَّهُ يُخَذِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

نقول إن أصدق ما قاله اليهود والنصارى . . هو أن كل طائفة منهم اتهمت
الأخرى بأنها ليست على شيء . . فقال اليهود ليست النصارى على شيء وقالت
النصارى ليست اليهود على شيء . . والعجيب إن الطائفتين أهل كتاب . . اليهود
أهل كتاب والنصارى أهل كتاب . . ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان
له وبذلك تساوى مع المشركين .

الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء . . أى إن المشركين يقولون
اليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . واليهود يقولون المشركون
ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :
« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » . . وبذلك أصبح لدينا ثلاث طوائف
يواجهون الدعوة الإسلامية . . طائفة لا تؤمن بمنهج سماوى ولا برسالة إلهية
وهؤلاء هم المشركون . . وطائفتان لهم إيمان ورسول وكتب هم اليهود
والنصارى . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون
مثل قولهم » . . أى الذين لا يعلمون ديناً ولا يعلمون إلهاً ولا يعلمون أى شيء
عن منهج السماء . . اتحدوا فى القول مع اليهود والنصارى وأصبح قولهم واحداً .

وكان المفروض أن يتميز أهل الكتاب الذين لهم صلة بالسماء وكتب نزلت من
الله ورسل جاءتهم للهداية . . كان من المفروض أن يتميزوا على المشركين . .
ولكن تساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . وهذا معنى قوله تعالى :
« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » . . ومادامت الطوائف الثلاث قالوا
على بعضهم نفس القول . . يكون حجم الخلاف بينهم كبيراً وليس صغيراً . .
لأن كل واحد منهم يتهم الآخر أنه لا دين له .

هذا الخلاف الكبير من الذى يحكم فيه ؟ لا يحكم فيه إلا الله . . فهو الذى يعلم كل شيء . . وهو سبحانه القادر على أن يفصل بينهم بالحق . . ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو فى الدنيا ؟ لا . . فالدنيا دار اختبار وليست دار حساب ولا محاسبة ولا فصل فى قضايا الإيمان . . ولذلك فإن الحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فאלله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . . ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطيء من المصيب بالطوائف الثلاث مخطئة . . والطوائف الثلاث فى إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان . . ويأتى الحكم يوم القيامة لبيان ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب .



﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى
فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١١٤

فالحق جل جلاله بعد أن بين لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام ، وكيف أن هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء وبواجه بعضها البعض باتهامات .. فكل طائفة منها تتهم الأخرى أنها على باطل .. أراد أن يحذرهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ » .. مساجد الله هي الأماكن التي يتم فيها السجود لله .. والسجود علامة الخضوع وعلامة العبودية كما بينا .. لأنك تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعاً لله وخشوعاً له .

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصل أتباع أي دين إلا في مكان خاص بدينهم .. مكان مخصص لا تجوز الصلاة إلا فيه .. ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجداً وجعلها طهوراً .. ومعنى أن تكون الأرض كلها مسجداً هو توسيع على عباد الله في مكان التقائهم بربهم وفي أماكن عبادتهم له حتى يمكن أن تلتقى بالله في أي مكان وفي أي زمان .. لأنه لا يحدد لك مكاناً معيناً لا تصح الصلاة إلا فيه .. وأنت إذا أردت أن تصلي ركعتين لله بخلاف الفرض .. مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف .. أو أي صلاة من السنن التي علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فإنك تستطيع أن تؤديها في أي وقت .. فكانت تلتقى بالله سبحانه أين ومتى تحب .

ومادام الله تبارك وتعالى أنعم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بأن جعل لهم الأرض مسجداً طهوراً فلأنما يريد أن يوسع دائرة التقاء العباد بربهم ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي . نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةً شَهْرًا ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ وَأَحْلَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَرُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَرُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً)^(١) .

ولكن لماذا خص الله أمة محمد بهذه النعمة ؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتفاعات العقل وطموحات الدنيا . . كلما ارتقى العقل في علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات . . وجاء بمبتكرات ومخترعات تفنن عقول الناس . . وتجذبهم بعيدا عن الدين فيعبدون الأسباب بدلا من خالق الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له ميسرة دائما حتى يعصمهم من هذه الفتنة . . وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التليفزيون مثلا ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن القمر إلى الأرض في نفس لحظة حدوثها . . أن نسجد لله على نعمه التي كشف لنا عنها في أي مكان نكون فيه . . فخصائص الغلاف الجوي موجودة في الكون منذ خلق الله السموات والأرض . . لم يضعها أحد من خلق الله في كون الله هذه الأيام . . ولكنها خلقت مع خلق الكون . . وشاء الله ألا ندرك وجودها ونستخدمها إلا هذه الأيام . . فلا بد أن نسجد لله شكرا على نعمه التي كشفت لنا أسرارها في الكون لم نكن نعرفها . . وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقربنا إلى قضايا الغيب .

فإذا قيل لنا أن يوم القيامة سيكشف خلق الله جميعا وهم يشاهدون الحساب . . وإن كل واحد منهم سيرى الحساب لحظة حدوثه . . لا نتعجب ونقول هذا مستحيل . . لأن أحداث العالم الهامة نراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن في منتهى الراحة . . ونحن جالسون في منازلنا أمام التليفزيون . . أي أننا نراها جميعا في وقت واحد دون جهد . . فإذا كانت هذه هي قدرات البشر للبشر . . فكيف بقدرات خالق البشر للبشر ؟ .

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن جابر

عندما نرى أسرار قوانين الله في كونه . . لا بد أن نسجد لعظمة الخالق سبحانه وتعالى ، الذي وضع كل هذا العلم والإعجاز في الكون . . وهذا السجود يقتضي أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يمكنك وأنت في مكانك أن تسجد لله شكراً . . ولا تضطر للذهاب إلى مكان آخر قد يكون بعيداً أو الطريق إليه شاقاً فينسبك هذا شكر الله والسجود له . . فالحمد سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم دائرة الالتقاء بربهم ، لأن هناك أشياء ستأتي الرسالة المحمدية في موعد كشفها لخلق الله . . وكلما انكشف سر من أسرار الوجود أغتر الإنسان بنفسه . . ومادام الغرور قد دخل إلى النفس البشرية . . فلا بد أن يجعل الله في الكون ما يعدل هذا الغرور .

لقد كانت الأمور عكس ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . . كانت الأمور فطرية فإذا امتنعت الأمطار ونضبت العيون والآبار . . لم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى السماء بصلاة الاستسقاء . . وكذلك في كل أمر يصعب عليهم مواجهته . . ولكن الآن بعد أن كشف الله لخلقهم عن بعض أسرار كونه . . أصبحت هناك أكثر من وسيلة يواجه بها الإنسان عدداً من أزمات الكون . . هذه الوسائل قد جعلت البشر يعتقدون أنهم قادرون على حل مشكلاتهم . . بعيداً عن الله سبحانه وتعالى وبجهودهم الخاصة . . فبدأ الاعتماد على الخلق بدلاً من الاعتماد على الحق . . ولذلك نزل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ كَشْكُورَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ
يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ
رَبِّدْ كَرَفِيهَا أَسْمُهُ ۚ ﴾

ما هي هذه البيوت التي يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى ؟ هي المساجد . . . فَعُمَّارُ المساجد وزوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله . . . فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها . . . فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء الإيمان ضعفاء الدين فحراً عليهم أعداؤهم . . . لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله في مساجد الله . . . أو أن يسعى إلى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة . . . ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتاً من بيوت الله . . . يهب الناس لمنعه والضرب على يده يكون الإيمان قوياً . . . فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم . . . لماذا ؟ لأن الكافر الذي يريد أن يطفىء مكان إشعاع نور الله لخلقه . . . يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمنعوا ذكر اسم الله في بيته وأن يخربوه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » . . . أى إن هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه . . . فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين . . . فمعنى ذلك أن وازع الإيمان في نفوس المؤمنين قد ضعف .

قوله تعالى : « ومن أظلم » . . . معناه أنه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . . . أى إن هذا هو الظلم العظيم . . . ظلم القمة . . . وقوله تعالى : « وسعى في خرابها » . . . أى في إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة . . . والسعى في خراب المسجد هو هدمه .

ويختتم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : « لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » . . . أى لن يتركهم الله في الدنيا ولا في الآخرة . . . بل يصيبهم في الدنيا خزي . . . والخزي هو الشيء القبيح الذي تكره أن يراك عليه الناس . . . وقوله تعالى : « لهم في الدنيا خزي » . . . هذا مظهر غيرة الله على بيوته . . . وانظر إلى ما أذاقهم الله في الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون في خراب مساجد الله . . . لقد أخذت أموالهم وطردوا من ديارهم . . . هذا حدث . . . وهذا معنى قوله تعالى الخزي في الدنيا . . . أما في الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون

حسابا عسيرا لتطاولهم على مساجد الله سبحانه ، ولكن في الوقت نفسه فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتحاذلوا عن نصره دين الله والدفاع عن بيوت الله .. سيكون لهم أيضا عذاب أليم .

انني أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله في مساجده .. لأنه في هذه الحالة يكون مرتكباً لذنبيهم نفسه وربما أكثر .. ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار .



﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الذين يخربون مساجد الله ويهدمونها . .
ويعنعون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذي ينتظرهم في الآخرة أراد أن يذكرنا بأن
تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد . .
وتحريبها معناه أن تخرب الأرض كلها . . ولأن الله تبارك وتعالى موجود في كل
مكان فأينما كنتم فتجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات .

وقوله تعالى : « شَمَّ وَجْهَ اللَّهِ » . . أى هناك وجه الله . . وقوله تعالى : « وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . . أى لا تضيقوا بمكان التقاءكم بربكم ؛ لأن الله واسع
موجود في كل مكان في هذا الكون وفي كل مكان خارج هذا الكون . . ولكن إذا
قال الله سبحانه وتعالى : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » لا يعنى تحديد جهة الشرق أو
جهة الغرب فقط . . ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شرقها وغربها . . شمالها
وجنوبها والشمال الشرقي والجنوب الغربي وكل جهة تفكر فيها .

ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط ؟ لأن بعد ذلك كل الجهات تحدد
بشروق الشمس وغروبها . . فهناك شمال شرقي وجنوب شرقي وشمال غربي
وجنوب غربي . . كما إن الشرق والغرب معروفان بالفطرة عند الناس . . فلا أحد
يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب . فانت كل يوم ترى شروقا وتري غروبا .

الله سبحانه وتعالى حين يقول : « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ » فليس معناها حصر
الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاختصاص بالتقديم . . كما تقول بالقلم

كتبت وبالسيرة أتيت .. أى ان الكتابة هى خصوص القلم والأتیان خصوص السيرة .. وهذا ما يعرف بالاختصاص .. فهذا مختص بكذا وليس لغيره شيء فيه .. ولذلك فإن معنى : « والله المشرق والمغرب » .. ان الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد .. وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس معناه ان الله تبارك وتعالى فى بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلى الكعبة ليس معناه ان الله جل جلاله فى الكعبة .

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد فى الصلاة .. وذلك دليل على وحدة الهدف .. فيجب أن تفرق بين اتجاه فى الصلاة واتجاه فى غير الصلاة .. اتجاه فى الصلاة نكون جميعا متجهين إلى مكان محدد اختاره الله لنا لتتجه إليه فى الصلاة .. والناس تصل فى جميع أنحاء العالم متجهة إلى الكعبة .. الكعبة مكانها واحد لا يتغير .. ولكن اتجاهنا إليها من بقاع الأرض هو الذى يتغير .. فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه شرقا وواحد يتجه غربا .. كل منا يتجه اتجاهها مختلفا حسب البقعة التى يوجد عليها من الأرض .. ولكننا جميعا نتجه إلى الكعبة رغم اختلاف وجهاتنا إلا اننا نلتقى فى اتجاهنا إلى مكان واحد .

الله جل جلاله يريدنا أن نعرف اننا إذا قلنا : « والله المشرق » فلا نظن ان المشرق اتجاه واحد بل إن المشرق يختلف باختلاف المكان .. فكل مكان فى الأرض له مشرق وله مغرب .. فإذا أشرقت الشمس فى مكان فإنها فى نفس الوقت تغرب فى مكان آخر .. تشرق عندى وتغرب عند غيرى .. وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين .. فإذا نظرت إلى الشرق وإلى الغرب بالنسبة لشرق الشمس الظاهرى وغروبها .. تجد ان المشرق والمغرب لا ينتهيان من على سطح الأرض .. فى كل دقيقة شروق وغروب .

وقوله تعالى : « إن الله واسع عليم » .. أى يتسع لكل ملكه لا يشغله شيء عن شيء .. ولذلك عندما سئل الإمام على كرم الله وجهه .. كيف يحاسب الله الناس جميعا فى وقت واحد ؟ قال كما يرزقهم جميعا فى وقت واحد ..

إذن فالله لا يشغله شيء عن شيء .. ولا يحتاج فى عمله إلى شيء .. إنما عمله « كن فيكون » .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن له كل شيء في الكون لا يشغله شيء عن شيء .. أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يجعلوا الله معينا في ملكه .. الذين قالوا اتخذ الله ولدا .. الله تبارك وتعالى رد عليهم انه لماذا يتخذ ولدا وله ما في السموات والأرض كل له قانتون .. وجاء الرد مركزا في ثلاث نقاط .. قوله تعالى : « سبحانه » أى تنزهه وتعالى أن يكون له ولد .. وقوله تعالى : « له ما في السموات والأرض » .. فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاضعا له فما حاجته للولد ؟

وقوله سبحانه : « كل له قانتون » .. أى كل من في السموات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بالوحيته .

قضية إن لله سبحانه وتعالى ولدا جاءت في القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها .. ولأنها قضية في قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى .. وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد ان هناك أقوالا متعددة .. هناك قول قاله المشركون .. واقرأ القرآن الكريم :

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكِهَمَ لَيَقُولُونَ ﴿١١٦﴾ وَلَهُ آفَهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى
الْبَنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

وقول اليهود كما يروى لنا القرآن :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى بْنُ اللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

وقول النصارى :

﴿وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

ثم في قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْعًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُنَبِّئُ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩١﴾

(سورة مريم)

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا إدعاء خطير مستطع مستنكر ومحقوت . . لقد عالجت سورة مريم المسألة علاجاً واسعاً . . علاجاً اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان . . انفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التي تلعب كل من قال ذلك . . بل وتكاد شعوراً منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أي تسقط قطعاً صغيرة . . وتنشق الأرض أي تتمزق . . وتخسر الجبال أي تسقط كتراب . . كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل . . لأن هذا الادعاء افتراء على الله . . ولقد جاءت كل هذه الآيات في سورة مريم التي أعطتنا معجزة خلق عيسى . . كما وردت القضية في عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هي الشبهة التي جعلتهم يقولون ولد الله ؟ ما الذي جعلهم يلجأون إلى هذا الافتراء ؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم .. كلمة الله ألقاها إلى مريم .. نقول لهم كلنا كلمة « كن » .

لماذا فتنتم في عيسى ابن مريم هذه الفتنة ؟ والله سبحانه وتعالى يشرح المسألة فيقول :

﴿ إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ﴾

(سورة آل عمران)

قوله كمثل آدم لمجرد مجازاة الخصم .. ولكن المعجزة في آدم أقوى منها في عيسى عليه السلام .. أنتم فتنتم في عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع .. وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة .. إذن فالمعجزة أقوى .. وكان الأولى أن تفتنوا بآدم بدل أن تفتنوا بعيسى .. ومن العجيب انكم لم تذكروا الفتنة في آدم وذكرتم الفتنة فيها فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين في آدم .. وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كاذبة .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۝ ﴾

(سورة الزخرف)

أى لن يضر الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد .. ولكنه جل جلاله لم يتخذ ولدا .. فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله .. وإنما ابتدعوه واختلقوه ..

الله جل جلاله يقول : « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض » .. قوله تعالى : « بل له ما في السموات والأرض » تعطى الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما في الكون .. والملكية تنافي الولدية .. لماذا ؟ لأن الملكية معناها أن كل ما في الكون من خلق الله .. كل شيء هو خالقه بدون معارض ..

ومادام هو خالقه وموجده . . فلا يمكن أن يكون هذا الشيء جزءا منه . . لأن الذي يخلق شيئا يكون فاعلا . . والفاعل له مفعول . . والمفعول لا يكون منه أبدا . . هل رأيت واحدا صنع صنعة منه ؟ الذي يصنع سيارة مثلا . . هل صنعها من لحمه أو من لحم البشر ؟ وكذلك الطائرة والكرسي والساعة والتليفزيون . . هل هذه المصنوعات من جنس الذي صنعها ؟ طبعا لا .

إذن مادام ملكية . . فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها . . ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه . . لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبدا . . كل فاعل يوجد شيئا أقل منه . . فقول الله : « سبحانه » . . أى تنزيهه له تبارك وتعالى . . لماذا ؟ لأن الولد يتخذ لاستبقاء حياة والده التى لا يضمناها له واقع الكون . . فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه . . إذن هو من أجل بقاء نوعه . . والذي يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد .

لو فرضنا جدلا إن له ولداً واحداً فالمفروض أن هذا الولد يكون له . . ولكننا لم نر أولادا لمن زعموا أنه ابن الله . . وعندما وقبلها يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو بدون ولد ؟ وماذا استجد على الله وعمل كونه بعد أن اتخذ ولدا كما يزعمون . . لم يتغير شيء فى الوجود . . إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهرا من مظاهر القوة . . لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد ؟ معونة ؟ الله لا تضعف قوته . . ضمان للحياة ؟ الله حياته أزلية . . هو الذى خلق الحياة وهو الذى يببها وهو حى لا يموت . . فما هى حاجته لأى ضمان للحياة ؟ الحق سبحانه وتعالى تفعل له الأشياء . . أى أنه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه . . وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلا . . وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده . . لذلك فهو ليس فى حاجة إلى أحد من خلقه . . لأنه ساعة خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق . . بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخالق وهذه الصفات خلق . . والله سبحانه وتعالى كان خالقا قبل أن يخلق أحدا من خلقه . . وكان رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه . . وكان قهارا قبل أن يوجد من يقهره . . وكان ثوابا قبل أن يوجد من يتوب عليه . . وهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وتاب على خلقه .

إذن كل هذا الكون لم يضيف صفة من صفات الكمال إلى الله . . بل إن الله بكمال صفاته هو الذى أوجد . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المحيط إذا غمس فى البحر . .)^(١) .

ثم إذا كان الله سبحانه وتعالى زوجة وولد . . فمن الذى وجد أولا ؟ . . إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا . . ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان . . وإن كان كل منهم قد أوجد نفسه فهم ثلاثة آلهة ولبسوا إلهة واحدا . . إذن فالولد إما أن يكون مخلوقا أو يكون إلهة . . والكمال الأول لله لم يزد الولد شيئا . . ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له . . وحين يعرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية بعرضها عرضا واسعا فى كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة مريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾

(سورة مريم)

إنه سبحانه منزّه عن التماثل مع خلقه . . لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال . . كل شيء تراه فى الوجود . . الله منزّه عنه . . وكل شيء يخطر على بالك فالله غير ذلك . . قوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » . . فتلك قضية تناقض اتخاذ الولد لأن كل ما فى السموات والأرض خاضع لله . .

قوله تعالى : « كل له قانتون » . . أى خاضعون ، وهذا يؤكد لنا أن كون الله فى قبضة الله خاضع مستجيب اختيارا أو قهرا لأمر الله .

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ١١٧

بعد أن بين الله تبارك وتعالى . . أن قولهم اتخذ الله ولدا هو افتراء على الله . . أراد الحق أن يلفتنا إلى بعض من قدراته . . فقال جل جلاله : « بدیع السموات والأرض » . . أي خلق السموات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق . . أي لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان . . ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابهها لهم في شكل أو حجم أو قدرة . . أي أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نسميه نحن بالقالب .

إن الذي يصنع كوب الماء يصنع أولا قالباً يصب فيه خام الزجاج المنصهر . . فتخرج في النهاية أكواب متشابهة . . وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولا ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج . . ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هي في إعداد القالب الجيد الذي يعطينا صورة لما نريد . . والذي يخبز رغيفا مثلاً قد لا يستخدم قالباً ولكنه يقلد شيئاً سبق . . فشكل الرغيف وخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدهما في كل مرة . . ولكنه لا يستطيع أن يعطى التماثل في الميزان أو الشكل أو الاستدارة . . بل هناك اختلاف في التقليد ولا يوجد كمال في الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة . . جعل الخلق متشابهين في كل شيء . . في تكوين الجسم وفي شكله في الرأس والقدمين واليدين والعينين . . وغير ذلك من أعضاء الجسم . . تماثلاً دقيقاً في الشكل وفي الوظائف . . بحيث يؤدي كل عضو مهمته في الحياة . . ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كن . . ورغم التشابه في الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافاً يجعلك قادراً على تمييزه بالعلم والعين . . فبالعلم كل منا له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن

أن يميزها خبراء التسجيل . . وبصمة رائحة قد لا تميزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة . . فنشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر . . وبصمة شفرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا . . فإن جثت بخلية من جسد آخر لفظها . وإن جثت بخلية من الجسد نفسه اتحد معها وعالج جراحها .

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم . . فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص . . فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم . . وهذا هو الإعجاز في الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله في كونه .

والله سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام في القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادفة ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو معد بقدرة الله سبحانه . . فيقول جل جلاله :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنِّ وَالْوَسْطِ فِي ذَلِكَ لَا يَتْلُو الْعِلْمَ ۚ﴾

(سورة الروم)

هذا الاختلاف يمثل لنا طلاقة قدرة الله سبحانه في الخلق على غير مثال . . فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله . . مع أنهم في الشكل العام متماثلون . . ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة . . وكل واحد منهم مختلف عن الآخر . . فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر . . هذه دقة الصنع وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « بديع » . . والدقة تعطى الحكمة . . والإبراز في صور متعددة يعطى القدرة . . ولذلك بعد أن غوت وتبعثر عناصرنا في التراب يجمعنا الله يوم القيامة . . والإعجاز في هذا الجمع هو أن كل إنسان سيبحث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيته نفسها التي كان عليها في الدنيا . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ۝﴾

(سورة ق)

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته في الإيجاد قد خلقنا .. وبطلاقة قدرته في إعادة الخلق يحيينا بعد الموت .. بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا .. هل هناك دقة بعد ذلك ؟

لو أننا أتينا بأدق الصانع وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئا تحبده . فلما صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لا يمكن أن يصنع نموذجاً مثله بالمواصفات نفسها ؛ لأنه يفتقد المقاييس الدقيقة التي تملأه بالمواصفات نفسها التي صنعها . إنه يستطيع أن يعطينا نموذجاً متشابهاً ولكن ليس مثل ما صنع تماماً . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التي كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لا يخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشيء : كن فيكون .

تقول الآية الكريمة « بديع السموات والأرض إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

« وكن » وردت كثيراً في القرآن الكريم .. وفي اللغة شيء يسمى المشترك .. اللفظ يكون واحداً ومعانيه تختلف حسب السياق .. فمثلاً كلمة قضى لها معانٍ متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها .. مرة يأمر بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى .. في قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة البقرة)

ومعناها إذا انتهيتُم من مناسك الحج .. ومرة يقول سبحانه :

﴿ فَأَقِصْ مَا آتَتْ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقِصُّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة طه)

والمعنى إفعل ما تريد .. وفي آية أخرى يقول الله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئاً لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . . ومرة يصور الله جل جلاله الكفار في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت .

واقراً قوله سبحانه :

﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِبَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ﴾ (٧)

(سورة الزخرف)

لِبَقْضِ عَلَيْنَا هنا معناها يميتنا . . ومعنى آخر في قوله تعالى :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى لما انتهى الأمر ووقع الجزاء . . وفي موقع آخر قوله سبحانه :

﴿فَلَمَّا قُضِيَ مَوْسى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة القصص)

قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفي قوله تعالى :

﴿وَقُضِيَ يَنْهَمُ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يونس)

أى حكم وفصل بينهم .. وقوله جل جلاله :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الإسراء)

بمعنى أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم .. إذن « قضى » لها معان متعددة يحددها السياق .. ولكن هناك معنى تلتقى فيه كل المعاني .. وهو قضى أى حكم وهذا هو المعنى الأم .

إذن معنى قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » .. أى إذا حكم بحكم فإنه يكون .. على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق : « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن » .. معنى يقول له أن الأمر موجود عنده .. موجود في علمه .. ولكنه لم يصل إلى علمنا .. أى أنه ليس أمرا جديدا .. لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال : « يقول له » .. كأنه جل جلاله يخاطب موجودا .. ولكن هذا الموجود ليس في علمنا ولا نعلم عنه شيئا .. وإنما هو موجود في علم الله سبحانه وتعالى .. ولذلك قيل أن الله أمورا يبدئها ولا يبتدئها .. إنها موجودة عنده .. لأن الأقلام رُفِعَتْ ، والصحف جفت .. ولكنه يبدئها لنا نحن الذين لا نعلمها فنعلمها .



﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا
آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ
تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾



الحق سبحانه وتعالى حين قال : « الذين لا يعلمون » .. أى لا يعلمون عن كتاب الله شيئاً لأنهم كفار .. وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله .. ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمعوا كلاماً من الله سبحانه .. كما سمع موسى كلام الله .

وماذا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى .. أكانوا يريدون أن يقول لهم الله إنه أرسل محمداً رسولاً ليبلغهم بمنهج السماء .. وكان كل المعجزات التى أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسها القرآن الكريم - لم تكن كافية لإقناعهم .. مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمى .. سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل .. جاء القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية .. وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى .. والله سبحانه وتعالى قد أبلغنا أنه لا يمكن لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾

إذن فالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقى عن الله . . لا يكلمه الله إلا وحيًا أو إلهامًا خاطرًا أو من وراء حجاب كما كلم موسى . . أو يرسل رسولًا مبلغًا للناس لمنهج الله . . أما الاتصال المباشر فهو أمر تمنعه بشرية الخلق .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « أو تأتينا آية » . . والآيات التي يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه وتعالى وبحققها لهم . . لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرًا وعنادًا . . والله جل جلاله يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا نُوحًا الْبَيِّنَاتِ مِصْرَةً
فَقُلُّوا بِهَا ۚ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فالآيات التي يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون . . ولكن يزدادون كفرًا حتى ولو علموا يقينًا أن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث لآل فرعون . . واقراء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۚ ﴿١٢﴾ وَجَدُوا بِهَا ءَسْتَبَقْتَهَا
أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظْمًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۚ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية كان من باب العناد والكفر . . والحق سبحانه يقول : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » . . فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة . . الذين لا يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله . . ولكن الذين قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالتوراة . . فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . لذلك قال الله تبارك وتعالى : « تشابهت قلوبهم » . . أى قلوب أولئك الذين كانوا خاضعين للمنهج والذين لا يخضعون لمنهج قد تشابهت بمنطق واحد .

ولو أن الذين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لهان الأمر . . . وقلنا جهلهم هو الذي أوحى إليهم بما قالوا . . . ولكن ما عذر الذين علموا وعندهم كتاب أن يقولوا أرنا الله جهرة . . . إذن فهناك شيء مشترك بينهم تشابهت قلوبهم في الهوى . . . إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذي تصدر عنه دوافع الحركة . . . ومادام القلب غير خالص لله فيستوى الذي يعلم والذي لا يعلم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » . . . ما هو اليقين ؟ هو استقرار القضية في القلب استقراراً لا يحتمل شكاً ولا زلزلة . . . ولا يمكن أن تخرج القضية مرة أخرى إلى العقل . . . لتناقش من جديد لأنه أصبح يقيناً . . . واليقين يأتي من إخبار من تثق به وتصبح أخباره يقيناً . . . فإذا قال الله قال اليقين . . . وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق . . . ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه . . . عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه صعد به إلى السماء السابعة وذهب إلى بيت المقدس في ليلة واحدة . . . قال إن كان قد قال فقد صدق .

إن اليقين عنده نشأ من إخبار من يثق فيه وهذا نسميه علم يقين . . . وقد يرتقى الأمر ليصير عين يقين . . . عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حدثت عن رؤية غيرك له . . . ثم تدخل في حقيقة الشيء فيصبح حق يقين . . . إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تثق به . . . وعين يقين إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين . . . وحق يقين هو أن تدخل في حقيقة الشيء . . . والله سبحانه وتعالى يشرح هذا في قوله تعالى :

﴿الْهَنَّاكَ أَتُّكَّأُ ۖ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۖ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْبَاقِينَ ۖ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ﴾

(سورة التكاثر)

هذه هي المرحلة الأولى أن يأتيك علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . . . ثم تأتي المرحلة الثانية في قوله تبارك وتعالى :

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْبَاقِينَ ۖ﴾

(سورة التكاثر)

أى أنتم مستشهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة . . هذا علم يقين وعين يقين . .
يأتى بعد ذلك حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿١٧﴾ فَنُزِّلْ مِنْ جَحِيمٍ ﴿١٨﴾ وَفَصْلَةٌ بِحَمِيمٍ ﴿١٩﴾
إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين . . إنه سيراهما وهو يمر على
الصراط . . ولكن الكافر هو الذى سيصلها حقيقة يقين . . ولقد قال أهل الكتاب
لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين . . فاليهود قالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتى
نرى الله جهرة » . . والمسيحيون قالوا لعيسى : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا
مائدة من السماء » قال : « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » . . وهكذا شجع المؤمنون
بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله وطلبوا المعجزات المادية .



﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ ١١٩

هنا لابد أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يخبرنا عن قضية من فعله .
يأتي دائما بنون العظمة التي نسميها نون المتكلم . . ونلاحظ أن نون العظمة
يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت . . فكان
العظمة في الإنسان سخرت المواهب المخلقة لتنفيذ القرار الذي يصدره رئيس
الدولة . . فيشارك في تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار
حرب . . تشارك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار . . والله
تبارك وتعالى عنده الكمال المطلق . . كل ما هو لازم للتنفيذ من صفات الله سبحانه
وتعالى . . فإذا تحدث الله جل جلاله عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى
وتعالى يقول « إنا » :

﴿ إِنَّا نَحْنُ تَزَّلَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ١

(سورة الحج)

ولكن حين يتكلم الله عن الوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير
المفرد . . مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ١٤

(سورة طه)

ولا يقول فاعبدنا . . إذن ففى كل فعل يأتي الله سبحانه بنون العظمة . . وفى كل أمر يتعلق بالعبادة والتوحيد يأتي بالمفرد . . وذلك حتى نفهم أن الفعل من الله ليس وليد قدرته وحدها . . ولا علمه وحده ولا حكمته وحدها ولا رحمته وحدها . . وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتي لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات في الله . . لأنك قد تقدر ولا تعلم . . وقد تعلم ولا تقدر ، وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن فتكامل الصفات مطلوب .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق » يعنى بعثناك بالحق رسولا . . والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض . . فإذا رأيت حدثا أمامك ثم طلب منك أن تحكى ما رأيت رويت ما حدث . . فإذا طلب منك بعد فترة أن ترويه مرة أخرى فإنك ترويه بنفس التفاصيل . . أما إذا كنت تكذب فستناقض فى أقوالك . . ولذلك قيل إن كنت كذوبا فكن ذكورا .

إن الحق لا يتناقض ولا يتغير . . ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل بالحق . . فإن عليه أن يبلغه للناس وسيبقى الحق حقا إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : « بشيرا ونذيرا » . . البشارة هى إخبار بشيء يسرك زمنه قادم . . والإنذار هو الإخبار بشيء يسهوئك زمنه قادم ربما استطعت أن تتلافاه . . بشير بماذا ؟ ونذير بماذا ؟ يبشر من آمن بنعيم الجنة وينذر الكافر بعذاب النار . . والبشرى والإنذار يقتضيان منهجا يبلغ . . من آمن به كان بشارة له . ومن لا يؤمن كان إنذارا له .

ثم يقول الحق جل جلاله : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » . . أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مسئولاً عن الذين سبلقون بأنفسهم فى النار والعذاب . إنه ليس مسئولا عن هدايتهم وإنما عليه البلاغ . . واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَئْسَ تَفَكُّرًا عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝١٨﴾

ويقول جل جلاله :

﴿لَعَلَّكَ بَمِغْصٍ نَفَقْتَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ إِنَّا نُنَزِّلُ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً
فَقَالُوا أَغِثُهُمْ أَوْ نَكِثُهُمْ هَٰذَا خَضِيعِينَ ﴿٥٧﴾﴾

(سورة الشعراء)

فإن الله سبحانه وتعالى لو أرادنا أن نؤمن قسرا وقهرا . . ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر . . ولكنه تبارك وتعالى يريد أن نأتيه بقلوب تحبه وليس بقلوب مقهورة على الإيمان . . إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . . وليس لرسول أن يرغم الناس على الإيمان بالقهر . . لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه . أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار . والجحيم مأخوذة من الجموح . . وجمحت النار يعني اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جمحت النار . . أي أصبح لهيبها مضاعفا بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تحمد أبدا .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم . . أنه لا يجب أن ينشغل قلبه بالذين كفروا لأنه قد أُنذِرهم . . وهذا ما عليه ، وهذه مهمته التي كلفه الله بها .



﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ
 هَدَىٰ اللَّهُ فُلًا هَدَىٰ وَلِيًّا اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ
 مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ﴾

كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل لؤم وكيد فيقولون هادنا ، أى قل لنا ما فى كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك . . وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم . . أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم . . فقال الله سبحانه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . .

نلاحظ هنا تكرار النفي وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى . . ولو قال الحق تبارك وتعالى ، ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا . . لكان معنى ذلك أنهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون . . ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَبَّسْتَ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ ثَمُودَ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَبَّسْتَ الْيَهُودَ عَلَىٰ ثَمُودَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ولن ترضى عنك النصارى . . وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى . . وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود . .

ثم يقول الحق سبحانه : « حتى تتبع ملتهم » .. والملة هي الدين وسميت بالملة لأنك تميل إليها حتى ولو كانت باطلا .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿١﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٤﴾

(سورة الكافرون)

فجعل لهم دينا وهم كافرون ومشركون .. ولكن ما الذي يعصمنا من أن نشبع ملة اليهود أو ملة النصارى .. الحق جل جلاله يقول :

﴿قُلْ إِنْ أَهْدَى اللَّهُ هُدىً لِهْدَى اللَّهِ﴾

(من الآية ٧٣ سورة آل عمران)

فاليهود حرفوا في ملتهم والنصارى حرفوا فيها .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله .. والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق .. أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية .. وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال .. ولكن الهدى الذى يوصل للحق هو هدى واحد .. هدى الله عز وجل .

وقوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم » إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية .. والأهواء جمع هوى .. والهوى هو ما تريده النفس باطلا بعيدا عن الحق .. لذلك يقول الله جل جلاله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » ..

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج الملىء بالشهوات بغير حق .. سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعدما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولى يتولى أمرك ويحفظك ولا نصير ينصرك .

وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نقف معه وقفة لتأمل كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه . . فإله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام . . فالمراد به أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده . . وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى . . أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم .

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينا أن ما لم يقبله من رسوله عليه الصلاة والسلام . . لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه . . وذلك حتى لا يأتي بعد رسول الله من يدعى العلم . . ويقول نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا . . نقول له لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد .

إن ضرب المثل هنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقصود به أن أتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تماما تحت أى ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المغرضين أى طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى .



﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٢١)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم ، أراد أن يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا في كتبهم . . وأن هؤلاء يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته . . لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل .

ولو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على حقيقتيهما . . ويفكرون في الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام . . وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال . . أى أن هناك عددا مهما قل من اليهود أو النصارى يفكرون في اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق . . وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون قادمون من سيناء مع جعفر بن أبي طالب ليشهدوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قرأوا التوراة غير المحرفة وآمنوا برسالته . . وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب . . فقال جل جلاله :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾

(من الآية ١٢١ سورة البقرة)

أى يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل . . فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر . . ولا بالتحريف الذى هو نقل شيء من حق إلى باطل .

يقول الله تبارك وتعالى : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » .. وتلاحظ أن القرآن الكريم يأتي دائما بالمقارنة .. ليكرم المؤمنين ويلقي الحسرة في نفوس المكذبين .. لأن المقارنة دائما تظهر الفارق بين الشيئين .

إن الله سبحانه يريد أن يعلم الذين آتاهم الله الكتاب فلم يحرفوه وآمنوا به .. ليصلوا إلى النعمة التي ستقودهم إلى النعيم الأبدى .. وهي نعمة الإسلام والإيمان .. مقابل الذين يحرفون التوراة والإنجيل فمصيرهم الخسران المين والخلود في النار .



﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ١٧٢

لورجعنا إلى ما قلناه عندما تعرضنا للآية (٤٠) من سورة البقرة . . وقوله تعالى : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون » . . فالحق سبحانه وتعالى لم يته الجولة مع بني إسرائيل قبل أن يذكرهم بما بدأهم به . . إنه سبحانه لا ينهي الكلام معهم في هذه الجولة . . إلا بعد أن يذكرهم تذكيرا نهائيا بنعمه عليهم وتفضيله لهم على كثير من خلقه . . ومن أكبر مظاهر هذا التفضيل . . الآية الموجودة في التوراة تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام وذلك تفضيل كبير .

التذكير بالنعمة هنا وبالفضل هو تقريع لبني إسرائيل أنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه مذكور عندهم في التوراة . . وكان يجب أن يأخذوا هذا الذكر بقوة ويسارعوا للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه تفضيل كبير من الله سبحانه وتعالى لهم . . والله جل جلاله قال حين أخذت اليهود الرجفة . . وطلب موسى عليه السلام من ربه الرحمة . . قال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُسْتَعِذُونَ﴾ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ
مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَاتَّخِذُوا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ
هُمْ بِعَايَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ

فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
 عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الدِّينَ قَدْ آتَى
 بِهِمْ وَعَزَّرَهُمْ وَأَنصَرَّهُمْ وَأَتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الاعراف)



﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ١٢٢

هذه الآية الكريمة تشابهت مع الآية ٤٨ من سورة البقرة . . . التي يقول فيها الله تبارك وتعالى :

« واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

نقول إن هذا التشابه ظاهري . . . ولكن كل آية تؤدى معنى مستقلا . . . ففى الآية ٤٨ قال الحق سبحانه : « لا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل » . . . وفى الآية التى نحن بصدددها قال : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة » . . . لماذا ؟ لأن قوله تعالى « لا تجزى نفس عن نفس شيئا » . . . لو أردنا النفس الأولى فالسياق يناسبها فى الآية الأولى . . . ولو أردنا النفس الثانية فالسياق يناسبها فى الآية الثانية التى نحن بصدددها . . . فكان معنا نفسين إحداهما جازية والثانية مجزى عنها . . . الجازية هى التى تشفع . . . فأول شىء يقبل منها هو الشفاعاة . . . فإن لم تقبل شفاعتها تقول أنا أنحمل العدل . . . أى آخذ القدية أو ما يقابل الذنب . . . ولكن النفس المجزى عنها أول ما تقدم هو العدل أو الفداء . . . فإذا لم يقبل منها تبحث عن شافع . . . ولقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند تعرضنا للآية ٤٨ من سورة البقرة .

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤)

يأتي الحق سبحانه وتعالى إلى قصة إبراهيم عليه السلام . . ليصفى الجدل والتشكيك الذي أحدثه اليهود عند تغيير القبلة . . واتجاه المسلمين إلى الكعبة المشرقة بدلا من بيت المقدس . . كذلك الجدل الذي أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتي نبي إلا منهم .

يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلتهم بالبيت . . فيقول الحق جل جلاله : « وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ » . . ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم . . واذ هنا ظرف وهناك فرق بينها وبين إذا الشرطية في قوله تعالى :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾

(سورة النصر)

إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط . . أما إذ فهي ظرف فقط . . وقوله تعالى : « وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » . . معناها اذكر وقت أن ابتلى الله إبراهيم بكلمات .

ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه في الحقيقة ليس كذلك . . لأن الابتلاء هو امتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر . . فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر . الذي ابتلى هو الله سبحانه . . هو

الرب . . والرب معناه المربى الذي يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه . . ومن أساس التربية أن يمتحن المربى من يربيه ليعلم هل نجح في التربية أم لا ؟ والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة . . والكلمة قد تطلق على الجملة مثل قوله تعالى :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد . . كأن تقول مثلاً محمد وتسكت . . وفي هذه الحالة لا تكون جملة مفيدة . . والكلمة المرادة في هذه الآية هي التكليف من الله .

قوله سبحانه إفعل ولا تفعل . . فكان التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدي مطلوبها أو لا تؤديه . . وقد اختلف العلماء حول الكلمات التي تلقاها إبراهيم من ربه . . نقول لهم ان هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أبي الأنبياء . . إنها ابتلاء يجعله أهلاً لحمل الرسالة . . أى لابد أن يكون الابتلاء كبيراً . . ولقد قال العلماء إن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة في سورة التوبة وهي قوله تعالى :

﴿ أَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ الْحَمِيدُونَ الْفَاسِقُونَ الرََّّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة التوبة)

وهذه رواية عبدالله بن عباس . . وعشرة ثانية في سورة المؤمنون . في قوله سبحانه :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ لَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ ﴾

(سورة المؤمنون)

وبعد ذلك قال : « أولئك هم الوارثون » .

وفي سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْخَافِظِينَ وَالْخَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ① ﴾

(سورة الأحزاب)

وفي سورة المعارج يقول :

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ① الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ② وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ③ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ④ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّرَ الَّذِينَ ⑤ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ

رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُنَّ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾
مَنْ أَتَّبَعِي وَرَاءَ ذَلِكَ قَاوِلُكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴿

(سورة المعارج)

نخرج من هذا الجدل ، بأن نقول إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليفية افعل كذا
ولا تفعل كذا . . . وابتلاء بأن ألقى في النار وهو حي فلم يحزع ولم يتراجع ولم يتجه
إلا لله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه .

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جنسها . . . وكونه
يلقى في النار ولا يبالي يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة فيرد إبراهيم أما إليك فلا . . .
وأما إلى الله فعلمه بحال يغنيه عن سؤال . . . وكونه وهو شيخ كبير يبتلى بذبح ابنه
الوحيد فيطيع بنفس مطمئنة ورضا بقدر الله . . . يقول الحق :

﴿ أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي كُتُبِ مُوسَىٰ ۖ وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۖ ﴾ ﴿٣٥﴾

(سورة النجم)

أى وفى كل ما طلب منه وأداه بعشق للمنهج ولا ابتلاءات الله . . . لقد نجح
إبراهيم عليه السلام في كل ما ابتلى به أو اختبر به . . . والله كان أعز عليه من أهله
ومن نفسه ومن ولده . . . ماذا كافاه الله به ؟ قال :

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۗ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن الحق تبارك وتعالى أئتمنه أن يكون إماما للبشر . . والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لنعرف نحن البشر كيف يصطفى الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور . . استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ما هي الذرية ؟ هي النسل الذى يأتى والولد الذى يحىء . . لأنه يجب استطراق الخير على أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم فى الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسرورون . . ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده . . حتى لا يحرّموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدى بهم إلى نعيم لا يزول . . ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هي تقريع لليهود . . الذين تركوا القيم وعبدوا المادة فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فكان إبراهيم بأعماله قد وصل إلى الإمامية . . ولكن هذا لا ينتقل إلا للصالحين من عباده العابدين المسبحين .

وقول الحق سبحانه : « لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » مقصود به اليهود الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة ، وهو استقراء للغيب أنه سيأتى من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم .

ومن المعجائب أن موسى وهارون عليهما السلام كانا رسولين . . الرسول الأصيل موسى وهارون جاء ليشد أزره لأنه فصيح اللسان . . وشاءت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة فى ذرية هارون وليس فى ذرية موسى . . والرسالة ليست ميراثا . .

وقوله تعالى « لا ينال عهدي الظالمين » . . فكان عهد الله هو الذي يجذب صاحبه
أى هو الفاعل . . نأتى بعد ذلك إلى مسألة الجنس والدم واللون . . بنوة الأنبياء غير
بنوة الناس كلهم فالأنبياء اصطفاهم الله وأبنائهم هم الذين يأخذون منهم
هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون . . ولورجعنا إلى قصة نوح
عليه السلام حين غرق ابنه . . رفع يديه إلى السماء وقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِهَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

فرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ إِنَّهُ لَبِئْسَ مِّنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء . . ولولا أن الحق سبحانه قال
لنا « إنه عمل غير صالح » . . لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك . .
ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم نسبة ابن نوح إلى أبيه بسبب « إنه عمل غير
صالح » .



وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ
 إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن
 طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

وضّحت لنا الآية التي سبقت أن اليهود قد انتفت صلتهم بإبراهيم عليه السلام . . بعد أن تركوا القيم والدين واتجهوا إلى ماديّات الحياة . . أنتم تدعون انكم أفضل شعوب الأرض لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم . . إذن فأنتم غير مفضلين عليهم . . فإذا انتقلنا إلى قصة بيت المقدس ونحويل القبلة إلى الكعبة . . نقول إن ذلك مكتوب منذ بداية الخلق أن تكون الكعبة قبلة كل من يعبد الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا » . . تأمل كلمة البيت وكلمة مثابة . . بيت مأخوذ من البيوتة وهو المأوى الذي تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح وتكون فيه زوجتك وأولادك . . ولذلك سميت الكعبة بيتا لأنها هي المكان الذي يستريح إليه كل خلق الله . . ومثابة بمعنى مرجعا تذهب إليه وتعود . . ولذلك فإن الذي يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يجب أن يرجع مرات ومرات . . إذن فهو مثابة له لأنه ذاق جلاوة وجوده في بيت ربه . . واتخذى أن يوجد شخص في بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته . . تنظر إلى الكعبة فيذهب كل ما في صدرك من خيق وهم وحزن ولا تتذكر أولادك ولا شئون دنياك ولو ظلت جاذبية بيت الله في قلوب الناس مستمرة لتركوا كل شئون دنياهم ليقفوا بجوار البيت . . ولذلك كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة . .

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفى من عقل الحاج وقلبه . . لأن الجحيج في

بيت ربهم .. وكلما كرههم شيء أو همهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم في بيته فيذهب عنهم الهم والكرب .. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

أفئدة وليست أجساما وتهوى أى يلقون أنفسهم إلى البيت .. والحج هو الركن الوحيد الذى يحتال الناس ليؤدوه .. حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدى الفريضة .. والذى يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرات ..

إن من الخير أن تترك الناس يثوبون إلى بيت الله .. ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم ومشكلات الحياة ..

وقوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » .. أمنا يعنى يؤمن الناس فيه .. العرب حتى بعد أن تحللوا من دين إسماعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون بحجاج بيت الله الحرام .. يلقى أحدهم قاتل أبيه في بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج ..

والله سبحانه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقاتلهم ويحفظ لهم كبرياءهم فيأتى إلى مكان ويجعله آمنا .. ويأتى إلى شهر ويجعله آمنا لا قتال فيه لعلهم حين يذوقون السلام والصفاء يمتنعون عن القتال ..

والكلام عن هذه الآية يسوقنا إلى توضيح الفرق بين أن نخبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب منا جعله آمنا .. إنه سبحانه لا يخبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب منا أن نؤمن من فيه .. الذى يطيع ربه يؤمن من في البيت والذى لا بطيعه لا يؤمنه .. عندما يحدث هياج من جماعة في الحرم اتخذته ستارا لتحقيق أهدافها .. هل يتعارض هذا مع قوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » .. نقول لا ..

إن الله لم يعط لنا هذا كخبر ولكن كتشريع .. إن أطعنا الله نفذنا هذا التشريع وإن لم نطعه لا ننفذه ..

وقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » . . . وهنا نقف قليلا فهناك مقام بفتح الميم ومقام بضم الميم . . . قوله تعالى :

﴿ يَتَأَمَّلَ يَتَرَبَّ لَا مَقَامَ لَكَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الاحزاب)

مقام بفتح الميم اسم لمكان من قام . . . ومقام بضم الميم اسم لمكان من اقام . . . فإذا نظرت إلى الإقامة فقل مقام بضم الميم . . . وإذا نظرت إلى مكان القيام فقل مقام بفتح الميم . . . إذن فقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » بفتح الميم اسم المكان الذى قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذى وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد .

ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ لأنهم كانوا يخرجون عن الصلاة فيه . . . فالذى يصلى خلف المقام يكون الحجر بينه وبين الكعبة . . . وكان المسلمون يخرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيدخلون من الصلاة ذلك المكان الذى فيه مقام إبراهيم . . . ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص على عدم الصلاة وبينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك . . . ولما رأى عمر مكانا فى البيت ليس فيه صلاة يصنع فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة كل البيت . . . فنزلت الآية الكريمة : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى . . . فكانه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم فى مكانه فاصلا بين المصلين خلفه وبين الكعبة . . . وذلك لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالعبادة وإتمامها على الوجه الأكمل ، والمقام سيعطينا حثية الإمام لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

إذن هناك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونتفهمها . . . فمقام إبراهيم هو مكان قيامه عندما أمره الله برفع القواعد من البيت . . . والترتيب الزمني للأحداث هو أن البيت وُجد أولا . . . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود في موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام .

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة ، قصة بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء . . . متى بنى البيت ؟ بعض العلماء جعلوا بداية البناء أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم . . . وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرأنا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

(سورة البقرة)

نسأل ما الرفع أولا ؟ هو الصعود والاعلاء ، فكل بناء له طول وله عرض وله ارتفاع . . . ومادامت مهمة إبراهيم هي رفع القواعد فكان هناك طولاً وعرضاً للبيت وإن إبراهيم سيحدد البعد الثالث وهو الارتفاع . . . إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم . . . ثم جاء الطوفان الذي غمر الأرض في عهد نوح فأخفى معاله . . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس .

والكعبة ليست هي البيت ولكنها هي المكين الذي يدلنا على مكان البيت . . . إذن فالذين فهموا من قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » . . . بمعنى أن إبراهيم هو الذي بنى البيت . . . نقول لهم إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم وإن مهمة إبراهيم اقتصررت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس . . . ودليلنا على ذلك أنه الآن وقد ارتفع البناء حول الكعبة . . . من يصلي على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لجر الكعبة . . . ومن يصلي في الدور الأسفل يصلي أيضا للكعبة لأن المكان غير المكين .

ولعل أكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم . . . أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنها

إسماعيل وتركهما في بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة في ذلك الوقت . . ذكر البيت واقراً قول الحق تبارك وتعالى في دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطفلهما الرضيع :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

يعنى أن البيت كان موجودا وإسماعيل طفل رضيع . . ولكن القواعد من البيت قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شابا يافعا يستطيع أن يعاون أباه في بناء الكعبة . . إذن فمكان بيت الله الحرام كان موجودا قبل أن يبنى إبراهيم عليه السلام الكعبة . . ولكن مكان البيت لم يكن ظاهرا للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت حتى يضع له العلامة التي تدل الناس عليه . . واقراً قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

إن كثيرا من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء في القرآن . والمفروض أننا حين نتعرض لقضية بناء البيت لابد أن نستعرض جميع الآيات التي وردت في القرآن الكريم حول هذه القصة . . ومنها قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

والكلام هنا عن البيت والقول إنه وضع للناس . والناس هم آدم وذريته حتى تقوم الساعة . . وعلى ذلك لابد أن نفهم أن البيت مادام وضع للناس فالناس لم يضعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضعه وحلته ، وعدل الله يأي إلا أن يوجد البيت قبل أن يخلق آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع نزول آدم إلى الأرض شرع التوبة وأعد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه .

وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفي أن يقيمها على قدر طول قامته ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر . . ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذ مصلى أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لابد أن يعيش التكليف . . فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب ويتحایل ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه .

إن الحجر الموجود في مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكاليف ربه ومحاولته أن يزيد عليها . وإن الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم به حفر على شكل قدميه . . وهما بين قائل أن الحجر لأن تحت قدمي إبراهيم من خشية الله . . وبين قائل إن إبراهيم هو الذي قام بحفر مكان في الحجر على هيئة قدميه . . حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى ما يمكن ليعلی القواعد من البيت كان توازنه محفوظا .

وقوله تعالى : « طهرا بيتي » دليل على أن البيت زالت معالمه تماما وأصبح مثل سائر الأرض فذبحت فيه الذبائح وأقيمت المخلقات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يطهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ويجعله مكانا لثلاث طوائف : « الطائفتين » وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشيء . . ولذلك يسمون شرطة الحراسة بالليل طوافه لأنهم يطوفون في الشوارع في أثناء الليل . والله جل جلاله يقول :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ١٩٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿ ٢٠٠ ﴾

(سورة القلم)

وهذه هي قصة الحديقة التي منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حق الفقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طواف بها . . أي مشى في كل جزء منها فأحرق أشجارها . . فالطائف هو الذي يطوف . . « والعاكفين » هم المقيمون « والركع السجود » هم المصلون فتطهير البيت للطواف به والإقامة والصلاة فيه . . وهو مطهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشُّرَبِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » . . وما دام الله قد جعله أمنا فما هي جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا . . نقول إذا رأيت طلبا لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . فكان إبراهيم يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن في البيت . . ذلك لأنك عندما تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿يُنَاقِشُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِ كِتَابٍ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالِ كِتَابٍ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَعْصِ فِرْيَاقَهُ وَآمَنَ بِرَسُولِهِ وَاتَّبَعَ هُدًى الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦﴾﴾

(سورة النساء)

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . كيف ؟ نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويدأوموا على الإيمان . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلب لاستمرار هذا الموجود .

وقول إبراهيم : « رب اجعل هذا بلدا آمنا » . . أى يارب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة . . ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه

موجود في واد غير ذي زرع . . . وكانت الناس في الماضي تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان في الطريق . . . أو آمنة أي أن يديم الله على كل من يدخله نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : « اجعل هذا بلدا آمنا » تكررت في آية أخرى تقول : « اجعل هذا البلد آمنا » . . . فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة . . . نقول إن إبراهيم حين قال : « رب اجعل هذا البلد آمنا » . . . طلب من الله شيئين . . . أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسات . . . فكلمة غصب تعني سلخ الجلد عن الشاة وكان من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلخه منه بينما هو متمسك به .

كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة . . . والبلد هو البقعة تنشأ في الجلد فتميزه عن باقي الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء في الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التي ظهرت مميزة ببياض اللون . . . والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة . . . فإذا أقمت فيه مبان جعلت فيه علامة تميزه عن باقي الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى : « وارزق أهله من الثمرات » . . . هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس في هذا البلد . . . ولكن إبراهيم قال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم . . . لماذا ؟ لأنه حينها قال له الله :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال إبراهيم :

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال الله سبحانه :

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فخشى إبراهيم وهو يطلب لمن سيقومون في مكة أن تكون استجابة الله سبحانه كالاستجابة السابقة . . . كان يقال له لا ينال رزق الله الظالمون . فاستدرك إبراهيم وقال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » . . . ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية . . . فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يناله إلا المؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر . لأن الله هو الذي استدعانا جميعا إلى الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا . . . وكان الحق سبحانه حين قال : « لا ينال عهدي الظالمين » . . . كان يتحدث عن قيم المنهج التي لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر . . . لذلك قال الله سبحانه : « ومن كفر » . . . وفي هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم ليعرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان أو كافرا . والخير في الدنيا على الشيوع . فإدام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقى على أرضي المؤمن فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفسك ظالم وإنما أعطى نعمة استبقاء الحياة واستمرارها لكل من خلق آمن أو كفر . . . ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعالى : « ومن كفر فأمته قليلا » . . . التمتع هو شيء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره .

وقوله تعالى : « فأمته » دليل على دوام متعته ، أي له المتعة في الدنيا . ولكل نعمة متعة ، فالطعام له متعة والشراب له متعة والجنس له متعة . . . إذن التمتع في الدنيا بأشياء متعددة . ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه قليل . . . لأن المتعة في الدنيا مهما بلغت وتعددت ألوانها فهي قليلة .

واقرا قوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار » . . ومعنى اضطره أنه لا اختيار له في الآخرة ، فكان الإنسان له اختيار في الحياة الدنيا يأخذ هذا ويترك هذا ولكن في الآخرة ليس له اختيار . . فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلاً أن يختار الجنة بل إن أعضائه المسخرة لخدمته في الحياة الدنيا والتي يأمرها بالمعصية فتفعل ، لا ولاية له عليها في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَ لَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤ ﴾

(سورة النور)

أى أن الجوارح التي كانت تطيع الكافر في المعاصي في الدنيا لا تطيعه يوم القيامة ، فاللسان الذى كان ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله يأتى يوم القيامة يشهد على صاحبه . . والقدم التي كانت تمشي إلى أماكن الخمر واللغو والفسوق تشهد على صاحبها ، واليد التي كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها. وقوله : « اضطره » معناه إن الإنسان يفقد اختياره في الآخرة ثم ينتهى إلى النار وإلى العذاب الشديد مصداقاً لقوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » . . أى أن الله سبحانه وتعالى يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب في الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون .



﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ
رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧)

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت . . وجاءت « يرفع » هنا فعلا مضارعا لتصوير الحدث الآن وفي المستقبل .

ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم انه رفع وانتهى ؟ طبعاً هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت . . والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلماً حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سقالة » . . ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحایل ويأتى بالحجر .

إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولا بد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء . . ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التي سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورغم المشقة التي يتحملها الإثنين .. هما سعيدان . . وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما . والقبول والمقابلة والاستقبال كلها من مادة موأجهة . . أى أنها يسألان الله في موقف المعرض عن عمله ، إنها لا يريدان إلا الثواب : « تقبل منا » أى أعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفيذا لأمرك .

وقوله تعالى : « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . . أى أنت يارب السميع الذى تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول . . « والعليم » . . العليم ببيتنا ومدى إخلاصنا

لك .. وإننا نفعل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك .. ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملاً واحداً، أحدهما يثاب لأنه يعمل لإرضاء الله وتقرباً منه والآخر لا يثاب لأنه يفعله من أجل الدنيا .

والله سبحانه وتعالى علیم بالنية فإن كان العمل خالصاً لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصاً لوجهه لا يتقبله .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينجسها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(١) . إذن فالعمل إن لم يكن خالصاً لله فلا ثواب عليه .



(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والدارقطني بالفاظ مختلفة .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

هناك فرق بين أن تُكَلِّفَ بشيء فتفعله بحب ، وأن تفعل شئك التكاليف وتخرج من
عملك خروج الذي ألقى عن كاهله عبء التكاليف . . في هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم
وابنه إسماعيل وكانا يقولان يارب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا
ما أمرتنا . . وليس معنى ذلك أننا اكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نلذوق حلاوة التكاليف
منك مرات ومرات . . « ربنا واجعلنا مسلمين لك » نسلم كل أمورنا إليك .

إن الإنسان لا يمكن أن ينتهي من تكليف لطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق
حلاوة التكاليف ووجد فيه استمتاعا . . ولا يجد الإنسان استمتاعا في التكاليف إلا إذا
استحضر الجزاء عليه . . كلما عمل شيئا استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا
العمل فطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا :
« ربنا واجعلنا مسلمين لك » ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلاوة التكاليف إلى
ذريتهما من بعدهما . . فيقولان : « ومن ذريتنا أمة مسلمة » . . ليتصل أمد منهج الله
في الأرض ويستمر التكاليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة . . ثم يقولان : « وأرنا
مناسكنا » . . أي بين لنا يارب ما تريده منا . بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب
إليك . . والمناسك هي الأمور التي يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبد بها .

وقوله : « وأرنا مناسكنا » ترينا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكاليف عل

نفسه ، لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهيراً للنفس وخيراً للذرية ونعيماً في الآخرة . . . ولذلك يقول كما يروى لنا الحق : « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » . . . وتب علينا ليس ضرورياً أن نفهمها على أنها توبة من المعصية . . . وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا في المعصية فيريدان التوبة إلى الله . . . وإنما لأنها علما أن من سيأتى بعدهما سيقع في الذنب فطلبيا التوبة لذريتهما . . . ومن أين عليهما ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم : « ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار ووشش المصير » . . .

لقد طلبا من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما . . . والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بغيره وقد أضله في فلاة . . . لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلا فإن حلاوة الإيمان - إن كان مؤمنا - ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيدا عن المعاصي . . . ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات . . . وقلنا إن تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشر كبير . . . لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالدا في النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شرا . . . ولأصيب المجتمع كله بشرورهم ولْيَسْ الناس من آخرتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)^(١) .

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة لبرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .



(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والدارمي في سننه والحاكم في مستدركه .

﴿ رَتَّبْنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٢٩)

دعا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده . . بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة « رسولا منهم » ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم . . ونحن نقول لهم ان جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق . ومحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق . . ولا حاجة لما تدعونه من أن الله فَضَّلَكُمْ واختاركم على سائر الشعوب . . إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم في الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم ان هذا النبي من نسل إبراهيم وانه ينتمى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

قوله تعالى : « يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ » . . أى آيات القرآن الكريم .

وقوله تعالى : « وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » . . يجب أن نعرف أن هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هي أن تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به لتطبيقه ونعرف من أين جاءت . . وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم

فإن الحكمة هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قال الحق سبحانه وتعالى فيها في خطابه لزوجات النبي :

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَنْتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وقوله تعالى : « ويزكيهم » أى ويظهرهم ويقودهم إلى طريق الخير وتنام الإيمان .

وقوله جل جلاله : « إنك أنت العزيز الحكيم » .. أى العزيز الذى لا يغلب لجبروته ولا يسأله أحد .. « والحكيم » الذى لا يصدر منه شيء إلا بحكمة بالغة .



﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣)

ماملة إبراهيم ؟ إنها عبادة الله وحده لا شريك له وعشق التكليف ؛
فإبراهيم وفي كل ما كلفه به الله وزاد عليه . . وقابل الابتلاء بالطاعة والصبر . .
فعندما ابتلاه الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدي التكليف بعشق ومحاول أن
يستبقى المنهج السليم في ذريته .

قوله تعالى : « ومن يرغب » يعني يعرض ويرفض . ويقال يرغب في كذا أي أحبه
وأراده . ورغب عن كذا أي صد عنه وأعرض . . والذين يصدون عن ملة إبراهيم
ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء الجهلاء ، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى :
« إلا من سفه نفسه » . . دليل على ضعف الرأي وعدم التفرقة بين النافع والضار . .
فعندما يكون هناك من ورثوا مالا وهم غير ناضج العقل لا يتفق عقلهم مع سنهم
نسميهم السفهاء . . والسفيه هو من لم ينضج رأيه ولذلك تنقل قوامته على ماله إلى
ولي أو وصي ؛ لأنه يفتقر غير قادر على أن يتفق المال فيما ينفع . .

والقرآن الكريم يعالج هذه المسألة علجا دقيقا فيقول :

﴿وَلَا تَوَرَّتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا
لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمي أموال السفهاء بأموال الولي ولم يعتبرها مال السفه لأنه ليس أهلا للقيام عليها . . وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر أكثر نضجا وحكمة .

وقوله تعالى : « أموالكم » ليكون الولي أو الوصي حريصا عليها كماله أو أكثر ولكن هو قيم فقط . . فإذا بلغ الإنسان سن الرشد أو شفى السفه من سفاوته يرد إليه ماله ليتصرف فيه .

ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قضايا على آبائهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف في أموالهم . . ثم يأخذون هذه الأموال ويبيعونها هم . . والذي يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له في إنفاق المال وتبذيره لحسابه الخاص ، ولكن هناك حكمين : إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن يأكل بالمعروف . . وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله في الولاية لله لا يتقاضى عنه شيئا . . أما أن يأخذ المال ويبعثه على نفسه وشهوته وعلى زوجته وأولاده فهذا مرفوض ومحاسب عليه . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ^ط وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ^ع﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إذن الذي يعرض عن ملة إبراهيم هو سفه لا يملك عقلا يميز بين الضار والنافع .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » . . اصطفاه في الدنيا بالمنهج وبأن جعله إماما وبالإبتلاء . . وكثير من الناس يظن أن ارتفاع مقامات بعضهم في أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبرا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية في الآخرة . . نقول لا ، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « ولقد اصطفيناه في الدنيا » . . وأضاف : « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » . . لنعلم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية في الدنيا ونعيم في الآخرة أي الاثنين معا .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ١٦١

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه قال لإبراهيم أسلم فقال أسلمت . . . إذن فمطلوب الحق سبحانه وتعالى من عبده أن يسلم إليه . . . ولم يقل الحق أسلم إلى . . . لأنها مفهومة . . . ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله . لأنه هو سبحانه المأمون علينا . . . على أن إبراهيم عليه السلام قال في رده : « أسلمت لرب العالمين » .

ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده في الكون . لأنه إذا أسلم لله الذي سخر له ما في السموات والأرض . . . يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان . . . ومن أكثر نضجاً في العقل ممن يسلم وجهه لله سبحانه . . . لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوى لا يقهر ، قادر لا تنتهى قدرته . . . غالب لا يغلب ، رزاق لا يأتى الرزق إلا منه . فكأنه أسلم وجهه للخير كله .

والدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو إسلام الوجه لله ، ولماذا الوجه ؟ لأن الوجه أشرف شيء في الإنسان يعتز به ويعتبره سمة من سمات كرامته وعزته . . . ولذلك فنحن حين نريد منتهى الخضوع لله في الصلاة نضع جباهنا ووجوهنا على الأرض . . . وهذا منتهى الخشوع والخضوع أن نضع أشرف ما فيك وهو وجهك على الأرض إعلاناً لخضوعك لله سبحانه وتعالى .

والله جل جلاله يريد من الإنسان أن يسلم قيادته لله . . . بأن يجعل اختياراته في الدنيا لما يريد الله تبارك وتعالى . . . فإذا تحدث لا يكذب ، لأن الله يحب الصدق ،

وإذا كلف بشيء بفعله لأن التكليف في صالحنا ولا يستفيد الله منه شيئا . . وإذا قال الله تعالى تصدق بمالك أسرع يتصدق بماله ليرد له أضعافا مضاعفة في الآخرة وبقدرة الله .

وهكذا نرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته في الحياة الدنيا طبقا لما أَرَادَهُ اللهُ . . وفي هذه الحالة يكون قد انسجم مع الكون كله وتجد أن الكون يخدمه ويعطيه وهو سعيد .

أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوى يمكن أن يضعف ، وعلى غنى يمكن أن يفتقر . . وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له . ولذلك فهو في هذه الحالة يتصف بالسفاهة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع .



﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ١٣٢

عندما تقرأ كلمة وصى فاعلم أن الوصية تأتي لحمل الإنسان على شيء نافع في آخر وقت لك في الدنيا . . لأن آخر ساعات الإنسان في الدنيا إن كان قد عاش فيها يغش الناس جميعا فساعة يحضر لا يغش نفسه أبدا ولا يغش أحدا من الناس لماذا ؟ لأنه يحس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق .

النصح أو الوصية هي عظة نحب أن يستمسك بها من تنصحه ونقولها له خلاصا في آخر لحظة من لحظات حياته . . ولذلك سيأتى الله سبحانه وتعالى ليبين لنا ذلك في قوله :

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة)

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن نحب . . وأن حب الإنسان لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا . . ونحن لا نتمنى أن يكون في الدنيا من هو أحسن منا إلا أبناءنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله .

وصى إبراهيم بنيه ، ويعقوب وصى بنيه . . وكانت الوصية « يا بني إن الله اصطفى لكم الدين » إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب، ولكن كانت أمرا اختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا

أولادهما إلا بما اختاره الله .. فكان إبراهيم ائتمن الله على نفسه فنفذ التكليف وائتمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم الله .

قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » .. إبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب .. ويعقوب هو الأب المباشر لليهود .. ويعقوب وصاهم كما يروى لنا القرآن الكريم : « يا بَنِيَّ إِنِ اللَّهُ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان في امكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا كان في امكانه أن ينفذه .. فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون ؟ والموت لا يملكه أحد .. إنه يأتي في أى وقت فجأة .. ولكن مادام يعقوب قد وصى بنيه : « لا تموتن إلا وأنتم مسلمون » فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه .. ليكون هذا إعلاما به ويتوقعه الناس في أى سن وفي أى مكان وفي أى زمان .. ولذلك قد نلتمس العافية في أشياء يكون الموت فيها .. والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أسبابه

أى إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء .. أما إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا في الموت ، كان تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك .. فالإنسان لابد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يغفل عنه أبدا .. حتى لا يأتيه الموت في غفلة فيموت غير مسلم .. والعياذ بالله .



﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ
لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ
وَإِلَهَ آبَائِكَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا
وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

هذا خطاب من يعقوب ينطبق ويمس اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم ..
يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم
 وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون » ..

هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون ..
وتأمل دقة الأداء القرآن في قوله تعالى : « نعبد إلهك وإله آبائك » .. فكأنه لم يحدث
بعد موت إبراهيم وحين كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله سبحانه
وتعالى الواحد .. ولذلك قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : « إلهًا واحدًا » ..
وسنأخذ من هذه الآية لقطة تفيدنا في أشياء كثيرة لأن القرآن سيتعرض في قصة
إبراهيم أنه تحدث مع أبيه في شئون العقيدة .. فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي مَا تَعْبُدُ أَتَعْبُدُ الْهَيْئَةَ إِنِّي أَرِيتُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ﴾

(سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل
ابن إبراهيم .. والرسول عليه الصلاة والسلام قال :

(أنا سيد ولد آدم)^(١) .

فإذا كان آزر أبو إبراهيم كافراً وعابداً للأصنام .. فكيف تصح سلسلة النسب الشريف ؟ نقول إنه لو أن القرآن قال « وإذ قال إبراهيم لأبيه » وسكت لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم .. ولكن قول الله : « لأبيه آزر » .. جاءت لحكمة . لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس هو الأب ولكن العم .. فانت إذا دخلت منزلاً وقابلتك أحد الأطفال تقول له هل أبوك موجود ولا تقول أبوك فلان لأنه معروف بحيث لن يخطيء الطفل فيه .. ولكن إذا كنت تقصد العم فإنك تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود ؟ فانت في هذه الحالة تقصد العم ولا تقصد الأب .. لأن العم في منزلة الأب خصوصاً إذا كان الأب متوفياً .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « لأبيه آزر » بذكر الاسم فمعناه لعمه آزر .. فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك ؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن في هذه الآية الكريمة : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك » .. والآباء جمع أب ، ثم حدد الله تبارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب .. وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب وإسحق وهو أبيعقوب وجاء إسماعيل قبل إسحق .

إذن ففي هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل وإسحق .. ويعقوب النبي حضره الموت هو ابن إسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا آباهم قالوا آبائك ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد .. وهم إبراهيم الجد وإسماعيل العم وإسحق أبيعقوب وأطلقوا عليهم جميعاً لقب الأب .. فكان إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو الجد وإسحق أطلق عليه الأب وهو الأب .. فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر)^(٢) .

(١) أخرجه الإمام مسلم .

(٢) أخرجه الديلمى في مستند الفردوس .

يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(أنا سيد ولد آدم)^(١) .

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام . . نقول له لم يكن آزر أباً لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم « لآبيه آزر » وجاء بالاسم يريد به الأبوة غير الحقيقية . . فأبوة إبراهيم وأبوة اسحق معلومة لأولاد يعقوب . . ولكن إسماعيل كان مقيماً في مكة بعيداً عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم وإسحق ؟ نقول جاء بالترتيب الزمني لأن إسماعيل أكبر من اسحق بأربعة عشر عاماً . .

وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء . . إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم . .

والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتنبه لمعنى كلمة آزر . . ويريد أن يلفتنا أيضاً إلى أن تعدد البلاغ عن الله لا يعنى تعدد الآلهة . . لذلك قال سبحانه : « إلهها واحدا » . .



﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ
مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْشَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٤)

وقوله تعالى : « خلت » أى انقضت . وخلا فلان بفلان أى انقضى به . . . وخلا
المكان من نزله أى أصبح المكان منفردا ، والنزيل منفردا ولا علاقة لأحدهما
بالآخر . . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة البقرة)

أى إنفردوا هم وشياطينهم ولم يعد فى المكان غيرهم ، ولقد قلنا إن كل حدث
لا بد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بذاته ، وكل حدث يحتاج إلى زمان
ويحتاج إلى مكان . . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « تلك أمة قد خلت » فمعناه إنه
انقضى زمانها وانقضى عن زمانكم

والمقصود بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت » أى انتهى زمانها . . . وتلك إسم
إشارة لمؤنث مخاطب وأمة هى المشار إليه ، والمخاطب للنبي صلى الله عليه وسلم ولعامة
المسلمين . . . والله سبحانه وتعالى حين يقول : « تلك أمة » فكأنها مميزة بوحدة
عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا . . . ولذلك لا بد أن يخاطبها
بالوحدة . . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١٥٢)

(سورة الانبياء)

وتلك هنا إشارة لأمة إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب .. هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة .

وقوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. أى تلك جماعة على دين واحد تحاسب عما فعلته كما ستحاسبون أنتم على ما فعلتم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

وإبراهيم فرد وليس جماعة ؟ نقول نعم إن إبراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع إلا في أمة .

وقوله تعالى : « قد خلت » يراد بها إلهام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم نسباً كاذباً لأن نسب الأنبياء ليس نسباً دموياً أو جنسياً أو انتشاءً .. وإنما نسب منهج واتباع .. فكان الحق يقول لليهود لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب .. لأن نسب النبوة هو نسب إيمان فيه اتباع للمنهج والعقيدة .. ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. الكسب يؤخذ على الخير والاكْتِسَاب يؤخذ في الشر لأن الشر فيه افتعال .

اننا لا بد أن نلتفت ونتنبه إلى آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الطعن في القرآن .. فلا يوجد معنى لأية تهدمها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم .

يأتى بعض المستشرقين ليقول هناك آية في القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يعطى بالأنساب وذلك في قوله جل جلاله :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ

عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿٢١﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

الأبناء مؤمنون ، وقوله تعالى : « ألحقنا بهم ذريتهم » كلمة ألحقنا تأتي عندما تلحق ناقصا بكامل .. فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تزيد درجة الأبناء إكراما لأبائهم المؤمنين .. نقول إن الإيمان شيء والعمل بمقتضى الإيمان شيء آخر .. الأب والذرية مؤمنون ولكن الآباء تفانوا في العمل والأبناء ربما قصروا قليلا .. ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أى لابد أن يكون الأب والذرية مؤمنين .. ولكن غير المؤمنين مبعدون ليس لهم علاقة بأبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر .. فالآباء لهم أعمال حسنة كثيرة .. والأبناء لهم أعمال حسنة أقل .. ينزل الله الأبناء في الجنة مع آبائهم لأن الإيمان واحد .

وقوله تعالى : « وما ألناهم » أى أنقصناهم من عملهم من شيء .. إذن فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم ، والله بفضلهم يلحق الأبناء بالآباء .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. هذه عملية الإيمان في العقيدة .. قد يقول البعض إن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (٣٦)

(سورة النجم)

فكيف يأخذ الأبناء جزء بدون سعى ؟ نقول افهموا النصوص جيدا . قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذي يعطيه الله سبحانه لمن شاء من عباده ، وهذا يعطى بلا حساب .. ثم من الذى قال

إن هذا ليس من سعيهم ؟ إن إلحاق الأبناء المؤمنين بالمتزلة العالية لأبائهم تكريم لعمل الآباء وليس زيادة لعمل الأبناء .

ولقد روى لنا العلماء أن ولدا كان مؤمنا طائعا عابدا وأبوه كان مسرفا على نفسه . فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن أباه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنس . فتعجب الابن كيف ينال أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفا على نفسه فسأله : كيف وصلت لهذه المتزلة ؟ فقال الأب أي متزلة . قال الابن أن تكون معك واحدة من الحور العين . فقال الأب وهل فهمت أنها نعيم لي . قال الابن نعم . فقال الأب : لاء أنا عقوبة لها . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

(سورة يونس)

إذن أنت في الآخرة ستفرح بفضل الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح . . . مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يَدْخُلَ الجنةَ أحدًا عَمَلُهُ ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته)^(١) .

ربما يأتي أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو القصد الشرعي منها . . . إن كانت تفيده فستكون الفائدة زيادة على عمله . . . وإن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها ؟

نقول مادام الشرع كلفنا بها فلها فائدة . وهل تظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله ؟ هي داخلة في عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذي دفعك للصلاة عليه . . . والذي تدعوه بالخير وبالرحمة وبالمغفرة ويتقبلها الله . . . أيقال أنه أخذ غير عمله ؟ لاء إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه . . . ولكنك لا تدعو مثلاً

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد في مسنده .

لإنسان أخذ بيده إلى خمار أو إلى فاحشة أو إلى منكر . . بل تدعو لمن أعطاك خيرا
فإن استجاب الله لك فهو من عمله .

الله سبحانه وتعالى يقول إن ما كان يعمل من سبقكم من الأمم لا تسألون
عنه . . وإن كنتم تدعون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا نقل لكم أنتم لن تسألوا
عما كان يعمل إبراهيم ولكن عليكم أنفسكم . . السؤال يكون عن عملكم .



﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥)

عندما تأتي - قالوا - فمعناها إن الذين قالوا جماعة .. الذين قالوا هم اليهود والنصارى. ولكن كلا منهم قال قولا مختلفا عن الآخر .. قالت اليهود كونوا هودا. وقالت النصارى كونوا نصارى ..

ونحن عندنا عناصر ثلاثة : اليهود والنصارى والمشركون. ويقابل كل هؤلاء المؤمنون .. « وقالوا كونوا » من المقصود بالخطاب ؟ المؤمنين .. أو قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركين والنصارى كونوا هودا .. وقالت النصارى لليهود والمشركين والمؤمنين كونوا نصارى .. لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا في نفسه .. ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح .. وكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك أن الإسلام أخذ وحدة الصفة الإيمانية المعقودة بين الله سبحانه وبين كل مؤمن .. ولذلك تجمد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾

(من الآية ٢٨٥ سورة البقرة)

ونلاحظ أن المشركين لم يدخلوا في القول لأنهم ليسوا أهل كتاب .

قوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفا » . . أى رد عليهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأننى سأكون تابعا لدين إبراهيم وهو الحنيفية . . وهم لا يمكن أن يخالفوا فى إبراهيم فاليهود اعتبروه نبيا من أنبيائهم . . والنصارى اعتبروه نبيا من أنبيائهم ولم ينفوا عنه النبوة ولكن كلا منهم أراد أن ينسبه لنفسه .

ما معنى حنيفا ؟ إن الاشتقاقات اللفظية لابد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوى . . الحنف ميل فى القدمين أن تميل قدم إلى أخرى . . هو تقوس فى القدمين فتميل القدم اليمنى إلى اليسار أو اليسرى إلى اليمين هذا هو الحنف . . ولكن كيف يؤن بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزا للصراط المستقيم ؟

لقد قلنا إن الرسل لا يأتون إلا عندما تعم الغفلة منهج الله . . لأنه مادام وجد من اتباع الرسول من يدعو إلى منهجه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون هناك خير .

النفوس البشرية لها ألوان . . فهناك النفس اللوامة تصنع شرا مرة فبأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير . . ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء وهى التى لا تعيش إلا فى الشر تأمر به وتغري الآخرين بفعله . . إذا فسد المجتمع وأصبحت النفوس أمارا بالسوء ينطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

تتدخل السماء برسول يعالج اعوجاج المجتمع . . ولكن الله تبارك وتعالى وضع عنصر الخيرية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

قال تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد ائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد على المنهج .. ومادام فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلن يأتي رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

نعود إلى قوله تعالى حنيفا .. قلنا إن الحنف هو الاعوجاج .. ونقول إن الاعوجاج عن الموج اعتدال .. والرسول لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع .. ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال .. لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال ..

وقوله تعالى : « حنيفا » تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال .. والهداية عند اليهود والنصارى مفهومها تحقيق شهوات نفوسهم لأن بشرا يهذى بشرا .. والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ولقد تعايش رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة مع اليهود ولكنهم حاربوه ولم يرضوا عنه .. وإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا حقا ولم يكن مشركا ..



﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦)

هذه الآية الكريمة تعطينا تفسيراً لقوله تعالى : « ملة إبراهيم » . . إيمان بالله وحده لا شريك له . . إيمان بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى أي التوراة وما أوتي عيسى أي الإنجيل وما أوتي النبيون بالإجمال . . فالبلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى الآن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . ووحدة الكون بأن الله هو الخالق وهو المدبر وكل شيء يخرج عن الألوهية لله الواحد الأحد . . وأن كل شيء يخرج عن ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة هو افتراء على الله سبحانه لا نقبله .

قوله تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا » وهو القرآن الكريم . ولا يمكن أن يعطف عليه ما يصطدم معه . . ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط هذه ملة إبراهيم . . وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحي الله إليه . . والرسالات كلها كما قلنا تدعو لعبادة الله الواحد الأحد الذي لا شريك له .

وقوله تعالى : « وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » . . أي ان إبراهيم كان مسلماً وكل الأنبياء كانوا مسلمين وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر . . ومعنى الإسلام أن هناك مسلماً ومسلماً إليه وهو الله عز وجل . ونحن نسلم له في العبودية - سبحانه - وفي اتباع

منهجه . . والإنسان لا يسلم وجهه إلا لمن هو أقدر منه وأعلم منه وأقوى منه ولن لا هوى له . . فإن تشككت في أحد العناصر فإسلامك ليس حقيقة وإنما تخيل . . وأنت لا تسلم زمامك لله سبحانه وتعالى إلا وأنت متأكد أن قدراته سبحانه فوق قدرات المخلوقين جميعا ، وأنه سبحانه غنى عن العالمين ، ولذلك فإنه غير محتاج إلى ما في يدك بل هو يعطيك جل جلاله من الخير والنعم ولا يوجد إلا الوجود الأعلى لتسلم وجهك له .



﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِمْ فَقَدْ اهْتَدَوْا
وَأِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ
ٱللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

تقول إن السؤال الذي يطرح نفسه بالنسبة لهذه الآية . . هل لما آمننا به مثل حتى يؤمنوا به ؟ إنك لكي تؤمن لابد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . فهل إذا قالها أحد بعدك يكون قال ما قلته أم مثل ما قلته ؟ يكون قال مثل ما قلت . أى إننى حين أعلن إيمانى وأخذ الشهادة التى قلتها أنت أكون قد قلت مثلها لأن ما نطقته به لا يفارقك أنت . . ولكنى إذا صنعت شيئا وقلت لغيرى اصنع مثله، هو سيصنع شيئا جديدا ولن يصنع ما صنعته أنا .

الشيء نفسه حين تقول لى : تصدق بمثل ما تصدق به فلان . لن تكون الصدقة هى المال نفسه بل تكون مثله . نقول لمن يردد هذا الكلام : إنك لم تفهم المعنى إيمانهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإيمان غيرهم أن يقولوا مثل هذه العبارة أى أن يعلنوا إيمانهم مثلنا بالله ورسوله . . فالمثل هنا يرتبط بالشهادة وكل من آمن بالإسلام نطق بالشهادتين مثل من سبقوه فى الإيمان . فالمثلية هنا فى العبارة وإيمانهم هو أن يقولوا مثل ما قلنا .

يقول الحق تبارك وتعالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنَ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا » أى اهتدوا إلى الحق . . « وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ » وتولوا يعنى أعرضوا . وشقاق يعنى خلافا معكم وخلافا مع بعضهم البعض ؛ فلكل منهم وجهة نظر يدعيها، وهداية اخترعها . . حتى إذا التقوا فى الكفر فلن يلتقوا فى أسباب الكفر كل واحد اتخذ سببا ولذلك اختلفوا . . والشقاق من المشقة والتزاع والمشاجرة ، والشق هو الفرقة بين شيئين .

وقوله تعالى : « فسيفكفهم الله » أى لا تلتفت إلى معاركهم ولا إلى حوارهم فالله يكفيك بكل الوسائل عمن سواه وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّثُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

مِنْ هَادٍ ﴿٦١﴾

(سورة الزمر)

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكيدوا لك ويؤذوك والمؤمنين ، فالله سبحانه وتعالى يكفيك لأنه عليم سميع بصير لا يخفى عليه شيء . . . ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة وحاولوا إيذاؤه بالسحر فأبطل الله كيدهم وأظهر ما خفى منه وأطلع رسوله عليه . . . فمهما استخدموا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيفكفك الله شرها ولذلك قال تعالى : « فسيفكفهم الله وهو السميع العليم » . . . أى سميع بما يقال ، عليم بما يدبرونه . بل يعلم ما فى صدورهم قبل أن ينطقوا به . . . فلا تعتقد أن شيئا يفوت على الله سبحانه أو يفلت منه . إن كل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه ، وكل كيد قبل أن يتم هو محبته . فإذا كان الله سبحانه وتعالى معك فماذا تخشى ؟ ومن تخاف ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يصل إليك ؟ . وأنت معك خالق هذا الكون ومدبره الذى لا يخفى عليه شيء فى السموات ولا فى الأرض . . . عليم بكل ما سيحدث حتى يوم القيامة وبعد يوم القيامة . . . ومادام معك القوى الذى لا يضعف أبدا والذى لا يموت أبدا والعليم بكل شيء فلا تخش أحدا لأنك فى أمان الله سبحانه .



﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً
وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (١٢٨)

ما هي الصبغة ؟ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يغيره بلون آخر . .
تصبغ الشيء أحمر أو أزرق أو أى لون تختاره . والصبغ ينفذ في المصبوغ خاصة إذا
كان المصبوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف . . ولذلك فإن الألياف الصناعية
لا يمكن أن تصبغ لماذا ؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوبة في تركيبها .

وإذا جئنا بقنديل من الزيت ووضعنا فيه فتيلة من القطن بحيث يكون رأس
الفتيل في الزيت ثم تشعله من أعلاه نجد أن الزيت يسرى في الأنابيب ويشعل
الفتيل . . فإذا جربنا هذا في الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسرى فيها الزيت وإنما
النار تاكل الألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعرية كالقطن والصوف . . ولذلك تجد
الألياف الصناعية سهلة في الغسيل لأن العرق لا يدخل في مسامها بينما الملابس
القطنية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق والتراب .

إذن الصبغة لا بد أن تتدخل مادتها في مسام القماش . . أما الطلاء فهو مختلف .
إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيلها . . ولذلك فإن الذين يفتنون في طلاء الأظافر
بالنسبة للسيدات ويقولون إنه مثل الحناء نقول لهم لا . . الحناء صبغة تتخلل المادة
الحية وتبقى حتى يذهب الجلد بها أى لا تستطيع أن تزيلها عندما تريد . . ولكن
الطلاء يمكن أن تزيله في أى وقت ولو بعد إتمامه بلحظات . . إذن فطلاء الأظافر
ليس صبغة .

قوله سبحانه : « صِبْغَةَ اللَّهِ » فكان الإيمان بالله وملة إبراهيم وما أنزل الله على

رسله هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري . . ولماذا كلمة صبغة ؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله . . إنه ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)^(١) .

فكان الإيمان صبغة موجودة بالفطرة . . إنها صبغة الله . . فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة. وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أى يأخذانه ويضعانه في ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية . . هذا هو معنى صبغة الله .

ويريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا . . هذا الاختلاف في اللون من صبغة الله . . اختلاف ألوان البشر ليس طلاء وإنما في ذات التكوين . فيكون هذا أبيض وهذا أسمر وهذا أصفر وهذا أحمر ، هذه هي صبغة الله . . وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يعطى صبغة. لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان وإنما يأتي من داخله . . ولذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشري. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشِرُ عَنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب . . أمر داخل وليس خارجيا . . أما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجي وليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله . . ونقول لهم : لا هذا الطلاء من عندكم أنتم ، أما ديننا فهو صبغة الله . .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والطبراني في الكبير والبيهقي في سنن

وقوله تعالى : « ومن أحسن من الله صبغة » . . استفهام لا يمكن أن يكذبه
ولكن الجواب يأتي على وفق ما يريده السائل سبحانه من أنه لا يوجد من هو أحسن
من الله صبغة .

وقوله تعالى : « ونحن له عابدون » أي مطيعون لأوامره والعابد هو من يطيع أوامر
الله ويحجب ما نهى عنه .

والأوامر دائماً تأتي بأمر فيه مشقة يطلب منك أن تفعله والنهي يأتي عن أمر محجب
إلى نفسك هناك مشقة أن تتركه . . ذلك أن الإنسان يريد النفع العاجل ، النفع
السطحي ، والله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى النفع الحقيقي . . النفع العاجل يعطيك
لذة عاجلة ويمنعك نعيماً دائماً في الآخرة وتمتعاً بقدرات الله سبحانه وتعالى . .

وانت حين تسمع المؤذن ولا تقوم للصلاة لأنها ثقيلة على نفسك قد أعطيت نفسك
لذة عاجلة كأن تشغل نفسك بالحديث مع شخص أو بلعب الطاولة أو بغير ذلك . .
وتترك ذلك النفع الحقيقي الذي يقودك إلى الجنة . . ولذلك قال الله سبحانه :

﴿ إِنَّمَا لِكَيْدٍ إِلَّا عَلَى الْخَاسِعِينَ ۝ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ ﴾

(من الأبين ٤٥ - ٤٦ سورة البقرة)

إذن العبادة أمر ونهى . . أمر يشق على نفسك فتستقله ، ونهى عن شيء محجب
إلى نفسك يعطيك لذة عاجلة ولذلك تريد أن تفعله . .

إذن فقوله تعالى : « ونحن له عابدون » . . أي مطيعون لأوامره لأننا آمننا بالأمر
لها وربا يعبد . . فإذا آمنت حبيب الله إليك فعل الأشياء التي كنت تستقلها وسهل
عليك الامتناع عن الأشياء التي تحبها لأنها تعطيك لذة عاجلة . . هذه هي صبغة الله
التي تعطينا العبادة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَن فِىكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ

إِلَّا الْبَكَرُ الْإِيمَانُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ الْبَكَرُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾

(سورة الحجرات)

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى بصيغة الإيمان يحب إلينا الخير ويجعلنا نبتغي
الشر .. لا عن رياء ونفاق خارج النفس كالطلاء ولكن كالصبغة التي تتخلل الشيء
وتصبح هي وهو شيئا واحدا لا يفرقان ..



﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا
أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصُكُمْ ﴾ ١٣٦

تحديد الأمر بـ « قل » بإيقاظ المهمة التكليف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
والله سبحانه وتعالى حين يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام - قل - كان يكفي أن
يقول ما يريد سبحانه . . فأنت إذا قلت لابنك اذهب إلى أخيك وقل له أبوك بأمرك
بكذا فيذهب الولد ويقول هذا الكلام دون أن يقول كلمة قل . . ولكن خطاب الله
لرسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة قل تلفتاً إلى أن هذا الأمر ليس من عنده ولكنه
من عند الله سبحانه ، ومهمة الرسول هي البلاغ .

إن تكرار كلمة « قل » في الآيات هي نسبة الكلام المقول إلى عظمة قائله الأول
وهو الله تبارك وتعالى . . فالكلام ليس من عند رسول الله ولكن قائله هو الله جل
جلاله .

قوله تعالى : « قل أتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ » . . المحاجة معناها حوار
بالحجة ، كل من المتحاورين يأتي بالحجة التي تؤيد رأيه أو وجهة نظره . . وإذا قرأت
قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى قال كل منها حجته . . ولا بد أن يكونا خصمين كل منهما يعاند رأيه الراى

الآخر وكل يحاول أن يأتي بالحجة التي تثبت صدق كلامه فيرد عليه خصمه بالحجة التي تهدم هذا الكلام وهكذا .

قوله تعالى : « اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم » . . . ومادام الله رب الجميع كان من المنطق أن نلتقى لأنه ربى وربكم حفظنا منه سواء . . . ولكن مادامت قد قامت الحجة بيننا فأحدنا على باطل . . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمَ دَاحِضَةٌ غَدِيرٌ رَيْبٌ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦ ﴾

(سورة الشورى)

والمحاجة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق وإنما تقوم بين حق وباطل وبين باطل وباطل . . . لأن هناك حقاً واحداً ولكن هناك مائة طريق إلى الباطل . . . فمادامت المحاجة قد قامت بيننا وبينكم ونحن على حق فلا بد أنكم على باطل . . . وليحسم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة ويمنع الجدل والجدال قال سبحانه : « ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » . . . أى لا نريد جدلاً لأن الجدل لن يفيد شيئاً . . . نحن لنا أعمالنا وأنتم لكم أعمالكم وكل عمل سيجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله . . . ونحن أخلصنا العبادة لله وحده وأنتم التجهتم بعبادتكم إلى ما تحبه أهواؤكم .

إن الله سبحانه وتعالى الذى هو ربنا وربكم لا يفضل أحداً على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله . . . ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولاً وقد يكون العمل واحداً أمام الناس . . . هذا يأخذ به ثواباً وذلك يأخذ به وزراً وعذاباً فالله هو أن يكون العمل خالصاً لله .

قد يقول إنسان إن الإخلاص فى العمل والعمل مكانه القلب . . . ومادام الإنسان لا يؤذى أحداً ولا يفعل منكراً فليس من الضروري أن يصل مادامت النية خالصة . . . نقول إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات) (١)

فلا بد من عمل بعد النية . . لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل يعود على الناس . . فإذا كان في نيتك أن تتصدق وتصدق انتفع الفقراء بمالك . . ولكن إذا لم يكن في نيتك فعل الخير وفعلته لتحصل على سمعة أو لترضى بشرا انتفع الفقراء بمالك ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقرن عملك بنية الإخلاص لله . . والعمل حركة في الحياة والنية هي التي تعطى الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب ولذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَيَعْمَاهِٓ ۖ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٧١﴾

(سورة البقرة)

فإنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق . . والفقير يستفيع بالصدقة سواء كانت نيتك أن يقال عنك رجل الخير المتصدق . . أو أن يقال عنك رجل البر والتقوى أو أن تخفى صدقتك . . فالعمل يفعل فيستفيع به الناس سواء أردت أم لم ترد . أنت إذا قررت أن تبني عمارة ، النية هنا هي التملك ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل ابتداء من الذي باع لك قطعة الأرض والذي أعد لك الرسم الهندسي وعمال الحفر والذي وضع الأساس ومن قام بالبناء وغيرهم وغيرهم . . هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم . . سواء أكان في بالك الله أم لم يكن في بالك الله فقد انتفعوا .

إذن فكل عمل فيه نفع للناس أردت أو لم ترد . . ولكن الله لا يجزى على الأعمال باطلاقها وإنما يجزى على النيات بإخلاصها . . فإن كان عملك خالصا لله جزاك الله عليه . . وإن كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك .

إن الذين يتعجبون من أن إنسانا كافرا قدم كشفاً هاماً للبشرية ولكنه لم يكن مؤمنا بالله . . يتعجبون أيعذب في النار؟ نقول نعم لأنه عمل وليس في قلبه الله . . ولذلك يجازى في الحياة الدنيا ، فتقام له التماثيل ويطلق اسمه على الميادين ويخلد اسمه في الدنيا التي عمل من أجلها . . ولكن مادام ليس في نيته الله فلا جزاء له عند الله .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والدارقطني بالفاظ مختلفة .

أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ
قُلْ أَنتُمْ أَحْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ
شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ

اليهود والنصارى ادعوا أن الأنبياء السابقين لموسى وعيسى كانوا يهودا أو نصارى . فاليهود ادعوا أنهم كانوا يهودا . والنصارى ادعوا أنهم كانوا نصارى ، الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بقوله : « قل أنتم أعلم أم الله » .

والسؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد لأنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم من الله . . . وقلنا إنه إذا طرح سؤال في القرآن الكريم فلا بد أن يكون جوابه مؤيذا بما يريد الحق سبحانه وتعالى ولا يوجد له إلا جواب واحد . . . ولذلك فإن قوله تعالى : « أنتم أعلم أم الله » . . . والله لاشك أعلم وهذا واقع .

إذن فكأن الله بالسؤال قد أخبر عن القضية . . ولكن يلاحظ في هذه الآية الكريمة ذكر إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط . . وفي ذكر إسماعيل دائما مع اسحق ويعقوب يدل على وحدة البلاغ الإيماني عن الله ؛ لأن إسماعيل كان في أمة العرب واسحق ويعقوب كانا في بني إسرائيل .

والحق سبحانه وتعالى يتحدث عن وحدة المصدر الإيماني الخلقه . لأنه لا علاقة أن يكون إسماعيل للعرب واسحق لغير العرب بوحدة المنهج الإلهي . ولذلك تقرأ قول الحق تعالى :

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ رُ

سُلُوبُونَ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة)

والله الذي بعث إسماعيل هو الله الذي بعث اسحق إله واحد أحد . . . ومادام الإله واحداً فالمنهج الإيمانى لا بد أن يكون واحدا . . . فإذا حدث خلاف فالخلاف من البشر الذين يحرفون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم . . . وكل نفس لها ما كسبت فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يضيف إليكم شيئا فى الآخرة . . . إن كانوا مؤمنين فلن ينفعكم أن تكفروا وأن تقولوا نحن ننسب إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . . وإن كانوا غير ذلك فلا يضركم شيئا .



﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٤١

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٣٧ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٣٨

(سورة البقرة)

بعض السطحيين يقولون إن في هاتين الآيتين تكرارا . . نقول إنك لم تفهم
المعنى . . الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلى إبراهيم وإسحاق وإسماعيل واسحق لن يشفع لكم عند
الله بما حرفتموه وغيرتموه في التوراة . . وبما تفعلونه من غير ما شرع الله . فاعلموا أن
عملكم هو الذي ستحاسبون عليه وليس نسبكم .

أما في الآية التي نحن بصددتها فقد قالوا إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هودا
أو نصارى . . الله تبارك وتعالى لا يجادلهم وإنما يقول لهم لنفرض - وهذا فرض غير

صحيح - إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم . . لأن لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم ، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة . . ولا تقولوا إنما كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى أي كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة . . وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذي يشهد بأنهم كانوا مسلمين .

إياك أن تقول إن هناك تكراراً . . فإن السياق في الآية الأولى يقول لا شفاعة لكم يوم القيامة في نسبكم إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . والسياق في الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة في قولكم إنهم كانوا هودا أو نصارى . . فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يقبل الله حجبتكم . . وهكذا فإن المعنى مختلف تماماً بحسب موقعين مختلفين يوم القيامة .



﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴾ ١٤٤

هذه الآية نزلت لتصفى مسألة توجه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى
الكعبة بدلا من بيت المقدس .. وهذا أول نسخ في القرآن الكريم .. يريد الله
سبحانه وتعالى أن يعطيه العناية اللائقة .. لأنه سيكون مثار تشكيك وجدل عنيف
من كل من يعادى الإسلام ؛ فكفار قريش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك وكذلك
المنافقون واليهود .

الله تبارك وتعالى يريد أن يحدد المسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات .. فيقول جل
جلاله : « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا » ..
حرف السين هنا يؤكد أنهم لم يقولوا بعد .. ولذلك قال سبحانه : « سَيَقُولُ
السُّفَهَاءُ » فقبل أن يتم تحويل القبلة قال الحق تعالى : إن هذه العملية ستحدث هزة
عنيفة يستغلها المشككون .

ويرغم أن الله سبحانه وتعالى قال : « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ » .. أى أنهم لم يقولوها
إلا بعد أن نزلت هذه الآية .. مما يدل على أنهم سفهاء حقا ؛ لأن الله جل جلاله
أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم في قرآن يتلى ويصل به ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم
القيامة .. قال : « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ » .. فلو أنهم امتنعوا عن القول ولم
يعلقوا على تحويل القبلة لكان ذلك تشكيكا في القرآن الكريم .. لأنهم في هذه الحالة
كانوا يستطيعون أن يقولوا : إن قرآنا أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتغير
ولا يتبدل إلى يوم القيامة .. قال : « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ
قِبَلِهِمُ » .. ولم يقل أحد شيئا ..

ولكن لأنهم سفهاء فعلا . . والسفه جهل وحق وطيش قالوها . . فكانوا وهم الكافرون بالقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من المشبتين للإيمان الذين تشهد أعيالهم بصدق القرآن. لأن الله سبحانه قال : « سيقول السفهاء » وهم قالوا فعلا . . ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت آبائنا وليست بيت الله . . فصرف الله رسوله في أول الإسلام ووجهه إلى بيت المقدس . . وعندئذ قال اليهود: يسفه ديننا ويتبع قبلتنا . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يحتوى الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة لكل . . ولذلك أسرى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . . حتى يدخل بيت المقدس في مقدسات الإسلام لأنه أصبح محتوى في الإسلام .

ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا يضعون فيها أصنامهم . . ووضع الأصنام في الكعبة شهادة بأن لها قداسة في ذاتها . . فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحموا هذه الأصنام فوضعوها في الكعبة . . لماذا لم يضعوها في مكان آخر ؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام .

والله سبحانه وتعالى حين قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » . . وَلَاَهُ يعنى حرفة ورده . . والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس . . وهنا يأتي الحق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة . . إنما علة التنفيذ فيها يأمرنا الله سبحانه به جل جلاله أن الله هو الأمر . . ولو أن الحق تبارك وتعالى بين لنا السبب أو العلة في تغيير القبلة لما كان الأمر امتحانا للإيمان في القلوب . . لأن الإيمان والعبادة هي طاعة معبود فيها يأمر وما ينهى . . يقول لك الله عظم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود في الكعبة وتعظمه بالاستلام والتقبيل . . ويقول لك : ارجم هذا الحجر الذي يرمز إلى إبليس فترجه بالحصى ، ولا يقول الله سبحانه لماذا ؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الإيمان هنا وأصبح الأمر مسألة اقتناع واقتناع .

فأنا حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلو يكون السبب واضحا . . ولكن الله تبارك وتعالى يقول لك كل هذا ولا تأكل هذا . . فإن أكلت مما حرمه تكون آثما. وإن امتنعت تكون طائعا وثاب .

إذن العلة الإيمانية هي أن الأمر صادر من الله سبحانه . . ولو أنك امتنعت عن

شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك ، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك . . ولكنك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمهما . . فهذه هي العبادة وهذا هو الثواب .

الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال : « قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . . أي أنك إذا اتجهت إلى بيت المقدس أو اتجهت إلى الكعبة أو اتجهت إلى أي مكان في هذا الكون فالله موجود فيه . . فبيت المقدس ليس له خصوصية بذاته ، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها . . ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذي يعطيها هذه الخصوصية . . فإذا اتجهنا إلى بيت المقدس فنحن نتجه إليه طاعة لأمر الله . . فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلى الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله .

قوله تعالى : « يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . . الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلى الهدف . والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه . . وجهنا إلى الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه . . فالأمر لله .



﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا
الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَاكِفِيكُمُ إِن كُنْتُمْ
إِلَّا عَلَىٰ قُلُوبٍ كَاذِبَةٍ﴾

ساعة ترى كذلك فهناك تشبيه . . الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتنبه إلى نعمته في أنه جعلنا أمة وسطا . . فكل ما يشرعه الله يدخل في باب النعم على المؤمنين . . وإذا كان الاتجاه إلى الكعبة هو اختبار لليقين الإيمان في نفوس المسلمين . . فإنه سبحانه جعلنا أمة وسطا نعمة منه ، ومادمننا وسطا فلا بد أن هناك أطرافا حتى يتحدد الوسط . . هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر . . ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين .

ولكن ما معنى أمة وسطا ؟ وسط في الإيمان والعقيدة . فهناك من أنكروا وجود الإله الحق . . وهناك من اسرفوا فعددوا الآلهة . . هذا الطرف مخطيء وهذا الطرف مخطيء . . أما نحن المسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد . . وهذه بديهة من بديهيات هذا الكون . . لأن الله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كل ما فيه وقال سبحانه إنه خلق . . ولم يأت ولن يأت من يدعى الخلق . . إذن فالدعوى خالصة لله تبارك وتعالى . . ولو كان في هذا الكون آلهة متعددة لادعى كل واحد منهم الخلق . . ولذلك فإن الله جل جلاله يقول :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

أى لتنازع الخلق ولاضطرب الكون . . فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة . . عل أن هناك أناساً يسرفون فى المادية وهملون القيم الروحية . . وأناساً هملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها .

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة . : الإسلام جاء وسطاً فيه المادة والروح . . وإياك أن تقول ان الروح أحسن من المادة أو المادة أحسن من الروح . . فالمادة وحدها والروح وحدها مسخرة وعابدة ومسبحة لله تعالى . . لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس ، والنفس هى التى لها اختيار تطيع أو تعصى . . تعبد أو تكفر والعباد بالله .

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء . . وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ولا المادة وحدها . . وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء . . فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطاً تجمع خير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليعصم البشر من أهواء البشر .

الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث فى ماديات الكون بما يخلق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية . . فما هو مادية معمل لا يختلف البشر فيه . . لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه . . فإذا عشتم بالأهواء ستشقون . . وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون .

قد يتساءل البعض هل الشيوعية التى جاءت منذ أكثر من نصف قرن ارتقت بشعوبها أم لا ؟ نقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعته من ارتقاءات على الكذب والزيف . . ثم تراجعت ثم انهارت تماماً . . وكما انهارت الشيوعية ستهار الرأسمالية لأنها طرفان متناقضان إنما نحن أمة وسطا . . ولذلك أعطانا الله سبحانه خيرى الدنيا والآخرة .

الحق سبحانه يقول : « لتكونوا شهداء على الناس » . . أى أن الحجة ستكون لكم فى المستقبل . . وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى ما يقننه دينكم . . والله تبارك وتعالى قال : « أمة وسطا » ولم يقل الوسط بكسر الواو أى المنتصف حتى لا يقال إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماماً . . ولكن بعضهم سيميل

قليلًا إلى هذه الناحية أو تلك بحيث يتم اللقاء . . . ولذلك عندما يقولون نأخذ أموال الأغنياء ونوزعها على الفقراء . . . نقول لهم وعندما يأتي فقير في المستقبل . . . من أين تعطيه بعد أن قضيت على الأغنياء ؟

وقد سمعت من شخص له تجربة في السياسة والحكم . . . قال إن الذي كان يعمل معي وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان أحسن مني . . . لأنني احتفظت بأموالي ونميتها فقالوا إنك إقطاعي وصادروها . . . بينما ذلك الذي أسرف لم يفعلوا به شيئًا . . . قلت إن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تنمي مالك . . . لأنك إن لم تنمه ودفعت عنه زكاة ٢١/٢٪ فالمال يفنى خلال أربعين سنة . . . ولكن إذا نميت مالك وجاءوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعي فإنهم يقضون على العمل في المجتمع . . . لأنه إذا كنت ستأخذ ناتج عمله بدون حق فلماذا يعمل ؟ إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك . . . ليأخذ من ماله زكاة ويعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع . . . هذا وسط .

وقوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » . . . فكان الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه ستحدث في الكون معركة لن يفصل فيها إلا شهادة هذه الأمة . . . فاليمين أو الرأسمالية على خطأ ، والشيوعية على خطأ . . . أما منهج الله الذي وضع الموازين القسط للكون والحياة الإنسان فهو الصواب . . . ثم يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا . . . هل كان عملنا وتحركنا مطابقاً لما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام لنا ؟ أم أننا اتبعنا أهواءنا وانحرفنا عن المنهج .

الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا في هذه النقطة . . . تلك الآية وإن كانت قد بشرت الأمة الوسط بأن العالم سيعود إلى حكمها، فذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا سادت شهادة الحق والعدل فيها :

وقوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » . . . هذه عودة إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . . . الله تبارك وتعالى لا يفضل اتجاهها على اتجاه . . . ولذلك فإن الذين يتجهون إلى الكعبة ستختلف اتجاهاتهم حسب موقع بلادهم من الكعبة . . . هذا يتجه إلى الشرق وهذا يتجه إلى الشمال الشرقي . . . وهذا يتجه إلى الجنوب الغربي .

إنه ليس هناك عند الله اتجاه مفضل على اتجاه .. ولكن تغيير القبلة جعله الله سبحانه اختبارا لإيمانيا ليس علم معرفة ولكن علم مشهد .. لأن الله سبحانه وتعالى يعلم .. ولكنه جل جلاله يريد أن يكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة .. ولكنه اختبار إيماني ليعلم الله مدى إيمانكم ومن سيطيع الرسول فيما جاءه من الله ومن سيتقلب على عقبيه .. فكان أمر تحويل القبلة سيحدث هزة إيمانية عنيفة في المسلمين أنفسهم .. فيعلم الله من يستمر في إيمانه واتباعه لرسول الله .. ومن سيرفض ويتحول عن دين الإسلام .

وقوله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » .. والله يريد هنا العلم الذي سيكون شهيدا على الناس يوم القيامة .. وعملية الابتلاء أو الاختبار في تغيير القبلة عملية شاقة .. إلا على المؤمنين الذين يرحبون بكل تكليف .. لأنهم يعرفون أن الإيمان هو الطاعة ولا ينظرون إلى علة الأشياء .

ولكن الكفار والمنافقين واليهود لم يتركوا عملية تحويل القبلة تمر هكذا فقالوا : إن كانت القبلة هي الكعبة فقد ضاعت صلاتكم أيام انجهتم إلى بيت المقدس .. وإن كانت القبلة هي بيت المقدس فستضيع صلاتكم وأنتم متجهون إلى الكعبة .

نقول لهم لا تعزلوا الحكم عن زمنه .. قبله بيت المقدس كانت في زمنها والكعبة تأتي في زمنها .. لا هذه اعتدت على هذه ولا هذه اعتدت على هذه .. ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلى بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة .. ورد الله سبحانه بقوله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » .. لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم .

وقوله تعالى : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .. أي تذكروا انكم تؤمنون برب رءوف لا يريد بكم مشقة .. رحيم يمنع البلاء عنكم .



﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤)

نحن نعلم أن « قد » للتحقيق . . . و « نرى » . . . فعل مضارع مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم . . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . . أنه يحب ويشفق أن يتجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس . . . وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحي من علو . . . فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتجه ببصره إلى السماء مكان إتياء الوحي . . . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن يأتيه الوحي بتغير القبلة . . . فكان هذا أمر شغله .

إن الله سبحانه يحيط برسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجهه رسول الكريم في السماء وأجابه ليتجه إلى القبلة التي يرضاها . . . فهل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس لم يكن راضيا عنها ؟ نقول لا . . . وإنما الرضا دائما يتعلق بالعاطفة ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل . . . ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس . . . وإنما كان يتجه إلى بيت المقدس وفي قلبه عاطفة تتجه إلى الكعبة . . . هذا يدل على الطاعة والالتزام

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : « فلنولينك قبلة ترضاها » أي تحبها بعاطفتك . . . ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلى هذا التغيير فكان عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتضع مقدمات التحويل .

قال الله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة ، والشطر معناه النصف .. وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان في مكان يصبح مركزاً لدائرة ينتهي بشيء اسمه الأفق وهو مدى البصر .. وما يخيل إليك عندئذ أن السماء انطبقت على الأرض .

إن كل إنسان منا له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان اتسع الدائرة .. وإذا كان بصره ضعيفاً يكون أفقه أقل ، ويكون هو في وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه .

إذن الذي يقول الشطر هو النصف صحيح والذي يقول إن الشطر هو الجهة صحيح .

وقوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. أي اجعل وجهك جهة المسجد الحرام . أو اجعل المسجد الحرام في نصف الدائرة التي أمامك .. وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة .. إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجداً .

إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمى المكان الذي نصل فيه مسجداً .. ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصوراً على الصلاة لله ولا تراول فيه شيئاً آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة .. أما المكان الذي تسجد فيه وتراول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه .. والكعبة بيت الله .. باختيار الله . وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله .. ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

وقوله تعالى : « وحيثما كنتم » يعني أينما كنتم .. « فولوا وجوهكم شطره » .. لأن الآية نزلت وهم في مسجد بنى سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام .. وحق لا يعتقد أحد أن التحويل في هذا المسجد فقط وفي الوقت الذي نزلت فيه الآية فقط قال تعالى : « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ..

وقوله جل جلاله : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله

بغافل عما يعملون . . أى أن الذين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل . . ويعلمون أنه صاحب القبلتين . . ولولم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلى الكعبة . . لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم يصلى إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق ؟ ولكان هذا ادعى إلى التشكيك .

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم . . لأنه في التوراة أن الرسول الذى سيجىء وسينجه إلى بيت المقدس ثم يتجه إلى البيت الحرام . . فكان هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا في زعزعة اليقين .

وقوله تعالى : « وما الله بغافل عما يعملون » . . يريد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر . . فموقفهم ليس لطلب الحجة ولكن للمكابرة . . فهم لا يريدون حجة ولا دليلا إيمانيا . . ولكنهم يريدون المكابرة .





وقوله تعالى : « وما أنت بتابع قبلتهم » .. فكأنه حين جاءت الآية بتغيير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بيت المقدس ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة .. ولكي يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون في جانب ونحن سنكون في جانب آخر .. وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم. قال سبحانه : « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » .. فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة .

وقول الحق : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين » .. حين يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية .. وهو يعلم أن محمداً الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم .. نقول إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله يخاطب أمة في شخصه قائلاً : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين » .. ما هي أهواء أهل الكتاب ؟ هي أن يهادنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله .. وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعاً .. فكان الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد عليه الصلاة والسلام .. إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان .. وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه فكيف يقبله من أي فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التي تفسد العقيدة كلها .. والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أنه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من رسوله ولو أنها لن تحدث .. ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماماً من الله على أي مستوى من مستويات الإيمان حتى في مستوى القمة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا الفعل تماماً .



﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ
فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٤٦

الله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه . . يعرفون ماذا ؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة ؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه ورسالته التي يحاولون أن يشككوا فيها ؟ الله سبحانه وتعالى يشرح لنا ذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِقُونَ
عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِن جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ٨٩

(سورة البقرة)

فكان اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به . . إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كعب ؟ أى أكنتم تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه ؟ فقال كعب وهو من أحبار اليهود . . أعرفه كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد . . فلما سأله لماذا ؟ قال لأن ابني أخاف أن تكون امرأتى خانتني فيه أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوصافه المذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه .

إذن فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته . . والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا

وكفروا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه . .
ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم
يعلمون » . . وساعة تقول كتم الشيء فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز
ويتشعر . . والحق بطبيعته لا بد أن يبرز ويتشعر ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى
مجهود .

إن الذين يحققون في القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . .
فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة . . لأن النطق بالحق
لا يحتاج إلى مجهود ، أما كتم الحق فهو الذي يحتاج إلى مجهود وقوة ، وعدم النطق
بالحق عملية شاقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « ليكتمون الحق وهم
يعلمون » . . أى أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة . . والحق من الله
فهل يستطيع هؤلاء كتمانهم ؟ طبعاً لا ، لا بد أن يظهر . . فإذا انتشر الكذب والباطل
فهو كالآل الذي يحدث في الجسد . . الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء
لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئاً أصابه مرض فتسجبه إليه بأسباب العافية .

إن أخطر الأمراض هي التي لا يصاحبها ألم ولا نحس بها إلا بعد أن يكون قد فات
وقت العلاج . . والحق دائماً غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حقين . . أما
الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل ، وبين حق وباطل . لأنه لا يوجد إلا حق واحد
أما الباطل فكثير . .

والمعارك بين الحق والباطل تنتهى بهزيمة الباطل بسرعة . . ولكن الذي يطول هو
معركة بين باطلين . . ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعب الدنيا . .
فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلاً لازالت آثارها ممتدة حتى الآن في الحرب الباردة
وغير ذلك من الحروب الصغيرة . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)^(١)

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ١٤٧

الحق من الله سبحانه وتعالى .. ومادام من الله فلا تكونن من الذين يشكون في أن الحق سينتصر .. ولكن الحق لا بد من قوة تحميه .. وكما يقول الشاعر :

السيف إن يزهى بجوهره

وليس يعمل إلا في يدي بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتار .. دون أن توجد اليد القوية التي ستضرب به .. ونحن غالباً نكون مضيعين للحق لأننا لا نوفر له القوة التي ينتصر بها .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .. الممتري هو الذي يشك في حدوث الشيء .. والشك معناه أنه ليست هناك نسبة تغلب على نسبة .. أي أن الاحتمالين متساويان .. ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله .. ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق .



﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَْبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٤٨﴾

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً . . ومن هنا فإن له الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن . . أن ينصر الحق أو ينصر الباطل . . أن يفعل الخير أو يفعل الشر . . كل هذه اختبارات شاء الله أن يعطيها للإنسان في الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل . . ولكن هذا لن يبقى إلى الأبد إن هذا الاختيار موجود في الحياة الدنيا .

ولكن بشرية الإنسان تنتهي ساعة الاحتضار فعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهوراً وليس مختاراً . . فهو لا يملك شيئاً لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن . . انتهت بشريته وسيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه . . ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها ، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان . . هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فإدام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر . . والذي يهديه الله يتجه إلى الخيرات وكأنه يتسابق إليها . . لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلى خير كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله . . لأنه كما يقول عز وجل : « أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً » . . أي أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى بل هو يعرف أماكنكم جميعاً واحداً واحداً وسيأت بكم جميعاً مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ﴿١٧﴾

(سورة الكهف)

وقوله سبحانه :

﴿ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقينا أننا لا نستطيع أن نفر من علمه .
ولا من قدره ولا من عذابه . . . وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى
الله . . . وأنه لا منجاة من الله إلا إليه . . . ولذلك لا يقن كافر أو عاص أنه سيفلت
من الله . . . ولا يقن أنه لن يكون موجودا يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع
أن يخفى .

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من الله وأنهم لن
يلاقوه . . . تقول لهم إنكم ستفاجأون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق واللجنة
حق والنار حق . ستفاجأون بما سيحدث لكم . . . ومن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير
سيلقى الخزي والعذاب الأليم . . . إن الله ينصحننا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات
لتنجوا من عذابه ، ويقول لنا لن يفلت واحد منكم ولا ذرة من ذرات جسده من
الوقوف بين يدي الله للحساب . . . ولذلك ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : « إن
الله على كل شيء قدير » . . . أى أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء ولا يخرج عن
طاعته شيء . . . إنه سبحانه على كل شيء قدير .



﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١٢٩

لا بد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة . . أكدها ثلاث مرات متتالية . . لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في نفوس المؤمنين . . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيدا إيمانيا .

لقد جاء بثلاث آيات التي هي أقل الجمع . . واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد . . والثانية للمتجه وهو خارج المسجد . . والثالثة للمتجه من الجهات جميعا .

قوله تعالى : « وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . . هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام . . بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة . . على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها زيادة في التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن . . فالجهد الذي يبذله المؤمن في الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذي يبذله في الاتجاه إلى البيت الحرام . . فأنت إذا اتجهت في صلاتك يمينا أو شمالا أو شرقا أو غربا فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة. فما هو سبب التغيير ؟

نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك في تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية . . يقول المولى جل جلاله : « وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . . أى أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى . . والله عز وجل ليس غافلا عن عملكم بحيث تكونون قد انجهمتم إلى البيت الحرام. بل الله يعلم ما تبدون وما تكتمون . . فاطمئنوا انكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام . . واعلموا أن الله سبحانه محيط بكم في كل ما تعملون .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِثَلَاثَ كُؤْنَ
لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِي نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾ ١٥٠

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام .. سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة أو في أى مكان على الأرض .. وتلك هي قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذى يصلون فيه .

وقوله تعالى : « لثلاث يكون للناس عليكم حجة » .. الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى .. حجة فى ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس فاتجهوا إلى المسجد الحرام .. وليس لبيت المقدس قدسية فى ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية فى ذاته كما قلنا .. ولكن نحن نطيع الأمر من الأمر الأعلى وهو الله .. إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا .. فمن هو الظالم ؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهته أو ينقل الحق إلى باطل والباطل إلى حق .. والظلم هو تجاوز الحد وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه يقول سبحانه : « فلا تخشَوْهم » أى لا تخشوا الذين ظلموا : « واخشونى ولآتى نِعْمَتى عليكم ولعلكم تهتدون » .. أى أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشراً .. لأنه يعلم أن القوة لله جميعاً .. ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحداً إلا الحق .

وقوله سبحانه : « ولآتى نِعْمَتى عليكم ولعلكم تهتدون » .. تمام النعمة هو

الإيمان. وتتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . . فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من تمام نعمه علينا . ولكي يكون الإيمان صحيحا ومقبولا فلا بد أن أؤدي مطالبه والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف ينقطع . لأن التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بعشق . . وأنت حينما تأتى إلى المنهج قد يكون شاقا ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة فإنك ستخشع وتعشق التكليف . . لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل في المعصية بعقابه . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١١١﴾﴾

(سورة البقرة)

إذن الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب ، لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشفقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذي يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . . فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان . . ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وكان ذلك إخبارا بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت . . ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك لقد عم الفساد والله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . كأنه يحكم بأن هذا في وسعه وهذا ليس في وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . . نقول له أكلف الله أم لم يكلف ، إن كان قد كلف فيكون التكليف في وسعك . . لأنه سبحانه حين يجهد مشقة يأمر بالتخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حدد ما في وسعك .

قوله تعالى : « ولعلكم تهتدون » .. الهداية هي الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هي أن تصل إلى نعيم الآخرة .. الله أعطاك في الدنيا الأسباب لتحكم حركة حياتك ولكن هذه ليست غاية الحياة .. بل الغاية أن نذهب إلى حياة بلا أسباب وهذه هي عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى .. والله جل جلاله يأتي ليعلمنا في الآخرة انه خلقنا لنعيش في الدنيا بالأسباب وفي الآخرة لنعيش في كنفه بلا أسباب .

إذن قوله تعالى : « ولعلكم تهتدون » .. أي لعلكم تتبهنون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم .. ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هي الغاية أو هي النهاية أو هي الهدف .. فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له .. نقول لا ، إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة. ولعرف أن نعيم الآخرة الذي لا يفوته ولا يفوتك .. يجب أن يكون هدفنا في الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب في الجنة .



﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ
 آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٥١

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلى منهجه وإلى طريقه . حدثنا عن نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله-ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي ستأق على يديه قمة النعم وهو القرآن والدين الخاتم .

قوله تعالى : « رسولاً منكم » أى ليس من جنس آخر. ولكنه صلى الله عليه وسلم رسول منكم تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتى بالحجة . . لماذا ؟ لأنه معروف بالخلق العظيم وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يزيد الإنسان رفعة وعلوا واحتراما . . إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين يعرفونه أكثر من غيرهم . . كأبي بكر الصديق وزوجته صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة وابن عمه على بن أبى طالب . . هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة . . فهم لم يعرفوا عنه كذبا قط. فقالوا إن الذى لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا . . فالله سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه ربه . . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
 رَحِيمٌ ﴾

الحق سبحانه يقول : « يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم » .. الآيات هي القرآن الكريم والتزكية هي التطهير ولا بد أن يكون هناك دنس ليظهرهم منه .. فطهرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا .. ومعنى التزكية أيضا سلب الضر فكانه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

وقوله تعالى : « ويعلمكم الكتاب والحكمة » .. الكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم والحكمة هي وضع الشيء في موضعه .. والكتاب يعطيك التكليف إما أن يأمرك بشيء وإما أن ينهك عن شيء .

إذن فهي دائرة بين الفعل والترك .. والحكمة أن تفعل الفعل الذي يحقق لك خيرا ويمنع عنك الشر . وهي مأخوذة من الحكمة أو الحديدة التي توضع في فم الجواد لتحكم حركته في السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تزدى الغرض منها والحكمة أيضا هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الاحزاب)

وقوله سبحانه : « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » لأنكم أمة أمية . فإن بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونها بالإشعاعات الإيمانية التي تجعلكم متفوقين عليهم .. فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض .. لذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما عمر لولا الإسلام .



﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ ١٥٢

قوله تعالى : « فاذكروني » أي كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها . .
أن تعيشوا دائماً في ذكر من أنعم عليكم . . قاله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر
وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم . . والله سبحانه وتعالى يقول في
حديث قدسي :

[أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في
نفسي ، وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منه ، وأن تقرب إلى بشير تقربت إليه
ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة ^(١) .

هذه هي رغبة الكريم في أن يعطى بشرط أن نكون أهلاً للمعطاء لأنه يريد أن يعطيك
أكثر وأكثر . . فقله تعالى : « اذكروني » أي اذكروا الله في كل شيء . في نعمه . في
عطائه . في ستره . في رحمته . في توبته . يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن
حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسمه ثلاثاً . .
أول جرعة قل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وأبدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله
وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله . . ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختتمها بقولك
الحمد لله . فمادام هذا الماء في جوفك فلن تحدثك ذرة من حسنك بمعصية الله . جربها يوماً
في نفسك وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمد لله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد
استقبلت النعمة بذكر المنعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأغيت النعمة بحمد
الله . ولكن لماذا الماء ؟ لأن الماء في الجوف أشبع من أي شيء آخر .

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد في مسنده بالفاظ مختلفة .

قوله تعالى : « وأشكروا لى ولا تكفرون » الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

وشكر الله بذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب وتقول أوتيته على علم منى . « ولا تكفرون » أى لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائما على ألسنتكم . . فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت بقولك « ماشاء الله لا قوة إلا بالله » لا ترى فى النعمة مكروها أبدا لأنك حصنت النعمة بسياج المنعم . . أعطيت الله حقه فى نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدتها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك .



﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٢)

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة . . على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله . . على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة . . ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من الجزع من أى شيء يحدث وهو يأخذ ألوانا شتى حسب تسامى الناس فى العبادة .

فمثلا مثل الإمام على رضى الله عنه عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه ؟ قالوا نعم . . قال وأن تصبر على أذاه . . فكانه ليس مطلوباً منك فقط ألا تؤذى جارك بل تصبر على أذاه . . والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك الله عنه .

إن الله منعك من أشياء هى من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه محتاجة إلى الصبر . . وأنت أن أخذت منهج الله تعبداً ستأخذها فيما بعد عادة. يقول أحد الصالحين فى دعائه : اللهم إني أسألك ألا تكلنى إلى نفسى فإنى أخشى يارب ألا تشينى على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا . . أنظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محبة إلى النفس . . رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال ساعة الأذان :

(أرحنا بها يا بلال) .

ولم يقل كما يقول بعض الناس والعباد بالله أرحنا منها ؛ ذلك أن هناك من يقول



لك: أن الصلاة تكون على كنفى مثل الجبل وأرتاح ، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها . لأنك وقفت بين يدي الله المكلف ، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلا .

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتي ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه رب ورب العالمين . . الذي له أب يعينه لا يحملهما فإياك بالذي له رب يعينه وينصره .

قول الحق سبحانه : « إن الله مع الصابرين » أى أنه يطلب منك أن تواجه الحياة في معية الله ؛ فأنت لو واجهت المشكلات في معية من تتق في قوته تواجه الأمور بشجاعة فما بالك إذا كنت في معية الله وكل شيء في الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن الأحداث لا تملا الخلق بالفرع والهلح إلا ساعة الانقلاط من حضانة ربهم . . وإنما من يعيش في حضانة ربه لا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس . . ما معنى خناس ؟ إذا سهوت عن الله اجترأ عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف؛ فهو لا قوة له . . وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى في معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويتعدون عنه يقول القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة ص)

ومادام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلا بد أن نعشق الصبر . . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟ يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي :

[يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده] (١) ؟ يقول بعض الصالحين : اللهم إني أستحي أن أسألك الشفاء والعافية

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

حتى لا يكون ذلك زهدا في معيّن لك . . إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائما في معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : « إن الله مع الصابرين » . . ونحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائما . . إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقي في حركة حياته من المشقة .



﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة . . لا تهددهم في أموالهم فقط ولكن تهددهم في نفوسهم ، فأراد الله عز وجل أن يعطي المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث . . وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يهزم بعنف . . قال لهم إن المسألة قد تصل إلى القتل . . إلى الاستشهاد في سبيل الله. وأراد أن يطمئنهم بأن الشهادة هي أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها في الدنيا فقال سبحانه : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات » .

إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان . . فانت تصاب في مالك أو في ولدك أو في رزقك أو في صحتك ، أما أن تصاب في نفسك فتقتل فهذه هي المصيبة الكبرى . . والله سبحانه وتعالى سَمَّى الموت مصيبة. واقرأ قوله تعالى :

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة المائدة)

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذي يقتل في سبيل الله لا يموت . . وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى. يقول جل جلاله : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

ما هو مظهر الحياة التي يعيشونها ؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذي قتل في سبيل الله ما هي حركته ؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة . . لأنه سيذهب إلى حياة أسعد والموت ينقله إلى خير مما هو فيه . . فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئا وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها . . أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمي لهم منهج الله ليصل إليهم إلى أن تقوم الساعة .

إن كل الممارك التي يستشهد فيها المؤمنون إنما هي سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان في الوجود . . وعظمة الحياة ليست في أن نحرك أنا ولكن أن أجعل من بعدى يتحرك . . والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره في الوجود لكل حركة من متحرك بعده . . فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيمان دافعا لتقاتل وتستشهد . فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة . . أما الكافر فإن الحياة تنتهي عنده بالموت ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث الله الناس جميعا ثم يأن بالموت فيموت . . وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا موت إما في الجنة وإما في النار .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن من يقتل في سبيل الله هو حي عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة . . ولا يكتب عليه الموت في حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا . . ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها لأنها من حياة الآخرة . . وهي غيب عنا قال تبارك وتعالى : « ولكن لا تشعرون » . . ومادما لا نشعر بها فلا بد أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية .

الذي استشهد في عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه في عرف الله أخذ حياة جديدة . . ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه ميت أمامنا . . لا بد أن تنتبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والله سبحانه قال : « أحياء عند ربهم » ولم يقل أحياء في عالم الشهادة . . فهو حي مادام في عالم الغيب ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسدا في قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . . أما كيف ؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف . . لذلك لن نعرف وليس مطلوبنا منك أن نعرف .

إننا حين نجرى عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكي يفقده الوعي والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ يجرى العملية فلا يشعر المريض بشيء من الألم .

فالمادة لا تحس لأنها هي التي أجريت عليها العملية والجسد لازال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس .. ولكن النفس الواعية التي غابت هي التي تحس بالألم .

أنت عندما يكون هناك ألم في جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم فكأن الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعي .. فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة .. والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات .. فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « إنهم أحياء عند ربهم » .. فلا بد أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده .. والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم .

واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاجِلَها فَبَيْتِكَ الَّتِي ظَنَنْتَ عَلَيْهَا
الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فكأن الحق جل جلاله يعطي الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا في سبيله .. وما دام تعالى قال : « لا تشعرون » فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسك لأنك لن تدركها على أن الشهيد لا بد أن يقتل في سبيل الله وليس لأى غرض دنيوى .. وإنما لتكون كلمة الله هي العليا .

